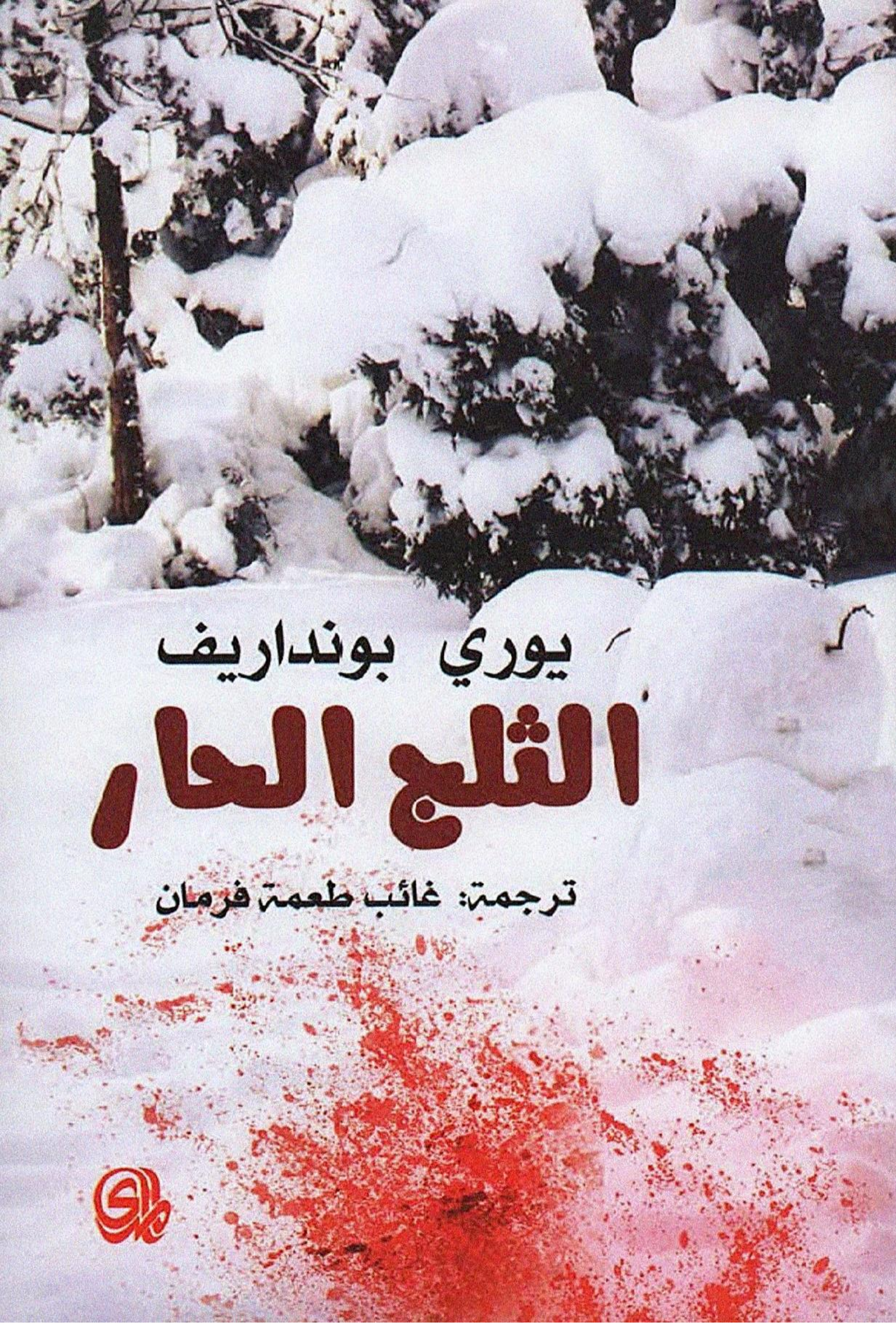


يوري بونداريف

الثلج الحار

ترجمة: غائب طعمة فرمان

رواية

المؤلف: يوري بونداريف
عنوان الكتاب: الثلج الحار
ترجمة: غالب طعمة فرمان
تصميم الغلاف: رولا ماجد
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: ٢٠١٤

Author: **Yori Bondarev**
Title: **Hot Snow**
Translator: **Gaeb Tohme Faraman**
Cover designed by: **Roula Majed**
P.C. : **Al-Mada**
First Edition: **2014**

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

يوري بونداريف

الثلج الحار

مقاتلون في سبيل وطنهم السوفييتي

ترجمة: غائب طعمة فرمان

المقدمة

بحث في الشجاعة

(حديث مع الكاتب)

إن تاريخ الإنسانية لم يعرف معركة يشابه نطاقها النطاق الذي اتخذته المعركة من أجل ستالينغراد التي استمرَّت ستة أشهر ونصفاً، من تموز ١٩٤٢ حتى شباط ١٩٤٣، فقد اشترك من كلا الجانبين في مرحلتها الأخيرة فقط، حين تحوّلت القوات السوفييتية من الدفاع إلى الهجوم، أكثر من مليوني شخص، و٢٦ ألف مدفع ورشاش، وأكثر من ألفي دبابة وألفي طائرة.

إنَّ تاريخ الإنسانية لم يعرف معركة أكثر ضراوة واراقة للدماء.

لو أن أحداً من الناس أحصى عدد القذائف والألغام والقنابل والطلقات، وعدّ ألوف الأطنان من المعدن المميت الذي أُلقي على أرض ستالينغراد المعذّبة الممزّقة المحروقة فإنه سيحصل بالتأكيد على أرقام فلكية. إن المدينة الكبيرة التي كان يعيش فيها قبل الحرب نصف مليون إنسان لم تعد تحوي على بيت واحد سليم، وأن أكثر من ٩٠ بالمائة من الأبنية قد سوّيت بالأرض في خلال المعارك.

ــ لماذا عدت، يا يوري فاسيليفيتش، إلى موضوع الحرب بعد ثلاثة كتب عن أوقات السلم؟

ــ الجواب عن هذا السؤال سهل وصعب. حتى الآن وقد كتبت عن

الحرب قصّتين طويلتين ورواية «الثلج الحار»، أرى مع ذلك أنني لم أقل عن الحرب إلا الشيء القليل...

لقد كانت الرغبة تراودني في أن أكتب كتاباً عن ستالينغراد منذ أن كنت في معهد الأدب حيث كنت أدرس في الحلقة الإبداعية تحت اشراف قسطنطين باوستوفسكي، الكاتب والمعلّم الرائع. ليس فقط لأنني كنت قد اشتركت في تلك المعارك، بل الأهم من ذلك لأن هذا التصادم الأكثر حدة في تلك الحرب، ذروتها، قد أتاح الكشف عن خلق شعبنا بأكثر ما يكون من الوضوح.

في قصتي الأولى والثانية عن الحرب: «الكتائب تطلب النار» و«الطلقات الأخيرة» حاولت أن أجد الملامح النموذجية لإنسان من جيلي، هو ضابط شاب تماماً، بدأ في سن مبكرة يحمل السلاح، ويقود الرجال، ويتحمّل مسؤولية حيوات أناس كثيرين. وفي رأيي أن المحور الرئيسي لقصة «الكتائب تطلب النار» هي قضيّة المسؤولية، أما محور قصة «الطلقات الأخيرة» فهو الخير والشر، الحب في الحرب.

ــ وبم تتميّز رواية «الثلج الحار» عن قصّتيك الأولى والثانية عن الحرب؟

ــ هو النظر إلى الأحداث من زوايا مختلفة، بعيون الناس الواقفين على درجات مختلفة من السلّم العسكري، ولهذا فهم يرون حوادث الحرب من نقاط مختلفة في الارتفاع، وبالتالي، في سعة الرؤية.

في الرواية أشخاص متنوعون ــ من القائد الأعلى إلى سائق في بطارية. قد يكون القراء قد تعودوا في كتاباتي الأولى على غياب قادة عسكريين من مراتب عليا كالجنرال بيسونوف على سبيل المثال. إن هذه الشخصية مفاجأة لهم، على ما أظن. ولكن لولا وجود بيسونوف

لأخفقت الرواية. فإنها عند ذلك ستكون قد فقدت شيئاً جوهرياً جداً، ليس فقط من أجل إظهار سعة الأحداث... ذلك لأن بيسونوف يقود الناس، ويتحمّل مسؤولية حيوات عشرات الألوف من الجنود، ويعرف ما هي الضحايا، وما هو الدم، ويعرف أن ما من معركة خاسرة أو ظافرة تخلو من خسائر. إن مثل هذا الإنسان ينبغي أن يضبط نفسه، ويخفي حنانه نحو الناس، وعمق مشاعره... إن هذه شجاعة أيضاً، شجاعة أخرى غير شجاعة الجندي، ولكنها لا تقل عنها سموا. وكانت لها أهمية كبيرة في إحراز النصر.

والملازم كوزنيتسوف في «الثلج الحار» قريب بمظهره الروحي من الأبطال الآخرين في قصتيّ عن الحرب. وهو في الوقت ذاته يختلف عنهم.

ــ لماذا يهمُّك معيار خلقي كالشجاعة أكثر من أي شيء آخر؟

ــ إن لكل كاتب موضوعه المحبَّب إليه في الإبداع، يعود إليه المرة بعد الأخرى طوال حياته. وأنا تهمّني مسألة الشجاعة الإنسانية، وتغلب الإنسان على شكوكه، والخوف. ذلك لأنّ تغلّباً على أنفسنا في الحرب كل ساعة وكل يوم إنما هو إظهار الشجاعة بالذات. والإنسان القادر على قهر شعور الخوف، مقتدر على اجتراء الشجاعة كل يوم. وأنا أرى في ذلك منبع البطولة. إن رواية «الثلج الحار» من حيث التصدي لموضوع الشجاعة هي شقيقة قصتيّ السابقتين عن الحرب...

ليس في مقدوري، وأنا أقدم للقرّاء أبطال قصتي، إلا أن أذكر بشعور الامتنان العميق أولئك المشاورين العسكريين الذين قدموا لي المساعدة مشكورين، واسدوا لي النصائح الثمينة أثناء عملي على هذه الرواية التي لا تستهدف، بالطبع، أن تكون الوثيقة المفضلة الوحيدة للأحداث

الحربية في منطقة ستالينغراد، وجنوب غربي ستالينغراد في كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٤٢.

ومؤلف الكتاب الذي قد شارك في الأحداث الموصوفة هنا يشير، بشكل عام، إلى عمليات جيش الحرس الثاني. ومع ذلك فإن هذه الرواية ليست ذكريات ولا مذكرات، ولهذا فإن أرقام التشكيلات والأفواج والوحدات موضوعة حسبما اتفق؛ وكذلك أسماء الشخصيات ما عدا القليل منها.

الفصل الأول

استيقظ كوزنيتسوف بسبب حالة الهدوء المفاجئ وغير العادي، وفي الحال، وهو ما يزال بين النوم واليقظة خطر في ذهنه أن القطار يقف، وأنهم سينزلون، و«لكن لماذا لم يوقظوني؟».

قفز من على الرف. كان الصباح باكراً زمهريرياً، والبرودة تتسرّب من باب العربة المفتوح على سعته.

كانت العربة المتثلّجة خالية كلياً. وعلى الرفوف قش مهشّم، وهرم من البنادق اللامعة لمعاناً محمراً، وعلى المصاطب صُرر الامتعة محلولة. وبالقرب من العربة كان ثمّة شخص يضرب قفازيه بفرقعة عاليه، بينما كان الثلج، وهو ينكسر تحت الأحذية اللبادية، يخشخش خشخشة قوية طرية في الصمت الجليدي المتصلّب.

ــ أين ستالينغراد، أيها الأخوان السلاف؟

ــ لا يبدو أننا سننزل؟ لم يصدر أمر بذلك. سيكون لنا وقت لتناول شيء من الطعام. لا بد أننا لم نصل بعد. ها هم جنودنا قادمون يحملون القصعات.

وقال صوت آخر فيه بحة ومرح:

ــ أوه، السماء صافية، وستأتي طائراتهم!... وقت مناسب جداً!

نفض كوزنيتسوف بقايا النعاس عن نفسه في الحال. وتقدم من باب العربة. كانت الأرض الثلجية المقفرة تتألق تحت الشمس ألقا باهراً جعله يقلص عينيه. وكان الهواء الزمهريري جارحاً جعله يغصّ.

كان القطار واقفاً وسط السهب. وقرب العرب تجمهر الجنود جماعات، على الثلج الذي رصته العاصفة الثلجية، يتدافعون بالمناكب منفعلين، ينشدون الدفء، ضاربين قفازاتهم على جنوبهم، ملتفتين بين الفينة والأخرى باتجاه واحد جميعاً.

وهناك، في وسط القطار، على رصيف المحطة، كانت المطابخ ترسل الدخان في الصباح الوردي الزجاجي، ومقابلها كان سطح مبنى المحطة الوحيد بلونه الأحمر يلوح رقيقاً وهو تحت الثلوج. وكان الجنود يتراكضون من العربات نحو المطابخ ومبنى المحطة حاملين القصعات. وكان الثلج حول المطابخ وحول شادوف البئر زحوماً بالمعاطف والأحذية العسكرية وكان يبدو وكأن القطار كله يمتاح الماء، ويتهيأ للفطور.

لم يكف الجنود عن التدافع والمراوحة عند رؤيتهم الملازم كوزنيتسوف، ولم يؤدوا التحية العسكرية. (فكر كوزنيتسوف مع نفسه: إنهم اعتادوا ذلك، الشياطين!) واكتفوا بقطع الحديث لحظة. كان الثلج مثل نثار فضي يلوّن حواجبهم، وأذينات قبعاتهم الفرائية، وياقات معاطفهم المرفوعة. قال الرقيب نيتشايف مسدد المدفع الاول، وهو رجل مديد القامة، بادي النحافة، من بحارة الشرق الأقصى، متميز بخيلان مخملية، وفودين ماثلين على وجنتيه، وشاربين أسودين:

ــ أيّها الرفيق الملازم، أمرنا بأن لا نوقظك، وقد قال أوخانوف إنك كنت في الخفارة الليلية. لم تعلن حالة الاستعداد بعد.

فسأل كوزنيتسوف، وهو ما يزال مقلّصاً عينيه من انعكاس الشمس على أكوام الثلج:

ــ وأين دروزدوفسكي؟

أجاب نيتشايف غامزاً:

ــ يهندم نفسه، أيها الرفيق الملازم.

وقد رأى كوزنيتسوف آمر البطارية دروزدوفسكي على بعد حوالى عشرين متراً من العربة. إن هذا الرجل، منذ أن كان في المدرسة الحربية، كان يتميز عن الآخرين، بهيئته العسكرية التي كأنما ولدت معه، بالمهابة المرتسمة على وجهه الشاحب الرقيق، فكان أحسن طالب حربي في الكتيبة، ومحبوب جميع أمراء الصفوف. أما الآن، فقد كان يقف بالقرب من تل ثلجي عارياً إلى الوسط، يحرك، على مرأى من الجنود، عضلاته القوية الشبيهة بعضلات رياضي، منحنياً فاركاً جسمه بالثلج بصمت وحيوية. وكان بخار خفيف يخرج من جذعه اللدن الفتيّ، ومن كتفيه، وصدره الصافي الأملس، ومن بطنه المستوي. وكانت طريقته هذه في الاغتسال والفرك بحفنات الثلج تكشف عن شيء عنيد على نحو تظاهري.

قال كوزنيتسوف عن جد:

ــ حسناً ما يفعل.

إلا أنه، وهو يعرف أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، خلع قبّعته، وحشرها في جيب معطفه وفكّ ياقته، وابتعد عن العربة، واختطف من قمة كومة ثلج حفنة خشنة الحبات منه، وتثلج بها، وفرك وجنيته وذقنه إلى حد الألم.

سمع كوزنستسوف صوت نيتشايف المبتهج على نحو مبالغ به وهو يقول:

ـــ أية مفاجأة! هل أنت قادمة إلينا؟ كم نحن سعداء في رؤيتك! إننا نحييك باسم البطارية كلها، يا زويا!

التفت كوزنيتسوف فرأى زويا يلاغينا المشرفة الصحية على البطارية تقف قرب العربة بين الجنود المبتسمين، وهي ترتدي معطفاً فرائياً أبيض غنجا، وحذاء لبّاديا أبيض متقن الصنع، وقفازين أبيضين مطرَّزين، في هيئة غير عسكرية مطلقاً، نظيفة بكامل قيافها وكأنها في عيد، شتائية الملبس، كأنها قادمة من عالم آخر هادئ بعيد. نظرت زويا إلى دروزدوفسكي بعينين حادتين متماسكتين من الضحك. بينما مضى هو في رياضته، دون أن يلحظها، حانياً ورافعاً جذعه بحركات متمرنة، يفرك جسمه القوي المتورد بالثلج سريعاً، ضارباً براحتيه كتفيه، وبطنه، زافراً الهواء، ومالئاً به صدره بحركة مسرحية قليلاً والآن، كان الجميع ينظرون إليه بنفس التعبير المرتسم في عيني زويا. هتفت زويا بصوت صادح:

ـــ أيّها الملازم! هل لي أن أسألك: متى ستنتهي من تمارينك؟ كنت أريد أن أتحدث إليك.

نفض الملازم دروزدوفسكي الثلج عنه صدره، وفكَّ الفوطة الملفوفة حول خصره، فعل رجل مستاء من مضايقة الناس له، وقال عن كره:

ـــ تحدثيّ!

ـــ صباح الخير، أيّها الرفيق قائد البطارية!

قالت زويا ذلك، فرأى كوزنيتسوف، وهو يمسح وجهه، الاختلاجة

الخفيفة التي سرت في طرفي حاجبيها المريّشين بالثلج. تابعت زويا قولها:

ــ أنا بحاجة إليك. هل تستطيع بطاريتك أن تبدي لي اهتماماً؟

ألقى دروزدوفسكي الفوطة حول رقبته، بلا عجالة، وتقدم نحو العربة. لمعت كتفاه المغسولتان بالثلج، وكأنه خارج من حمام، وكان شعره القشى القصير رطباً. سار ناظراً بأبهة إلى الجنود المتجمهرين قرب العربة بعينين لاحتاً في تلك اللحظة أشد أزرقاقاً، وأقرب إلى الشفافية. وقال، أثناء سيره، في غير اهتمام:

ــ أنا فاهم، أيّتها المشرفة الصحية، هل جئت إلى البطارية للقيام بالفحص حسب النظام الثامن؟ لأخبرك إذاً أنه لا يوجد قمل عندنا.

وانضم الرقيب نيتشايف إلى الحديث قائلاً، وهو يلقي نظرة ناعمة على معطف زويا الفرائي النظيف الأنيق، ومحفظتها الصحية المتدلية على ردفها:

ــ يا عزيزتي زويا! في بطاريتنا كل شيء على ما يرام تماماً. لن تجدي حشرات ضارة حتى في وضح النهار... ليس هذا مكانها.... كيف نمت البارحة؟ هل ضايقك أحد؟

فقاطعه دروزدوفسكي قائلاً:

ــ أنت كثير الكلام، يا نيتشايف!

ومرّ بزويا، وصعد الدرجات الحديدية إلى العربة المكتظة بالجنود العائدين لتوهم من المطبخ، والمتهيّجين في انتظار الفطور، حاملين قصعات الحساء المتصاعد منها البخار، وثلاثة أكياس للحوائج مملوءة بالبقسماط وأرغفة الخبز. كان الجنود يفرشون على الرفوف السفلي معاطف بعضهم، متهيئين لتقطيع الخبز عليها. وكانت الوجوه التي

كمشها البرد مستغرقة استغراق ربة بيت في أعمالها المنزلية. ارتدى دروزدوفسكي قميصه العسكري، وسوّاه على جسده، وأوعز:

ــ هدوء! ألا يجوز بلا هرج ومرج؟ أمراء المدافع، أعيدوا النظام! لماذا أنت واقف هناك، أيها الرقيب نيتشايف؟ تعهّد بالأرزاق، أنت خبير بالتوزيع، كما يبدو! أما المشرفة الصحية فسيسوّى شأنها بدونك.

أشار الرقيب نيتشايف لزويا برأسه معتذراً، وصعد إلى العربة، وصدر صوته من هناك:

ــ كفوا عن الفوضى! لماذا تضجون ضجيج الدبابات؟

شعر كوزنيتسوف بالحرج من هذه الأوامر، ومن رؤية زويا لهذه الضوضاء التي يحدثها الجنود وهم يقومون بتقسيم الأرزاق، ولا يعيرونها التفاتاً. فهمّ أن يقول لها بنبرة خبيثة تفزعه هو نفسه: «لا حاجة لك، في الواقع، إلى أن تقومي بالتفتيش في فصائلنا. ولكن لطيف جداً أنك جئت إلينا».

وما كان في وسعه أن يعلل لنفسه هو، تعليلاً كاملاً، السبب الذي كان يدفع جميع من في البطارية إلى أن يستعملوا، كلما ظهرت زويا عندهم، هذه اللهجة الكريهة الخبيثة التي كانت تستبدّ به الآن، اللهجة غير المبالية لهجة المداعبة والتلميح المخفي، وكأن مجيئها كان يكشف عن غيرة لكل واحد منهم شيئاً ما، وكأنهم كانوا يقرأون على وجهها الناعس قليلاً، وأحياناً في الظلال تحت عينيها، وفي شفتيها شيئاً واعداً فاضحاً خفياً، ربما قد يقع لها مع الأطباء الشبان في عربة الصحة التي تقضي فيها أغلب أوقاتها أثناء السفر. غير أن كوزنيتسوف كان يخمن أنها عند كل وقفة لم تكن تأتي إلى البطارية لمجرد القيام بتفتيش صحي. فقد كان يبدو له أنها كانت تنشد لقاء مع دروزدوفسكي. قال كوزنيتسوف:

ـــ الأمور على ما يرام في بطاريتنا، يا زويا. ولا حاجة إلى أية فحوص. ولا سيما عند الفطور.

هزّت زويا كتفيها:

ـــ أيّة عربة خاصة هذه! خالية من كل شكوى. لا تتظاهر بالسذاجة، فإنّها لا تلائمك ـــ قالت زويا ذلك بعد أن فحصت كوزنيتسوف برمشة من أهدابها، وابتسمت بغرابة قائلة: اعتقد أن ملازمك المحبوب دروزدوفسكي بعد تلك التمارين المريبة سيجد نفسه في المستشفى، لا في خط القتال!

رد كوزنيتسوف عليها:

ـــ أولاً: إنه ليس محبوبي، وثانياً...

ـــ شكراً، يا كوزنيتسوف، على الصراحة، وثانياً؟ ماذا تظن بي، ثانياً؟

قفز الملازم دروزدوفسكي إلى الثلج بخفة، وقد ارتدى ملابسه، وشدّ معطفه بحزام تدلّى منه قراب مسدس جديد، ونظر إلى كوزنيتسوف وإلى زويا، وقال متباطئاً بكلامه:

ـــ هل تريدين أن تقولي، أيّتها المشرفة الصحية، أنني أشبه من يجرح نفسه بنفسه؟

دفعت زويا رأسها إلى الوراء بتحدٍّ:

ـــ ربما... وعلى أقل تقدير احتمال ذلك غير مستبعد.

فصرح دروزدوفسكي يلهجة حازمة:

ـــ هكذا، ولكنك لست مرشدة صف، ولست أنا تلميذاً. أرجو أن

تعودي إلى عربة الصحة. هل هذا واضح؟ أيها الملازم كوزنيتسوف إلزم مكاني، أنا ذاهب إلى قائد الكتيبة.

رفع دروزدوفسكي يده إلى صدغه، ووجه جامد، وسار بمشية مطواعة مرنة، مشية جندي حسن التدريب، ملفوف القوام بالأحزمة الجديدة. ومرّ بالجنود المتحركين قرب العربة بحيوية. فتراجعوا أمامه، وصمتوا لمجرد رؤيتهم له، وكأنه كان ينحّي الجميع عن طريقه بنظرته، وفي الوقت ذاته كان يرد التحيات بحركة قصيرة مهملة من يده. كانت الشمس تطل على بياض السهب الناصع محاطة بلألاء الجمد القزحية. وكان حشد الجنود الكثيف يتحلق حول البئر، كما كان من قبل، ثم لا يلبث حتى يتفرق. لقد كان الجنود يمتاحون الماء، ويغتسلون خالعين القبعات، شاهقين متصايحين، ثم يعودون راكضين إلى المطابخ الداخنة بإغراء وسط القطار، متحاشين للحيطة، جماعة أمراء الكتيبة قرب عربة الركاب المغطاة بطبقة من الجمد.

وإلى هذه الجماعة كان يتجه دروزدوفسكي.

رأى كوزنيتسوف تعبير العجز الذي ارتسم على وجه زويا، وهي تراقب دروزدوفسكي بعينيها المفتوحتين على سعة، المحولّتين قليلاً. سألها»:

ــ ربما ترغبين في الافطار معنا؟

فتساءلت دون اهتمام:

ــ ماذا؟

ــ تفطرين معنا. أظن أنك لم تتناولي فطورك بعد. وهنا صاح نيتشايف من باب العربة:

ــ أيّها الرفيق الملازم، سيبرد الطعام! نحن بانتظارك! عندنا حساء الحمص الكثيف ــ وغرف ملعقة من القصعة، ولطع شاربيه وقال مضيفاً: ــ لو أكلته دون أن تغص به يكتب لك الخلود!

كان الجنود يضجون وراءه، متناولين حصتهم من على المعطف المفروش، بعضهم بتكشيرة الرضى، والبعض الآخر كان يجلس على الرفوف مدمدماً، مغترفاً بالملاعق من القصعات، غارزا أسنانه في قطع الخبز الأسود الذي أصابه الجمد. والآن، لم يعد أحد يلتفت إلى زويا.

نادى كوزنيتسوف:

ــ يا تشيبيسوف! قدم قصعتي إلى المشرفة الصحية!

فرد هذا من العربة بصوت صادح:

ــ الأخت الممرضة! ما هذا القول؟ صحبتنا، يمكن أن نقول، مرحة.

قالت زويا ساهية:

ــ نعم... حسناً.... ربما... بالطبع، يا ملازم كوزنيتسوف. أنا لم أتناول فطوري... ولكن لماذا قصعتك؟ وأنت؟

ــ سأتناول فطوري فيما بعد. لن أظلّ جائعاً.

ردّ عليها كوزنيتسوف بشهامة الفرسان عارفاً أنه سيخسر طعامه.

تقدم تشيبيسوف نحو باب العربة بحركة عجلى، وأخرج من ياقته المرفوعة وجهه الصغير الأسود غير الحليق، بسرور مفرط، كما في لعبة للأطفال، وأومأ لزويا بتعاطف لطيف، ضئيل الجسم، بمعطفه القصير الفضفاض عليه:

ــ ادخلي، يا أخت، ولا ترددي!...

قالت زويا لكوزنيتسوف:

ــ سآكل قليلاً من قصعتك، ولكن معك، وإلا فلا...

كان الجنود يتناولون فطورهم بترشف وتمطّق، وبعد الملاعق الأولى من الحساء الدافئ، والجرعات الاولى من الماء المغلي المحلّى بالسكر عادوا يتطلعون إلى زويا بنظرات متسائلة. فكّت زويا ياقة المعطف الفرائي الجديد، حتى برز جيدها الأبيض، وراحت تأكل من قصعة كوزنيتسوف بحذر، بعد أن وضعتها على ركبتيها، مخفضة عينيها تحت النظرات الموجهة إليها.

أخذ كوزنيتسوف يأكل معها، محاولاً أن يغضّ طرفه فلا يرى كيف كانت ترفع الملعقة إلى شفتيها بأناقة، وكيف كانت حنجرتها تتحرك عند ابتلاع اللقمة. كانت رموشها المسبلة رطبة من ذوبان الثلج عليها، متلزجة، سوداء، تخفي لمعان عينيها النامتين عن انفعالها. شعرت زويا بالحرارة، وهي بالقرب من الموقد المشتعل، فخلعت قبعتها الفرائية وتناثر شعرها الكستنائي على فراء ياقتها الأبيض. وإذا هي، حاسرة الرأس، تبدو مسكينة بلا حماية، بارزة الوجنتين، كبيرة الفم، بوجهها الطفولي المتوتر، بل والخائف، الذي بدا غريباً بين وجوه الجنود العرقة المحمرَّة من الطعام، ولأول مرة رأى كوزنيتسوف أنها ليست جميلة. فلم يكن قد رآها حاسرة الرأس من قبل.

ــ في منتزه تشاير تتفتح الورود، في منتزه تشاير يهِلّ الربيع(١)....

غنّى الرقيب نيتشايف هذا المقطع بصوت خافت وقد وقف عند رف فارجاً ساقيه، لافاً لنفسه سيكارة بعد الشاي، وهو ينظر إلى

---

(١) بداية أغنية كانت شائعة في سنوات ما قبل الحرب ــ المعرب.

زويا بابتسامة غزلة، بينما صبّ تشيبيسوف لها قدحاً مملوءاً إلى حافته بالشاي، زيادة في الرعاية، وقدمه لها. فتناولت القدح الحار بأطراف أصابعها، وقالت بارتباك:

ــ شكراً يا تشيبيسوف ــ ثم رفعت عينيها النديتين اللامعتين إلى نيتشايف وقالت/ ــ قل لي، يا رقيب، أي منتزه هذا، وأية ورود؟ أنا لا أفهم لماذا تردد هذه الأغنية دائماً؟

تململ الجنود في أماكنهم، وحثُّوا نيتشايف مشجعين إياه:

ــ قلْ، قل، أيها الرقيب. سؤال مطروح. من أين لك هذه الأغاني؟

أجاب نيتشايف كالحالم:

ــ من فلاديفوستوك. وساحة الرقص على الساحل أثناء الإجازة و«في منتزه تشاير...». خدمت ثلاثة أعوام على رقصة التانغو هذه. في وسعك أن تثقي يا زويا، أية فتيات جميلات في فلاديفوستوك. حوريات، راقصات باليه! سأظل أتذكر طول عمري!

وعدّل بكلة البحّار، وأومأ وكأنه يعانق واحدة أثناء الرقص، وخطا خطوة وهزّ ردفيه، وغنّى:

ــ في منتزه تشاير يهل الربيع... وأحلم بضفائرك الذهبية.... ترام ــ با ــ با ــ بي ــ با ــ بي...

ضحكت زويا ضحكة مصطنعة:

ــ ضفائر ذهبية... ورود.... كفى كلمات مبتذلة، يا رقيب... ملكات، وراقصات باليه.. هل رأيت حورية في حياتك؟

قال نيتشايف بجرأة:

ــ فيك، كلمة شرف. إنَّ لك قوام الملكات.

وغمز للجنود.

وفكر كوزنيتسوف مع نفسه: «لماذا يضحك منها؟ لماذا لم ألحظ من قبل أنها غير جميلة بهذا الشكل؟».

ــ لولا الحرب، آه، لا تبخسي قدري، لولا الحرب لخطفتك في جنح الليل. وحملتك في سيارة تاكسي إلى مكان ما، ولجلست في أحد فنادق الضواحي عند قدميك، في يدي زجاجة شمبانيا، وكأنني في حضرة حورية... عندئذ تباً لكل الناس! هل كنت توافقين؟

قالت زويا بعد أن هدأ ضحك الجنود:

ــ في سيارة تاكسي؟ هذا شيء رومانتيكي.. لم يقع لي أبداً.

ــ لو كنت معي لوقع كل شيء...

قال الرقيب نيتشايف كل ذلك في شبه مزاح ملتهماً زويا بعينيه البنيتين، إلا أن كوزنيتسوف أحس في كلماته شيئاً فاجراً، فقاطعه في الحال بصرامة:

ــ كفى هراء، يا نيتشايف! ثرثرة فارغة! ما علاقة الفندق هنا؟ بذاءة! اشربي الشاي، يا زويا، أرجوك.

ــ يا لكم من مضحكين.

قالت زويا ذلك، وبدا وكأن ظلاً من الألم انعكس في الغضن الخفيف على جبينها الأبيض، ولم يختف غضن التكدر هذا الذي بدا عارضاً على البشرة البيضاء، ولم ينبسط. وضعت زويا قدح الشاي على الموقد، وسألت كوزنيتسوف بجسارة معتمدة:

ــ لماذا تنظر إليّ بهذا الشكل؟ ماذا تبحث في وجهي؟ لطخه سخام من الموقد؟ أم أنت مثل نيتشايف، تذكرت بعض الملكات الشنيعات؟

أجاب كوزنيتسوف متعبساً ليخفي الحرج من مثل هذا السؤال غير المتوقع:

ــ قرأت عن الملكات في كتب الأطفال فقط، و لم أرَهُن في حياتي، فعادت زويا تقول:

ــــ أنتم مضحكون جميعاً.

سألها نيتشايف:

ــ كم تبلغين من العمر؟ ــ ثم قال مخمناً: ــــ ثمانية عشرة؟ يعني مثلما يقال عندنا في البحرية نزلت إلى بحر الحياة عام ١٩٢٤؟ أنا أكبر منك بأربعة أعوام، يا زويا. وهذا فرق كبير.

قالت وقد ابتسمت هذه المرة:

ــ لم تحزر، عمري ثلاثون عاماً، أيها الرفيق البحري. ثلاثون عاماً وثلاثة أشهر.

طبع الرقيب نيتشايف امارة الدهشة القصوى على وجهه الأسمر ذي الخيلان البنية، وقال بنبرة التلميح اللعوب:

ــــ اترغبين بهذه القوة أن تكوني في الثلاثين؟ عندئذ كم عمر أمك؟ هل هي تشهبك؟ اسمحي لي بأخذ عنوانها ــ وهنا ارتفع شارباه الضئيلان في ابتسامة، وانفرجا فوق أسنانه البيضاء، وقال: ــ سأكاتبها من الجبهة، ونتبادل صورتينا.

وشقّت زويا بنظرة مشمئزة قوام نيتشايف المديد النحيل، وقالت وبصوتها اهتزاز:

ــــ ما أكثر ما حشتك حلبات الرقص بالسخافات! هل تريد عنوانها؟ تفضل! مدينة بيريميشل، مقبرة البلدية الثانية. هل ستكتبه أم تحفظه في

ذاكرتك؟ بعد عام [٢] ١٩٤١ أصبحت يتيمة الأبوين ــ اكملت زويا كلامها بلهجة قاسية ــ ولكن، اعلم، يا نيتشايف، أن لي زوجاً... يا ربي، لماذا تنظرون إليّ هكذا؟ إن ما أقوله حق، يا أعزائي، حق! إن لي زوجاً...

وران صمت. وكف الجنود عن الأكل، بعد أن استمعوا إلى الحديث، وتخلوا الآن عن التشجيع المتعاطف مع هذه اللعبة العابثة التي لعبها نيتشايف، والتفتوا جميعاً إلى زويا. نظر الرقيب نيتشايف، وهو يمصّ سيكارته، إلى وجه زويا بتشكك غيور، وكانت زويا تجلس مطرقة بعينيها. وسأل:

ــ ومن هو زوجك، إذا لم يكن هذا سراً؟ ربما هو آمر فوج؟ أم، كما يشاع عندنا، إنك معجبة بملازمنا دروزدوفسكي؟

وفكر كوزنيتسوف في نفسه متشككاً أيضاً بكلامها: «إن ذلك غير صحيح، بالطبع. لفّقت كل ذلك الأمر إنها ليست متزوجة، ولا يمكن أن تكون».

قال كوزنيتسوف:

ــ كفى، يا نيتشايف! كفّ عن طرح الأسئلة السخيفة! أنت تبدو مثل اسطوانة غرامفون تالفة! ألا تلاحظ ذلك؟

ونهض، وابتعد عن زويا، وطوّف بصره في العربة، وفي هرم البنادق، والرشاشة اليدوية بالقرب من الهرم.

ــ شكراً على الضيافة، يا رجال البطارية الأولى!

---

(٢) عام هجوم الجيوش الهتلرية على الاتحاد السوفييتي. المعرب.

قالت زويا ذلك، وهزّت شعرها مبتسمة، بعد أن فكت تقطيبة حاجبيها فوق قصبة أنفها، ولبست قبعتها الجديدة المؤطّرة بفراء الأرانب، وعدّلت شعرها تحت القبعة، وأضافت: ــ القاطرة تقترب. هل تسمعون صوتها؟

صدر صوت من الرف الأعلى:

ــ الوقفة الأخيرة قبل الخط الأمامي، وبعد ذلك إلى المبارزة يا ألمان!

وضحك صاحب الصوت ضحكة غير لطيفة.

قال نيتشايف:

ــ لا تتركينا، يا زويا، بحق الرب! ابقي في عربتنا. ما حاجتك إلى الزوج؟ ما حاجتك إليه في الحرب؟

فعاد الصوت الذي صدر من الرف الأعلى يقول في بحة المدخن:

ــ يبدو أنهم يرسلون قاطرتين. سيسرعون بنا الآن. الوقفة الأخيرة ثم ستالينغراد...

ــ ربما ليست الأخيرة؟ ربما، الجبهة هنا؟

قال كوزنيتسوف:

ــ ليت ذلك يتم بسرعة!

ــ أية قاطرة هذه؟ هل جنّوا!

أعلن ذلك المسدد بفستيغنييف، الرقيب المسن الذي كان يشرب الشاي من القدح بوقار، ووثب بقفزة واحدة، وأطل من باب العربة.

صاح كوزنيتسوف:

ــ ماذا هناك، يا يفستيغنييف؟ أمر؟

والتفت ورأى رأس يفستيغنييف الكبير المرفوع، وعينيه الباحثتين في السماء بهلع، إلا أنه لم يسمع رداً.

انطلقت المدافع المضادة للطائرات في طرفي القطار.

وهتف شخص قافزاً من الرف:

ــ هيا، يا أخوان، اطلنا الوقوف حتى جاءت طائراتهم!

ــ هذه قاطرتك! بالقنابل...

وانضم إلى النباح المحموم للمدافع المضادة للطائرات رنين دقيق مقترب، ثم شقت الهواء فوق القطار اللعلعة المزدوجة للرشاشات. و لم يكن كوزنيتسوف قد وعى تماماً ما حدث حين اندفعت من السهب إلى العربة بعض الأصوات المحذرة: «غارة! طائرات «ميسير»!». رمى المسدد يفستيغنييف قدح الشاي على الرف، واندفع إلى هرم البنادق ودفع زويا التي كانت واقفة في باب العربة تنظر إلى السماء بعينين مدهوشتين، بينما كان الجنود في العربة يقفزون من الرفوف مختطفين البنادق من الهرم. وفي لمحة قصيرة مرّت في ذهن كوزنيتسوف فكرة: «هدوءاً! سأكون آخر من يخرج!» وأصدر أمره:

ــ أخرجوا من العربة جميعاً!

كان مدفعان مضادان للطائرات من مدافع القطار يدويان على قرب شديد، حتى أن ضرباتهما المتتابعة كانت ترنّ في الأذان. ثم عاد صوت المحركات المتلاحق بسرعة، ورشق الرشاشات ينثال من فوق بدربكة متقطعة، ويسري في سطح العربة.

اندفع كوزنيتسوف إلى باب العربة المفتوح، فرأى الجنود يقفزون إلى الثلج حاملين البنادق، ويتراكضون متناثرين في السهب الأبيض المشمس. قفز هو أيضاً من العربة، مستشعراً خفة باردة في بطنه، وببضع

وثبات بلغ كثيباً ثلجياً هائلاً لاح منحدره مشرباً بالزرقة، وسقط أثناء جريه قرب شخص، شاعراً على قفاه بازيز يخرق الهواء. تغلب بجهد على هذا الثقل الذي كان يشده إلى الثلج من قفاه، واستطاع أن يرفع رأسه.

كانت ثلاث طائرات من طراز «ميسيرشميت» تنقض على القطار من السماء الشتائية المتلألئة لألاءً بارداً أزرق.

كانت خطوط قاذف الرشاشات المضادة للطائرات تنطلق للقائها بلا انقطاع من طرفي القطار، وقد محت الشمس لونها. وكانت هذه القذائف تتناثر بالقرب من هذه الطائرات المنقضة بأجسامها الضيقة الطويلة إلى الأسفل انقضاضاً يزداد عمودية وهويا، مهتزة باللهب الحاد الأحمر المنطلق من الرشاشات والمدافع السريعة الطلقات.. كان قوس القزح الكثيف الذي تشكّله خطوط القذائف ينطلق إلى الأعلى بمحاذاة القطار الذي ما زال الناس يخرجون منه متراكضين.

توازت الطائرة الأولى فوق سطوح العربات تماماً، وانطلقت في خط أفقي على طول القطار. ومرقت الطائرتان الأخريان في أثرها.

وإلى الأمام، حيث القاطرة، اهتزَّ الهواء، وارتفع انفجار قنبلة، وتطاير نثار الثلج. وعادت الطائرات المغيرة تصعد في الجو في زاوية حادة، وتستدير في ناحية الشمس، وتنقضُّ ثانية على القطار.

ولمع في ذهن كوزنيتسوف: «إنهم يروننا جميعاً بشكل جيد. يجب فعل شيء ما!».

ــ نار! اطلقوا النار من البنادق على الطائرات!

ووقف على ركبتيه بعد أن أصدر هذا الأمر، وفي الحال لمح رأس

زويا في الجانب الآخر من كثيب الثلج، وحاجباها مائلان بشكل غريب، وعيناها الجامدتان مبحلقتان. صرخ بها:

ـــ زويا، إلى السهب! ازحفي بعيداً عن العربات!

إلا أنها كانت تعضُّ شفتيها صامتة، وتنظر باتجاهِ القطار حيث كان يحدث شيء ما. فنظر هو أيضاً إلى هناك. كان الملازم دروزدوفسكي يركض قرب العربات متوثباً عبر أكوام الثلج، بمعطفه الضيق الذي كأنه حيك على جسمه، وكان يصرخ لهم بشيء لم يكن مفهوماً. قفز دروزدوفسكي إلى باب عربته المفتوح، وعاد من هناك يحمل رشاشة يدوية، وقرص خراطيش. وركض مبتعداً عن القطار، حتى وقع على الثلج على بعد عشرة أمتار من كوزنيتسوف، وغرز قاعدة الرشاشة في رأس الكثيب الثلجي. ووضع القرص في القابض، واطلق رشقة طويلة على الطائرات التي كانت تنقض من السماء المتلألئة باصقة وهجاً أشعث.

أخذ الممر الناري المستقيم الذي ترسمه خطوط الرصاص، والمتصل بالأرض يقترب مثيراً الثلج. وأحس كوزنيتسوف في رأسه بفرقعة الطلقات المصممة، وبِدويِّ المحركات النافذ، وتتابعت في عينيه أطياف قزحية غريبة، كما في المشكال. وتطاير على وجهه نثار ثلجي أثارته طلقات الرشاشات من الكثيب الثلجي. وفي الأسوداد الهادر الذي غطّى الكثبان الثلجية لحظة واحدة تدحرجت الخراطيش الفارغة ذات العيارات الكبيرة، وتقافزت على الثلج. ولكن أكثر الأشياء إيهاماً، هو ان كوزنيتسوف استطاع أن يلمح في قبة الطائرة المندفعة نحو الأرض رأس الطيار البيضوي من تحت خوذته.

وخرجت الطائرات من حضيض انقضاضها على بعد بضعة أمتار

من الأرض مرسلة الدوي الحديدي لمحركاتها، وتوازت، ثم اسرعت متصاعدة مرة أخرى فوق السهب.

ـ فولوديا!... لا تنهض! انتظر!

سمع كوزنيتسوف هذه الصرخة على مسافة غير بعيدة عنه، وفي تلك اللحظة ذاتها رأى دروزدوفسكي يرمي القرص الفارغ محاولاً أن ينهض، إلا أن زويا طوقته متشبثة وضغطت بصدرها عليه ممسكة به قائلة:

ـ فولوديا! أرجوك!

ـ ألا ترين القرص قد فرغ؟

صاح دروزدوفسكي وقد تلوّى وجهه، ودفع زويا ملقياً إياها عنه قائلاً:

ـ لا تعيقيني! قلت لك لا تعيقيني!

أفلت من قبضتها، وركض إلى العربة، بينما بقيت هي منبطحة على الثلج مذهولة. عندئذ اقترب كوزنيتسوف منها، تماماً:

ـ ماذا؟ ماذا حدث للرشاشة؟

نظرت إليه، وقد تغيّر التعبير المرتسم على وجهها حالاً، وانقلب متحدّياً عن عمد وغير لطيف.

ـ ما هذا يا ملازم كوزنيتسوف؟ لماذا لا تطلق النار على الطائرات؟ خائف؟ و دروزدوفسكي وحده؟..

ـ من أين أطلق النار؟ من المسدس؟ هذا ما ترينه؟

ولم تجب.

انقضت الطائرات على مقدمة القطار، وحامت فوق القاطرة، حيث كان الدخان يتصاعد من عربتي بولمان. كانت ألسنة اللهب تبرز من الأبواب المفتوحة، وتصعد إلى السطح. وقد أثار الدخان المتصاعد هناك، والسطوح التي سرى فيها اللهب، والانقضاض الملحاح لطائرات «ميسيرشميت» في نفس كوزنيتسوف شعوراً حاداً بالعجز المقرف، حتى بدا له فجأة أن هذه الطائرات الثلاث لن تنصرف عنهم حتى تحطم القطار كله، وتشعل النار فيه.

وبدأ يوحي إلى نفسه: «لا، أن خراطيشها ستنفد الآن، سينتهي كل شيء الآن...»

إلا أن الطائرات استدارت، وعادت تطير بموازاة القطار على ارتفاع واطئ.

ــ إسعاف! يا ممرضة!

صدرت هذه الصيحة من ناحية العربتين المحترقتين، واندفعت بعض الشخوص إلى الأمام في فوضى، ساحبين شخصاً على الثلج.

ــ يدعونني!

قالت زويا، ونهضت، ونظرت إلى أبواب العربة المفتوحة، وإلى الرشاشة المغروسة في الكثيب الثلجي. ثم سألت:

ــ أين هو، يا كوزنيتسوف؟ أنا ذاهبة. قل له إنني هناك.

لم يكن له الحق في إيقافها. أمسكت حقيبتها وذهبت بخطى مسرعة، ثم ركضت في السهب باتجاه الحريق، واختفت بين كثبان الثلج.

ــ كوزنيتسوف!... أنت؟

ابتعد دروزدوفسكي عن العربة متوثباً، وسقط بالقرب من الرشاشة،

ودسّ في القابض قرص خراطيش جديداً. وكان وجهه الرقيق الشاحب مستدقاً.

ــ انظر، ماذا يفعل هؤلاء الأوباش! أين زويا؟

أجاب كوزنيتسوف، وغرس قاعدة الرشاشة في قشرة الثلج الخشنة لتكون أكثر ثباتاً:

ــ جرّح شخص في مقدمة القطار. ها هي الطائرات تُغير من جديد...

ــ أوغاد... اسألك: أين زويا؟

صاح دروزدوفسكي، ضاغطاً بكتفه على الرشاشة، وكلما ازدادت الطائرات من انخفاضها فوق السهب، واحدة تلو الأخرى، ازدادت عيناه ضيقاً، وجمّد بؤبؤاهما في زرقة السماء الشفافة مثل نقطتين سوداوين.

سكت المدفع المضاد للطائرات في نهاية القطار.

أطلق دروزدوفسكي رشقة طويلة على جسم الطائرة الأولى، الجسم المعدني المستطيل اللامع في الأعلى، ولم يرفع أصبعه عن زناد الاطلاق، حتى مرقت الطائرة الأخيرة بجسمها المستدقّ مثل نصل موسى باهر البريق.

هتف دروزدوفسكي مكتوم الصوت:

ــ أصبتها! هل رأيت، يا كوزنيتسوف؟ حقاً أصبتها! ولا يمكن إلا أن أصيبها.

كانت الطائرات الآن تحلّق بسرعة هائلة على ارتفاع عشرين متراً فوق الشهب، ممزقة الهواء برشاشاتها ذات العيار الكبير، حتى كأن الألسنة

النارية التي تكوّنها خطوط الرصاص تشكُّ بطرفها أجسام الناس المبطوحة على الثلج، وتقلّبهم في دوامات الثلج الدائرة. لم يحتمل بعض الجنود من البطارية المجاورة فيضان الرصاص المتساقط من الأعلى، فوثبوا واضطربوا تحت الطائرات، وتفرقوا في شتى الجهات. ثم سقط أحدهم، وزحف، وجمد في مكانه ماداً ذراعيه إلى الأمام. وركض آخر بخط متكسر، ناظراً بغرابة يميناً وشمالاً، ووابل الرصاص المنهمر من طائرة منقضة، ينوشه بانحراف، من الأعلى، نافذاً فيه، مثل سلك حام، وتدحرج الجندي على الثلج، مشمّراً ذراعيه، ثم جمُد أيضاً، وتصاعد دخان من سترته المبطنة بالقطن.

ـــ حماقة! حماقة! على أبواب الجبهة! ـــ صاح دروزدوفسكي، مخرجاً من القابض ثاني قرص خراطيش فارغ.

نهض كوزنيتسوف من ركعته على ركبتيه، وأصدر أمره باتجاه الجنود الزاحفين وراء كثبان الثلج.

ـــ لا تركضوا! ممنوع أن يركض أحد، استلقوا!

وفي الحال تردد في أذنيه أمره هذا، صوته، الذي اندفع في الصمت المطبق بأعلى قوته. ولم تلعلع الرشاشات، ولم يضغط على الرأس هدير الطائرات المنقضة. وأدرك أن كل شيء قد انتهى...

ابتعدت الطائرات بصفير رفيق ميممة شطر الجنوب الغربي، منغرسة في زرقة السماء الشتائية، وبرز من خلف الكثبان الثلجية الجنود الذين لم تعد إليهم ثقتهم بعد، نافضين الثلج عن معاطفهم، محدقين في العربتين المحترقتين في المقدمة، ثم ساروا ببطء إلى القطار، منظفين أسلحتهم من الثلج.

وصدر أمر من بعد:

ــ أجروا تعداداً للجنود! على كل بطارية أن تجري فحصاً!

وفي الحال أصدر دروزدوفسكي أمره:

ــ رؤساء الفصائل، صُفوا الجنود!

وهدر رئيس الرقباء غولوفانوف:

ــ فصيلة الإدارة، اصطفاف!

وأوعز كوزنيتسوف:

ــ الفصيلة الأولى، اصطفاف!

وصاح الملازم دافلاتيان بالطريقة التي تعلمها في المدرسة العسكرية:

ــ الفصيلة الثانية، في الصف!

أخذ الجنود أماكنهم دون تبادل الأحاديث على خلاف عادتهم، وهم ما زالوا مضطربين لم يعد لهم هدوءهم بعد زوال الخطر، نافضين ثيابهم، معدلين أحزمتهم، وأنظارهم متجهة جميعاً نحو الجهة الجنوبية من السماء، التي كانت في تلك الناحية الآن وضاءة صافية على نحو لا يصدق.

جمعت فصيلة بالكاد. أدار كوزنيتسوف بصره في حضائره، فوقع بصره في الحال على المسدد نيتشايف الذي كان منكمشاً في الجناح الأيمن، حيث كان يجب أن يقف آمر المدفع الأول الرقيب الأول أوخانوف الذي لم يكن موجوداً.

سأل كوزنيتسوف، وهو يتقدم من الصف قلقاً:

ــ أين أوخانوف؟ هل رأيته أثناء الغارة، يا نيتشايف؟

أجاب نيتشايف همساً:

ـــ أنا نفسي اتساءل، أيها الرفيق الملازم، أين يمكن أن يكون. قبيل الفطور ذهب إلى رئيس الرقباء. ربما ما يزال هناك...

تساءل كوزنيتسوف متشككاً: «حتى الآن هناك؟» ثم سار أمام الفصيلة، وسأل: «من رأى أوخانوف أثناء الغارة؟ هل رآه أحد؟».

تبادل الجنود النظرات بصمت، وهم منكمشون من البرد.

ومرة أخرى همس نيتشايف، مبدياً وجهاً معذباً:

ـــ أيها الرفيق الملازم، انظر! ربما هو هناك...

كان رذاذ ثلجي دقيق يرذ تحت الشمس، القطار الجسيم، والثلوج، ومبنى المحطة الصغير الغاطس في كثبان الثلج، كما كان قبل الغارة. بينما استمرت الحركة اللاغطة في المقدمة، بالقرب من عربتي البولمان المحترقتين، والعربات السليمة البيضاء من قشرة الجليد عليها، وكان رجال البطاريات يصطفُّون في كل مكان، ومرّ بهم جنديان يحملان على معطف شخصاً جريحاً أو قتيلاً.

قال كوزنيتسوف:

ـــ لا، ليس هذا أوخانوف، فقد كان يرتدي سترة مبطنة.

وارتفع صوت دروزدوفسكي الحاد:

ـــ الفصيلة الأولى! الملازم كوزنيتسوف! لماذا لا تعرض؟ ما الأمر؟ تقدم كوزنيتسوف خمس خطوات نحو دروزدوفسكي وهو يفكر كيف ينبغي أن يوضح غياب أوخانوف، ولكن، قبل أن يتسنى له تبليغ ذلك تساءل دروزدوفسكي مطالباً:

ـــ أين آمر المدفع أوخانوف؟ لا أراه في الصف؟ أنا أسألك أنت، يا آمر الفصيلة الأولى؟

ـــ في البداية يجب أن نعرف.... هل هو حي.

أجاب بذلك كوزنيتسوف، واقترب من دروزدوفسكي الذي كان ينتظر عرضه مستعداً للعمل. وفكر كوزنيتسوف: «يبدو من وجهه أنه قد لا يصدقني». وعاد إلى ذاكرته حزمه أثناء الغارة، ووجهه الشاحب المستدق حين دفع زويا، بعد أن أطلق على الطائرات قرصاً كاملاً من الخراطيش.

قال دروزدوفسكي:

ـــ ملازم كوزنيتسوف، هل سمحت له بالذهاب إلى جهة ما؟ لو كان قد جرح لكانت المشرفة الصحية يلاغينا قد بلّغت عن ذلك منذ وقت طويل. هذا ما أظنه!

فاعترض كوزنيتسوف قائلاً:

ـــ أما أنا فأظن أن أوخانوف قد تأخر عند رئيس الرقباء. وليس له جهة أخرى يمكن أن يذهب إليها.

ـــ أرسل أحداً إلى فصيلة التموين حالاً! ما الذي يبقيه هناك حتى الآن؟ يساعد الطباخ في إعداد العصيدة؟

ـــ أنا ذاهب بنفسي.

واستدار كوزنيتسوف. وسار بمحاذاة العربات صوب مطابخ الكتيبة.

عندما وصل إلى فصيلة التموين كانت بعض القدور ما تزال على النار على الرصيف، وأمامها السواق والكتاب والطباخ في هيئة اهتمام.

وكان رئيس رقباء البطارية سكوريك ذو الوجه النحيل، والعينين الخضراوين الوحشيتين المكتفتين أنفاً معكوفاً عن قرب، يروح ويجيء أمام الصف رخواً كالعصيدة، ويداه خلف ظهره، وقد ارتدى معطف رؤساء الوحدات الطويل، وحذاء لباديا جديداً، وكان بين الحين والآخر ينظر إلى عربة النوم التي تجمهر عندها كبار أمراء الوحدات، ورجال السكك الحديدية العسكريون، يتحدثون مع شخص من القيادة، وصل لتوّه إلى القطار، في سيارة طويلة مغنومة.

ــ استعد!

صاح سكوريك، وكأنما أحس ظهره بمقدم كوزنيتسوف، واستدار على عقبه استدارة دائرية، كراقص الباليه، ورفع يده إلى صدغه بالتحية العسكرية، وبسط أصابعه، وقال:

ــ أيها الرفيق الملازم، فصيلة التموين....

ــ استرح!

قال كوزنيتسوف، ونظر بعبوس إلى سكوريك الذي كشف بصوته عن درجة مرؤوسيته لرتبة الملازم غير العالية، وقال:

ــ هل الرقيب الأول أوخانوف عندكم؟

قال سكوريك متنبهاً مرتاباً:

ــ ولماذا، أيها الرفيق الملازم؟ كيف يمكن أن يكون هنا؟ أنا لا أسمح.... ما المسألة، أيها الرفيق الملازم؟ اختفى؟ يا للخبر! أين هو، أبو الرأس والأذنين؟

فأعاد كوزنيتسوف سؤاله صارماً:

ــ هل كان أوخانوف عندكم وقت الفطور؟ هل رأيته؟

بدا على وجه رئيس الرقباء النحيل المتمرس جهد التفكير، والدرجة المناسبة من المسؤولية والمشاركة فيما يحصل للبطارية.

فبدأ يتحدث بلياقة واتزان:

ــ أتذكَّر جيداً، أيها الرفيق الملازم، أن آمر المدفع أوخانوف تسلّم الفطور لطقمه بل وتشاتم مع الطباخ، على تحديد الحصة. وقد اضطررت أنا شخصياً أن ألفت نظره. إنه متسيب، وكأنه ليس بعسكري. إنهم على حق تماماً، أيها الرفيق الملازم، حين لم يمنحوه رتبة. متعجرف، وغير محتشم.... ربما ذهب إلى الضيعة، وراء المحطة، في الوهدة! ــ وفي الحال التزم الحشمة، وهمس: ــ أيها الرفيق الملازم، يبدو أن الجنرالات هنا، هل وصلوا لتفتيش البطاريات. إرفع تقريرك إذاً، حسب النظام...

سارت جماعة كبيرة من الناس من عربة النوم مارة بالبطاريات المصطفة بمحاذاة القطار، وحتى عن بعد عرف كوزنيتسوف من بين رجالها العقيد دييف قائد الفرقة، المديد القامة، المحزّم بأحزمة كتفيه متصالبة على صدره، المرتدي جزمة شتائية جديدة، وإلى جانبه سار جنرال غير معروف، نحيل، سريع الخطو، يعتمد على عصا صغيرة، تبرز فروته القصيرة السوداء (التي لم يرتد مثلها أحد في الفرقة) بين الفروات والمعاطف الأخرى.

إنه الفريق بيسونوف قائد الجيش.

سار يلاحق العقيد دييف. وهو لا يكاد يعرج، وكان يتوقف عند كل بطارية، ويستمع لبيان آمرها، ثم ينقل عصاه الخيزرانية الدقيقة من يده اليمنى إلى اليسرى ويرفع يده بالتحية، ويتابع تفتيشه. وعندما توقف قائد الجيش، والقادة المرافقون له عند العربة المجاورة سمع كوزنيتسوف فجأة صوت الجنرال العالي الحاد:

ــ أود وأنا أجيبكم عن سؤالكم أن أقول شيئاً واحداً هو أنهم كانوا يحاصرون ستالينغراد خلال أربعة أشهر، إلا أنهم لم يستولوا عليها. والآن شرعنا بالهجوم. والعدو، لا بد، أن يشعر بقوتنا وكراهيتنا له على أتم وجه. ثم تذكروا شيئاً آخر وهو أن الألمان يدركون أننا، هنا، عند ستالينغراد ندافع، أمام العالم كله، عن حرية روسيا وشرفها. ولا أريد أن أكذب وأعدكم بمعارك سهلة، فإن الألمان سيقاتلون بآخر ما لديهم. ولهذا أطلب منكم الشجاعة والاحساس بقوتكم!...

نطق الجنرال بكلماته الأخيرة بصوت متأثر ما كان له إلا أن يثير الآخرين، وهكذا أحس كوزنيتسوف فجأة بالسلطة القوية المقنّعة التي يتمتع بها هذا الرجل النحيل المرتدي الفروة السوداء، وذو الوجه العليل الخالي من الجمال، الذي سار الآن إلى فصيلة التموين. لم يكن كوزنيتسوف يعرف، وهو عند المطابخ، ما يبلغ الجنرال به، فأصدر أمره قائلاً:

ــ استعد! تراصف إلى اليمين! أيها الرفيق الجنرال، فصيلة التموين للبطارية الأولى من الكتيبة الثانية...

ولم يكمل تبليغه، فإن الفريق غرز عصاه في الثلج، وتوقف أمام فصيلة التموين الجامدة، محوّلاً عينيه الحادتين إلى قائد الفرقة دييف متسائلاً. فردّ هذا عليه، من هامته الطويلة، بإيماءة مهدّئة، وابتسمت شفتاه اللامعتان، وقال بصوت قوي فتي منخفض النبرة:

ــ لا توجد خسائر، أيها الرفيق الجنرال. رجالها سالمون جميعاً. أليس كذلك، يا رئيس الرقباء؟

صاح سكوريك بالأوكرانية لسبب غير معروف، وأجحظ عينيه بولاء:

ـ ولا رجل واحد، أيها الرفيق العقيد. رئيس رقباء البطارية سكوريك.

واخرج صدره كالفتوة، وجمد بنفس هيأة الاصغاء التام.

كان بيسونوف يقف على بعد أربع خطوات عن كوزنيتسوف، فكان هذا يرى أطراف الياقة الفرائية الاستراخانية التي تجمَّد عليها بخار الأنفاس، والخدين الناحلين المزرقين الحليقين بنعومة، والتغضنات العميقة عند فمه المضموم بشكل ينم عن سلطان، والنظرة الذكية العارفة المطلّة من تحت الجفنين، نظرة رجل في الخمسين لقي الشيء الكثير في حياته. كانت هذه النظرة تتحسس شائكة شخوص السوّاقين غير المتناسقة، ثم هيكل رئيس الرقباء المقدود كالحجارة، وكأنه يعرّيه. حرك رئيس الرقباء قدميه، مقوساً صدره أكثر، وتقدَّم بكليته إلى الأمام.

قال الفريق بصوت صارف:

ـ لم هذه العادة للرتب؟ استرح!

صرف بيسونوف بصره عن رئيس الرقباء، وفصيلته التموينية، وعندئذ فقط خاطب كوزنيتسوف:

ـ وأنت، أيها الرفيق الملازم، ما علاقتك بفصيلة التموين؟

وقف كوزنيتسوف وقفة استعداد صامتاً.

ـ هل أدركتك الغارة، وأنت هنا؟

قال العقيد دييف، وقوله لم يخلُ من إسعاف، ولكن صوته كان المتعاطف الوحيد، وكان حاجباه، بعد بلاغ رئيس الرقباء، منعقدين على قصبة أنفه، وسأل:

ـ لماذا أنت صامت؟ أجب عما تسأل عنه، يا ملازم.

أحس كوزنيتسوف بترقب دييف العجول، النافد الصبر، ولاحظ أن رئيس الرقباء سكوريك، ورجال فصيلة التموين بكامل طاقمهم غير المتجانس، يديرون إليه رؤوسهم في آن واحد، ويرون الامراء المرافقين يتململون، وأجاب كوزنيتسوف أخيراً:

ــ لا، أيها الرفيق الجنرال...

قلّص العقيد دييف رموشه الشهباء، وهو ينظر إلى كوزنيتسوف، وكأنه مانع مغيظ.

ــ ما معنى «لا» يا ملازم؟

كرر كوزنيتسوف:

ــ لا، لم تدركني الغارة هنا. أنا أبحث عن آمر مدفع من فصيلتي. إذ لم يكن أثناء التعداد. إلا أنني أظن...

صاح رئيس الرقباء بعد شهقة هواء في صدره، ونظرة خاطفة إلى بيسونوف:

ــ لا يوجد أي آمر من أمراء المدافع في فصيلة التموين، أيها الرفيق الجنرال.

إلا أن بيسونوف سأل، وكأنما لم يسمعه:

ــ هل جئت رأساً من المدرسة العسكرية يا ملازم، أم حاربت؟

قال كوزنيتسوف قليل الحزم:

ــ حاربت... ثلاثة أشهر في عام ١٩٤١. أما الآن فقد انهيت مدرسة المدفعية...

كرّر بيسونوف:

ـــ مدرسة المدفعية. إذن، فأنت تبحث عن آمر مدفعك؟ هل فتشت بين الجرحى؟

أجاب كوزنيتسوف: «في بطاريتي لا يوجد جرحى، ولا قتلى» وأحس أن سؤال الجنرال عن المدرسة هو قطعاً وليد الأثر الذي تركه انقطاعه، وقلة حيلته وخبرته.

وقال بيسونوف مصححاً:

ـــ إذن، وأنت فاهم، يا ملازم، أنه لا يحدث في المؤخرة أن يكون هناك مفقودون. إن المفقودين في المؤخرة ليس لهم إلا اسم هو: الهاربون. آمل ألا يكون ذلك ما حدث، يا عقيد دييف؟

تريث قائد الفرقة في الجواب قليلاً. وساد هدوء. ومن بعيد ترامت أصوات مبهمة، وهسيس القاطرة الصافر. في المقدمة قرقعت الموصلات، وصلصلت، فقد كانوا يفكون العربتين المحروقتين من القطار.

ـــ أنا لم أسمع جواباً.

فقال دييف بقناعة مفرطة:

ـــ إن آمر فوج المدفعية رجل جديد. ولكن مثل هذه الأمور لم تحدث، أيها الرفيق الجنرال. وآمل ألا تحدث في المستقبل. أنا واثق، أيها الرفيق الجنرال.

وارتعش طرف فم بيسونوف الحاد رعشة خفيفة.

ـــ وليكن... شكراً على هذه الثقة، يا عقيد.

ظلت فصيلة التموين واقفة على حالها بلا حراك، ورئيس الرقباء سكوريك جامد على بعد خطوتين من الصف، أشار بحاجبيه

لكوزنيتسوف إشارات غريبة تلقينية، إلا أن كوزنيتسوف لم يلحظها. كان يحس بأن الفريق يكتم عدم ارتياح لدى حديثه مع قائد الفرقة، وبأن قادة الأركان يبدون اهتماماً قلقاً. بعد أن كبح شيئاً في نفسه، سأل رغم ذلك:

ـــ اتسمح لي بالانصراف، أيها الرفيق الجنرال؟

صمت بيسونوف متطلعاً في وجه كوزنيتسوف الشاحب دون أن يبدي حركة. فرك قادة الأركان المتثلجون آذانهم خلسة، ورفعوا رجلاً وخفضوا أخرى. ولم يكونوا يفهمون تماماً سبب تأخر قائد الجيش في فصيلة للتموين طوال هذا الوقت. ولم يكن في وسع أحدهما لا العقيد دييف، ولا كوزنيتسوف أن يعرف ما يدور في ذهن بيسونوف الآن. بينما كان بيسونوف، كما كان يحدث كثيراً في الفترة الأخيرة، يفكر في تلك اللحظة في ابنه ذي الثمانية عشرة، الذي فقد في حزيران في جبهة فولخوف. فُقد لذنبه هو حتى ولو كان غير مباشر، كما بدا ذلك لبيسونوف نفسه، رغم أنه أدرك بعقله أنه في الحرب أحياناً لا يستطيع اي شيء أن ينقذ من رصاصة أو من مصير.

وبعد صمت قال بيسونوف، وقد رأى ما يبذله الملازم من جهود مبتسرة ليواجه الارتباك الذي تثيره نظرته:

ـــ اذهب، أيّها الملازم، اذهب!..

ورفع بيسونوف يده إلى قبعته الجنرالية بالتحية، عابس السحنة، وسائر على طوال القطار محاطاً بجماعة قادة الأركان، ضاغطاً بثقله على الرجل العليلة، لأنه شعر بالبرودة فيها.

وكان الألم يشتد كلما أصاب القرس هذه الرجل، وذلك ما كان يحدث كثيراً في الأيام الأخيرة. إلا أن بيسونوف عرف، بعد اقامته،

في المستشفى، أن الإحساس بالألم في العصب الذي أصيب بشظية سيبقى طويلاً، وينبغي التعود عليه. لقد كان مضطراً دائماً تقريباً إلى أن يتحمّل ألماً معرقلاً في قصبة ساقه، كان يجعل أصابع القدم اليمنى تتخدر، ويصيبه في بعض الأحيان بما يشبه الرعب من تعطل لا معنى له، كالفراغ، إذا دخل المستشفى مرة أخرى حين ينغر الجرح، وهذا ما كان يخافه، إن هذه الحقيقة، ودوام تفكيره، بعد تعيينه في الجيش، في مصير ابنه كانا يولدان في نفسه هزات مقلقة من عدم التوازن النفسي، والتخلخل الغريب، وهو ما لم يكن بقادر على تحمله في نفسه أو في الآخرين.

لم تكن المفاجآت كثيرة الحدوث في حياته. إلا أن تعيينه في المنصب الجديد ــ كقائد جيش ــ كان مفاجأة تامة له. فقد تسلّم جيشاً جديداً حديث التكوين بعيداً في المؤخرة، في أيام ترحيله في العربات (كان يرسل إلى الجبهة ما يبلغ ١٨ قطاراً يومياً)، ولم يرضه تماماً تعرّفه اليوم على إحدى فرقه التي تعرضت لغارة الطائرات الألمانية أثناء نقلها إلى بضع محطات شمالي غرب ستالينغراد. وكان عدم الرضى هذا مرجعه إلى عدم تأمين غطاء جوي في منطقة النزول. بعد أن استمع إلى تبريرات ممثل المواصلات العسكرية من أن «طائراتنا المقاتلة غادرت المنطقة من توها، أيها الرفيق القائد «اعترض قائلاً: «ما معنى: غادرت؟ غادرت طائراتنا، وجاء الألمان في الوقت المناسب! مثل هذا التأمين لا قيمة له!» وبعد أن قال ذلك أسف على عدم تماسكه، فإن ناظر المحطة لم يكن المسؤول عن الغطاء الجوي، سوى أن عقيد المواصلات العسكرية هذا كان أول من وقع عليه بصره.

بعد أن ابتعد بيسونوف وقادة الأركان عن فصيلة التموين سمع وراءه صوت دييف المخفّض، وقد تأخر عند الصف:

ــ ما هذه السفاسف التي تفوهت بها، يا ملازم؟ هيا، إبحث بجد! فهمت؟ لك مهلة نصف ساعة فقط!

غير أن بيسونوف تظاهر بأنه لم يسمع شيئاً، حين لحق به دييف عند العربات المكشوفة المحمّلة بالمدافع، قال له وكأن شيئاً لم يحدث:

ــ أنا أعرف هذه البطارية، أيّها الرفيق القائد. أنا واثق فيها كلياً. أنا أتذكرها من التدريب خلال التشكيل. غير أن أمراء الفصائل هؤلاء صغار السن جداً، لم يحصلوا على خبرة بعد...

فقاطعه بيسونوف:

ــ ما الذي تحاول أن تبرره، أيّها العقيد؟ أرجو أن تكون أكثر يقيناً ووضوحاً.

ــ اعذرني، أيّها الرفيق الجنرال، لم أرد...

فقال بيسونوف بلهجة تنم عن التعب:

ــ أي شيء لم ترد؟ ما هو بالضبط؟ أمن المعقول أنك تعتبرني أيضاً صبياً؟ لا جدوى إذن من أن ترسل كلمتك الرنانة. أنا لا أسمع رنيناً من هذا القبيل.

ــ أيها الرفيق القائد...

ــ أما بخصوص فرقتك، أيها العقيد، فإنني لن أكوّن فكرة تامة عنها إلا بعد القتال الأول. تذكر ذلك. وإذا تأذيت مني فهذا لا يعنيني. فأنا في غنىً عنه.

رفع العقيد دييف كتفيه، وأجاب مثبّط العزم:

ــ لا يحق لي أن أتأذى منك أيها الرفيق القائد.

ـــ يحقُّ لك! فقط أن يكون الموجب لذلك واضحاً.

غرز بيسونوف عصاه في الثلج، وأدار عينيه في قادة الأركان الذين سكنوا، ولزموا الصمت مطرقين بأعينهم، غير مشتركين في الحديث. لقد كانت عيناه تلاحقانهم فلم يكن على معرفة كافية بهم أيضاً.

ـــ استعد! تراصف إلى اليمين!

ارتفع هذا الايعاز العالي في المقدمة، عند صف الجنود الذي صار يلوح داكناً للعين أمام العربات.

قال العقيد دييف:

ـــ إنها بطارية الهاون الثالثة، أيّها الرفيق الجنرال.

قال بيسونوف عرضا:

ـــ لنر رجال الهاون.

الفصل الثاني

ـ البطارية! نزول! أفرغوا المدافع من العربة، وأنزلوا الخيول!

ـ أسعدنا الحظ، يا أخوان: فوج المدفعية كله في السيارات، وبطاريتنا على الخيول.

ـ الدبابة لا ترى الحصان بشكل جيد. هل فهمت معنى ذلك؟

ـ أيها الاخوان السلاف، يجب أن نسير مشياً على الأقدام؟ أو ربما الألمان على بعد خطوتين؟

ـ لا تستعجل، ستلحق بالعالم الآخر. هل تدري كيف الأمر في الخط الأمامي؟ ما تكاد تمس الأوكورديون لتعزف أغنية الحياة، حتى تكون الأغنية قد انتهت.

ـ ولم هذا الكلام الفارغ؟ من الخير أن تخبرني هل يوزعون التبغ قبيل المعركة؟ أم أن رئيس الرقباء سيبخل به؟ إنه يخيّل إلي أبعد حدود البخل! زعموا أنهم سيطعموننا أثناء المسيرة.

ـ رجالنا في ستالينغراد وضعوا الألمان في الطوق... يعني نحن ذاهبون إلى هناك... آه، لو كنا طوّقنا الألمان في عام ١٩٤١، لوصلنا إلى مكان بعيد!

ـ الريح هذه دلالة على البرد. في المساء سيشتد القرس كما يبدو.

ـــ سنضرب الألمان في المساء، فلا تبردا

ـــ وماذا يهمك؟ الشيء الرئيسي أن تحافظ على سلاحك الشخصي من الزمهرير وإلا فيتجمد وتعود إلى البيت هزيلاً. فلا تعرفك زوجتك إلا إذا أبرزت هويتك.

ــ يا أخوان، في أية جهة ستالينغراد؟

عندما نزلوا من القطار، قبل أربع ساعات، في المحطة السهبية الصغيرة الأخيرة قبل الجبهة كان الانفعال الذي يحدث دائماً عند تغيّر الوضع، قد استحوذ على الجميع. كانوا جميعاً يُحسّون بدفق من المرح الغامر، بغض النظر عما يضمر المستقبل لكل واحد منهم، وكانوا يضحكون برغبة مفرطة من النكات، ومن السباب المبرأ من الضغن.

وفي تلك اللحظات كان الملازم كوزنيتسوف يحس فجأة بهذا التكاتف العام الذي كان يوحّد العشرات والمئات والألوف من الناس في انتظار معركة قريبة غامضة لم يخوضوا مثلاً لها، ويفكر تفكيراً لا يخلو من قلق في أنه الآن، في هذه اللحظات بالذات قبيل التحرّك إلى الجبهة مرتبط بهم جميعاً ارتباطاً وثيقاً، ولزمن طويل. وحتى وجه دروزدوفسكي الشاحب، وجه الآمر الذي أشرف على انزال البطارية، لم يبدُ له على تلك الدرجة من البرود والجمود، وصار نسياً منسياً كلّ ما أحسَّ به أثناء الغارة الألمانية وبعدها. مثلما ابتعد عن مجال ذاكرته ونسي الحديث الذي جرى بينه وبين دروزدوفسكي قبل وقت قصير. ورغم ما يمكن أن يفترض صار دروزدوفسكي لا يسمع تقرير كوزنيتسوف عن كمال تعداد رجال الفصيلة (وكانوا قد عثروا على أوخانوف)، وصار يقاطعه بنفاد صبر ظاهر يبدو من رجل مشغول بقضايا لا تقبل التأجيل: «إبدأ بإنزال الفصيلة. من غير أخذ وردا واضح؟» أجاب كوزنيتسوف:

«نعم، واضح»، واتّجه إلى عربته حيث كان آمر المدفع الأول أوخانوف واقفاً محاطاً بجمهرة من الجنود، وكأن شيئاً لم يحدث. إن ما حصل للقطار بدا الآن، إزاء التحسس بدنو المعركة، باهتاً هزيلاً ومطوياً، لا يذكر إلا عرضاً، وخطفا، بدا ذلك لكوزنيتسوف، ولدروزدوفسكي، فيما يبدو، ولجميع رجال البطارية التي استولى عليها فيض عصبي من الحركة في شيء جديد لم يجرَّب بعد، قد ضُغط إلى الحد الأقصى في كلمة واحدة ترن كالمعدن، هي ستالينغراد.

ومن ذلك، فإن الأصوات والضحكات صارت تهمد بالتدريج، بعد مسيرة أربع ساعات في سهب متجمد بلا بيوت، بين ثلوج قفراء ممتدة الأفق، ودون وقفات قصيرة، ولا مطابخ موعودة. وزال الانفعال، وسار الناس مبللين بالعرق، وعيونهم دامعة موجعة من لمعان الكثبان الثلجية المشمسة الحاد. وبين الحين والآخر كان يترامى من اليسار ومن الخلف قصف بعيد، ثم كان السكون يسود، ولم يكن مفهوماً لماذا لم يقترب الخط الأمامي وكان يجب أن يكون قريباً الآن، ولماذا كان القصف يأتي من الخلف. كان الجميع لا يفكرون الآن إلا في شيء وحيد وهو: أين تقع الجبهة الآن، وإلى أي جهة يسير طابورهم؟ ساروا مرهفين الاسماع، وبين الحين والآخر كانوا يختطفون من جانبي الطريق حفنات من الثلج الخشن، ويمضغونه، ويخدشون شفاههم، ويبتلعونه، غير أن الثلج لم يكن يطفئ ظمأهم.

كف كوزنيتسوف منذ وقت طويل عن السير في مقدمة الفصيلة، كما كان يجب عليه، وسار وراء المدفع الثاني، وقد تصبب كل جسمه عرقاً، والتصق قميصه على صدره تحت السترة المبطنة والمعطف. كانت خطوط العرق الحارة تسيل من تحت القبعة، من صدغيه الملتهبين،

وتتجمد في الريح في الحال، جاذبة الجلدة معها. كانت الفصيلة تسير جماعات متفرقة بصمت تام، وقد فقدت منذ وقت انتظامها الاول الذي سرّه، حين خرجوا إلى السهب متبادلين النكات والضحك بلا سبب. والآن كانت الظهور تتماوج أمام عينيه بلا انتظام، وقد حُمِّلت عليها الحقائب الظهرية قبيحة المنظر. وارتخت أحزمة الجنود المثقلة بالقنابل اليدوية على معاطفهم جميعاً. وأنزل بعضهم حقائبهم عن أكتافهم، ووضعوها في عربة المدفع الأمامية.

سار كوزنيتسوف بلا مبالاة متعبّة، منتظراً شيئاً واحداً: إن يصدر أمر بالتوقف للراحة، وبين الحين والآخر كان يلتفت فيرى تشيبيسوف يقزل مطأطأ الرأس وراء العربات، والمسدد نيتشايف الذي كان، قبل حين، البحار الدقيق، يترنح وفي عينيه تعبير خبيث، وقد تكاثف الجمد على شاربيه الرطبين اللذين كان ينفخهما باستمرار، ويلعقهما.

«متى سنتوقف أخيراً؟ أين الوقفة؟».

ــ على أي حال، متى سنتوقف؟ هل نسوا؟ ــ سمع كوزنيتسوف من خلفه صوت الملازم دافلاتيان الصادح الحانق. وكان صوته يدهش كوزنيتسوف دائماً بصفائه الساذج المدرسي، ولسبب ما كان يولد في نفسه، مثل ماض غابر، ذكريات لطيفة عن زمن مدرسي حبيب وادع كان في عهد ما، لا يزال دافلاتيان يعيش فيه، على الأرجح، ولكنه الآن كان يبدو لكوزنيتسوف مبهماً بعيداً.

التفت بجهد، فقد كانت بطانة الياقة السليولودية الرطبة التي أعطيت بعد التخرج من المدرسة العسكرية عند ارتداء البزة تضغط على رقبته، وتبرِّدها. لحق دافلاتيان آمر الفصيلة الثانية ذو الوجه النحيل والعينين الطويلتين بكوزنيتسوف. وكان على خلاف الآخرين لا يغطي قلنسوته

بغطاء داخلي. وأثناء سيره مضغ كتلة من الثلج بشهية، وكأنها قطعة من السكر.

قال دافلانيان بصوته المدرسي المرّن كالزجاج:

ــ اسمع، يا كوزنيتسوف! أنا بصفتي سكرتير الكومسومول في البطارية أريد أن أتشاور معك. هيّا، إذا كان في إمكانك.

ــ وما المسألة، يا غوغا؟

سأل كوزنيتسوف ذلك، وقد ناداه باسمه الأول، مثلما كان يفعل في المدرسة.

ــ ألم تقرأ بعد إنشاء المانيا؟ ــ قال دافلانيان ذلك وهو يمصّ الثلج، واخرج من جيب معطفه ورقة صفراء مطوية أربع طيات، وقطّب حاجبيه، وتابع قوله: ــ عثر عليها كاسيموف في الخندق. القوها من الطائرة ليلاً. إنهم موغرون بالحقد، ويفحون فحيحاً.

ــ أرني، يا غوغا.

تناول كوزنتيسوف الورقة، ونشرها، ومرر عينيه بسرعة على نصها المكتوب بحروف كبيرة:

:يا قطاع الطرق الستالينغراديين!

اتيح لكم موْقتاً تطويق جزء من القوات الألمانية عند مدينتكم ستالينغراد التي حوَّلها أسطولنا الجوي إلى خرائب. فلا تفرحوا! لا تأملوا بأنكم ستنتقلون إلى الهجوم الآن! فإننا سنعدُّ لكم لحظات سعيدة، ونسوقكم إلى ما وراء الفولغا، وبعد ذلك ستكونون طعاماً لقمل سيبيريا. إنكم ضعفاء أمام الجيش المجيد المظفر. فأسلموا على جلودكم الممزقة، أيّها الجزّارون السوفييت!».

قال دافلانيان، وقد رأى كوزنيتسوف يضحك ضحكة تهكمية بعد أن أنهى قراءة المنشور:

ــ إنّهم يشتمون كالمسعورين. أغلب الظن أنهم لم يفكروا بأنّهم سيلاقون الأمرّين في ستالينغراد. كيف ترى هذه الدعاية؟

أجاب كوزنيتسوف، وهو يعيد إليه المنشور:

أنت على حق، يا غوغا. إنها ثرثرة وقحة. وبوجه عام لم اقرأ مثل هذا السباب حتى الآن. في عام ١٩٤١ كانوا يكتبون شيئاً آخر: «استسلموا ولا تنسوا أن تأخذوا ملعقة وقدراً» وكانوا يلقون مثل هذه المناشير كل ليلة.

قال دافلانيان:

ــ أتدري كيف أفهم أنا هذه الدعاية؟ الكلب يحس بذنبه. وهذا كل ما في الأمر.

ودعك المنشور، وألقاه وراء الطريق، وضحك ضحكة خفيفة، ذكرت كوزنيتسوف مرة أخرى، بشيء بعيد، مألوف، مشمس كيوم ربيعي في نوافذ مدرسة خلال أوراق شجرة زيزفون مرصعة برصعات دفء.

وعاد دافلانيان يقول، وهو يبدل خطواته على خطوات كوزنيتسوف:

ألا تلاحظ شيئاً؟ في البداية اتجهنا صوب الغرب، ثم استدرنا نحو الجنوب. فإلى أين نحن ذاهبون؟

ــ إلى الخط الأمامي.

ــ أنا أعرف إلى الجبهة. إنك ذكي. حزرت. ــ قال دافلانيان

ذلك، بل وضحك خفيفاً إلا أن عينيه الطويلتين الشبيهتين باجاصتين كانتا تنمّان عن اهتمام ـــ ستالينغراد الآن إلى الخلف. قل لي، وأنت قد حاربت... لماذا لم يعلنوا لنا عن النقطة التي نتوجه إليها؟ وإلى أين يمكن أن نذهب؟ أهذا سر؟ ألا تعرف شيئاً؟ أمن المعقول أننا غير ذاهبين إلى ستالينغراد؟

أجاب كوزنيتسوف:

ـــ نحن ذاهبون إلى الجبهة، على أية حال. إلى الجبهة، وليس إلى مكان آخر، يا غوغا.

أدار دافالنيان رأسه متأذياً:

ـــ هل نطقت بحكمة؟ وهل عليّ أن أضحك؟ أنا أعرف ذلك. ولكن أين يمكن أن تكون الجبهة هنا؟ نحن متّجهون نحو الجنوب الغربي. هل تريد أن ترى في البوصلة؟

ـــ أنا أعرف نحو الجنوب الغربي.

ـــ إسمع، إذا كنا غير ذاهبين إلى ستالينغراد، فذلك شيء فظيع. إنهم هناك يسلقون الألمان سلقاً، وهم يرسلوننا في هذا الوقت إلى آخر الدنيا. ها؟

كان الملازم دافلانيان يريد، كما يبدو، أن يجري حديثاً جدياً مع كوزنيتسوف، إلا أن هذا الحديث ما كان من الممكن أن يوضّح شيئاً الآن. فإن كليهما لم يكن يعرف خط سير الفرقة الصحيح الذي كان، كما بدا لهما، قد حوّل خلال مسيرة، غير أن كليهما كان يحدس أن ستالينغراد ليست هي غاية سيرهم، فهي الآن وراءهم، هناك، حيث كان يترامى بين الحين والآخر قصف بعيد.

صدر أمر من الأمام رددته في الطابور أصوات لا حرارة فيها:

ـ تلاحق أسرع!

ردّ كوزنيتسوف، بعد أن نظر إلى الطابور الممتد في السهب إلى ما لا نهاية:

ـــ حتى الآن غير واضح إلا أننا ذاهبون إلى مكان ما. إنهم يسيرون بنا طوال الوقت. فلعلنا نسير بمحاذاة الطوق، يا غوغا. إن المعركة اشتعلت هناك مرة أخرى، حسب ما جاء في بلاغ يوم أمس.

فقال دافلانيان:

ـــ سيكون ذلك رائعاً إذن!

ولما جاء دوره في الايعاز ردده برنّة مدرسية استعراضية:

ـــ تلاحقوا، يا فتيان!

غير أن صوته بحّ، فقال مرحاً:

ـــ هذا من أثر هذه الدوندرمة. حنجرتي بُحّت! وأنت أيضاً إمضغ. فإن الثلج يطفئ العطش. وإلا فستكون مبللاً كالجرذ!

ومصّ قطعة من الثلج بشهية وكأنها سكر.

قال كوزنيتسوف، وابتسم ابتسامة لا إرادية:

ـــ هل كنت مولعاً بالدوندرمة؟ اتركها، يا غوغا، وإلا فستنزل في وحدة الاسعاف. أظن أن صوتك تلف بالفعل.

هتف دافلانيان:

ـــ في وحدة الاسعاف؟ لن يكون ذلك! وحدة الاسعاف ما ينقصني! إلى الشيطان!

وتفل من وراء كتفه ثلاث مرات إبعاداً للشر، كما يحدث أثناء الامتحانات المدرسية، واتخذ مظهر الجد، وألقى كتلة الثلج تحت قدميه.

ـ تلاحق! أقرب إلى المدافع! استعد لحركة هبوط من منحدر.

خرج دروزدوفسكي بفرسه من رأس الطابور للقاء البطارية. كان يجلس على السرج معتدلاً مستقراً، ووجهه الجامد صارم تحت قبعته المحالة على جبينه قليلاً، وتحوّل من العدو إلى السير، ثم أوقف إلى جانب الطابور حصانه المنغولي القوي القوائم، الطويل الوبر، الرطب البوز من تردد الأنفاس ولبضع دقائق راح يراقب، بنظرة متمحّكة، الفصائل السائرة في صف مستطيل بجنودها المتباعدين، في هيئة ناعسة لا مبالية. كانت أبطنة فلنسوات الجنود قد تضخمت من الثلج وشدت ذقونهم، وكانت الياقات مرفوعة، وحقائب المتاع تترنح متهدلة على الظهور المحنية. وما من إيعاز غير إيعاز «التوقف»، على ما يبدو، كان من الممكن أن يشد ويخضع هؤلاء الناس الذين اكمدهم التعب. وأغاظ دروزدوفسكي تخلخل البطارية هذا، وهذه اللامبالاة، وعدم اكتراث الناس بأي شيء، ولكن أكثر ما أغاظه أن حقائب الجنود كانت موضوعة على عربة المدفع الأمامية، بل وأن بندقية أحد الجنود كانت تبرز كالعصا من كومة الحقائب المشدودة إليها القصعات.

أوعز دروزدوفسكي ووقف فوق السرج لدناً:

ـ تلاحق! حافظ على المسافة الاعتيادية! لمن هذه الحقائب على عربة المدفع؟ لمن هذه البندقية؟ ارفعوها من العربة...

إلا أن أحداً لم يتقدَّم من العربة، ولم يهرع أحد، سوى أن الذين كانوا قريبين منه اسرعوا خطاهم قليلاً، أو بالأحرى، تظاهروا بأن إيعازه مفهوم. انتصب دروزدوفسكي على الركابين أكثر اعتدالاً، مستعرضاً البطارية أمامه، وضرب بمقرعته رأس حذائه بهيئة تصميم.

ـ امراء الفصائل، إليّ!

تقدم كوزنيتسوف ودافلانيان سوية. انحنى دروزدوفسكي عن

السرج قليلاً، وكأنه يحرقهما كليهما بعينيه الشفافتين المحمرتين من الريح، وتكلم بجفاء:

ــ إن عدم التوقف لا يعطي الحق في ترك البطارية تسير بلا نظام! حتى البنادق القيت في عربة المدفع! لعل الجنود لم يعودوا يطيعونكما؟

قال كوزنيتسوف بصوت خافض:

ــ تعب الجميع، يا آمر البطارية، إلى أقصى حد. إن ذلك واضح.

ــ وحتى الحصان، انظر إليه كيف يلهث!...

قال دافلانيان مؤيداً، ومسّد بوز حصان الآمر. كان بوز الحصان رطباً تناثرت عليه أبر الجمد. وقد تبلل كمّ دافلانيان من بخار أنفاسه.

جذب دروزدوفسكي اللجام، فألقى الحصان رأسه إلى الوراء. وأنشأ آمر البطارية يقول لاذع اللسان:

ــ انقلبتما إلى شاعرين. «تعب الناس» و«الحصان لا يكاد يتنفس». اتحسباننا ذاهبين لاحتساء الشاي عند أحد الأصدقاء أم إلى الجبهة؟ تريدان أن تكونا رقيقي القلوب؟ الناس تحت أمرة هؤلاء يسحقون في الجبهة كما يسحق الذباب. هل سنحارب بكلمات «اعذروني، أرجوكم»؟ باختصار... إذا بقيت البنادق والحقائب مرمية على عربة المدفع بعد خمس دقائق، فسأجعلكما، تحملانها على اكتافكما. هل كل شيء مفهوم؟

ــ مفهوم.

رفع كوزنيتسوف يده بالتحية، شاعراً بصواب دروزدوفسكي المبّطن بالسوء، واستدار، واتجه نحو عربة المدفع، وركض دافلانيان إلى مدافع فصيلته.

جذب كوزنيتسوف من عربة المدفع حقيبة متاع فرنّت القصعة المشدودة إليها. وصاح:

ــ لمن هذا المتاع؟ لمن هذه البندقية؟

نظر الجنود ببرود، وعدّلوا حقائبهم على ظهورهم بشكل آلي. وقال أحدهم عبوساً:

ــ من وضع هذه الخرق هنا؟ أهو تشيبيسوف؟

زعق نيتشايف بلهجة الرقباء موتراً حنجرته القوية:

ــ تشيبيسوف! إلى الملازم!

هرع تشيبيسوف يقزل من عربة الذخيرة إلى عربة المدفع متعثراً بالجنود، مبدياً للجميع، من بعدي، ابتسامته المترقبة الباردة. وكان ضئيل الجسم، في معطف عريض لا يناسب طوله، قصير مثل تنورة واسعة.

ــ أهذه حقيبتك؟ وبندقيتك؟

سأله كوزنيتسوف شاعراً بالحرج من اضطراب تشيبيسوف عند عربة المدفع، فاضحاً غلطته بنظرته وحركته.

قال تشيبيسوف بصوت مبحوح، وقد تراكم البخار على بطانة فلنسوته الصوفية المكسوة بالجمد:

إنها لي، أيها الرفيق الملازم، إنها لي، وأنا المذنب، أيها الرفيق الملازم... انحكت قدمي حتى تدمّت، فظننت أن تخفيف الحمل سيساعد قدمي قليلاً.

ــ هل تعبت؟

سأل كوزنيتسوف بهدوء غير منتظر، ونظر إلى دروزدوفسكي،

الذي مرّ على فرسه بالطابور، منتصباً على سرجه، يراقبهما من جانب.

أمر كوزنيتسوف بصوت منخفض:

ــ لا تتأخر، يا تشيبيسوف. سر خلف عربة المدفع.

ــ سمعا! سمعا...

وانطلق تشيبيسوف يخبُّ وراء المدفع رخواً مترنحاً على قدمه الموجعة.

أمسك كوزنيتسوف بالحقيبة الثانية وسأل:

ــ ولمن هذه؟

تردد ضحك من الخلف هذه اللحظة. وظن كوزنيتسوف أنهم يضحكون منه، ومن قيامه بوظائف رئيس الرقباء أو من تشيبيسوف، فالتفت.

إلى يسار المدفع كان أوخانوف يسير في الطريق جنب زويا بمشيته الدبية المتمايلة. كان يحدثها بشيء ما ضاحكاً، وكانت هي تصغي إليه ذاهلة تهز له وجهها العرق المتعب، وقد لاح الحزام مطبقاً على خصرها. و لم تكن تحمل حقيبة الاسعاف، فلعلها وضعتها في إحدى العربات.

والظاهر أنهما كانا يسيران في مؤخرة البطارية منذ وقت طويل، والآن لحق كلاهما بالمدافع. نظر الجنود المتعبون نظرة جانبية إليهما في غير ود، وكأنما استشفوا من مرح اوخانوف المفرد معنى مبهماً مغيظاً.

صدر في المقدمة إيعاز متوعِّد:

ــ أمسك!... منحدر! فرملة! الجميع إلى المدافع!

أعاد كوزنيتسوف الإيعاز، وسار إلى مقدمة البطارية، حيث تجمهر

الجنود متزاحمين حول خيول المدفع الاول، ممسكين بأيديهم جوانبه وعجلاته، ضاغطين بأكتافهم على ترسه ومقدمته، بينما كان سائقو الخيول يشدون المقاود شاتمين صارخين، ليكبحوا الخيول الملتمعة من العرق، وقد بركت على رجليها الخلفيتين، أمام منحدر شديد يؤدي إلى وهدة عميقة.

اجتازت البطارية الأمامية المنحدر الجليدي الأملس المدكوك اللامع كالزجاج، وبلغت قاع الوهدة سالمة، ثم أخذت المدافع والعربات التي تمور حولها حشود الجنود كالنمل تتسلق الجانب الصاعد من الوهدة، مدفوعة من الأسفل، ومن بعده سار الطابور اللانهائي متعرجاً يشق السهب. بينما وقف آمر فصيلة الإدارة رئيس الرقباء غولوفانوف منتظراً في نقطة بعيدة في الأسفل، وسط الطريق، يصرخ بصوت مجهد، ويومئ:

ـــ هيا!.. تعالوا إليّ!

تقدم دروزدوفسكي بحصانه إلى حافة المنحدر، وأوعز:

ـــ احذروا!.. لا تكسروا قوائم الخيول! امسكوا جميعاً! أمراء الفصائل! إذا أهلكنا الخيول فسنجر المدافع بأنفسنا! أمسك! على مهلك! ببطء!

«نعم، إذا كسرنا قوائم الخيول، فسيتعيّن علينا أن نجر المدافع بأنفسنا!» فكّر كوزنيتسوف في ذلك منفعلاً، شاعراً فجأة بأنه وجميع الآخرين يخضعون كلياً لإرادة لا يحق لأحد أن يقف ضدها، وأن الجميع اندمجوا في شيء واحد هائل جامح لا يكبح لم يعد أحد في تياره منفرداً بعجزه وتعبه. كرر كوزنيتسوف الايعاز مستلذاً بذوبانه هذا في الجميع:

ـــ أمسك، أمسك! الجميع إلى المدافع!

واندفع نحو عجلات المدفع الأول، في خضم أجساد الجنود، بينما كان رجال الطقم يضغطون على عربة المدفع وعجلاته المتزحلقة على المرتقى الشديد الارتفاع:.

صاح السائقان على الخيول بصوتين متفاوتين:

ـ قف، يا ملعون! الزم!

صاحا، وكأنهما أفاقا على نفسيهما فجأة، فانحين فميهما بشكل مرعب في الأهداب المتجمدة لبطانة فلنسوتيهما.

كانت عجلات العربة والمدافع لا تدور، وقد أمسكت بها سلاسل الفرملة، غير أن السلسلة لم تكن تتعزز في الطريق المتماسك الأملس المصقول صقلاً تاماً. كانت أحذية الجنود اللبادية تتفلت وتنزلق على المرتقى دون أن تجد نقطة ارتكاز. بينما كان ثقل العربة المحملة بالقذائف، وثقل المدفع، يزدادان، وتزداد قوة تحدرهما إلى الأسفل. كانت الخيول قد عكفت قوائمها الخلفية، ورفعت أبوازها إلى السماء، لأن عريش العربة الأمامية الخشبي الذي تُشد إليه عدة الخيول كان يلتطم بهذه القوائم. عاد السائقان إلى الصراخ من جديد، ناظرين إلى رجال الطقم نظرة كره وتضرّع، وإذا بالكتلة المتكررة من الأجساد الضيقة الأنفاس، وكأنما علقت من العجلات، تنهار كلها متحدرة إلى الأسفل، في حركة متسارعة...

أعلن عن التوقف بعد غروب الشمس، عندما وصل الطابور إلى قرية قوزاقية مجهولة محروقة. وإذا بالجميع كأنما أذهلتهم أنقاض البيوت المحروقة الاولى على جانبي الطريق، الهياكل الوحيدة للمواقد المتفحمة تحت أشجار الصفصاف الناتئة بحدة على شاطئ نهر متجمد، حيث كان يتصاعد من ثغرات على الجليد بخار أحمر مسموم كالضباب.

كانت الأرض والأفق الغربي أحمرين كالدم من غروب كانون الاول المتصلب في تجمده، الحاد كالألم، حتى أن وجوه الجنود، والمدافع المغلفة بالجمد، وأكفال[٣] الخيول، والسيارات المتوقفة في جانب الطريق بدت كلها مصفّدة به، متجمدة في لمعانه المعدني، في ضوئه البارد على كثبان الثلج.

ـ يا اخوان، إلى أين نحن ذاهبون؟ أين الألمان؟

ـ كانت في هذا المكان قرية. انظروا، لم يبق منها بيت واحد. أي شيء هذا؟ على المثل القائل: جاء إلى عرس فوجد جنازة.

ـ ما الداعي لنتحدث عن جنازة؟ سنصل إلى ستالينغراد، والقادة أعلم.

ـ متى حدثت معركة هنا؟..

ـ منذ زمن، على ما يبدو.

ـ يا ليتنا ننال شيئاً من الدفء. ها؟ سنتجمد قبل أن نصل إلى الجبهة.

ـ ولكن قل لي أين هذه الجبهة؟

اقترب كوزنيتسوف من سائقي المدفع الأول، وهو لا يكاد يثبت نفسه. كان السائق روبين وقد اشتد احمراراً وانطوى على نفسه متجهماً، يتلمس السيور التي تشد الخيول إلى المدفع. وكان البخار يتصاعد من جنوب الخيول العرقة الزلقة. وكان السائق الشاب سيرغوتينكوف واقفاً عند فرسه الجانبي المتعب، مقرباً فمه الملتهم ينهم حفنة من الشعير وضعها على راحة يده، بينما كان يُربِّت باليد الأخرى على جيده المبلل المنحني.

---

(٣) جمع كفل: وهو مؤخرة الفرس. المعرب.

نظر كوزيتسوف إلى السائقين، ومشى إلى الطقم راغباً في التمدّد قرب الجنود، متكئاً على ظهر أحد من الناس بعد أن يرفع ياقته ليقي وجهه من الريح، يستلقي، ويتنفّس في وجهه، ويتدفأ بهذا الشكل.

تردّد إيعاز في الطابور:

ــ نهوض! انتهى التوقف! استعدوا للسير!

سرت في الظلام أصوات منفعلة:

ــ لم نلحق أن نغمض جفوننا حتى يأمرونا بالكف عن النوم؟ يسوقوننا سوقاً.

ــ ليتنا نأكل شيئاً، ولكن الرقيب والمطبخ لا يلوحان في الأفق. الظاهر أنه ذهب يحارب في المؤخرة.

«مرة أخرى حركة. أين هي الجبهة؟ إلى أين نتجه؟» ردد كوزنيتسوف ذلك في سره، وكان طوال الوقت ينتظر هذا الايعاز لاشعورياً، ويحسّ إلى حدّ ارتعاش رجليه بالتعب يهبط على جسمه كله كالرصاص.

لم يكن يعرف، ولكن كان يحدس فقط، أن ستالينغراد الآن في مكان ما وراءه، وكأنما في المؤخرة، و لم يكن يعرف أن الجيش كله،بما فيه فرقتهم التي كانت تضم فوج المدفعية، وبطاريته، وفصيلته، كان يتحرك مسرعاً باتجاه واحد، هو الجنوب الغربي لمواجهة فرق دبابات ألمانية كانت قد بدأت هجوماً في محاولة لفك الحصار عن جيش باولوس المحاصر بآلافه العديدة في منطقة ستالينغراد. كما لم يكن يعرف أن مصيره، ومصير جميع الذين معه ــ كل الذين من نصيبهم أن يموتوا، والذين كان من نصيبهم أن يظلوا أحياء ــ أمسى الآن مصيراً مشتركاً بغض النظر عما كان ينتظر كل واحد على حدة.

ــــ استعدُّوا للسير! أمراء الفصائل إلى آمر البطارية!

نهض الجنود في الظلام المتكاثف بتثاقل رخو، ودون رغبة. وفي كل مكان تردد سعال، وأنين، وأحياناً سباب. تقدم رجال الطقوم من المدافع في غير رضى، وتناولوا البنادق والقربينات الموضوعة على مساند المدافع، داعين إلى الله على المطبخ والرقيب. كان السواق قد رفعوا أكياس العلف من أبواز الخيول الماضغة، هاشين عليها بأكواعهم: «كفى علكاً، يا أبناء الجشع!». وفي المقدمة بدأت المحركات تطلق قذفات من الدخان المخنوق، وتتحرك، وامتدت بطاريات الهاون في الشارع ببطء استعداداً للسير.

كان الملازم دروزدوفسكي يقف في جميع من رجال الاستطلاع والاتصال، وسط الطريق، قرب نار مطفأة، ترسل على الأقدام دخاناً أبيض. عندما أقبل كوزنيتسوف كان دروزدوفسكي يسلّط مصباحاً يدوياً على خارطة تحت لوح من السيلولويد في محفظته العسكرية كان يمسكه رئيس الرقباء الضخم غولوفانوف بيديه. يقول بلهجة من لا يحتمل الاعتراض:

ــــ أسئلة زائدة. النقطة النهائية في المسيرة غير معروفة. والاتجاه هو في هذا الطريق، إلى الجنوب الغربي. تقدَّم بالفصيلة أمام البطارية. البطارية تسير في مؤخرة الفوج كما كانت.

ــــ واضح ومفهوم!

تمتم غولوفانوف بصوت عميق، وسار مع جماعته من رجال الاستطلاع والاتصال، في الطريق إلى الأمام ماراً بالعربات المظلمة.

ــ الملازم كوزنيتسوف؟

ورفع دروزدوفسكي مصباحه قليلاً، فصار يؤذي العيون ضوؤه الحادّ القاسي.

قال كوزنيتسوف مبتعداً قليلاً:

ــ أيجوز من غير ضوء؟ أنا أرى بدونه. ما الجديد، يا آمر البطارية؟

ــ هل كل شيء على ما يرام في فصيلتك؟ لا يوجد متأخرون؟ لا يوجد مرضى؟ هل أنتم مستعدون للسير؟ فقط بإيجاز.

ألقى دروزدوفسكي الأسئلة بصورة آلية تقريباً مفكراً، كما يبدو، في شيء آخر. أحسَّ كوزنيتسوف بالانزعاج من ذلك فجأة.

ــ لم يتسنَّ للرجال أن يستريحوا. أودُّ أن اسألك: أين المطبخ، يا آمر البطارية؟ لماذا تأخر رئيس الرقباء؟ فالجميع جياع كالذئاب. وتسألني هل أنتم مستعدون للسير. لم يمرض أحد، ولم يتأخر أحد. ولا يوجد هارب أيضاً....

قاطعه دروزدوفسكي قائلاً:

ــ ما هذا التقرير، يا كوزنيتسوف؟ مستاء؟ ربما تريد أن نجلس طاوين أذرعنا لننتظر الطعام؟ من أنت؟ آمر فصيلة أم سائق من السواقين؟

ــ أنا آمر فصيلة، حسب ما أعلم.

ــ لا يبدو ذلك! تسير في ذيل أوخانوف ومن على شاكلته! ما هذا المزاج؟ ــ ثم أمر دروزدوفسكي بلهجة جامدة: ــ اذهب إلى فصيلتك في الحال! وهيء رجالك لا إلى التفكير في الأكل، بل إلى المعركة! أنت تحيّرني، يا ملازم كوزنيتسوف! لا أعرف كيف سنحارب سوية!

ــ وأنت أيضاً تحيّرني. يا آمر البطارية! يمكنك أن تتحدث بطريقة أخرى، وسأفهمك أحسن.

ردّ كوزنيتسوف بذلك في عداء، وساء في الظلام المشحون بضجيج المحركات، وصهيل الخيول.

صاح دروزدوفسكي:

ــ يا ملازم كوزنيتسوف! إلى الوراء عد!

ــ ماذا بعد؟

اقترب شعاع المصباح الأبيض من الخلف، متصاعداً في الضباب الثلجي، عاكساً على الوجنة ضوءاً مدغدغاً.

يا ملازم كوزنيتسوف!

وحزّت شفرة الضوء الحادة عيني كوزنيتسوف. تقدّم دروزدوفسكي، واعترض طريق كوزنيتسوف، متوتراً بكل كيانه وقال:

ــ قف! هذا أمر!

ــ أبعد المصباح، يا آمر البطارية.

قال كوزنيتسوف بهدوء، شاعراً بما يمكن أن يحدث بينهما الآن، في هذه اللحظة، إلا أنه في هذه اللحظة أيضاً كانت كل كلمة يقولها دروزدوفسكي، وصوته المسكوك القاطع، يثيران في نفس كوزنيتسوف مقاومة صلبة لا تكبح، وكأن كل ما فعله دروزدوفسكي وقاله وأمره به كان محاولة مباشرة مقصودة لتذكيره بسلطة دروزدوفسكي عليه، ولإهانته. فكر كوزنيتسوف مع نفسه: «نعم، إنه يريد ذلك»، وبعد تفكيره هذا أحسَّ باقتراب المصباح الشديد، وسمع في دوائر الضوء البرتقالية المبهرة همس دروزدوفسكي:

ــ كوزنيتسوف.... تذكّر أن آمر البطارية هو أنا. أنا وأنا وحدي! ليست هذه مدرسة! انتهى عهد الزمالة! وإذا أخذت تحزن فإن العاقبة

ستكون سيئة عليك! ولن تجدني متمسكاً بأهداب الرسميات، ولن أنوي ذلك! هل فهمت؟ أركض إلى فصيلتك! ـــ ودفعه دروزدوفسكي بالمصباح من صدره: ـــ إلى الفصيلة! عدوا!

كان الضوء المسلَّط يغشى عينيه فلم يستطع أن يرى عيني دروزدوفسكي، إلا أن شيئاً بارداً صلباً مثل حد مثلوم قد انطبق على صدره. عندئذ نحّى بحدّة يد دروزدوفسكي الحاملة للمصباح، وأمسكها بعض الوقت، وقال بقوة:

ـــ سأحملك على إبعاد المصباح، على أية حال... أما التهديدات... فمن المضحك سماعها، يا آمر البطارية!

وسار في الطريق المعتم، لا تميّز عيناه جيّداً معا لم السيارات، والعربات، والمدافع، وأشباح السواقين قرب الخيول. فقد تراءت أمامه، بعد ضوء المصباح، دوائر شبيهة بالبؤر الشررية في نيران مطفأة وسط الظلام. وقرب فصيلته اصطدم بالملازم دافلانيان. وكانت أنفاس دافلانيان، عند جريه، تفوح برائحة خبز رقيقة لطيفة. سأل بسرعة:

ـــ هل أنت عائد من دروزدوفسكي؟ ماذا هناك؟

قال كوزنيتسوف بلهجة لا تخلو من السخرية الحانقة:

ـ اذهب، يا غوغا. إنه يهتم بمزاج الفصيلة، وهل فيها مرضى أم هاربون. اعتقد أن في فصيلتك شيئاً من هذا. ها؟

ـ هراء وحماقة! ـــ أعلن دافلانيان بصوته المدرسي، وقضم قطعة من البقسماطة، وأضاف باشمئزاز: ـــ هذر مكعب!

واختفى في الظلمة آخذاً معه رائحة الخبز المهدئة البيتية.

فكر كوزنيتسوف متذكراً العري غير الطبيعي في كلمات دروزدوفسكي المحذّرة: «حماقة بالضبط وهسترة».

ومن بعيد أخذ الايعاز المألوف «إلى الأمام سر» يقترب متدرجاً في الطابور، وكأنما يرتقي سلّماً. كرر كوزنيتسوف الايعاز، وهو يدنو من خيول المدفع الاول وشبحا السائقين يبرزان من عليها:

ــ فصيلة، إلى الأمام سر!

وتحرك كل شيء دفعة واحدة، وأخذ يتهفهف.

وطقطقت أعمدة العدّة الخشبية، وخشخش الثلج صلباً تحت عجلات المدفع المتجمدة. وترددت أصوات أقدام عديدة متفاوتة الوقع.

وعندما سارت الفصيلة في الطريق دسّ شخص في يد كوزنيتسوف قطعة بقسماطة يابسة خشنة.

وبلغ كوزنيتسوف صوت دافلانيان:

ــ أنت جائع كالذئب، ها؟ خذ، وستشعر بارتياح. قضم كوزنيتسوف قطعة البقسماطة، شاعراً بتقلص حلو للجوع في معدته، وقال بتأثر:

ــ شكراً، يا غوغا. كيف احتفظت بها حتى الآن؟

ــ لا تقل كلاماً فارغاً. هل نحن ذاهبون إلى الجبهة؟

ــ على الأرجح، يا غوغا.

ــ ليت ذلك يتم بسرعة. كلمة شرف...

الفصل الثالث

بينما كان شيء على ما يبدو، قد أثر ووضع وثبت في هيئات الأركان الألمانية العليا، وبينما كانت فرق مانشتين للدبابات قد بدأت القتال لفتح ثغرة في منطقة كوتيلنيكوفو لتنفذ منها إلى ستالينغراد التي مزقتها معركة تدور رحاها منذ أربعة أشهر وتلتقي بتشكيلة الجنرال باولوس التي تضم أكثر من ثلاثمائة ألف رجل، والمحاصرة بجبهاتها بين الثلوج والخرائب منتظرة الخروج بلهفة، في ذلك الوقت بالذات وجه جيش آخر شكل حديثاً في المؤخرة، بأمر من قيادتنا العليا، إلى الجنوب، عبر سهوب مترامية الأطراف للالتقاء بمجموعة الجيش الصدامية المسماة «غوت» التي كانت تضم ١٣ فرقة. كانت عمليات هذا الجانب وذاك تشبه كفّتي ميزان وُضعت فيهما الآن جميع الإمكانيات، دون الالتفات إلى ما يمكن أن يُلتفت إليه في ظروف أخرى.

،،، كانت السيارة المغنومة من طراز «خورخ» تنطلق مهتزّة في الطريق سابقة الطابور تارة، ومتأخرة عنه أخرى. وكان الجنرال بيسونوف يجلس بلا حراك دافناً رأسه في ياقته المرفوعة، ينظر من خلال الزجاجة الأمامية، ملتزماً الصمت منذ أن غادر مقر أركان الجيش. وكان صمت القائد الطويل هذا يفهم من قبل الذين كانوا في السيارة فهماً خاصاً، كميل منه إلى الانكماش، وكحاجز لم يحزم أحد منهم أن يكون البادئ على اجتيازه. وهكذا كان فسنين قوميسار الفرقة وعضو المجلس

الحربي صامتاً. وكان مرافق بيسونوف الميجور بوجيتشكو الشاب المحب للعشرة يتظاهر بالنوم منكمشاً في زاوية مقعده في الخلف، بينما كان فكره منذ بداية السفر مشغولاً بفكره واحدة هي أن يقصّ آخر نكتة في أركان الحرب، إلا أن مناسبة لم تسنح، و لم يغامر في التجاوز على صمت القائد الثابت.

لم يعد بيسونوف يفكر بأن صمته المتعمّد على ما قد يبدو يمكن أن يفسّر كنفور من المخالطة. أو عدم مبالاة اعتدادية بالمحيطين به. فقد كان يعرف بالتجربة منذ زمان أن تبادل الحديث أو التزام الصمت ما كان ليستطيع تغيير علاقاته مع الناس. و لم يرد أن يثير إعجاب الجميع، كما لم يرد أن يبدو لطيفاً في عيون جميع الذين يحادثهم. فإن مثل لعبة الغرور الرخيصة هذه لكسب الود كانت دائماً تقرفه، وكانت دائماً تثير ضيقه من الآخرين، وتنفره، كالخفة الفارغة، أو كضعف رجل لا يثق بنفسه. لقد أيقن بيسونوف منذ زمن طويل أن الكلمات الزائدة في زمن الحرب مثل الغبار الذي يحجب أحياناً الوضع الحقيقي للأمور. ولهذا السبب كان يستفسر قليلاً عن فضائل ونواقص قادة الفيالق والفرق، بل يدور عليهم، ويتعرف عليهم بطريقة جافة تقريباً، ويتمعن في كل واحد منهم عن قرب، غير مبد للرضى التام، ولا لخيبة الأمل الكلية.

وما كان يراه الآن من وراء زجاج «خورخ» في ضوء مصباحي السيارة المتوهج حيناً في الضباب الصقيعي وجوه الجنود والأمراء الغاطسة كوجوه النساء في بطانة القلنسوات الصوفية المتجمدة، والحركة اللانهائية للأحذية اللبادية المجرجرة على الطريق ــ لم يكن لينبؤه عن انهيار مفزع «للروح القتالية»، بل عن مجرد تعب بالغ ساحق، خارج عن سلطته. لقد كان يتعيّن على هؤلاء الجنود الغائصة رؤوسهم في

بطانة القلنسوات أن ينزلوا إلى القتال، ولربما سيلقى كل خامس خمسة منهم حتفه أبكر مما كان يظن. إنهم لم يكونوا يعرفون، وما كان في مقدورهم أن يعرفوا أين ستبدأ المعركة، و لم يكونوا يعرفون أن الكثيرين منهم يقومون بآخر مسيرة في حياتهم قبل دخول المعارك. وقد حدّد بيسونوف بوضوح وتبصُّر مدى الخطر المقترب. كان يعرف أن الجبهة في ناحية كوتيلنيكوفو لا تكاد تصمد، وأن الدبابات الألمانية قد تقدمت خلال ثلاثة أيام أربعين كيلومتراً باتجاه ستالينغراد، و لم يبق أمامها الآن غير حاجز واحد هو نهر ميشكوفا، ومن ورائه يمتد سهب منبسط حتى الفولغا. كما أن بيسونوف كان يدرك أنه، في هذه اللحظات، بينما كان يفكر في الوضع المعروف له، وهو جالس في السيارة، كان جيشه من جانب وفرق مانشتين للدبابات من جانب آخر يزحفان بنفس الاصرار إلى ذلك الحاجز الطبيعي، وأن أشياء كثيرة، وأن لم يكن كل شيء تتوقف على من سيكون السابق في الوصول إلى نهر ميشكوفا.

رغب في أن ينظر في ساعته، غير أنه لم ينظر، و لم يتحرك بعد أن فكر بأن هذه الحركة ستحطم الصمت، وتكون ذريعة للحديث، وهو ما لم يرغب فيه. ظل ملتزماً الصمت على سابق عهده، مستنداً على عصاه بجموده الحجري، ممدداً رجله الجريحة إلى دفء المحرك بعد أن وجد موضعاً مريحاً لها يستطيع أن يبقى فيه وقتاً طويلاً. كان سائق السيارة الكهل ينظر بمؤخرة عينه من حين لآخر، فيرى، في الضوء الخافت المنبعث من لوحة المقاييس في السيارة، زاوية عين الجنرال الرصاصية الغامضة، ووجنته الجافة، وشفتيه المضمومتين بقسوة. إن هذا السائق الكثير التجربة الذي نقل قواداً متعددين، كان يفهم الصمت الذي يسود السيارة على طريقته الخاصة ــ كأثر لمشاجرة قبيل السفر أو تعنيف من قبل قيادة الجبهة. وفي الخلف كانت أعواد الثقاب تشتعل بين

أونة وأخرى بوهج صغير، ويتوقد في الظلمة طرف السيكارة المشتعل أحمر في يدي القوميسار، ويصرف جلد الحمّالة، وفي ركن المقعد كان بوجيتشكو المرح دائماً ما يزال ماضياً في تظاهره بالنوم.

كان السائق يفكر مع نفسه: «غير راض عن شيء ما أم أنه غير اجتماعي في طبعه». وفي نفس الوقت كان كلما توهّج رأس سيكارة خلفه اشتهى أن يمصّ نفساً واحداً على الأقل. ويتابع السائق تفكيره: «وهو لا يدخّن، أنه مريض، على ما يدو، ووجهه شاحب. أم لعلّي أطلب منه إذناً: اسمح لي، أن أدخن سيكارة، إيّها الرفيق القائد. أذناي تورمتا من قلّة التدخين...».

وفجأة قال بيسونوف:

ـــ أشعل مصباحي السيارة.

جفل السائق من هذا الصوت، وأشعل المصباحين. وشق الضباب الصقيعي شريط ضوئي جبّار.

وفي شريط الضوء الساطع رأى بيسونوف في طرف الجسر، بالقرب من الحاجز المحطّم، شبح ملازم شاب منتصباً في معطفه الطويل له صوت عال نحيل كصوت الديك، وأذن برزت من القبعة على نحو غريب. كان الملازم الشاب تارة ينظر إلى الأسفل بحيرة، وتارة يرمق السيارة وكأنما لأول مرة لم يفهم شيئاً، ناشداً الحماية من أحد.

وفكر بيسونوف: «فكتور... نعم، أنه فكتور».

في الآونة الأخيرة كانت جميع الوجوه الشابة التي يلتقي بها بيسونوف عرضاً تثير في نفسه نوبات من الشعور الممض بالوحدة، وبالذنب الأبوي الغامض نحو ابنه، وكان كلما أكثر التفكير فيه في هذه الأوقات ازداد تصوُّره بأن حياة ابنه كلها قد سارت دونه مغمورة على نحو فظيع، وانسلّت منه انسلالاً.

لم يكن في وسع بيسونوف أن يتذكّر على وجه الدقة تفاصيل طفولة ابنه، ولم يكن في وسعه أن يتصوَّر ما اغرم به، وأيّة لعب كانت له، ومتى دخل المدرسة. إلا أنه كان يتذكر بوضوح خاص حادثة واحدة (حدثت في آسيا الوسطى)، حين هبّ ابنه ذات ليلة من حلم مفزع، كما يبدو، وأخذ يبكي، ولما سمع بيسونوف البكاء اشعل النور. كان ابنه يجلس في السرير نحيلاً، وقد غرز يديه الرقيقتين المرتعشتين في شبكة السرير. عندئذ أخذه بيسونوف وحمله متحسساً بصدره المشعر جسمه الواهن المنكمش، واضلاعه الناعمة، شاعراً برائحة شبيهة برائحة زغب العصافير تفوح من الشعر الرطب الأشقر في قمة رأسه، وراح يذرع به الحجرة متمتماً بكلمات تنويمية مرتجلة، مأخوذاً برقة الغريزة الأبوية: «لا، يا بني، لن أسلّمك لأحد. سنظل أنا وأنت سوية...».

إلا أنه كان يتذكَّر، على نحو أسطع، شيئاً آخر صار يعذِّبه فيما بعد: يوم أن انتزعت زوجته المذعورة الحزام من يديه، وكان يضرب به ابنه الطفل في الثانية عشرة من العمر، موجهاً ضرباته على بنطلونه الرخيص المشدود على جسمه، والمعفر بغبار حجرة السطح. والطفل لا ينبس بنأمة. وعندما ألقى الحزام، خرج الابن راكضاً، والتفت عند الباب عاضاً على شفتيه. وقد احتبست دموع الصدمة الطفولية في عينيه الرماديتين الشبيهتين بعيني أمه.

وأنها المرة الوحيدة التي ألحق فيها ألماً بابنه. وكان قد سرق من مكتبه نقوداً ليشتري بها حماماً... وتعجَّب: أمن المعقول أن فكتور كان يربي الحمام في حجرة السطح؟ وقد عرف ذلك فيما بعد أيضاً.

كان بيسونوف يُنقل من صقع إلى صقع: من آسيا الوسطى إلى الشرق الأقصى، ومن الشرق الأقصى إلى بيلوروسيا، وفي كل مكان كان يجد

شقة ميرية، وأثاثاً ميريا لا يعود له، وكان يسافر ومعه حقيبتان. وقد تعودت زوجته على ذلك منذ زمن، وصارت مستعدة على الدوام لتغيير المكان، والانتقال إلى التعيين الجديد. كانت تتحمّل صليبها وصليبه الثقيل دون تأفف.

وكان يبدو أن هذا ما كان يجب. ولكن بعد ذلك بوقت طويل، بعد معركة موسكو، حين كان راقداً في المستشفى، كان يفكر في الليالي بزوجته وابنه فيدرك أن أشياء كثيرة لم تكن كما كان يجب أن تكون، وأنه كان يعيش ما يشبه مسودّة حياة مؤملاً طوال الوقت في أعماقه القصوى أنه بعد سنة أو سنتين سيعيد كتابة حياته بصيغتها النهائية ــ في الثلاثين أو الأربعين من العمر. إلا أنّ التحوّل السعيد لم يحدث. بل بالعكس ارتفعت رتبه ومناصبه، وفي الوقت نفسه اندلعت الحروب ــ في اسبانيا. في فنلنده، وأخيراً جاء عام ١٩٤١. والآن لم يعد يضع لنفسه تواريخ مرحلية، مفكراً فقط بأن هذه الحرب لا بد أن تغيّر أشياء كثيرة.

وفي المستشفى عنّت له لأول مرّة فكرة أن حياته، حياة رجل عسكري، لا يمكن أن تكون، في أغلب الظن، إلا في الصيغة الوحيدة التي اختارها بنفسه مرة وإلى الأبد. ولم يذهب شيء من حياته سدى. ولا يمكن أن تعاد صياغتها من جديد. وما من حاجة إلى ذلك. إنه كالمصير: أما هذا أو ذاك ولا وسط بينهما. ولو قدر له أن يختار مرة أخرى لما غيّر صيرورته. إلا أن بيسونوف، وقد أدرك ذلك، وعى شيئاً لا يغفر: هو أن الشيء الذي كان أقرب إلى نفسه في الصيغة الوحيدة المتاحة له لحياة اختارها، قد أنسل، وتجاوزه خطفاً، وكأنما في ضباب، ولم يجد هو التبرير لا أمام ابنه ولا أمام زوجته.

كان آخر لقاء له مع فكتور قد تم في ذلك المستشفى ذاته في ضواحي

موسكو، في الردهة المخصصة لذوي الرتب العالية في الجيش. وكان ابنه قد تلقى تعيينه بعد تخرجه من مدرسة المشاة، وجاء مع أمه ليعود أباه قبل ثلاث ساعات من خروج قطاره إلى الجبهة. جاء ببزّة ملازم ثان جديدة تتألق عليها مكعبات الرتب القرمزية، ويهسهس فوقها مترفاً نطاق الآمرية الجديد وحمّالة الحزام، جاء في حلة احتفالية سعيداً مهيباً كان لا بد محطّ أنظار الفتيات في الشارع، إلا أنه بدا في قشابته كلعب الأطفال. وجلس على السرير المجاور (وكان صاحبه الجنرال المسموح له بالمشى قد خرج بأدب) وتحدث بصوت عالي النبرة حيّ متكسر عن تعيينه في الجيش المقاتل، وكيف أنه «زهق» من تلك الأوامر التي ترددت في المدرسة بلا انقطاع من مثل «قف، تراصف، استعد!». والآن، والحمد لله، فسيسلمونه في الجبهة سرية أو فصيلة ـ شأنه شأن جميع الخريجين ـــ وتبدأ الحياة الحقيقية.

وفي الحديث سها فأخذ يدعو بيسونوف بـــ«أبي» لا بـ «بابا» وهو أمر له يفعله من قبل، وكان يجب أن يتعوّد عليه. بينما راح بيسونوف ينظر إلى وجهه الحيّ ذي العينين الرماديتين المرحتين، والزغب الرقيق على الخدين، وإلى اليد الرقيقة، يد فتى مقتدر، غفل قليلاً فربت بها على الجيب الجانبي لبنطلون الركوب العسكري. ووجد بيسونوف نفسه يفكر في فتيان آخرين ـ برتبة ملازم ثان وملازم أول ـــ امراء فصائل وسرايا كان دائماً تقريباً يراهم مرة واحدة، وبعد المعركة التالية يأتي آخرون...

قطعت زوجته الحديث قائلة، وهي تراقب ابنها بقلق:

ــ أرجو، يا بيتيا[٤]، أن تسمح له بالتدخين.

سأل بيسونوف مندهشاً في دخيلة نفسه دهشة غير مريحة:

ــ هل أنت تدخن،، يا فكتور؟

إلا أنه قرب منه سكائر جاره الجنرال وعلبة ثقابه، وكانتا موضوعتين على الطاولة الصغيرة:

ــ خذ، هذه...

ــ أنا في الثامنة عشرة، يا أبي. والجميع في المدرسة يدخِّنون. لا استطيع ان أكون غراباً أبيض بين الغربان.

ــ وتشرب، كما يبدو؟ جرَّبتها؟ ولكن بصراحة: أنت ملازم ثان الآن، رجل مستقل.

ــ نعم، جرَّبتها. شكراً، عندي سكائري. هل ممكن أن أدخن؟ ألا يضرك أن يدخن أحد بالقرب منك؟

قال الابن بسرعة، واحمرّ، ونفخ في الجانب الفارغ من السيكارة، وأشعل عود ثقاب بطريقة خاصة، مثلما يشعل في الجبهة، بتكوير الكفين، وهذا ما تعلمه من أحد الطلاب في المدرسة على ما يبدو. وأخذ يتحدث بحيوية ليخفي ارتباكه:

ــ اتصور ماذا كان سيحدث لو أنك عرفت بذلك من قبل... لعاقبتني بالضرب؟

وراح يدخن بطريقة غير ماهرة، نافثاً الدخان في الأسفل، إلى تحت السريرين، مثلما كان يدخن في ثكنة المدرسة، خائفاً من ظهور الآمر

---

(٤) اسم مصغر لبطرس.

الخفير. تبادل بيسونوف وزوجته النظرات صامتين.

أجاب بيسونوف بصوت كامد:

ـــ لا، لن يتكرر ذلك الحادث. أحقاً أنك تظنني أباً قاسياً؟

قال الابن:

ـــ على كل حال كنت على حق فيما فعلت آنذاك. كان يجب أن تضربني. لقد كنتُ أحمق!

كان يقول ذلك ضاحكاً بعد أن تذكر ما صار يؤلم بيسونوف الآن بشكل خاص، وهو إلحاق أذى جسمي بابنه.

هتفت الأم بصوت خاقت وعصرت بأصابعها يد بيسونوف المطروحة على البطانية:

ـــ عجباً! يا رجليّ الاثنين... الآن أصبح لي رجلان راشدان! إن شيئاً غريباً يجري دون أن تشارك فيه، يا بيتيا. إن فكتور مسافر إلى جبهة فولخوفسكي للالتحاق بجيش غير معروف... أمن المعقول أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً لتنقله إليك، في إحدى فرقك؟ على الأقل سيكون أمام عينيك. أتفهم؟

وكان يفهم كل شيء، ويعرف أكثر منها المصائر القصيرة كعمر الفراشات، مصائر أمراء فصائل وساريات المشاة. وقد فكر في ذلك غير مرّة. وأراد أن يمسّد على يد زوجته الصغيرة مهدئاً، إلا أنه أمسك نفسه بحضور ابنه.

قال بيسونوف، وهو يحدّق بابنه بامعان، ولكن يوجِّه كلامه إلى زوجته وحدها:

ـــ أنا الآن، يا أولغا، كما ترين: جنرال بلا جنود. وعندما يتضح الموقف فعلياً سأنقل فكتور، إذا كان بالطبع...

ولم يدعه ابنه يكمل جملته. نفث دخانه. وهزّ رأسه نفساً:

ــ كلا، يا أبي! أكون تحت رعاية أبي الجنرال؟ كلا! ولا تتحدثي بذلك، يا أمي! ربما تريدين أن أكون من مرافقي أبي أيضاً؟ ويأخذ بمنحي النياشين؟

قال بيسونوف:

ــ لن أعينك مرافقاً لي. ولكن أعطيك سرية. أما النياشين، فلن أقلدها لك بدون استحقاق. رغم أنني أعرف أن الناس يستلمونها بطرق مختلفة.

ــ كلا! إن الفتيان في المدرسة كانوا يسألونني وعلى شفافهم ابتسامات معروفة الدلالة: «ستلتحق بأبيك الآن؟» لا أريد، يا أبي! ما الفرق في أن أقود سرية هنا أو هناك؟ ثم إن أمر تعييني في جيبي. نحن أربعة أشخاص من المدرسة نريد أن نذهب سوية إلى مكان واحد. درسنا سوية، وسنخرج للهجوم سوية! وإذا حدث شيء فتلك قسمتنا! ولا توجد قسمتان، يا أبي! ــ ثم كرر هذه الكلمات التي يبدو أنه سمعها من أحد الناس قائلاً: ــ لا توجد قسمتان! كلمة شرف، يا أمي.

اكتفى بيسونوف بأن حرّك أصابعه، تحت كف زوجته الرطبة، ولزمت الزوجة الصمت أيضاً. كان بيسونوف يرى في ضوء مختلف بعض الشيء ما بدا لابنه الآن واضحاً وبسيطاً، وما أثار بهذا الشكل تلهّفه للحياة المستقلة الجديدة، وللرفقة القتالية، والهجمات المقدامة والمظفرة دائماً بالطبع. لقد كان يعرف جيداً أي شيء هو ميدان القتال، أي قبح يتسم به الموت في الحرب أحياناً.

ولكن لم يكن له الحق في أن يكشف لابنه كل شيء، ويحطّم فيه خيال الشباب الساذج تحطيم الداري الملتصق بالأرض. كما أن ابنه لن يستوعب الآن شيئاً مما يقوله. فقد كان فكتور على ما يبدو لا يشعر إلا

بشيء واحد: هي تلك الخشخشة المسكرة التي يرسلها أمر السفر إلى الجبهة، الموضوع في جيب قميصه العسكري الجديد. والحرب وحدها كانت تملك الحق في إدخال التعديلات الواقعية.

قال بيسونوف:

ـ القسمة. أنت تتحدث عن القسمة، يا فكتور. ولكن القسمة في الحرب ليست طائراً في أجواز السماء على أية حال. بل هي، مهما يبدو ذلك غريباً عليك، مغالبة لنفسك كل يوم، وكل دقيقة.... مغالبة تفوق طاقة البشر، إذا أردت أن تعرف. ومع ذلك فليست هذه هي المسألة...

وافقه الابن غير مكترث:

ـ نعم، ليست هذه هي المسألة، ولن نخوض في طلاسم الفلسفة ـ ثم سأل، وهو يشير إلى قدم ابيه المشدودة تحت البطانية:

ـ والآن هل تحسنت؟ هل ستغادر المستشفى قريباً؟ أنا أتصور أي ضجر يصيب الراقد هنا. أنا أعطف، يا أبي! هل توجعك قدمك؟ أوه، اللعنة، حان الوقت... الفتيان ينتظرونني. حان وقت الذهاب إلى المحطة! ـ ونظر في ساعته نظرة سريعة. ومن حركته هذه كان من الممكن الفهم أنه ما يزال لا يتصور ما هو الألم، بل ولربما لا يتصور حتى إمكانية وجود الألم بحد ذاته.

قال بيسونوف:

ـ آمل أن أخرج من هنا. أما أنت فاطلب منك شيئاً واحداً: وهو أن تكتب لأمك، ولو مرة واحدة في الشهر.

ـ أربع مرات في الشهر، خذها كلمة مني!

ونهض فكتور سعيداً من التفكير في أنه أخيراً سيركب عربة القطار مع زملائه في المدرسة.

قالت الأم معدّلة:

ـ لا، مرتين، يا فكتور. ولا حاجة لأكثر من ذلك. على الأقل ساعرف...

ـ أعدك، يا أمي، أعدك. والآن آن لنا أن نذهب!

ثم تذكر بيسونوف شيئاً آخر.

كيف وقف ابنه، قبل خروجه، مبتسماً متردداً غير عارف هل يقبل أباه (و لم يكن ذلك متعارفاً عليه في العائلة)، و لم يحزم أمره، و لم يقبِّله، بل مدّ يده كما يفعل الكبار:

ـ إلى اللقاء، يا أبي!

إلا أن بيسونوف ضغط على أصابع ابنه الرخصة، وجذبه إليه، وقدم خده النحيف الحليق، كما هو دائماً، وقال عابساً:

ـ لا بأس! لا أعرف متى سنلتقي مرة أخرى ـ إنها الحرب، يا ولدي.

وكانت هذه أول مرة يدعوه فيها بـ»يا ولدي» خلال الحديث كله، ولكن لم يقلها بالنغمة التي قال بها فكتور كلمة «يا أبي».

مسّ فكتور بشفتيه طرف فم أبيه بشكل مرتبك، بينما قبّل بيسونوف خد ابنه الحار متشمماً من قميصه العسكري الرائحة الحلوة لعرق الفتيان، وقال:

ـ سافر! ولكن تذكر أن شظايا القنابل والرصاص تعاف الشيوخ، وتبحث عن الشبان من امثالك... واكتب لي إذا غيّرت فكرك، وسأجد لك سرية. والآن لك التوفيق، أيها الملازم الثاني!

ـــ تشافَ، يا أبي! وسأراسلك بعد المعركة الأولى.

وضحك، وعدّل تغضنات قميصه الأنيق من النوع الذي يلبسه أمراء الوحدات، ودفع بارتياح قراب مسدسه الجلدي الأصفر اللامع، وتناول من على ظهر السرير ممطر الجديد المخشخش، وألقاه على ذراعه بحركة رشيقة. في تلك اللحظة تناثر شيء على أرض الردهة المشمسة مرسلاً دربكة متتابعة. إنه رصاص جديد ذهبي اللمعان لمسدسه كان قد حشا به جيوب ممطره. بعد التخرج من المدرسة كان يُعطى لكل متخرّج مشطان من الرصاص لا غير، إلا أن فكتور استطاع بطريقة ما أن يزيد احتياطيه منها حتى ليكفيه لعدة شهور من الحرب، في أغلب الظن.

استدار بيسونوف نحو النافذة و لم يقل شيئاً. بينما ابتدرت الأم تقول بصوت آس:

ـــ ما هذا؟ ما حاجتك إلى كل هذا؟ دعني... أعينك. كم رصاصة أعطوك؟

ـــ سأجمعها أنا... انتظري، يا أمي. هذه للطوارئ.

وأخذ فكتور يجمع الرصاصات من الأرض مرتبكاً بعض الشيء. وعندما رفع قامته وأخذ يحشيها في جيوبه لمح رصاصة أخرى قد تدحرجت. التفت فكتور إلى أبيه (وكان أبوه ينظر في النافذة) وقذف هذه الرصاصة في زاوية بضربة خفيفة من رأس حذائه من الجلد الكروم، وخرج بوجه متألق سعادة، وكأنما خارج لنزهة، في بزّة ملازم ثان، قشيباً كدمى الأطفال، ملقياً ممطره الجديد على ذراعه، موسوساً بأحزمته.

وفيما بعد وجد بيسونوف هذه الرصاصة المصقولة كالمرآة تحت أنابيب التدفئة، وحملها في راحته طويلاً شاعراً بخفتها الغريبة.

الفصل الرابع

كان استدعاؤه إلى مقر القيادة العليا مفاجأة له. لم يكن بيسونوف في تلك اللحظة موجوداً في شقته في موسكو، بل كان في الأكاديمية حيث كان يحاضر في تاريخ الفن العسكري قبل عامين من اندلاع الحرب. وكان يعرف أن أمر تعيينه الجديد سيصدر حتماً، فذهب لزيارة صديقه القديم رئيس الأكاديمية الجنرال فولوبوف زميله السابق في الحملة الفنلندية، والخبير البصير الدقيق في التكتيك الحديث، وهو رجل متواضع غير معروف كثيراً في الأوساط العسكرية، إلا أنه كثير الحنكة كان بيسونوف يقدر نصائحه دائماً. وجرى بينهما حديث هادئ تخللته الذكريات أثناء احتسائهما الشاي في مكتب الجنرال، وإذا بجرس التلفون يدق، ويقطع الحديث. ردّ رئيس الأكاديمية بالعبارة المعتادة «الفريق فولوبوف» ورفع عينيه إلى بيسونوف وقد تغيّر وجهه، وأضاف همساً:

ــ النداء لك، يا بيتر الكسندروفيتش... مساعد الرفيق ستالين يطلبك.... خذ السماعة، رجاء.

تناول بيسونوف السماعة بتردد. وإذا به يسمع صوتاً غريباً مستوياً خافتاً ممرّناً على الهدوء يهنؤه دون أي ظل للهجة الأمر، داعياً إياه بـ«الرفيق بيسونوف» لا برتبته العسكرية، ثم يسأله بأدب عما إذا

كان في إمكانه أن يأتي اليوم لمقابلة الرفيق ستالين في الساعة الثانية بعد الظهر، وإلى أين يمكن أن يرسل السيارة لنقله.

رد بيسونوف:

ـــ إلى مدخل الأكاديمية، إذا لم يكن ذلك صعباً. ـــ وبعد أن فرغ من المحادثة صمت طويلاً تحت نظرة الجنرال فولوبوف المتسائلة، محاولاً ان لا يظهر القلق الذي استولى عليه فجأة، وكان دائماً لا يجب أن يرى علائمه على الآخرين. ثم نظر في ساعته، وقال بصوته المعتاد:

ـــ بعد ساعة ونصف... يجب أن أكون عند القائد الأعلى... تلك هي أحوالنا...

أمسك رئيس الأكاديمية بيسونوف من كوعه وحذره قائلاً:

ـــ رجائي الوحيد، يا بيتر الكسندروفيتش، أن لا تستعجل في الاجابة عن أي شيء تُسأل هناك. كل الذين قابلوه يقولون إنه لا يحب المتنطّعين. ثم أتوسل إليك أن لا تنسى فتسميه باسمه واسم أبيه، بل سمّه بالصيغة الرسمية: الرفيق ستالين. إنه لا يتحمّل أن يخاطب الإنسان باسمه واسم أبيه... في المساء سأمر عليك لتحكي لي كل شيء بالتفصيل...

كانت حيطان غرفة الاستقبال الملاصقة لمكتب ستالين مغطّاة بألواح من خشب البلوط، وكان يتسرّب إلى هذه الغرفة من النوافذ ضوء بارد بائس حزين يرسله نهار من نهارات أواخر الخريف. وقد جلس على مقعدين من المقاعد القوية الخشنة التنجيد جنرالان لا يعرفهما بيسونوف طاوين ساقيهما في صمت الانتظار. عندما دخل بيسونوف مصحوباً بالعقيد الكهل الأشيب الذي رافقه في السيارة نهض من وراء مكتب عريض صفت عليه التلفونات رجل أصلع قصير القامة في بدلة مدنية متواضعة تطل من وجهه الخالي من كل سمة، والرمادي من الارهاق،

ابتسامة لا تعبير فيها. صافح بيسونوف بيد رخوة هشّة العظام ناظراً في حدقتي عينيه، وقال إن عليه أن ينتظر وقتاً، رغم أنه لم تحدد مدة الانتظار، ورافق بيسونوف بنفسه ليجلس في مقعد شاغر قرب الجنرالين قائلاً:

ـ تفضل إجلس هنا...

جلس بيسونوف، بينما عاد الأصلع المرهق ذو اللباس المدني ـــ وهو نفس الرجل الذي تلفن له في الأكاديمية ـــ وابتسم له ابتسامة اعتذار، ومسّ عصاه بأطراف أصابعه الصفراء مساً خفيفاً، وبأدب معتاد قائلاً:

ـــ اسمح لي، يا بيتر الكسندروفيتش، أن أضعها في الركن. فسيكون ذلك أروح لك.

وحمل عصا بيسونوف باحتراس، ووضعها بهدوء في ركن وراء المنضدة، وعاد يجلس بهدوء إلى أوراقه وتلفوناته.

كان الجو هادئاً فيه فوح خفيف من رائحة الخشب، وأنابيب البخار الدافئة. وضجيج النهار في موسكو الخريفية والمغطاة بالثلج رغم ذلك، لم يكن ينفذ إلى هنا من خلال السمك القديم للأسوار الحجرية، حتى بوشوشة خفيفة. ولم يكن يسمع صوت إنساني، ولا وقع خطوات في الممر.

ولم يصدر في غرفة الاستقبال ذاتها صوت، ولا حركة، ولا صريف مقعد. لزم الرجل ذو اللباس المدني الصمت، مثلما لزمه الجنرالان الغريبان. كما صمت بيسونوف نفسه شاعراً أكثر فأكثر بإحساس غريب يتسلّط عليه بقوة، إحساس بتحلله في السكوت المصمت، وبعدم استعداده للحديث، وفي ذهنه إن في مكان ما، خلف الجدار، يمكن أن يوجد ستالين، وأنه بين لحظة وأخرى يمكن أن ينفتح الباب، ويدخل إلى

غرفة الاستقبال هذا الرجل الذي انطبع محياه في وعيه أرسخ واثبت من وجهي أبيه وأمه الراحلين.

وذلك، في أغلب الظن، ما كان يحس به هذان الجنرالان الغريبان، والرجل المتعب وراء المكتب.

كان كل شيء ينطق بوجود موصول يوماً بيوم للرجل المدبِّر لمصير الحرب، ولمصائر ملايين الناس المستعدين عن اقتناع للموت في سبيله، المستعدين للجوع والعذاب والتحمل، المتهيِّئين للابتسام سعادة، ومن مجرد تلويح ذراعه على منصَّة الاستعراض. كان كل واحد من الذين في غرفة الاستقبال ــ يغمره إحساس قوي بأنه ليس ذا أهمية تذكر، لسبب آخر أيضاً، هو أن اسم ستالين المعتاد الصلب الرنان، وكأنما لم يعد يخص شخصاً بعينه، كان مطلق الأهمية وعائداً للجميع كالعقيدة، كالأمل. وفضلاً عن ذلك كان هذا الاسم مرتبطاً بشخص وحيد قادر على أن يفعل ما كان يخص الجميع.

صار صمت غرفة الاستقبال يضغط عضلياً، يتلمس الجلد، والشعر، والظهر، وكأنه ضغط جاف لدن للهواء.

لم يعزم أحد على البدء في الحديث، فإن تردَّد صوت إنسان عادي كان من الممكن أن ينقل الجميع إلى حالة أخرى تحطم شيئاً ما مقدساً. باعد أحد الجنرالين، وهو فريق أول كهل ضخم الجرم، بين ركبتيه السميكتين، وغيّر وضعه، فإذا بقدميه ترسلان صريفا مفاجئاً وهما تحت المقعد، فبدا الفزع على وجهه من هذا الصوت، واحمرّ، ونظر بطرف عينه إلى جاره، وهو ضابط شاب أنيق الهندام برتبة فريق في المدفعية، كان يجلس مرفوع الصدر، ملّمعاً، وقد امتلأت بالنياشين سترته المكويَّة كيا لا ثنية فيها كان يحدِّق بالرجل الصغير ذي اللباس المدني الذي كان يقلب أوراقه دون انقطاع.

كانت الساعة الثانية وعشر دقائق بعد الظهر عندما عيّن الرجل الأصلع المتعب ذو اللباس المدني بعلامة معروفة له وحده حضور ستالين على مقربة.

نهض بحركة ناعمة، ودخل المكتب من دون أن يستدعى، ولما عاد من هناك ترك الباب موارباً ونبس:

ــ تفضل، يا رفيق بيسونوف.

دخل بيسونوف المكتب مجاهداً أن لا يعرج.

في اللمحة الأولى لم يستوعب بصره دقائق ذلك المكتب الرحب كالصالة، وقد عُلِّقت على جدرانه صورة لسوفوروف، وأخرى لكوتوزوف، وزوّد بطاولة مداولات طويلة يضفي عليها مفرشها الأخضر الجوخي مظهراً رسمياً، وبطاولة أخرى ضخمة بسطت عليها خارطة طوبوغرافية، وبأجهزة تلفونات، وسلك طويل لفّ حلقات على البساط الموشّى. ففي تلك اللحظة لم يكن بيسونوف المتوتّر بكل كيانه، المللموم على نفسه، يرى غير شخص ستالين القصير القامة، الذي لا يشبه في النظرة الاولى التصاوير المنشورة له. وقد أقبل يلقاه في مشية رقيقة متخلّجة قليلاً، في حذاء طويل ناعم، مرتدياً سترة من الطراز العسكري محبوكة على رمانتي كتفيه المتحدرتين. كان الشيب قد تبلّج من توه على شاربيه السميكين، وحاجبيه الكقيفين، وأطلّت في عينيه الضيقتين الضاربتين إلى الصفرة نظرة هادئة. وقد فكر بيسونوف مع نفسه: «عمّ سيسألني الآن؟».

سلّم ستالين دون أن يصافح بيسونوف، ودون أن يدعوه للجلوس، ولم يجلس هو أيضاً، بل سار على البساط الموشّى في خطى متساوقة غير مسموعة بحذاء الطاولة التي نشرت عليها الخارطة ممسكاً أمام بطنه ذراعه اليسرى وكأنه لا يستطيع أن يثنيها تماماً.

بعد صمت طويل نسبياً، سار ستالين إلى المكتب الموضوع في نهاية الغرفة، ووقف هناك مديراً نصف وجهه إلى بيسونوف، وسأل بلهجة لا تنم عن شيء:

ـ ما رأيك في الأحداث الأخيرة، يا رفيق بيسونوف؟

لم يفهم بيسونوف السؤال تماماً، فأراد أن يسأل مدقِّقاً: «في أية أحداث بالذات، يا رفيق ستالين؟» إلا أنه أجبر نفسه على أن يجيب بصوت متحفظ:

ـ إذا تناولنا الأحداث الأخيرة عند ستالينغراد، أيها الرفيق ستالين، فإنها قد تكون بداية لهجوم كبير، ولمرحلة جديدة للحرب كما يبدو لي، إذا كنا لا ندع الألمان يكسرون الجبهة الداخلية والخارجية للطوق...

ـ كما يبدو لك، أم أنت موقن من ذلك؟

ـ موقن، يا رفيق ستالين. أعتقد أن الكثير سيتوقف على قدرتنا على تتابع ضرباتنا لتقطيع وإبادة العدو في التطويق.

وصمت بيسونوف، وخيّل إليه أن ظهر ستالين المدوّر الضيّق قد تحرك، وكأنما يوقفه، ويوافقه على رأيه.

كان الجو في غرفة المكتب بارداً وهادئاً. تناول ستالين غليونه من المنفضة، واستدار عن المكتب، وأشعل عود ثقاب، وراح يشعل الغليون، محدِّقاً من فوق شعلة عود الثقاب بيسونوف، وتحدّث بعزم، وكأنما لم يسمع رد بيسونوف:

ـ هل لديك اعتراض إذا عيّناك قائداً لجيش قرب ستالينغراد، يا رفيق بيسونوف؟ نحن مطلعون جيداً على عمليات فيلقك في ضواحي موسكو، وتشاورنا مع روكوسوفسكي...

«إذن فالاشاعات عن تعييني الجديد صحيحة. هل أجيب بأنني على أية حال لا أفهم سبب تعييني، أم أجيب بأن هذا التعيين مفاجأة لي، وتلك صراحة حمقاء. يعني أن روكوسوفسكي هو الذي رشّحني. لم أكن أظن أن الأمر سيكون على هذا النحو».

ــ أيها الرفيق ستالين، أنا جندي، وإنّ التعيين في أي منصب هو أمر بالنسبة لي.

ــ أظن أنك قد تعالجت بما فيه الكفاية في المستشفى، والآن حان الوقت لأن تحارب، يا رفيق بيسونوف. اعتقد أنك لا تعترض على هذا أيضاً ــ وهزّ ستالين يده بفتور ليطفئ عود الثقاب، وقال: ــ تعال ننظر في الخارطة.

اجتاز بيسونوف المسافة إلى الطاولة بصعوبة وهو بدون عصا، وكأنما اجتاز حاجزاً. والآن صار يقف على مقربة شديدة من ستالين، حتى شمّ رائحة تبغه متبّلة حلوة المذاق قليلاً منبعثة من ملابس ستالين ورأى، من جانب، حاجبه العريض المشوب بالبياض، وبشرة وجنته الرمادية الخشنة المحببة بآثار الجدري، وعندما رفع ستالين عينيه المصفرتين، بعد اطلالة صامتة على الخارطة كان فيهما بريق رقيق لابتسامة تهكم مضمرة راضية.

بدأ ستالين القول بخفوت:

ــ لا اعتراض لي على آرائك، يا رفيق بيسونوف. لقد فكرنا في محاصرة العدو، في المعركة قرب موسكو أيضاً. ولكن لم تكن لنا قوة كافية، وذلك ينطبق على فيلقك أيضاً. كل جنرال يحلم بـ»كان»، يا رفيق بيسونوف. ولكننا شيوعيون، ونؤمن بالظروف الموضوعية. يقال إن هتلر كانت تعوزه في المعركة قرب موسكو فرقة دبابات مجلوبة من

الثكنات رأساً، وصيف طويل. وبعض الناس يدعون ظهور قانون جديد وهو أن العدو يهجم في الصيف، ونحن نضربه في الشتاء. لا، لا يمكن أن يكون مثل هذا القانون في الحرب. هذه أغان قديمة... تقول، مثل كان، يا رفيق بيسونوف؟ ــ كرر ستالين قوله مع إن بيسونوف لم يستعمل هذه الكلمة. مصّ ستالين الغليون... وكان قد انطفأ، إلا أنه لم يعمد إلى اشعاله ثانية. مرر نهاية الغليون بانسياب فوق منطقة ستالينغراد على الخارطة، وقال: ــ هنا وقع قطاع الطرق الهتلريون في المرجل. هذا أول حصار لنا على غرار حصار كان، يا رفيق بيسونوف. هل أنت متفق معي؟

ــ نعم، يا رفيق ستالين، أنا متفق معكم تماماً.

بعد وقفة طويلة واصل ستالين قوله:

ــ ولهذا فإن الجيش الذي نعطيه لك من احتياط القيادة العليا، وهو جيش مجهز بصورة جيدة، يوجه لتعزيز الجبهات الثلاث، واتمام تحطيمك الألمان في الحصار. ستقوم أنت بسحق باولو، وتحقيق عملية «طوق». ما هي آراؤك في هذا الخصوص، يا رفيق بيسونوف؟

قال بيسونوف، فاهماً السبب في تطرق ستالين إلى الوضع السابق في المعركة قرب موسكو، وتكراره الملحّ لكلمة «كان» ثلاث مرات، لدى حديثه عن الوضع الذي حصل في ستالينغراد نتيجة الهجوم المعاكس لجبهاتنا في تشرين الثاني:

ــ بودّي أن أقول، يا رفيق ستالين، أن كل شيء الآن متوقف على سرعة القضاء على هذه التشكيلة الألمانية الهائلة. ولا يستبعد احتمال أن يقوم الألمان بمحاولة كسر الطوق من الداخل، أو خرق الجبهة الخارجية بضربة والنفاذ إلى التشكيلة المحاصرة. لقد قيل لي إن عمليات قواتنا

للقضاء على التشكيلة المحاصرة قد تباطأت في الأيام الأخيرة، وأن الألمان يقاومون بشدّة، بل ويقومون بهجوم مضاد...

وفكّر بيسونوف في نفسه ما أن فرغ من عبارته الأخيرة: «إنه يعرف ذلك أحسن مني، يبدو أن حديثي في غير موضعه». إلا أن ستالين قرّب عود الثقاب المشتعل من الغليون، وهزّ رأسه هزّة خفيفة.

ــ تقول إنهم يقومون بمحاولة كسر الطوق؟ لست على خطأ، يا رفيق بيسونوف؟ هناك معلومات عن تحويل قوات ألمانية من أوروبا الغربية إلى جهة ستالينغراد... واصل كلامك.

ــ ولهذا السبب أود أن يُنقل الجيش إلى الجبهة بأسرع ما يمكن، يا رفيق ستالين.

مسّ ستالين شعرات كثيفة من شاربه الأصهب بمبسم غليونه، مفكراً، على ما يبدو، بفكرته الخاصة. وبعد دقيقة قال بلكنة جورجية ملحوظة جداً:

ــ علينا أن نقوم بعملية «طوق» لتقطيع التشكيلة المحاصرة وإبادتها لتقطيع وإبادة التشكيلة المحاصرة بقوات جبهة روكوسوفسكي، وبشكل أساسي، بقوات جيشك، يا رفيق بيسونوف. في موعد لا يتعدى الثالث والعشرين من كانون الأول. فالمسألة أيضاً أن جنودنا، وحتى أمراء وحداتنا قبل ستالينغراد لم يتعودوا، كما ينبغي، على المحاصرة، وتوجيه الضربات المميتة إلى العدو المحاصر. إن كلمة «ألماني» ظلت مدة طويلة ترادف القوة النشيطة جداً. وهذا عامل نفسي يجب تحطيمه في وعي الناس، إلى الأبد. أليس كذلك، يا رفيق بيسونوف، أم ليس بالضبط؟

قال بيسونوف:

ــ أظن، يا رفيق ستالين، تراجع عام ٤١ لم يُمْنح بعد كلياً من وعي الجنوب. وكذلك صيف ٤٢. إلا أن التحوّل هو بسبيل الحدوث، أو قد حدث بالفعل... فالجنود أخذوا يدركون أن الحرب قد اتخذت منقلباً آخر، وإننا نحن الذين أخذنا نحاصر لا الألمان.

لم تختلج عضلة واحدة في وجه ستالين الرصين الرمادي الضارب إلى الصفرة لا بما يدل على الموافقة، ولا على الاعتراض، وأخذ يروح ويجيء على البساط السميك الكاتم لوقع الخطى ساعلاً أو متنحنحاً من حنجرته الموجعة، بينما كانت ذراعه اليسرى المتصلبة المطوية من المرفق خارجة قليلاً أمام بطنه، وكتفاه الضيقتان المنحدرتان منطويتين قليلاً. إلا أن بيسونوف تصوّر فجأة أن ستالين في تلك اللحظة لم يكن مرتاحاً من شيء، ومهموماً، ربما من جراء التذكير بعام ٤١، أو الإشارة إلى تباطؤ عمليات قواتنا ضد تشكيلة باولوس المحاصرة. فقد كانت النظرة التي لمحها في عيني ستالين حين اقترب منه مبوأرة ببرود، وقد حافظ ستالين على النظر إليه بتصميم هادئ. ثم شرع يتحدث غير موجه كلامه إلى بيسونوف، بل كالمخاطب نفسه أثناء التفكير، وكأنه يزن كلماته بميزان دقيق:

ــ ما هي مهمة القائد وغايته؟ إن مهمة القائد الأساسية هي تقصّي العدو. التهيّؤ وانتهاز الفرصة. تمرين العضلات. وتوجيه الضربة مباغتة، وإحراز النصر.

وشدّد على عبارة «احراز النصر» بإيماءة، وللمحة واحدة صار وجهه الخشن المحبب بآثار الجدري الصغيرة ينطق بالرضى.

وأكمل ستالين قوله مشدداً على الكلمات مرة أخرى:

ـ إن ذوي الإيمان المزعزع سيهزمون جميعاً. جبناء ومتشككون وخائرو العزم، يا رفيق بيسونوف. ومثل هؤلاء ما يزالون موجودين، مع الأسف.

واتجه ستالين نحو المكتب في نهاية الغرفة متخذاً هيئة رجل عابس غير مستعد إلى الاصغاء الآن، ورفع سماعة التلفون. إلا أنه تنحنح وسعل وأعاد السماعة إلى موضعها ببطء. ومرت دقيقتان وقف فيهما ستالين بلا اكتراث مديراً جنبه إلى بيسونوف، وكأنما قد نسي وجوده. وبعد ذلك مدّ يده الصغيرة الداكنة السمرة المغطاة بشعر ذهبي، ودقّ الغليون المنطفئ ليخرج الرماد منه. وفتح علبة سكائر على المكتب، وأخذ يسحق السكائر فوق المنفضة بين أصبعيه، ويفتت التبغ في الغليون.

فكّر بيسونوف مع نفسه: «أعطاني إشارة إلى أن انصرف. يبدو أنه استدعاني ليلقي نظرة على قائد الجيش الجديد، وخرج غير راض كثيراً عني. إذن، فإن تعييني قائداً للجيش بمشورة روكوسوفسكي كان مصادفة، كما كنت أتصور...».

مضى ستالين يفتت التبغ في الغليون، ويرصُّه، وبعد وقفة مطّولة استأنف الكلام بخفوت شديد:

ـ خبّرني، يا رفيق بيسونوف، لقد كنت تدرس في الأكاديمية، ثم أخذت تدرّس فيها... هذه حقيقة معروفة. فهل كنت متعرّفاً على الجنرال فلاسوف؟

وطاف في ذهن بيسونوف: «لماذا سألني عن فلاسوف؟ ما الذي جعله يتذكر فلاسوف؟».

ـ كنت متعرفاً عليه. ـ ردّ بيسونوف بقلب واجف، وكان قد سمع من العاملين في القيادة العامة عن أحداث حزيران في جبهة فولخوف،

وعن مأساة جيش الصدام الثاني الذي كان يخدم فيه ابنه المفقود الآن. كرر بيسونوف القول: ــ كنت متعرفاً عليه. فقد درسنا في الأكاديمية في وقت واحد...

ــ ما هو رأيك الشخصي في فلاسوف تلك السنوات؟ يقولون إنه كان مغروراً وسريع التكدّر للغاية.

ــــ لم يكن ذلك ظاهراً، يا رفيق ستالين، في تلك السنوات لم يختلط كثيراً بأحد، كما أتذكر.

ــ يقولون إن هذا الجنرال المغرور الذي استسلم للألمان كان جباناً، وهلوعاً جداً في القتال. أليس كذلك؟

رد بيسونوف بصوت خفيض:

ــ لا استطيع أن أقول شيئاً عن صفاته هذه، يا رفيق ستالين. لم يصادف أن التقيت بفلاسوف في جبهة. ولكنني أعرف شيئاً واحداً بالتأكيد: هو أنه لم يكن مبرزاً بشيء في الأكاديمية. لقد كان متوسط القابليات.

قال ستالين محتداً:

ــ أصبح معروفاً أن هذا المغامر السياسي المتوسط القابليات ذهب ليخدم الألمان. وبذنب هذا الجنرال الهلوع هلك من جيشه ستة آلاف شخص، وفُقد ثمانية آلاف. في رأيي، يا رفيق بيسونوف، أن الذين يقعون في الأسر هم في الغالب عناصر متخلخلة سياسياً ومعنوياً، وغير راضية بنضالنا... باستثناء بعض الحالات. هل أنت توافقني؟

وعاد بيسونوف يفكر مع نفسه شاعراً بألم محرق في رجله، وبرغبة لا تقاوم في مسح العرق الحار الذي أساله هذا الألم على صدغيه: «لا

يمكن أن يكون فكتور في عداد هؤلاء المفقودين الثمانية آلاف، وقع في الأسرا.. لماذا تطرق ستالين إلى ذلك؟»

وكان بيسونوف، بعد أن خرج من المستشفى، وقبل أن يتلقى تعيينه، باله مشغول في استمرار بابنه، وبحياته أو موته المحتمل، وقد قام بجميع التحريات عن جيش الصدام الثاني، وعن الذين فلتوا من الحصار، غير أنه كان يتحاشى التطرق إلى هذا الشيء الجديد حتى في الحديث مع زوجته، غير فاقد الأمل بعد.

وكان بيسونوف قد عانى بنفسه، غير مرة، حالة الاحباط في الشهور الاولى من عام ٤١، وعرف معنى انسحاق النفس الشامل في الحصار، الانسحاق الذي يظهر مثل وباء جدري الفراخ، إلا أنه عرف ورأى أيضاً ضباطاً برتبة ملازم، صغاراً تماماً، لم يبدأوا بحلق ذقونهم بعد، امراء سرايا وكتائب، فقدوا خيط التوجيه لأسباب متنوعة، إلا أنهم جمعوا في ظروف بدت ميئوسة، جماعات من الجنود، وشقوا طريقهم من الحصار بآخر ما لديهم من ضراوة واستماتة، أو صرعوا أمام حواجز الدبابات، وكان بيسونوف يتمثل ذلك بوضوح، ولا يشك في أن فكتور الذي يراه الآن في ضوء جديد، لا بد، والجيش في وضعية اندحار، قد شقّ طريقه هكذا...

ــ لماذا أنت ساكت، يا رفيق بيسونوف؟ ألا توافق؟

وأفاق بيسونوف على نفسه، وقد ظهرت غضون الكبر على وجهه الناحل، وكانت شفتاه مزمومتين بشكل لا فكاك، له، بينما راح الألم المستحكم في القدم المتخدرّة من طول الوقوف يتصاعد إلى فخذه بإلحاح وشدة متزايدين، ويضغط عليه كبراثن محماة كاشطة. وتذكّر عصاه الصغيرة التي ركنها في غرفة استقبال الرجل الأصلع المؤدب،

وشعر بالرغبة في الجلوس، وفي الوقت ذاته عرف أنه لن يفعل ذلك. وتكلم بيسونوف أخيراً:

ــ كان ولدي آمراً لسرية في جيش الصدام الثاني. وأنا لا أعرف ماذا حلّ له، ولكنني، كأب، لا أملك أساساً للارتياب في أنه سيخون، إذا ما وقع في الأسر.

سعل ستالين بجفاف، وخبط الغليون على المكتب. ودفعه بعيداً عنه، وكأنه مخلوق حيّ ضجر منه ــ وكان ذلك إمارة على استياء يكتمه، وهو ما لم يستطع بيسونوف أن يعرفه ــ ومشى في غرفة المكتب، وتقارب جفناه الاسمران المربدان. وقال ستالين:

ــ أنا لم أقصد ابنك الذي هو، حسب ما أعرف، فتي جداً. لم أفكر بما فكرت به، يا رفيق بيسونوف. كنت أقصد شخصاً آخر تماماً. أظن أن جذور الخيانة تضرب دائماً في الماضي. والشبان ليس لهم ماض.

أحس بيسونوف بالألم الحيّ المتزايد في لذعه وعدم احتماله يمتد من ساقه إلى فخذه، وبخطوط العرق الحارة تسيل تحت أبطيه، وفكر في غير أوانه: «ليتني استند على عصاي الآن».

ــ كانت لفلاسفوف هذا في وقت ما حتى سمعة طيبة. ولم يدرك أحد جوهره. لا في الأكاديمية، ولا في الجيش. أليس هذا صحيحاً، يا رفيق بيسونوف؟ ــ قال ستالين ذلك ومسّت البرودة الجارحة في نظراته وجه بيسونوف إلى حد أنه أراد أن يتلمسّ خديه بيده ليذود هذه البرودة المعدنية عن بشرته.

ــ يصعب عليّ، يا رفيق ستالين، أن أجيب عن هذا السؤال. بقدر ما استطعت أن أتصوّر الظروف التي وقع فيها فلاسوف في الأسر. فسّرت ذلك بالجانب الحيواني للانهيار الإنساني. ولكن في مسألة تقاربه من الألمان... اعتبره خطوة سياسية.

وفي تلك اللحظة، وهو يحاول أن يفهم مغزى كلمات ستالين عن أسرى الحرب بشكل منقطي وبتتابع كان بيسونوف يرفض، ولا يوافق على كل ما يمكن أن يلقي ولو ظلاً خفيفاً على مصير ابنه، غير مصدق بضعفه، ولا بخور عزيمته. لم يكن اسم فكتور مسجلاً في قوائم الآلاف الستة عشر الذين خرجوا من الحصار. وكالسابق كان بيسونوف لا يستبعد فكرة أن فكتور في تلك الظروف لم ينجُ من الأسر مثل آخرين، في ذلك الوضع الفاجع، ولكنه كان يجنح، أكثر فأكثر، ومهما يكن ذلك قاسياً، إلى التصديق بأن ابنه صرع أيام محاولة جيش الصدام الثاني الافلات من الحصار. فإن ذلك كان أكثر شبهاً بالحقيقة.

غير أن بيسونوف لم يستطع أن يعرف ما الذي أدى إلى هذا الحديث، وما الدافع الذي أثار استطلاع ستالين فجأة نحو الجنرال فلاسوف.

لقد وقعت في كل الحروب خيانات، وجبن، وغدر بجيوش، وافشاء لوثائق سرية. وخيانة فلاسوف في حزيران من عام ٤٢ لم تكن خيانة من جانب الجيش الذي حارب إلى آخر ما لديه بالقرب من قرية «سباسكايا بوليست» وشقَّت فلول فرقه طريقها من الحصار بالمعارك. إن خيانة فلاسوف كانت غدراً جباناً من جانب جنرال ترك مقر قيادته سراً في جنح الليل، وجاء إلى قرية بياتنيتسا التي يحتلها الألمان ناطقاً بكلمات فزع وهوان: «لا تطلقوا النار، أنا الجنرال فلاسوف». وبذلك خلص حياته التي أصبحت منذ تلك اللحظة موتاً لأن كل خيانة أن هي إلا موت روحي. غير إن خيانة فلاسوف وخيبة أحد الجيوش في جبهة غير رئيسية لم يغيرا بالطبع الوضع على مجموع الجبهة السوفييتية ــ الألمانية. في ذلك الوقت كان أكثر الأخطار جدية هو في الجنوب، و لم يرد ستالين الذي كان آنذاك مشغولاً في الجبهات الجنوبية، حيث كان الألمان يستعدون

لتوجيه الضربة الرئيسية، أن يركز اهتمامه في أحداث فولخوف. ولكن حين مرّ اسم فلاسوف من جديد في تقارير الاستخبارات في الأيام التي بدأ فيها النجاح الكبير للجبهات الثلاث عند ستالينغراد، وفي أيام هجومنا المضاد في تشرين الثاني استولى الحنق القديم على ستالين من جديد، وفي الوقت ذاته تصور منفعلاً ما يمكن أن يشعر به فلاسوف الآن، وهو في مؤخرة الألمان، لدى سماعه نبأ نجاخ الجيش الأحمر. ومع عودة ستالين إلى الماضي في مجرى الذكريات الملحاحة توقع أن يحدد بيسونوف، وهو الجنرال المتقدم في السن الذي وهب الجيش سنين طويلة من الخدمة، وكان يعرف القائد السابق لجيش الصدام الثاني أيام الدراسة في الأكاديمية، الشيء الملاحظ في المظاهر الروحية للخيانة، العوارض التي لم تكن في تلك السنين البعيدة بارزة على السطح كثيراً، والتي كان من الممكن أن يُفسَّر بها الآن حاضر فلاسوف. إن هذا ما كان ستالين يريد أن يعرفه.

عندما سمع ستالين جواب بيسونوف، لم يُظهر، على عادته التي كوَّنتها السنون، عدم رضاه مباشرة. سار على البساط من طرف المكتب إلى طرفه الآخر على مهل فاتر، ثم قال بصوت لا يكاد يبين:

ـ خطوة سياسية؟ نعم، إنها سياسة... يقولون، يا رفيق بيسونوف، إنك في بعض الأحيان تعلن عن... وجهة نظرك الخاصة في مختلف الأحداث. حول أسرى الحرب هؤلاء مثلاً. فهل هذا الرأي عنك يطابق الواقع؟

لم يكن بيسونوف، وهو ينتظر مواصلة الحديث حول فلاسوف، يتوقّع سؤالاً آخر. نقل رجله المتخدرة على البساط الممشى قليلاً، وشعر فجأة بنفحة هواء تهب داخل صدره، وتكلم بجهد وهو يحسّ

إحساساً غير مألوف له بأنه موشك على السقوط من مرتفع ماحق شديد الانحدار، وكأنما قد تهيأ بوعيه إلى النهاية الوخيمة:

ــ أغلب الظن، يا رفيق ستالين، أنهم يقولون عني أسوأ من ذلك. أنا أعرف أن هناك رأياً يقول إن لي طبعاً سيئاً. وأنا لا أشك في أن هناك شكاوى عني.

رفع ستالين جفنيه الثقيلين، ونظر بدهشة متفرسة، ثم أسبل جفنيه في الحال.

وسأل ضاحكاً فجأة ضحكة لا صوت لها:

ــ لماذا لا تجيب عن السؤال مباشرة؟

ومسّد بابهامه غليونه الذي أطبق عليه يده، وحرّك كتفيه حركة وانية، وخطا ثانية نحو المكتب في نهاية الغرفة:

ــ أنت شيوعي، يا رفيق بيسونوف، فأجبني كشيوعي. هل كانت لك دائماً وجهة نظر خاصة في مختلف الأحداث؟

ــ كنت أحاول أن تكون لي، يا رفيق ستالين. ولكن لم أفلح دائماً في الدفاع عنها حتى النهاية.

قلّص ستالين عينيه، ونظر من موضعه عند المكتب. إنه، وقد تعوّد منذ زمن بعيد على أن يتلقى من المحيطين به موافقة لا تقبل الجدل على آرائه وكأن هذه الموافقة شيء طبيعي، كان يسمح في بعض الأحيان لنفر صغير جداً من المقربين إليه أن يعرب عن رأيه الخاص، وقد ذكره جواب بيسونوف بأحد ممثلي القيادة العليا الذي كان مغيظاً له أحياناً. وفي الوقت ذاته كان ضرورياً بصراحته الجريئة عند البت في المسائل العملية. إلا أن فطنته المحنّكة التي أذهلت الجميع باعتبارها تقييماً قويماً دقيقاً

للوضع قد عودت ستالين على أن يثق بمعصومية آرائه من الخطأ، فكان يفصح عنها دون تردد.

ـ أنا فاهم، يا رفيق بيسونوف... إن لشكوكك، على ما يبدو، علاقة بمصير بعض قادة الجيش الذين عاقبناهم في حينه؟

ـ هذه وجهة نظري فقط، يا رفيق ستالين، ـ أجاب بذلك بيسونوف، وكأنه ازداد اقتراباً من الريح الثلجية التي كانت تهب في وجهه، ورجليه. وبعد أن أجاب بذلك وأدرك أن ستالين جعله يقول ما لم يفكر في قوله، أضاف بهدوء أدهشه هو نفسه: «وقد تكونت وجهة النظر هذه لأنني قد خدمت مع بعض قادة الجيش الذين وقعوا فيما بعد ضحايا للافتراء. وأنا متأكد من ذلك، يا رفيق ستالين...

دفع ستالين الغليون على المكتب مرة أخرى، وكأنه شيء غريب يضايقه، وقال غير متأثر:

ـ أنا أعرف هذه الشكوك. إن النضال شيء قاس. إلا أن الكثيرين ممن شككنا فيهم آنذاك ذوو نفوس صغيرة منطوية على ما كانت تنطوي عليه نفس فلاسوف. ولقد صححت الاشتطاطات والأخطاء منذ زمن طويل. وها هو روكوسوفسكي وتولبوخين يحاربان بنجاح في ستالينغراد.

فكر بيسونوف مع نفسه: «وماذا عن الآخرين؟»

ـ ... ولكن لئن واتى ذلك المعتوه فلاسوف شيء من الذكاء، ونكص عن الالمان، فإننا لن نغفر له أبداً!...

الظاهر أن هذا الحديث أثار في نفس ستالين ذكريات مغيظة غير طيبة. بعد أن سعل سار نحو الخارطة بمشيته الهادئة الناعمة، وهو في حذائه الخالي من أي صريف، ونظر طويلاً في تفاصيل الوضع صباحاً

على الجبهات محاولاً الآن أن يحول أفكاره إلى اتجاه آخر، مفكراً في نجاح هذه الجبهات الثلاث عند ستالينغراد. وقال وهو يشير إشارة غير عابئة:

ـ كل ذلك استطراد في الكلام! أما ابنك، يا رفيق بيسونوف، فلن نضعه في قوائم الأسرى، بل نعتبره في عداد المفقودين. وفي المستقبل سنقوم بالاستعلامات المفصلة ونبلغك. إن ابني الأكبر يعقوب فُقد أيضاً في بداية الحرب. وعلى هذا فنحن في وضع متساو، يا رفيق بيسونوف.

وهمّ ستالين ان يضيف شيئاً آخر عن ابنه الأكبر، إلا أنه تمهّل. ونقّل العدسة المكبرة فوق الخارطة، وتحدث عن شيء مختلف تماماً:

ـ إنزل بجيشك إلى العمل في الحال. وأتمنى لك، يا رفيق بيسونوف، في قوام جبهة روكوسوفسكي التوفيق في سحق وإبادة تشكيلة باولوس ولي ثقة بك، بعد العمليات النشيطة لفيلقك قرب موسكو، يا رفيق بيسونوف. أنا أذكر ذلك.

ـ لن أدَّخر جهداً، يا رفيق ستالين. هل تسمحون لي بالانصراف؟

ـ بالعكس، يجب أن تدَّخر لك جهداً. كنت أتصورك عملاقاً.

وبسط ستالين ذراعيه، مشيراً إلى المقاس الذي كان يتصوره لكتفي بيسونوف، وابتسم عند ذلك بغتة، وارتجف شارباه، وفي تلك اللمحة (وقد شعر ستالين نفسه بذلك) ذابت واختفت البرودة المعدنية الصلبة في عينيه، وصار كل وجهه المحبب بآثار جدري خفيفة ناعماً أليفاً طيباً كما تعود بيسونوف أن يراه في الصور. وقال ستالين:

ـ أنت نحيف، يا رفيق بيسونوف. أهذا لأن لك وجهة نظر خاصة؟ لا قرحة في المعدة؟ يبدو أنك لا تأكل كثيراً. وسوف تطعم جنودك بشكل سيء. إن هذا غير جائز، رغم أن التموين عند ستالينغراد أبعد من

أن يكون على ما يرام.

أجاب بيسونوف وقد رأى ابتسامة ستالين، وكأنها دعوة لنسيان كل ما تطرق إليه الحديث مما ليس له علاقة مباشرة بالموضوع:

ــ أنا خارج من المستشفى لتوّي، يا رفيق ستالين. ولكنني كنت نحيفاً دائماً.

وبعد ثلاث ساعات طار إلى منطقة ستالينغراد. ولكنه، وهو في الطائرة، لم يستطع إلى النهاية، أن يبلور الانطباع المعقّد عن حديثه مع القائد الأعلى. الذي استغرق أربعين دقيقة.

في اليوم الثالث من وصول بيسونوف إلى مواقع الجيش، كان الوضع في الجنوب الغربي من ستالينغراد قد تغيّر تغيّراً حاسماً.

في ٢٤ من تشرين الثاني حتى ٢٩ منه خاضت قوات جبهة الدون وجبهة ستالينغراد معارك هجومية متواصلة ضد التشكيلة الألمانية العديدة الألوف المحصورة في الكماشة، والتي كانت تبدي مقاومة عنيفة، وقامت غير مرة بهجوم مضاد في بعض الاقطاع. إلا أنه في مستهل كانون الأول تقلّصت المناطق التي تحتلها القوات المحاصرة إلى النصف، ولم تعد تتجاوز ٧٠ ــ ٨٠ كيلومتراً من الغرب إلى الشرق، و٣٠ ــ ٤٠ كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب. وأرسل الفريق الأول باولوس قائد جيش الميدان السادس برقية مستعجلة إلى قيادة هتلر العليا طالب فيها السماح بالانفلات من «المرجل» بعد نقل القوات إلى الجنوب الغربي، وتعويلاً على موافقة هتلر أصدر أمراً إلى جيشه، وإلى جيش الدبابات الرابع الخاضع له بالاستعداد إلى التراجع عن الفولغا باتجاه روستوف. وفي غضون بضعة أيام أحرق هذان الجيشان بعجالة كل ما لم يكن من الممكن استخدامه أثناء عملية الانفلات ــ الاحتياطات

من كسوة الضباط الصيفية، والجرارات، والسيارات التي بقيت بلا وقود، ونسفت مستودعات الأمتعة التي تثقل على القوات، وأتلفت أوراق هيئة الأركان.

في بادئ الأمر تردد هتلر الذي كان مطلعاً بالتفصيل على وضع القوات عن طريق ممثليه الشخصيين، وكان في حالة من الحيرة، إلّا أنّه بعد وعد غيرنغ بإقامة «جسر جوي» عن طريق الطائرات إلى ستالينغراد ونقل ما يصل إلى ٥٠٠ طن من الحمولات يومياً بواسطته، أرسل برقية جوابية إلى باولوس أمره فيها بعدم التخلّي عن ستالينغراد، وإقامة دفاع دائري، والقتال إلى آخر جندي.

وتبع ذلك وصول أمر إلى مقر قيادة جيش الميدان السادس حول عملية رُمز لها باسم «العاصفة الشتائية» عن التهيئة لفك الحصار، أي شقّ طريق إلى تشكيلة باولوس المحاصرة تقوم به مجموعة جيوش «الدون» بقيادة الفيلدمارشال مانشتين من ناحية كوتيلنيكوفو وتورموسين. وُضعت تحت أمرة هذا الفيلدمارشال آنذاك جميع التشكيلات المنتشرة إلى الجنوب من المجرى الأوسط للدون حتى سهوب استراخان، أي ما يصل إلى ٣٠ فرقة، من بينها ست فرق للدبابات، وفرقة آلية، نقلت من ألمانيا وفرنسا، وبولنده، ومن المناطق الأخرى من الجبهة.

إن قرار هتلر هذا في الاحتفاظ بستالينغراد بأي حال من الأحوال كان يرمي أيضاً إلى هدف استراتيجي، هو تأمين تراجع تشكيلة شمال القفقاس الألمانية من روستوف، التي كانت تحت خطر الالتفاف عليها من الجناحين.

في ١١ كانون الأول، وبعد البحث في الوضع الناشئ في منطقة ستالينغراد أمر هتلر الفيلدمارشال مانشتين بتوجيه الضربة لفك الحصار.

وبعد خلق تفوّق في القوات بثلاث مرات في منطقة ضيقة على طول سكة حديد تيخورتسك ــ كوتيلنيكوفو ــ ستالينغراد، في الصباح الباكر من ١٢ كانون الأول وجه الفريق الأول غوت قائد المجموعة الصدامية لفك الحصار ضربة في نقطة اتصال جيشين في جبهة ستالينغراد بفرقتين للدبابات مع مساندة قوية من الجو. واندفعت الدبابات في الثغرة، وخرجت في ١٥ كانون الاول إلى شاطئ نهر أكساي، وبعد أن عبرته، تقدمت خلال ثلاثة أيام من الهجمات المتواصلة، ٤٥ كيلومتراً باتجاه ستالينغراد. والتقط رجال الاستطلاع في جيشنا برقيات مرسلة بدون شفرة من غوت إلى مقر قيادة باولوس تقول: «اصمدوا. سيتم تحريركم قريباً. نحن قادمون!». وتعقّد الوضع في الجنوب الغربي للغاية. تراجعت قواتنا بعد أن أضعفتها المعارك الدفاعية والهجومية، مستنزفة الدم، متشبثة بكل مرتفع في صلابة شديدة. وأرسلت جميع الاحتياطات إلى الجهة الرئيسية، إلّا أن ذلك لم يستطع تغيير الوضع الناجم تغييراً جوهرياً. فقد استمرت مجموعة جيوش الفريق الأول غوت، المعززة بانضمام فرقة الدبابات السابعة عشرة إليها، في التقدم سريعاً نحو ستالينغراد، نحو جيش باولوس المحاصر الذي كان ينتظر من ساعة إلى أخرى إشارة لشق الحصار، للقاء فرقتي الدبابات المخترقتين له.

وفي الوقت الذي بدأ فيه جيش بيسونوف حديث التشكيل لتوّه في النزول في شمال غربي ستالينغراد وردت أنباء مفصلة عن بدء الألمان بهجوم مضاد في جهة كوتيلنيكوفو، وعن المعارك الدامية على شاطئ نهر أكساي. واستُدعي بيسونوف مع رئيس أركان جيشه اللواء ياتسنكو إلى مجلس الجبهة العسكري بصورة مستعجلة، وكان هناك في ذلك الوقت ممثل عن القيادة العليا أيضاً. وبعد تقارير مفصلة ألقاها قائد الجبهة، وقواد الجيوش المدافعة أصبح واضحاً بشكل لا غبار عليه أن

قوات جبهة ستالينغراد التي تلقت الضربة الرئيسية لم تكن لها القوى الكافية لمقاومة ضغط مانشتين الذي كان له تفوق عددي كبير في منطقة فرق الحصار.

استمع بيسونوف إلى هذه التقارير صامتاً، مفكراً بأن إدخال جيشه في نطاق جبهة الدون بغية القضاء على تشكيلة باولوس المحصورة في الطوق سيكون خطوة مجازفة في حالة خطر مسلّط في الجنوب. وعندما اقترح عليه ممثل القيادة العليا أن ينقل جيشه الحسن التجهيز من جبهة الدون إلى الجنوب الغربي ضد مجموعة مانشتين الصدامية، حيث كان يتقرر مصير العملية، أجاب بعد تباطؤ، وكان مستعداً ذهنياً لذلك، بأنه في اللحظة الراهنة لا يرى حلاً آخر.

ولكن بيسونوف أسرع بعد جوابه هذا فطلب في الحال تعزيز جيشه الذي لم يكن تحت النيران بعد. و لم يدخل المعارك، بفيلق من الدبابات أو الآليات. نظر اللواء ياتسنكو إليه في تخوف، فقال بيسونوف لنفسه أن رئيس أركانه (وكان لا يعرفه كثيراً في ذلك الوقت) قلق للغاية من المهمة المعدّلة بشكل جديد والتي أخذها على عاتقه قائده القادم من توه في يسر، وكما بدا، دون أخذ أو رد تقريباً.

وفكر بيسونوف: «على كل أنه محق أيضاً من وجهة نظره».

أجاب ممثل القيادة العليا أنه سيتلفن إلى ستالين في الحال، ويأمل أن يحصل على موافقته على اقتراح المجلس الحربي حول نقل جيش بيسونوف من جبهة الدون إلى جهة كوتيلنيكوفو المتفاقمة لإيقاف مانشتين في الطريق إلى ستالينغراد وتحطيمه.

سمع بيسونوف كلمة «تحطيمه» الحامية، وفكر مع نفسه: في المرحلة الأولى حتى إمكانية «الإيقاف» المحققة تعادل كسب العملية.

وأرسلت القيادة العليا موافقتها على الفور، وتحرك جيش بيسونوف في مسيرة مقتحمة، دون توقف أو نزول أو استراحة، من الشمال إلى الجنوب، إلى شاطئ نهر ميشكوفا، وهو آخر حد طبيعي أمام الدبابات الألمانية ينفتح بعده سهل منبسط حتى ستالينغراد.

الفصل الخامس

في الساعة الثالثة ليلاً، وبعد سير متعب في الطرق السهبية المغطاة بالجليد المكتظة بطوابير القوات دخلت سيارة بيسونوف قرية قوزاقية نصف مهدمة لا يضيؤها ضوء واحد، واقعة في وهدة عميقة. في هذه القرية أقيمت نقطة جديدة لقيادة الجيش.

بعد حدود القرية، وعند مفترق طرق لمع فجأة ضوء أحمر منبعث من مصباح يدوي، وعلى مسافة إلى الإمام خرجت ثلاثة أشباح داكنة إلى منتصف الطريق. وكان هؤلاء رجال دورية.

نزل الميجور بوجيتشكو من السيارة، وبعد حديث قصير مع رئيس الدورية، عاد فركب فيها، وابلغ قائلاً:

ــ البيت الرابع إلى اليمين. لقد استقروا. وكل الخدمات موجودة.

مشى بيسونوف قليلاً قرب مدخل مقرّ القيادة منقلاً رجليه المخدرتين، مستنشقاً الهواء الصقيعي الثقيل المشوب بعبق مر دافئ لدخان الروث المحترق، محدّقاً في السماء الكثيرة النجوم. كانت أبراج النجوم الساطعة ترتعش متقدة، في أجواء كانون الأول السوداء العالية. وكان غبار ثلجي أبيض لاسع يتطاير من سطح البيت بهيئة أفاع ملتوية. وكانت الريح تصفر في أعواد الذرة الجرداء المهجورة البارزة من حدائق البيوت مثل جزيرات داكنة. ومن الجنوب، يساراً، كان يترامى قصف أصم مقترباً، ومتلاشياً، وكأنما يتدحرج على ميزان الهواء.

قال فيسنين مصطكاً من البرد، ماسحاً زجاج نظارته بمنديل جيب:

ـ هل تستمع، يا بيتر الكسندروفيتش؟ إنهم يضغطون حتى في الليل! إنهم يستعجلون جداً! يبدو أن السماء هناك أنور قليلاً. كل شيء يحترق...

ـ نعم، أنهم يستعجلون بالضبط.

أجاب بيسونوف، ومرّ من أمام الحارس صاعداً على مدخل البيت المغطى بالثلج.

كان البيت الذي اتخذ مقراً للقيادة مدفئاً تدفئة حارة خانقة فيه رائحة فرو خروف، وخشب وزيت قنب دافئ غريب وجوده في هذا المكان. وكانت في الغرفة الكبيرة ذات النوافذ المغطاة بالستائر بإحكام مصابيح بطاريات مركمة تضيئها بضوء أبيض وهّاج ساطع. وكان رؤساء الأقسام والخدمات الذين استدعاهم ياتسنكو على الأرجح، يجلسون على مساطب خشبية تحت هذه المصابيح وراء المنضدة وقرب الخارطة.

وقد أدهش بيسونوف أنهم كانوا يرتدون فرواتهم وقبعاتهم الشتائية، وكأنما يؤكدون بذلك عصبية لم يكن يريد أن يراها في مقر قيادته. كان جو الغرفة مشبعاً بدخان السكائر الذي كانت غمائمه الزرق تسبح فوق المنضدة. والظاهر أن الاجتماع كان موشكاً على نهايته. هتف اللواء ياتسنكو الجهم ذو الرأس الكبير الحليق حلاقة ناعمة رغم أن الفصل شتاء، بنداء التحية بصوت عالي النبرة. نهض الجميع منتصبي القامة، مخفين سكائرهم بسرعة. فقد كانوا يعرفون أن القائد الجديد لا يدخن، ولا يطيق دخان السكائر.

سلّم بيسونوف دون أن يصافح أحداً، وخلع فروته، وقال مستاء:

ـــ رجوت أن لا يدخّن أحد في هذه الغرفة. لا تضيبوا الرأس. ثم إنني أردت أن يخلع أمراء الوحدات معاطفهم وفرواتهم لدى دخولهم. فأنا لا أشك في أن ذلك سيكون أروح... إذا كنت لم أقطع الاجتماع أرجو أن يشرع الجميع في إداء واجباتهم في الحال.

قال فبسنين، وهو يفرك يديه، ويتمايل على رجليه الطويلتين:

ـــ كأنهم قاطرات بخارية تماماً! دخان في دخان!

ارتفع صوت ياتسنكو الجهير حين خرج بعض الأمراء:

ـــ ما العمل معهم؟ إنهم في تدخين مستمر، هؤلاء الشياطين. ربما نهوّي الغرفة يا بيتر الكسندروفيتش؟ ـــ وأدار رأسه الكبير الحليق نحو النوافذ المسدلة الستائر.

أوقفه بيسونوف بقوله: «ليس الآن». ومسّد شعره الخفيف الشائب المنحدر إلى جانب، وهزّ رأسه قائلاً:

ـــ تفضلوا إلى الخارطة. أظن من الأفضل أن نجلس.

جلس جميع الذين تبقّوا في الغرفة على مقربة من الخارطة. أسند بيسونوف عصاه على حافة المنضدة. لم ينظر الجميع إلى ياتسنكو وهو متخذ هيئة موقرة لمن يستعد لإلقاء بيان، ولا إلى الخارطة وقد عُلّمت عليها آخر المعلومات، بل إلى وجه بيسونوف العليل الجاف الذي لم يمسه أي أحمرار بعد تعرضه للبرد الصقيعي، مقارنين إياه، دون إرادتهم، بوجه فيسنين المورّد بشكل بهيج، البادي الفتوة، فقد كان قائد الجيش وعضو المجلس الحربي مختلفين في ظاهرهما اختلافاً صارخاً. قال بيسونوف:

ـــ تفضلوا.

بدأ ياتسنكو الكلام:

ـــ بسبب منع استخدام أجهزة اللاسلكي يصير الاتصال بالفيالق في حالة غير محمودة. و لم يلحظ بيسونوف في عينيه الصغيرتين الذكيتين التساؤل السابق والدهشة، اللذين لاحظهما أثناء اجتماع مجلس الجبهة الحربي. الآن لم يكن ينعكس في عيني ياتسنكو إلا ما كان له صلة بالنقل المحموم لأربعة فيالق كاملة مائتي كيلومتر من الشمال إلى الجنوب. وتابع ياتسنكو قوله: ـــ قبل ساعتين كان الجيش يحتلُّ الوضع التالي...

وضع الجنرال ياتسنكو يده الكبيرة الناعمة البيضاء على الخارطة. كان تقريره شديد الوضوح إلى حد الحذلقة، وصوته كثيفاً كأنما يلتذّذ بالنطق بأرقام الفيالق والفرق:

ـــ دخل فيلق الحرس الثالث للمشاة منطقة النزول على شاطئ نهر ميشكوفا، وهو يتخذ مواقع الدفاع. والفيلق السابع في المسيرة، وآمل أن يصل مع حلول الظلام إلى منطقة تمركزه. وأخطر وضع هو ما حصل في الفيلق الآلي، أيّها الرفيق القائد ـــ وهنا أخذ ياتسنكو يحمّر شيئاً فشيئاً، وكأنه، وهو المحب لدقة التنفيذ، عاد يعاني من حالة عدم ارتياح مبعثها الخبر الفاجع الذي تلقاه عن الفيلق الآلي، قال: ـــ نفذ الوقود أثناء المسيرة، وتوقفت الجرارات والسيارات المحملة بالذخائر على بعد أربعين كيلومتراً... أرسلت برقيتين إلى قائد الجبهة...

وعاد ياتسنكو يقرأ من ذاكرته دون تلعثم، ولكن بجهد كبير، نصّ هاتين البرقيتين، ثم رمق بيسونوف من تحت حاجبيه بنظرة معاناة وتوقّع.

قال بيسونوف:

ـــ مفهوم.

إن كلَّ ما بيَّنه رئيس هيئة أركان الحرب كان يطابق ما رآه بنفسه صباحاً وأثناء النهار في طرق حركة الجيش. إلا أن هذه التعقيدات لم

تكن هي مثار قلقه الآن. لقد كان يؤمن، من تجربته، بما يسميه النفس الثاني للقوات، في عمليات النقل الاقتحامية إلى مسافات كبيرة. إن ما أثار قلقه على نحو أشد بكثير، هو وضع إحدى فرق الجيش المجاور التي كانت مشتبكة في المقدمة في معارك دفاعية ضارية لعدة أيام، حتى انهكتها إلى أقصى حدّ هجمات الدبابات الألمانية. وكان بيسونوف يعرف الوضع هناك ليس فقط من الجواب غير المترابط الذي تفوّه به ضابط دبابات أصيب بصدمة فزع. فإن الوقت الذي كان يحتاجه بيسونوف احتياجاً شديداً لوصول جيشه ونزوله كله على ضفاف نهر ميشكوفا، الحاجز الأخير في طريق الألمان إلى التشكيلة المحاصرة في منطقة ستالينغراد، كان يتوقف بشكل مباشر على ثبات أو هلاك هذه الفرقة الكابحة لضغط الألمان الضاري المجنون.

بعد أن قطع بيسونوف تقرير ياتسنكو بكلمة «مفهوم» القصيرة رمق رئيس قسم الاستطلاع العقيد درغاتشيف، وهو رجل في سن الشاب يضفي عليه حاجباه الكثيفان المتصلان على قصبة أنفه هيئة مستقلة خشنة لا تناسب عمره. وسأله بلهجة من يتوقع أنباء غير مرضية:

ــ هل من جديد يمكن أن يقوله رئيس قسم الاستطلاع؟

قال العقيد درغاتشيف بنبرة لا تَعِد بشيء مشجِّع:

ــ الوضع حتى المساء، أيّها الرفيق القائد، هو أن الألمان على الجناح الأيمن للجيش المجاور ادخلوا إلى المعركة فرقة دبابات جديدة تضم ما لا يقل عن كتيبة من الدبابات الثقيلة من الطراز الجديد «النمر». وحسب أقوال الضابط الذي أُسر أمس، والمعلومات الأخرى، يشترك في عملية فتح الثغرة أكثر من عشر فرق من بينها فرقتان للدبابات. والجيش المجاور ليس في مقدوره الصمود أمام هذا الضغط...

عاد بيسونوف يقول:

ــــ مفهوم.

نخر ياتسنكو، وأضاف في الصمت المخيم:

ــــ وضع جيراننا إلى اليمين ليس أحسن، إن لم يكن أسوأ، يا بيتر الكسندروفيتش. تكبد فيلق الفرسان خسائر فادحة، وتراجع. ويتولد انطباع، أيّها الرفيق القائد، هو أن الألمان سيوجهون الضربة الرئيسية إلى الجناح الأيمن لجيشنا، حيث توجد أقصر مسافة إلى ستالينغراد.

نظر بيسونوف إلى ياتسنكو باهتمام خفي. إن هذا الجنرال الضخم الحليق لم يكن يوحي من النظرة الأولى بأنه رئيس أركان حرب فطن حاذق، ربما بسبب مظهره الخشن، وصوته الجهير الكثيف الشبيه بصوت رئيس رقباء. وفضلاً عن ذلك كان بيسونوف متضايقاً من رائحة الكولونيا القوية المنبعثة من ياتسنكو.

ــــ نعم، من هنا لا يكاد يتبقّى أمام مانشتين غير أربعين كيلومتراً ليصل إلى التشكيلة المحاصرة ــــ قال بيسونوف مثبتاً فكرته بصوت مسموع، ثم أضاف في سره: «إذا اخترقوا هنا فإنهم سيشقون ممراً إلى التشكيلة المحاصرة، وبعد يومين أو ثلاثة سيتغيّر الوضع في منطقة ستالينغراد لصالح الألمان. فما العمل عندئذ؟».

إلا أنّه لم يُفصح عن هذه الفكرة بصوت مسموع. بل إن هذا السؤال الأخير يطرحه حتى على نفسه لأول مرة.

وانتظر كلُّ الذين كانوا حول المنضدة، في تخمين متوتّر، عملاً ما من بيسونوف، كما يحدث دائماً تقريباً، حين يظهر في مقر أركان كبير رجل جديد مخوّل كامل الصلاحية، كأنما هو مطلق اليد كلياً في قراراته،

غير مرتبط برأي أي إنسان. مضى بيسونوف ينظر بإعياء عميق إلى الخارطة المعلّمة بإشارات إلى الوضع، المضاءة بالمصابيح المركمة إضاءة ساطعة مريحة، وصمت بعد تقرير رئيس أركان حربه، مستمراً في التفكير في توازن القوى الممكن في الجهة التي يفترض أن توجه الضربة فيها: «إذا خرقت ثلاث أو أربع فرق دبابات ألمانية الدفاعَ على نهر ميشكوفا قبل أن يتسنى لنا الوقت للوصول، وتوزيع جيشنا على الضفة اليمنى فإنهم سيطوقوننا نحن أيضاً. ذلك واضح كذلك».

إلا أنّ ذلك أيضاً لم يقلْه بصوت مسموع، لأنه من غير المعقول أن يقول ما كان مفهوماً، على الأرجح، لجميع الجالسين حول المنضدة في تلك اللحظة.

نهض بيسونوف، وخطا بضع خطوات في الغرفة معتمداً على عصاه. وفي تلك الثواني تذكّر بغتة خطوات ستالين البطيئة الواثقة المتخلخلة على البساط الممشى الأحمر بالقرب من المنضدة الضخمة في غرفة مكتبه الضخم، ونحنحته التي لا تكاد تسمع، وسعاله الخفيف، وكل الحديث الذي استغرق أربعين دقيقة في القيادة العليا. وتوقف بيسونوف في طرف الغرفة، والعرق يتفصّد على صدغيه. وفكّر، وهو حانق على نفسه: «ما هذا؟ لا أستطيع أن أبعد ذلك عن ذهني، وكأنه مغناطيس». ووقف بعض الوقت مولياً ظهره إلى الجميع، متفحصاً الفوط الكتانية المطرزة المعلقة تحت الأيقونة اللامعة في ركن الغرفة فوق المساطب الخشبية.

التفت بيسونوف وتحدث من مكانه في طرف الغرفة متحسساً نظرة ياتسنكو المقابلة، محاولاً أن يتحدث بهدوء:

ــ أبلغ قائد فيلق الآليات هذا الأمر على الفور: لا تُضِعْ دقيقة واحدة

في انتظار الوقود، واحمل الذخائر على السيارات والدبابات القادرة على التحرك. ولترسل جميع السيارات الشاغرة ــ من مقر الأركان ومن المؤخرة ــ إلى الفيلق. وأبلغ رئيس تموين المدفعية، وقائد الفيلق ما يلي: إذا لم تخرج الألوية بكامل ذخيرتها إلى الخط المقصود فإنني سأعتبر ذلك عجزاً عن القيام بالتزاماتهما!

وفكّر فيسنين مع نفسه وهو يصغى إلى صوت بيسونوف الصارم: «نعم، هذا ما خمنته. سيبدأ في أخذ زمام الجيش بيده. وهذا ما فعله رأساً...».

وتابع بيسونوف قوله، وسار نحو المنضدة، ناظراً إلى قائد المدفعية الجنرال لوميدزه:

ــ والشيء الثاني... أظن أنّه يتعيّن تغيير الخطة الأولى لدفاع المدفعية. من المستحسن أن توضع جميع المدفعية، باستثناء مدفعية الفيلق، في وضع التسديد المباشر، بين صفوف المشاة في خط القتال. وأن تدمر الدبابات. الشيء الرئيسي أن تدمّر دباباتهم. وستنزل دباباتنا إلى المعركة في اللحظة الحرجة. وقبل ذلك سنحرص على دباباتنا، كما نحرص على حدقات عيوننا.

قال ياتسنكو:

ــ فهمت، أيّها الرفيق القائد.

ــ وأنت... يا جنرال؟

رفع اللواء لوميدزه قائد المدفعية الجميل الطلعة، الأسود الشعر، في عامه الأربعين، عينيه الحارتين السريعتين إلى بيسونوف، وقال:

ــ أيّها الرفيق القائد، ألسنا بهذه الطريقة نظل بلا مدفعية؟ بعد

المعركة الأولى. أريد أن ألفت النظر إلى أن مدافع الهاون إزاء الدبابات قليلة الفعالية. فإنها من حيث سرعة الاطلاق أقل من المدافع المضادة للدبابات. كان هناك أمر يجعل المدافع من عيار ٧٦ مليمتراً في حالة التسديد المباشر.

نظر بيسونوف إلى لوميدزه بإمعان، وكأنّما قد أدهشته معارضته.

ــ أنا أعرف بم نخاطر. ولكن أن نفقد كل مدافعنا خير من أن نتراجع ركضاً مع المدفعية حتى ستالينغراد. ولهذا أكرر: ضرب وتدمير الدبابات، القوة الضاربة الأساسية لدى الألمان، بكل الوسائل! وعدم تمكين أيّة واحدة من النفاذ إلى ستالينغراد. لا تدعوهم يرفعون رؤوسهم! أتدري بطرب الألمان في «المرجل» بعد أن سمعوا بأن مانشتين بدأ بهجوم مضاد؟ إنهم هناك ينتظرونه ساعة بساعة أن يخرق الحصار. علينا أن نتذكر في كل دقيقة أن مانشتين ليس مستجداً، بل قائداً له خبرة سنين طويلة جداً! أرجو أن يكون مفهوماً لدى الجميع: إنني أرى القضاء على الدبابات المهمة الأساسية للجيش في المرحلة الأولى من المعارك. هل هناك أسئلة؟

ولم تكن ثمّة أسئلة.

ونادى القائد على الميجور بوجيتشكو.

فتح الباب في النصف الثاني من البيت، حيث كانت تصوّت التلفونات، ودخل بوجيتشكو نشيطاً، وفي عينيه آثار ضحك من نكتة رويت قبل لحظة في تلك الغرفة. ضرب الميجور على العتبة حذاء بحذاء مؤيداً التحية، وقال:

ــ سمعاً، أيّها الرفيق القائد.

ـــ هيّئ السيارة.

رافق الجميع القائد حتى باب الغرفة، إلا الجنرال ياتسنو فقد عبر العتبة إلى المجاز المظلم البارد. و لم يكن وجهه يُرى هنا، إلا أن رائحة الكولونيا كانت محسوسة في الجو البارد، وشعر بيسونوف أن رئيس أركان حربه يود أن يصافحه عند توديعه تعبيراً عن تضامنه إلا أنه متردد.

قال بيسونوف:

ـــ أرجو أن نوفق. ـــ وصافح ياتسنكو مصافحة قصيرة، وخرج إلى الشارع.

كان ليل كانون الاول القائم يخيّم على القرية والسهب، والسماء منظومة بالنجوم المتناثرة. وبينما كان بيسونوف يخطو نحو السيارة التي كانت تلوح داكنة في الطريق سمع صفق باب وراءه، ثم خشخشة الثلج عند مدخل البيت، والتفت نصف التفاتة آملاً أن يرى رئيس أركان حربة وقد نسي أن يقول شيئاً له. إلا أن القادم كان فيسنين. تقدم من بيسونوف يخطو برجليه الطويلتين الشبيهتين برجلي البلشون، وقال بشيء من التلعثم:

ـــ يا بيتر الكسنروفيتش؟ اتأذن لي بالانضمام إليك؟ هل لديك مانع في أن أرافقك إلى نقطة المراقبة؟

ـــ أنا لا أفهم. إن عضو المجلس الحربي غير ملزم، على حدّ علمي، بأن يطلب إذناً من القائد عن المكان الذي يجب أن يكون فيه. إنه حرّ بأن يقرر بنفسه.

ـــ أنت، يا بيتر الكسندروفيتش، تباغتني، وأرجو المعذرة، بصراحتك. ماذا عليّ أن أجيبك؟

قال بيسونوف وابتعد بفيسنين عن السيارة:

ـــ وأريد أن ألقي عليك سؤالاً آخر، كشيوعي لشيوعي: إذا كان أحد من الناس قد نصحك، يا فيتالي ايسايفيتش، بأن تراقب قائد الجيش الجديد، كما تراقب الطفل الصغير، لا سيما بعد شروعه باداء واجبه، فإن علاقتنا مهددة بالتعقيدات. سيصعب أن يتحمل أحدنا الآخر. ـــ وهنا صمت لحظة، إلا أن فيسنين لم يقاطعه، فتابع قوله: ـــ وإذا لم يكن ذاك فأنا مستعد للاعتذار فوراً على ما قلت أعلاه.

ـــ يا بيتر الكسندروفيتش! ـــ قال فيسنين متأثراً حتى أنه جذب نظارته، وتطلع في انتباه اسيف، بعينيه القصيرتي النظر، ـــ شكراً على الصراحة. إلا أنني أعلن بصراحة تامة أيضاً: لو أن أحداً من الناس حاول أن يحذّرني منك، لارسلت هذا الأحمق إلى جهنم، وأبعد منها. ولا استطيع أن أضيف أكثر من هذا.

قال بيسونوف وضحك ضحكة مقتضبة:

ـــ أشكرك. واعذرني على هذا الحديث.

قال فيسنين:

ـــ بالعكس. كنت أود لو يسنح لنا وقت لحديث أطول. ولكن ليس في السيارة.

فقال بيسونوف واعداً:

ـــ سنتحدث في مقر الفرقة ـــ ثم أضاف في الحال:

ـــ إذا يسمح الألمان، بالطبع.

وفتح الميجور بوجيتشكو أمامهما باب السيارة.

الفصل السادس

في الساعة الثالثة ليلاً وصلت فرقة العقيد دييف. بعد مسيرة مائتي كيلومتر، إلى المنطقة المعينة ــ على الضفة الشمالية لنهر ميشكوفا ــ ودون أن تستريح شرعت في اتخاذ مواقع الدفاع، والتشبث في الأرض الثلجية القوية كالحديد. الآن كان الجميع يعرفون الهدف من احتلال هذا الخط. الذي كان بمثابة آخر حاجز أمام ستالينغراد.

وفي الساعة الرابعة ليلاً اشتدَّ القصف الثقيل المترامي من معركة بعيدة كانت تسمع اصداؤها من المقدمة طوال الوقت. وإلى الجنوب تنورت السماء قليلاً ــ شريط وردي يضغطه الظلام على الأفق. وفي فترات الهدوء القصيرة في الجانب الذي كان يقترب منه شيء مبهم غير منظور كانت تسمع على الضفة كلها صلصلة الأرفاش على التربة الصخرية المرنّة، والضربات الصماء للمعاول، والأوامر، وصهيل الخيول. إن كتيبتين من المشاة. وثلاث بطاريات من فوج المدفعية، وكتيبة منفصلة مضادة للدبابات قد قدمت إلى الأمام ونقلت إلى ما وراء النهر عبر الجسر الوحيد في قرية غريغوريفسكايا، وتشبثت في مواقعها أمام قوات الفرقة الرئيسية، وتخندقت هناك.

أخذت بطارية الملازم دروزدوفسكي الموضوعة في هيئة التسديد المباشر، على مسافة قصيرة جداً خلف الحراسة الأمامية، تحفر في الأرض

على ضفة النهر تماماً، وبعد ثلاث ساعات من العمل المضني تخندقت المدافع على عمق أكثر من قدم.

كان الملازم كوزنيتسوف يتصبب عرقاً بكل جسمه. وقد أحسّ، في باديء الأمر، بشعور الاستعجال المندفع. وكان الجميع مثله يحسون بهذا الاندفاع. لقد شعر كل واحد منهم، وهو يسمع الهدير المخنوق بالمسافة، في الناحية التي تنور فيها شريط السماء، بأنّ المعركة تقترب، وتزحف إلى هذا المكان بلا هوادة. وأنه إذا لم يلحقوا ليتخندقوا، ويتخذوا حماية من الأرض، فإنهم سيظلون، في هذه البقعة، على الضفة المغمورة بالثلج، كالعراة، إلا أن الأرفاش لم تكن تنفذ إلى التربة التي صلبتها نوبات البرد، فكانت ضربات المعاول وحدها تحدث التجاويف، وتنهش الأرض، فتتطاير كسراً قوية كالصوان.

كانت ريح مُسفَّة تصفر على الشاطئ، وفي الدكنة البيضاء الكدرة تتحرك أشباح جنود المدفعية، ومشاة الوحدة المجاورة، وكانت دروع المدافع قد عتمت في كل مكان.

وجعل الصقيع الذي اشتد في الليل، يضيّق على الأنفاس، و لم يكن الحديث ممكناً. كانت الأنفاس تتردد في فحيح، والجمد يتكوّن في الحال على الوجوه العرقة بطبقة متماسكة، ويلتصق على الجفنين كالجليد، ما أن يتوقف أحد عن العمل لحظة. وكان العطش يستبد على نحو لا يقاوم، فكانوا يكشطون من فوق الحواجز حفنات من الثلج الدقيق، اللاذع، الموحل من كسر التربة، ويمضغونه، فتتجمد الحناجر من الماء البارد جداً، وتصطك الأسنان. ظل الملازم كوزنيتسوف يضرب الأرض بالمعول، متصبباً عرقاً، و لم يستطع أن يتوقف، ويستريح. سرت قشعريرة كالأفاعي الخشنة في جسده المبلل، تحت قميصه الملتصق بظهره، وكان،

كالجميع، يبتلع الثلج، إلّا أن حلقه كان يجف، فكان يفكر بإلحاح معذّب في ماء بئر صاف، يودّ لو يعب من جردل حديدي غامساً ذقنه في برودته.

قال تشيبسوف ملاحظاً بتوجس، وكان يرفع التراب أهوج وراء معول كوزنيتسوف برفش كالمغرقة:

ـــ إنك تكثر جداً من التهام الثلج، أيّها الرفيق الملازم. أخشى أن تصيب صدرك بالبرد. الثلج خادع كلياً. مظهر فقط!...

ـــ لا، أبداً!

وتنهد كوزنيتسوف، ونادى على أوخانوف.

كان الرقيب الأول أوخانوف يحفر مع المسدد نيتشايف حفرات للمدافع مفحاً من حنجرته، وكان قد خلع معطفه، واكتفى بسترته اللبادية. ألقى المعول، وقفز إلى مربض مدفع لم يتم حفره بعد.

ـــ كيف الأحوال، أيّها الرفيق الملازم؟ نغوص في الكرة الأرضية شيئاً فشيئاً، ها؟

كان متلاحق الأنفاس، ملتهياً بالعمل، تفوح منه رائحة عرق قوي معافى، ووجهه لامع مبلل.

أفصح كوزنيتسوف عن رغبته:

ـــ لطيف لو نرسل أحداً إلى النهر... ليعثر على حفرة فيه، يمتاح لنا منها إنائين من مائة.

قال أوخانوف موافقاً، ماسحاً العرق من خديه بكمه:

ـــ معقول. وإلا فإن هؤلاء الشياطين سيأكلون كل الثلج حول

المرابض. فلا يبقى شيء منه نموّه به... أيّها الأولاد، مَنْ بينكم ريفي يعرف كيف يحفر الجليد من على النهر؟ أنت، يا تشيبيسوف؟ إنزل إلى الأسفل، وخذ معك مخلاً!

ــ أقدر... أقدر... وإلا فكيف نكون بلا ماء ونحن عند النهر؟ دقيقة واحدة، أيّها الرفيق الملازم، سنشرب كلنا حتى نرتوي.

قال تشيبيسوف بكلام سريع منغّم، والتفت جميع من كانوا في المربض إلى موافقته المتلهفة.

قهقه أحدهم، وقال مرتاباً:

ــ ولماذا تشيبيسوف؟ إنه قد يذهب في الاتجاه المعاكس! هل يعرف الطريق؟

ــ تكلّم الثرثار الأهبل! فكّر قبل أن تتكلم!

ــ أنا أقول بصريح العبارة: إنه يتصيّد أي أمر يبعده إلى المؤخرة.

ومع ذلك فقد أخذ تشيبيسوف مخلاً، وتسلق الحاجز، واتجه يحجل نحو المدفع ليأخذ إنائين.

قال أحدهم من جديد:

ــ إنه رجل ريفي ماكر، إلى أقصى حد، ــ وقهقه ثانية ــ إذا دعوته إلى العمل لا يحرك شعرة، وإذا دعوته إلى قصعة جاء رأسه قبل رجليه!

ــ وما هذا التهجم؟ أنت نفسك ألا تريد أن تشرب؟ هل سرق تشيبيسوف زوجتك منك؟ إنه رجل خدوم، ولا يؤذى ذبابة! مجرد لغو من جنابك!

هتف أوخانوف:

ــ صه، يا جماعة! لا تمسُّوا لي تشيبيسوف! وأنت، يا روبين، خير لك أن تفكر في الخيول، فإن هذا لك أمتع! لم تعلن فترة للتدخين بعد! احفر، وإلا فإن الذين هناك سيصعقوننا كالبراغيث! أم تريد أن أكرر؟

وعاد الجميع إلى عملهم في المربض ــ مصلصلين بالأرفاش، داقين الأرض المرنة بمعاولهم برتابة كامدة.

رفع كوزنيتسوف معوله عن الأرض، إلا أنه ألقاه في الحال، وطلع على الحاجز، محدقاً إلى الأمام في ضوء الوهج إلى يسار البيوت القليلة الداكنة للقرية الخاوية المتجمدة في زرقة الليل القاتمة.

قال كوزنيتسوف:

ــ تعال، يا أوخانوف. ألا تسمع شيئاً؟

ــ ما هو، يا ملازم؟

ــ تسمّع...

كان السكون الغريب، الشبيه بسكون القبور يتمدد من الوهج بموجات واسعة لم يصدر من هناك دوي، ولا قصف واحد لمدفع. وفي هذا السكون غير المفهوم سببه، كانت تتضح وتعلو أكثر فأكثر أصوات الأرفاش والمعاول إلى الأمام، والأصوات البعيدة للمشاة في الحراسة الأمامية، وزعيق سيارات المدفعية على المرتفعات في الخلف ــ في الضفة الأخرى حيث كانت الفرقة تأخذ مواقع الدفاع.

تكلم كوزنيتسوف:

ــ يبدو أن المعركة قد هدأت. أما أنهم أوقفوهم أو أن الألمان شقوا لهم ثغرة.

سأل أوخانوف:

ـــ وإلى اليمين؟ حدث شيء ما أيضاً.

هناك، بعيداً عند الافق، إلى يمين الوهج، وبالضبط فوق سطوح جزء من القرية واقع على الضفة الجنوبية انشقّ شريط مضيء ثان في السماء، وتوهجت بلا صوت، وكالومضات المستديرة، أضواء ضاربة إلى الحمراء، منزلقة إلى الأسفل، متكئة لحظة على السحب الواطئة. ولكن هناك أيضاً كان يسيطر صمت ثقيل.

قال كوزنيتسوف:

ـــ إنها تشبه الصواريخ.

وافقه أوخانوف:

ـــ نعم، يبدو أنهم قد اخترقوا الحصار. إلى اليمين. قبالتنا تماماً. إنهم يقتحمون طريقهم إلى ستالينغراد بكل قواهم، يا ملازم؟ ذلك واضح. إنهم يريدون أن ينتزعوا أصحابهم من الطوق ويعودوا إلى إظهار قوتهم.

ـــ يبدو...

وقال أحد وراءهم بدهشة مرحة:

ـــ يا إخوان، لماذا سيطر الهدوء فجأة؟ هل يعني أن الألمان ولّوا؟ أضاؤوا السماء، ولكن الجو هادئ! أيعني أنهم اقلعوا عن خرق الحصار؟ فاهم؟

ـــ نعم، «ولّوا» رأساً!

ـــ لا، عقباً! ربما، جنرالات هتلر هؤلاء شغّلوا عقولهم، وقرروا أن يؤجلوا هجومهم في الوقت الحاضر.

فأكمل صوت مماحك:

ــ سترى كيف «شغلوا عقولهم». سيضربون ضربة تجعل ازرارك كلها تتطاير، حتى التي في فتحة البنطلون!

ــ اشتغلوا، يا شباب، احفروا، اقرضوا الأرض بأسنانكم! اسرعوا. هيا!

صمت كوزنيتسوف وأوخانوف، وهما يصغيان إلى حديث الجنود وراءهم، والأنفاس المتلاحقة. كانت أشفار المعاول المثلومة تنزل بصوت مرن كالسندان على الأرض الصلدة كالحديد، التي كان يزحف عليها هذا السكون الجهم الرهيب. سأل أوخانوف مفكراً:

ــ هل هم بعيدون؟ كم، يا ملازم؟ ساعة؟ ساعتان؟ ها؟

أجاب كوزنيتسوف، وانزل ياقة معطفه التي حكّت رقبته المبللة. لم تكن القشعريرة قد انتهت. كانت تثلج ظهره مثل خيوط ثلج متشابكة، وكان فمه، كما كان من قبل، جافاً حاراً. واكمل قوله:

ــ ضروري أن نتخندق، كالمسعورين. لا فرق، سواء أكانت ساعة أو ساعتان! لا فرق!

وعادا إلى صمتهما. وملأ الصمت السهب كاسحاً وكأنه شيء له وزن محسوس، وراح يزحف مشؤوماً على البطارية من التوهُّجين الضاغطين في ظلام الليل. وبالتدريج أخذت أصوات الجنود في المواقع تخفت وتتقطع، وتهمد: لقد أصبح الجميع يرزحون تحت هذا الصمت...

قال أوخانوف، ونظر إلى كوزنيتسوف، ولفّ سترته اللبادية على بدنه بضيق:

ــ أود أن أفعل شيئاً آخر.... إن أزهق روح رئيس رقبائنا والطبّاخ بيدي. أين الطعام؟ لو تأخر واحد من طقمنا يوماً لقدم إلى محكمة

عسكرية، واعتبر هارباً! أما رؤساء الرقباء والطباخون فالحبل على غاربهم! ــ ونزل أوخانوف إلى مربض المدفع، حيث كان الجنود يقرضون الأرض بمعاولهم في الظلام مبحوحين متنهدين، ملقين كتل الأرض على الحاجز.

وجاء صوت أوخانوف من الأسفل:

ــ عمل الجندي، يا أخوان، مثل العجلة لا أول له ولا آخر. أديروا العجلة، يا أخوان، وسنبلغ الجنة.

وصل المطبخ في الساعة الخامسة ليلاً، حين كان رجال البطارية جميعهم يحفرون المخابئ في الضفة الشديدة الانحدار، بعد أن اتعبهم تماماً حفر المرابض.

نصب مطبخ الميدان على الطبقة الجليدية التي تغطي النهر ناشراً في الجوار رائحة دافئة لحساء من الحمص المركّز. وكان الجمر الصغير ما يزال يومض أحمر وديعاً تحت القدر المفتوح الذي يتصاعد منه البخار. وكانت المغرفة ترن وهي تلتطم بالقدر. وكان جنود الطقوم يتجمهرون حول المطبخ في كتلة واحدة داكنة على الجليد، بعد أن أحاطوا بالطباخ المشغول بمغرفته. وارتفعت أصوات الجنود متحدثة، متذمرة، وقد حمّستها الفودكا.

ــ مرة أخرى حساء الحمص البوريه، يا ويلي! لا يستطيع أن يبتكر شيئاً آخر!

ــ صب، صب، يا أخي! ما لك؟ تذكرت زوجتك! يا أخوان لماذا جميع الطباخين بخلاء؟

ــ إنك تخنقنا بالحمص! ألا تعرف ما يمكن أن يحصل للناس من الحمص؟

ــ في المشاريع المضرّة يجب تقديم الحليب لغسل البطن.

ــ اللسان بدون عظم، وتكلّم حسب ما تريد... يجب أن تحكّم عقلك... حليب ــ صاح الطباخ عالي الصوت: ــ ما هذا التوبيخ؟ هل أنا بقرة لا حلب حليباً؟

وتنفس كوزنيتسوف رائحة حساء محروق مع الطراوة الصقيعية النقيّة لجليد النهر، فأحس بغثيان. فانحرف مبتعداً عن المطبخ، في ظلام انحدار عال، متعثراً بالأرفاش والمعاول المتناثرة على الضفة. وبعد قليل لمع أمامه شق ضوء عمودي، وترامى من هناك حديث، وضحك. تلمس بيده، وأزاح سدالاً من المشمع، ودخل مغموراً برائحة طين رطب، ونفس الطعام.

في الخندق المحفور بعمق قامة إنسان، كان يشتعل ظرف مقذوفة عبئ بالبنزين، وضع في قعر جردل، وكان الظرف يهس هسيساً مرسلاً لهباً أبيض. وكانت قصعات الحساء يتصاعد منها البخار، وهي موضوعة على مشمع مفروش، وقد صفت على مقربة منها أقداح الفودكا. وكان الملازم دافلانيان، والرقيب نيتشايف مضطجعين ورأساهما إلى النار، بينما جلست زويا مديرة إلى النار جنبها، مسندة حنكها على ركبتها، تقضم البقسماط.

ــ كوزنيتسوف!... أخيراً!

صاح دافلانيان وقد تورد وجهه من الكل. وكان يبدو وكأنه قد نحف، بعد عمل الليلة المرهق. وكانت عيناه تلمعان وكذلك أنفه الصغير الحاد، مثل فأر ينظر في النار. وقال دافلانيان:

ــ أين اختفيت؟ إجلس معنا! هذه قصعتك. جاء بها رقيبك العطوف تشيبيسوف!

ـــ شكراً.

أجاب كوزنيتسوف، وعدّل ياقته، وتمدّد بنصف جسمه قرب دافلانيان الذي أفسح له مكاناً. وكان النظر في اللهب الأبيض المتطاير المبعوث من احتراق البنزين ما يزال متعباً لعينيه بعد الظلمة. قال كوزنيتسوف:

ـــ أي قدح غير مشغول؟

ـــ أي قدح تشاء ـــ قال نيتشايف، وغمز بعينه لزويا بمكر، وأكمل:

ـــ الجميع أصحّاء اطهار.

عرض دافلانيان عليه قدحه قائلاً:

ـــ هذا قدحي، يا كوزنيتسوف!

ونظر إلى زويا أيضاً، وقدم له قدحاً مملوءاً بالفودكا بأصابعه الدقيقة الملطخة بالتراب وقال:

ـــ أنا لا أحب أن أشرب الآن. ثم إنّها فودكا مخلوطة حتماً، فإنّ لها رائحة شيء غير طيّب. بل وحتى رائحة كيروسين، كما يبدو.

قال نيتشايف ورفّت ابتسامة مبتسرة تحت شاربيه:

ـــ بالضبط. خليط. ماء مع كولونيا مخلوطة. للفتيات فقط.

رشف كوزنيتسوف رشفة من القدح، محاولاً أن يتغلب على رجفة يده، وتحسّس رائحة الفودكا، إلا أنه فكّر، مغالباً نفسه، بأنّ القشعريرة ستزايله، وأن دفئاً مريحاً سيسري في بدنه من الفودكا، وقال بصوت متوتر:

ـــ إذن... اشرب، الموت للمحتلين الألمان!

وضغط على نفسه، وشرب المشروب المحرق الشبيه طعمه بطعم عرق غير نقيّ وحديد صدئ، وغصّ به. كان يكره الفودكا، و لم يستطع قط أن يتعود عليها، على هذه التي تقدم كل يوم مع الطعام للمحاربين في الجبهة. هتف دافلانيان:

ــ حثالة فظيعة! لا يمكن شربها! انتحار! لقد قلت لك...

قال نيتشايف ضاحكاً بتهكم، مقرباً قصعة كوزنيتسوف:

ــ تمزز بالحساء المخثر، أيّها الرفيق الملازم. هذا يحصل. لا تناسب الحنجرة.

ــ يبدو.

أجاب كوزنيتسوف بصوت لا يكاد يسمع. إلا أنه لم يمس القصعة. تناول من على المشمع بقسماطة جودار، وأسند ظهره إلى الحائط، وأخذ يمضغ.

ثم راح ينظر، وهو في الظل، إلى زويا، إلى وجهها الماثل المائل المضاء في لهب البنزين، ويجهد ذاكرته إجهاداً غريباً ليبحث في خطى حاجبيها الطويلين، وفي عينيها المسبلتين، عن شيء لا يمسك، مألوف ومعهود من قبل، وكأنما قد رآه بالفعل في الماضي، قد رآها، هي، زويا، في سكون دافئ بعيد عن الحقيقة، في ساعات نزول الثلج في المساء وراء النافذة، في بيت مدفأ بشكل مريح، ووراء طاولة عليها خوان أبيض نظيف يفرش في الأعياد، وعلى المفرش ألبوم عائلي مفتوح، ووجوه حبيبة مضاءة بضوء مصباح طاولة، وإلى الخلف، ووراء دائرة الضوء، سدفة مخملية لغرفة فيها رائحة أرضية مغسولة، ومرآة مستطيلة الشكل قديمة داكنة، وكرات نيكلية تلمع في أعماق هذه الظلمة الغامضة، في الظهر العالي لسرير من طراز قديم. إلا أن هذا السرير النيكلي، وهذه المرآة القديمة كانا، في

الواقع، في شقة في شارع بياتنيتسكايا في موسكو، فكان يستطيع أن يرى بوضوح شديد، وهدوء وغبطة، أمه فقط أو أخته، و لم يستطع أن يرى قط في تلك الغرفة وجه زويا الماثل وراء الطاولة إلى جانب أخته وأمه، على مقربة من المرآة المترفة المضحكة المصفرّة من تقادم الدهر عليها، المفخرة الوحيدة لأمه، والتذكار عن أبيه، ــ فقد اشتراها في يوم الزفاف مغتبطاً للغاية بهديته الضخمة...

سمع كوزنيتسوف صوت زويا:

ــ يبدو أنك نائم، أيّها الرفيق الملازم. شيء غريب حين يصمت شخص واحد، مثل الصاحي بين السكارى. ليست لك شهية؟

قال كوزنيتسوف دون أن يتحرك من موضعه في الظل، وظهره إلى الحائط.

ــ أنا لست نائماً. اتمتع بالدفء فقط.

والحق أنه بعد أن شرب الفودكا أخذ يتمتع بدفء المخبأ الهنيئ، وباحتباس هوائه الرطب، وبالضوء الحي لمصباح مرتجل، وبأصوات الحاضرين، وبالظلال الغريبة الأشكال على الحيطان الرطبة. زايلته رعشة القشعريرة الداخلية. وكانت أوصاله، العرقة من العمل بالمعول، قد تجمدت كثيراً في خفق الريح على ضفة النهر، وما تزال خطوط زلقه من البرودة تلتصق بدفتي كتفيه، ولكنه لم يرد أن يغيّر وضعه، فلم تكن له قوة على ذلك. وفكر بغير وضوح وهو ينظر إلى زويا: «كانت في الحصار عند خاركوف؟ اشتركت في القتال؟ أي وجه مذهل لها؛ وهي، بشكل عام، غير جميلة. عيناها فقط. وتعبير وجهها يتغيّر. ولكنها تروق لنيتشايف، ولاوخانوف، ولي... أية علاقة لها بدروزدوفسكي؟ كل شيء غريب...».

قطع دافلانيان عليه تدفق أفكاره الهادئ بقوله:

ـــ إسمع، يا كوزنيتسوف! لماذا لا تأكل؟ فالحساء قد برد!

ارتفع وراء ستارة المخبأ صوت متأمر عالي النبرة:

ـــ من قال: الحساء قد برد؟ الحساء كالنار! هل ممكن أن أدخل؟

قال اوخانوف من الخارج:

ـــ تعال، تعال، يا رئيس الرقباء! خش!

تحركت أقدام ثقيلة عند المدخل مدحرجة كتل الطين المدمدمة إلى الأسفل، وتلمَّس شخص الستارة حتى إذا وجد شقها أزاحها ناحية، وأطل من شق المشمع رأس سكوريك، بوجهه المنتفخ الملفوح بالصقيع.

سأل كوزنيتسوف:

ـــ هل أضعت طريقك، يا رئيس الرقباء؟ ماذا تريد؟

وقد تذكر من هيئة قبعته الجديدة الممالة على حاجبه وحدها، تأخَّر وصوله.

ـــ أنت صارم جداً، أيّها الرفيق الملازم. حتى يمكن القول إنك أكثر صرامة من آمر البطارية نفسه ـــ قال رئيس الرقباء بلمز يناسب مقامه الذي لا يُمسّ، وأضاف: ـــ هذا! تسلّم الجراية الإضافية. وآمر البطارية يأمرك والملازم دافلانيان بالذهاب إليه... وكذلك الممرضة. أنا قادم من عنده...

ـــ ضع الجراية الإضافية هنا، وانصرف!

ـــ لا استطيع أن أترك كيس المتاع هنا. فما تتركه لن تجد له أثراً فيما بعد. كما أن من المستحيل أن تجد كيساً بلا صاحب.

ــــ ادخل بسرعة، وافرغ كيسك!

اندس رئيس الرقباء في المخبأ، جالباً معه هبّة برد، ووضع كيس المتاع على المشمع المفروش، وأخذ يخرج، بوقار مفرط، بقسماطا، وزبدة، وسكراً، وعلب تبغ ــ إنها ثروة حقيقية لم يكن كوزنيتسوف في تلك اللحظة مكترثاً لها. فقد كان يحسّ بشبع خادع بعد احتساء الفودكا، وأكل البقسماطة.

وقال رئيس الرقباء مذكراً:

ــــ هذه الجراية لاثنين: لك وللملازم دافلانيان. أمره كوزنيتسوف قائلاً:

ــــ إذهب، وسنتصرف على نحو ما. أم تريد أن تقول شيئاً آخر؟

ــــ فاهم مفهوم...

ولفّ الكيس ضاغطاً إياه على صدره بقوة. وغادر المخبأ متقهقراً، بعد أن وتّر رقبته، وألقى في اللحظة الأخيرة نظرة حادة مستنكرة على زويا التي كانت صامتة منذ دخوله، وسحب الستارة بغيظ معبّراً بذلك تعبيراً متقناً غير موارب عن استيائه من وجود زويا في المخبأ. وبعد ذلك سمع صوت أوخانوف مرة أخرى قرب المخبأ:

ــــ أوه، وأحبك جداً. يا رئيس الرقباء! لا أعرف لماذا أنا متيّم بك، يا أبانا وأمين تموينتا. أنا احترمك لدقة مواعيدك وعطفك على البطارية.

زعق رئيس الرقباء جهير الصوت وراء الستارة:

ــــ لماذا تهذر، يا رقيب أول؟ كيف تتحدث؟ ولماذا تبتسم؟ انهض، كما يجب!

ضحك أوخانوف قائلاً:

ــ على مهلك، يا رئيس الرقباء، على مهلك! لماذا بهذا الصوت العالي؟ أين أنهض، كما يجب؟

ــ امراء الفصائل حللوا لامراء الصغار، ولا يوجد أي نظام! سأعرف شغلي معك، يا رقيب أول! ــ صاح رئيس الرقباء في الخارج متوعداً، حاكماً بذلك لا على أوخانوف وحده، بل وشاملاً معه كلا الملازمين اللذين لا بد أنهما كانا يسمعانه في المبخأ. ومضى يقول: ستجدون الحديدة حامية... أنا غلبت من أقوى منك! لن أسمح بالتسيب والتحلل في البطارية!...

فنصحه أوخانوف منشرح المزاج:

ــ فقط لا تزعق، وإلا تلقيت مني ما لا يحمد، جزاء على رعايتك الأبوية، يا رئيس الرقباء... اكتف، يا عزيزنا، يا ذهب، بتدريب الطباخين على التمارين العسكرية: إنهم يفهمون بسرعة. هذا كل شيء.

بعد دقيقة دخل أوخانوف المخبأ، وكان هادئاً لا يكاد يبدو عليه أنه انفعل. خلع قفازيه الملطخين بالطين، وأخذ يفرك يديه فوق النار، مجيلاً في الجميع عينيه الجسورتين اللتين كانتا تبدوان ممانعتين دائماً. وكانت سنته الأمامية الفولاذية التي كانت تلمع لمعاناً بارداً حين كان يتكلم أو يبتسم هي التي تضفي عليه بشكل خاص تعبير الجسارة هذا.

أبلغ أوخانوف الملازم كوزنيتسوف بشكل عارض:

ــ الأعمال على وشك أن تنتهي، يا ملازم. ما هي إلا ساعتان لا أكثر. ما هذا؟ الفطور والغداء والعشاء دفعة واحدة؟ شيء رائع! إذا كنتم تظنون أنني شبعان فهذا ضلال مبين. أين قصعتي الهائلة، يا نيتشايف؟

وفي الحال صار المخبأ أكثر اكتظاظاً بجسم أوخانوف الكبير القوي،

وبصوته، وبظله العريض الذي ظلل نصف الحائط، وبرائحة الجمد المرة قليلاً، التي يتشبع بها كل خيط في معطفه. فإنه لم يذق الدفء منذ بداية العمل. صبّ نيتشايف الفودكا من القصعة إلى القدح بكرم قائلاً:

ــ المهم أن مدفّئات الجبهة قد بردت، يا رقيب أول. انتظرنا طويلاً.

قالت زويا، وهي تشد كلاليب فروتها:

ــ أنا ذاهبة، يا صغاري الأحباء.

جلس أوخانوف بالقرب منها، في وضع أروح أمام الطعام، على المشمع، وقال لها:

ــ إذن، يا زويا... إبصقي على الجميع، وانضمي إلى طقمي. أعدك شخصياً بأنني لن أدع أحداً يمسّك بإساءة.، رجالنا محتملون. سنحفر لك مخبأ خاصاً.

قال كوزنيتسوف:

ــ أنا لا أعارض.

ونهض في اللحظة ذاتها. و لم يعرف كيف قال ذلك، وكيف افلتت هذه الجملة من لسانه. ولكي يخفف الحرج أمام زويا، أخذ ينزل ويعدّل قراب مسدسه المعلق في حزامه، وسأل:

ــ أذاهبة أنت إلى آمر البطارية، يا زويا؟

نظرت إلى أوخانوف وكوزنيتسوف باندهاش. وابتسمت باضطراب وقالت:

ــ ممن تريدان أن تحمياني. من الألمان؟ أنا قادرة على حماية نفسي. حتى بدون سلاح. انظر أية أظافر حادة لي! ــ وخمشت يد أوخانوف

بأظافرها. و لم يسحب أوخانوف يده، لدى هذا البرهان، بل لمعت سنته الفولاذية فقط. سألته زويا:

ـــ كيف؟ دفاع جيد؟

قال أوخانوف:

ـــ الأظافر للطلي بالمانيكور. وماذا تستطيعين أن تفعلي بها؟

ـــ سوف ترى!

قال نيتشايف متحبباً، وكان بادي الكدر بعد قدوم أوخانوف:

ـــ آه، يا زويتشكا، أنت عظيمة الشجاعة. وما هي أظافرك، إذا نوى شخص لك سوءاً؟ هل ستخمشين؟ تعضين؟ سيبدو ذلك مضحكاً!

ـــ مرة أخرى؟ ــ قال دافلانيان كمن فقد كل صبر ـــ مرة أخرى تعودون إلى هذا الهراء؟ لا تطيقه الأذن مطلقاً! زويا، أرجوك...

ورفع الستارة المسبلة على مدخل المخبأ، وترك زويا تخرج في المقدمة.

الفصل السابع

وطلعوا إلى الليل الممتلئ بطرقات المعاول والأرفاش، والخشخشة الرذاذية للتراب المقذوف. وكان مطبخ الميدان ما يزال منصوباً على الجليد، تحت الشاطئ الهادي، إلا أن النار قد خمدت فيه، وكفت مغرفة الطباخ عن إرسال صوت. وخلا المكان من كل إنسان. بينما كان الحصان الذي أرعشه طول الوقوف يرفع رجلاً ويضع أخرى، ويأكل من العليجة.

كانت السماء فوق المنحدر مضاءة بحمرة الوهج. وكانت حوافي الكثبان الثلجية مطرزة بألق أبيض. ومرة أخرى أحسَّ كوزنيتسوف بالذهول أمام هذا السكون المخيِّم فوق السهب، والممتد عميقاً في الليل، وأمام ذلك الركود الغامض في جانب الألمان. اعتصم كوزنيتسوف بالصمت، وكذلك دافلانيان، وزويا. وكان يسمع تكسر الجليد تحت أحذيتهم بخشخشة خفيفة.

وفكر كوزنيتسوف مع نفسه «يعني وزويا أيضاً أمرت بالحضور إلى آمر البطارية» ــ وكان يعرف واجبات زويا المنفصلة في البطارية بصفتها ممرضة، ووضعها المستقل الذي يسمح لها في أن تصاحب أية فصيلة، وغمَّه ذهابها الآن مذعنة، رغم كل ذلك، إلى مخبأ درزدوفسكي الذي بدا له أنه يملك عليها حقاً معيناً في الأذعان له.

قال كوزنيتسوف وقد عيل صبره:

ـــ إذن، فقد كنت تمزحين، يا زويا، عندما قلت ذات مرة أنك متزوجة؟

وكانوا قد صعدوا على الجليد حتى ظلمة المنخفض المزهر بلون الثلج الأزرق، وساروا متقاربين في الدرب الذي داسته أحذية الجنود بمحاذاة سفح المنحدر.

ـــ لا، بجد! لم أكن أمزح...

وقد تهدج صوتها في الجملة الأولى، وكأنما وضعت قدمها على منحدر الشاطئ الزلق، ثم عادت إليها صلابتها في الجملة الثانية.

قال دافلانيان ملتزماً جانب الحق:

ـــ وما الداعي إلى خداعنا؟ لا، على الإطلاق! ـــ ثم تأخر عن زويا، وهتف قائلاً: ـــ انظر، يا كوزنيتسوف. إن هذا النهر هنا، مثل حفرة مضادة للدبابات. شيء رائع! إذا ما نفذت الدبابات فإنها ستنحصر حالاً. إن المدافع كثيرة هنا، ولن يتجاسر الألمان على السير عبر الجليد. لن يتحملوها! في أية جهة ستالينغراد؟ إلى الشمال؟

قال كوزنيتسوف:

ـــ على بعد حوالى ٤٥ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي. إذا نفذوا إلى تلك الضفة، فإن ذلك سيكون بعيداً جداً... لا أود أن يحدث ذلك!

توقفت زويا. وفي الظل غشي معظفها الفرائي الأبيض ووجهها نقاب الثلج الأزرق على المنحدر الصبب. غير أن عينيها بدتا أكثر أسوداداً، وقد رفعتهما إلى خط الوهج المتألق فوق الشاطئ.

ـــ إذا نفذوا ـــ كررت زويا القول، وبعد أن انتظرت دافلانيان

ليلحق بها، سألت دون أيّة صلة منطقية لما قيل في بداية الحديث: ـــ وأنت، يا دفلانيان ألا تخاف الموت مطلقاً؟

ـــ ولماذا عليّ أن أخاف الموت؟

ـــ إن لك خطيبة. وأظن أنك تشبه خطيبتك. هل هي لطيفة مثلك! قطيطة لطيفة؟ صحيح؟

اندفع دافلانيان ليقول:

ـــ لا أهمية لذلك! على الاطلاق... ولماذا تقولين إنني لطيف؟ أنا لست لطيفاً مطلقاً... ثم ما علاقة القطيطة هنا؟ أنا لا أحب القطط. و لم تكن في بيتنا قطط، في وقت من الأوقات.

ـــ أين كنت تعيش؟ في أرمينيا؟ هل قضيت المدرسة هناك؟

ـــ قضيت المدرسة في سفردلوفسك. إن أبي أرمني، وأمي روسية. و لم أكن في أرمينيا قط، مع الأسف. بل لا أعرف اللغة الأرمنية.

قطع كوزنيتسوف الحديث بقوله:

ـــ يبدو أننا وصلنا. هل تشمان رائحة دخان؟ يبدو أن عندهم موقداً. من أين لهم الموقد؟

ـــ قف، من القادم؟ أهي الممرضة؟

هتف المناوب كسولاً في نقطة وراء أكوام التراب، ثم لاح شبحه ملفوفاً في الظلمة على بعد ثلاث خطوات. أجاب كوزنيتسوف:

ـــ آمر الفصيلتين، والممرضة. هل آمر البطارية هنا؟.

ـــ في الانتظار. تقدموا، من هنا. هذا هو الباب.

كان المخبأ قد حفر كلياً. وقد غرزت الأرفاش في أكوام التراب،

وطرحت المعاول. وبرز من الحائط إلى جانب الباب الخشبي كوع معوج لمدخنة من تنك، ناشر على المنحدر، في الجو الصقيعي، دخاناً بيتيا مضواعاً دافئاً. إن كل هذه المتعة كانت، كما يبدو، من مكاسب رجال استطلاع الاتصال في القرية.

فكر كوزنيتسوف مندهشاً: «نعم. وحتى موقد».

صرف الباب الصغير صريف الأبواب في البيوت الريفية، ودخلوا في ملجأ رحب جداً، بعلو القامة، مشبع برطوبة ثقيلة، وبرائحة حديد حام كان الموقد في الركن متقداً إلى حد الاحمرار ومزوداً بمصباح كيروسين كبير، ومضاجع ترابية فرشت بالقش على نحو مريح، وطاولة ترابية مغطاة بمشمع. وكل ذلك كان يبدو مريحاً بشكل لا تألفه الجبهة. وفي الركن إلى جانب الموقد، كان جندي الاتصال يضع جهاز الاتصال على صندوق من صناديق الذخيرة، وراح ينفخ في السماعة.

كان الملازم درزدوفسكي يجلس إلى الطاولة محاطاً بثلاثة من رجال الاستطلاع، منكباً على خارطه. كانت أزرار معطفه محلولة، وشعره الفاتح اللون، الأبيض تقريباً مصفوفاً باتقان، وكأنما غب استحمام، ووجهه الجميل المضاء بالمصباح صارماً. وكانت ظلال رموشه الطويلة الكثيفة غير الرجالية تسقط على عينيه المحدقتين بالخارطة.

ـــ آمر الفصيلة الأولى قد حضر، بناء على أمركم.

قال كوزنيتسوف مبلغاً الآمر، محافظاً على اللهجة الرسمية التي عزم، بعد المسيرة، أن يتحدث بها مع درزدوفسكي. فإن ذلك كان أوضح لكليهما وأبسط.

وهتف دافلانيان بصوت فرح:

ـــ آمر الفصيلة الثانية بزغ، بناء على أمركم. إلا أنه أخذ يضحك وقد أذهله ترف الملجأ، وقال:

ـــ كأنكم في قصر، أيّها الرفيق الملازم. إن هذا يسع بطارية كاملة!

قال أحد رجال الاستطلاع:

ـــ كان هنا مقلع حجارة كالكهف... استفدنا من ذلك فوسعناه قليلاً.

قال درزدوفسكي، وقد رفع من الخارطة عينين زرقاوين شفافتين، مثل قطعتين من الجليد الصافي:

ـــ أولاً: إن الشيطان وحده يبزغ من العالم الآخر، يا ملازم دافلانيان. امراء الوحدات يحضرون بأمر. وثانياً ـــ وهنا صعّد بصره بكوزنيتسوف من قدمه حتى رأسه، وحتى دون أن يلقي نظرة عابرة على زويا التي أتخذت مجلسها عند الموقف، وكأنّها لم تكن في الملجأ: ثانياً، قبل نصف ساعة طفت في المرابض، ورأيت ممرات الاتصال بين المدافع لم تشق كما يجب. فلماذا أرسلت جميع الجنود لحفر الملاجئ؟ أنت لن ترى الدبابات من الملاجئ. ربما أوخانوف هو الذي يترأس الفصيلة، لا أنت؟

فاعترض كوزنيتسوف قائلاً:

ـــ الملاجئ ضرورية أيضاً. وبالمناسبة في وسع أوخانوف أيضاً أن يقود الفصيلة. إنه ليس أسوأ من الآخرين. فقد أنهى المدرسة العسكرية معنا. سوى أنه لم يحصل على رتبة. أضاف درزدوفسكي:

ـــ من حسن الحظ أنه لم يحصل. أنا أعرف، يا كوزنيتسوف، أعرف كيف رفعت الكلفة في علاقاتك مع الرقيب الأول أوخانوف!

ـــ بأي معنى؟

خلعت زويا قبعتها، وهي جالسة قرب الموقد الذي كان يرسل شرراً على الحديد، وهزت شعرها ـــ فتناثر على ياقة المعطف البيضاء ـــ وابتسمت صامتة إلى جندي الاتصال الذي كان يتفحصها، فأسرع هذا ليبتسم لها ابتسامة أعرض. وركز درزدوفسكي انتباهه على زويا لثانية واحدة دون أن يغيّر التعبير على وجهه الصارم. وكرر:

ـــ أنا عارف كل شيء، يا ملازم كوزنيتسوف.

ـــ وما علاقة رفع الكلفة هنا؟ ـــ قال ذلك دافلانيان، ورفع كتفيه، وازداد أنفه الحاد حدة. وكأنه يتحارش بدرزدوفسكي ـــ اعذرني، يا آمر البطارية. أنا مثلاً، سأكون سعيداً لو كان في فصيلتي آمر مدفع مثله. ثم أننا جميعاً من مدرسة واحدة، على أية حال.

غضن درزدوفسكي جبينه، معبراً بذلك عن عدم رغبته في الاستماع إلى دافلانيان الآن، وقال دون أن يدعه يكمل:

ـ سنتحدث في وقت آخر عن أوخانوف. أرجو أن تتقدما من الطاولة، وتخرجا الخرائط.

فكَّر كوزنيتسوف: «هناك شيء جديد، إذن. شيء ما أصبح معروفاً».

تقدَّما من الطاولة، واخرجا خريطتين من محفظتيهما، ونشراهما على الطاولة تحت الضوء غير المتساوي لمصباح الكيروسين. وساد صمت. وأحس كوزنيتسوف، وهو ينظر في الخارطة، بحرارة الزجاج الساخن على صدغه، ورأى درزدوفسكي عن كثب بوضوح غير معتاد، وبدقة، وكما لم يره من قبل: اضمامة شفتيه العنيدة المعتدة، وزغب الصبا الناعم على خديه، وأذنيه الصغيرتين، والبؤرتين اللماعتين في حدقتي عينيه

الصلبتين، والعينان شفافتان تجذبان المرء بإلحاح وغرابة إلى التمعن في زرقتهما الشبيهة بزرقة البحيرات، النقية نقاء العذارى.

وتكلم درزدوفسكي بوضوح:

ـــ قبل ساعة تلفنوا لي من نقطة قيادة الفوج. إن الوضع أمامنا، كما هو معروف، غير ثابت على الإطلاق. ومن المرجح أن الألمان قد اخترقوا، كما فهمت، في منطقة الطريق العامة، هنا على يمين القرية إلى ستالينغراد ـــ وأشار إلى نقطة على الخارطة. كانت يداه العصبيتان غير مغسولتين غسلاً جيداً، وعلى الأظافر الضيقة تقرحات صبيانية وأضاف:

ـــ إلا أنه لا توجد معلومات دقيقة حتى الآن. قبل أربع ساعات أُرسل رجال استطلاع من فرقة المشاة. أهذا واضح؟

ـــ تقريباً.

أجاب كوزنيتسوف بذلك دون أن يصرف بصره عن التقرحات على أصابع درزدوفسكي.

قال درزدوفسكي:

ـــ تقريباً هذه، يا ملازم، زركشة، إذا أردت أن تعرف، من شعر تيوتشيف(٥)... وذاك الشاعر الآخر... فيت(٦). اسمعا بقية الحديث. في آخر الليل، سيعود رجال الاستطلاع، إذا سار كل شيء على ما يرام. والجسر سيكون نقطة طلوعها. هنا، على هذا الوادي، شرق القرية.

---

(٥) شاعر روسي غنائي شهير. (النصف الثاني للقرن ١٩) المعرب.

(٦) شاعر روسي غنائي شهير. (النصف الثاني للقرن ١٩) المعرب.

أي في منطقة بطاريتنا. انبهكما إلى أن تراقبا، ولا تطلقا النار على هذه المنطقة. حتى ولو بدأ الألمان بالإطلاق. والآن، هل كل شيء مفهوم؟

قال دافلانيان بصوت كالهمس:

ــ نعم.

وأجاب كوزنيتسوف:

ــ كل شيء. سؤال واحد فقط: كيف يمكن للألمان أن يطلقوا النار، وهم ما زالوا غير موجودين في القرية إلى الأمام؟

صبت عينا درزدوفسكي برودة زرقاء فيه. ــ ليسوا موجودين الآن، ولكن ليس من المستبعد وجودهم بعد خمس دقائق. أهذا واضح، يا كوزنيتسوف؟ أم ما يزال غير واضح؟

كان درزدوفسكي يتكلم بتشكك، وكأنما كان يريد أن يقدّر ما إذا كان سؤال كوزنيتسوف معارضة لأمره، أم مجرد استيضاح طبيعي.

قال كوزنيتسوف، وطوى الخارطة:

ــ الآن، نعم.

ــ وأنت، دافلانيان؟

ــ واضح كلياً، أيها الرفيق آمر البطارية.

قال درزدوفسكي، وقد رفع هامته وراء الطاولة:

ــ يمكنكما أن تنصرفا. سأتي إلى البطارية بعد ساعة، لأتأكد من كل شيء.

خرج آمرا الفصيلتين. تبادل النظرات ثلاثة من رجال الاستطلاع كانوا واقفين قرب الطاولة، وأدركوا، وكأنما قد تحسّسوا بوجود زويا

هنا، إنهم زائدون الآن في الملجأ، وأن عليهم أن يذهبوا إلى نقطة المراقبة. إلا أن درزدوفسكي، خلافاً للمعتاد، لم يستعجلهم. وركز بصره صامتاً في نقطة غير مرئية أمامه.

ــ اسمح لنا بالانصراف إلى نقطة المراقبة، أيّها الرفيق الملازم.

ــ إذهبوا. أنت أيضاً ــ وأشار إلى جندي الاتصال ــ وأبلغ غولوفانوف بأن يحفر ممرات بين الخنادق بطول القامة. إنصرف. لا حاجة للخفارة قرب تلفون، ما دمت أنا هنا. سأستدعيك عند الضرورة.

صرّ الباب، وانفتح على الظلمة، وترددت على الشاطئ خطوات رجال الاستطلاع والاتصال، مبتعدة عن الملجأ، واختفوا في عراء الليل الصامت.

قالت زويا متنهدة:

ــ ما أعظم السكون الآن! ألا تسمع هسيس ذبالة المصباح؟

أصبحا الآن وحيدين، في سكون الملجأ هذا، المخنوق بسمك الأرض، وفي الموجات الدافئة للهواء المسخن بالموقد، وفي زمزمة الذبالة المرنة في المصباح المحمي. مضى درزدوفسكي في تحديقته في النقطة غير المرئية أمامه دون أن يجيبها، وصار وجهه الشاحب الرقيق بادي الاهتمام غضوباً. ثم تحدث فجأة متنزعاً الكلمات بغير ود:

ــ وددت لو أعرف بم سينتهي هذا الأمر!

سألته زويا حذرة، ودفعت رأسها إلى الوراء:

ــ عم تتحدث؟ أوه، مرة أخرى، يا فولوديا؟

كانت تدير له جنبها، جالسة على صندوق ذخيرة فارغ، مادة يديها فوق الموقد المحمّى إلى حدّ الاحمرار، واضعة راحتيها المدفأتين على

خديها، مبتسمة له في ظلام الملجأ برقة حذرة، وكأنها كانت تعرف ما سيقول الآن.

ــ أريد أن أعرف أين كنت غائبة طوال هذا الوقت؟ ــ سألها بنبرة غيورة ومطالبة في الوقت ذاته، نبرة رجل كان له الحق في أن يسألها على هذا النحو، وليس لها الحق في الاعتراض عليه، وعندما ردت عليه بهزّة خفيفة من كتفيها قال: ــ نعم، أريد.... أريدك ألا تظهري للبطارية علاقتنا كثيراً. ولكنك تتمادين في الأمر! أنا لا أغار عليك أبداً، ولكن لا تعجبني كثيراً علاقاتك بفصيلة كوزنيتسوف هذا. كان بإمكانك أن تختاري فصيلة دافلانيان، على الأقل!

ــ فولوديا...

ــ أنا أتصور ما كان سيحدث لو أن كوزنيتسوف كان آمر البطارية، لا أنا! أتصور جيداً!...

ونهض بسرعة ولدانة، وتقدم منها ربع القامة، مشدود الجسم كالرياضي، مستقيماً. ووضع يديه في جيبيه، وبحث في وجهها المتوتر المرفوع، وفي ابتسامتها المشوبة بالذنب، عن الشيء الذي يجعله مضطرماً بالشك. وقد فهمت هي. ألقت عن كتفيها معطفها، ونهضت للقائه، ومالت إليه، وحضنته من تحت معطفه غير المزرر، ومررت خدها على الأزرار المعدنية البادرة على صدره. أما هو فقد وقف، دون أن يخرج يديه من جيبيه، بينما هي تضغط خدها على صدره، وتسمع دقات قلبه، وتشم رائحة العرق النابضة من قميصه العسكري. أزعجها احتمال أن تكون في شعرها رائحة دخان، فابعدت رأسها قليلاً إلى الوراء وقالت:

ــ أنا وأنت متساويان. أنت لم ترني منذ ثلاث ساعات؟ وأنا أيضاً

لم أرك... ولكننا لسنا متساويين في شيء آخر. وأنت تعرف ذلك، يا فولوديا.

كانت تتكلم دون مقاومة، ودون إدانة، وتنظر بعينين رقيقتين مستسلمتين لإرادته إلى بياض جبهته النقي الخالي من كل تجعيد. وقد بدا لها بياض جبهته الصبوي هذا أعزل كالطفل.

ــ ما هو؟ أها، فاهم!... أنا لم ابتكر الحرب. ولا حيلة لي في ذلك أيضاً. أنا لا استطيع أن أبادلك العناق أمام أنظار البطارية كلها! هل تريدين أن يعرف الجميع بعلاقتنا؟

وفك درزدوفسكي يديها عنه، ودفعها إلى الأسفل بقوة غير موزونة، وتراجع خطوة إلى الوراء بفم مزموم، طاوياً المعطف على جسمه ممتعضاً. قالت زويا مندهشة:

ــ أي وجه ممتعض لك! لا يروق لك ذلك! لماذا عصرت يدي بهذه القوة؟

ــ كفى! أنت تفهمين كل شيء جيداً ــ قال ذلك، وراح يذرع أرض الملجأ بعصبية ودب ظله، وتحطم على الحائط ــ لا يجوز أن يعرف أحد في الفوج عن علاقتنا. ربما هذا يزعجك، ولكنني لا أريد ولا يمكنني ذلك! أنا آمر بطارية، ولا أحب أن تدور حولي أحاديث سخيفة ولا وشايات! سيشمت بعض الناس، إذا تهاونت، إنهم ينتظرون ذلك بفارغ الصبر! لماذا يحوم هؤلاء الصبيان حولك؟

ــ أنت خائف؟ لماذا تخاف أن يساء الظن بك؟ ولماذا لا أخاف أنا؟

ــ كفى! أنا لا أخاف شيئاً! ولكن أنت تعرفين كيف يبدو كل هذا هنا! تحسبين الوشاة قليلين في البطارية، ولا يسرهم أن يبلغوا الفوج أو

الفرقة بعلاقتنا... عظيم! ــ وضحك ضحكة غير لطيفة ــ سيقولون: الحرب قائمة، وهما يتقلبان على الأسرة! حمائم! عشيقان في الجبهة!

ــ أنا لا أريد أن اتقلب معك على الأسرة، كما قلت ــ قالت زويا مطمئنة، ووضعت معطفها على كتفها، وكأنما أحست بقشعريرة وكررت قوله السابق محاولة أن لا تغيظه ــ ولكن لا أخجل، ولا أخاف إذا أبدى أحد الناس اهتماماً، وأبلغ قائد الفوج، وقائد الفرقة بعلاقتنا... ولكن هذا ليس هو الأهم، يا فولوديا... مجرد أنك لا تحبني كثيراً، وحبك لي غريب. لا أعرف لماذا يعجبك أن تعذبني بالتشكك. أنت لا تلاحظ، ولكن حتى حين تقبلني تتألم. لأي شيء تنتقم مني؟

كف درزدوفسكي عن ذرعه الملجأ، وتوقف أمامها. وسرت خفقة ريح، ورائحة رطبة لمعطف: وتلوّت شفتاه. وتكلم بلا مهادنة:

ــ تعذيب! ما هذا الذي تسمينه تعذيباً؟ لا تضحكيني! لأي شيء يمكن ان انتقم منك؟ تقبيلي لك غير مريح؟ إذن لم أتعلم، لم يعلموني كيف أقبل بطريقة أخرى! ــ أنا لا استطيع أن أعلمك، أليس ذلك صحيحاً؟ ــ قالت باستعطاف مرة أخرى، وابتسمت له قائلة ــ أنا نفسي لا أحسنه. هل هذا هو الأهم؟ سامحني، أرجوك، فولوديا.

ــ هراء! ــ وابتعد عنها إلى الطاولة، ومن هناك أكمل كلامه بقسوة ساخرة: ــ تعلمت القبل الأولى، إذا أردت أن تعرفي، من امرأة معتوهة حمقاء وأنا في الثالثة عشرة.

ــ من هي هذه المرأة؟ ــ سألت زويا بهمس منطفئ وأطرقت برأسها لكيلا يرى وجهها قائلة: ــ لِمَ قلت ذلك؟ من هي؟

ــ غير مهم! إنها قريبة من بعيد، عشت عندها عامين في طشقند، عندما صرع أبي في اسبانيا. لم أذهب إلى دار اليتامى، بل عشت مع

أقرباء لنا، وقضيت خمسة أعوام، كالجرو، أنام على الصناديق، حتى تخرجت من المدرسة! أنا لن أنسى ذلك أبداً!

ــ عندما صرع أبوك في اسبانيا، كانت أمك متوفية، يا فولوديا؟

كانت تنظر إلى جبهته البيضاء الناعمة، وشعره، بوجه متجمِّد، وإحساس حادٍّ بالحب والشفقة، مترددة في النظر إلى عينيه النفاذتين المزرورقتين.

وقال وقد رفَّت عيناه على زويا:

ــ نعم. فارقا الحياة! وقد احببتهما. بينما هما، وكأنهما غدرا بي... أتفهمين ذلك؟ فجأة بقيت وحيداً، في شقتنا في موسكو، حتى قدم من طشقند من يأخذني! وأنا أخاف أن تغدري بي أنت أيضاً. في يوم ما! مع صبي أرعن!...

ــ أنت أحمق، يا فولوديا. أنا أحبك. ولن أغدر بك أبداً. ها أنت تعرفني أكثر من شهر. أليس حقاً؟

ولم تكن زويا تفهمه في لحظات تشككه غير المفسر، ونوبات الغيرة القاسية عليها، عندما يكونان سوية، عندما كان لا يوجد أقل مسوغ للتحدث عن ذلك، رغم أنها كانت تحسّ وترى، في كل يوم، وفي كل دقيقة، علائم اهتمام رجال البطارية كلهم بها إلا أنها كانت تعتبر علائم الاهتمام هذه واجباً قسرياً. وترد عليها بتطبيق اللعبة التي اختارتها للجميع، والتي اعتبرتها ضرباً من الدفاع عن النفس. وقد يكون درزدوفسكي قد وعى ذلك، إلا أن نوبات تشككه، رغم ذلك، كانت تحمل شيئاً من العجز، ومن عدم الثقة الدائم بها، وكأنما كانت مستعدة لأن تخونه مع كل رجل من رجال البطارية تبتسم له عرضاً.

قال غير موافق:

ـــ لا، ليس هذا حقاً! أنا لا أثق بك!... وهنا، فكرت زويا برعب فجأة، في أنها لا تستطيع الآن أن تبرهن على شيء، ولا أن تبرِّر شيئاً. لم تكن تريد، و لم تكن لها القوة ولا الرغبة على التبرير، إلا أنها، وقد توجسَّت من اعتراضاته الحرنة، ظلت واقفة أمامه، متطلعة إلى جبهته النقية الصافية المكشوفة، وهي تداري رغبة في أن تمسدها. قالت زويا:

ـــ لا، أنا أحبك. ولا يمكنك أن تتصور حتى مدى حبي. لماذا لا تثق بي؟

خطا نحوها، وأخرج يديه من جيبيه، قائلا:

ـــ برهني، برهني على أنك تحبينني! أنت لا تريدين أن تثبتي ذلك! ـــ وضم زويا إليه من كتفيها بضراوة حنان مخبولة قائلاً:

ـــ هذا لا بد منه! مضى شهر ونصف!... اثبتي أنك تحبينني!

وطوق ظهرها الطائع، بقوة، وصلابة، وأخذ يقبل فاها قبلاً ملهوفة حانقة، وخارت، مقلصة عينيها، وكأنما تعاني ألماً، وطوقته طائعة من تحت معطفه غير المزرر، وصكت ركبتيها، وفي الوقت ذاته حاولت أن تنتزع شفتيها من فمه الخانق.

وأبعد رأسها، وانتزع نفسه منها. وقال بصوت مبحوح:

ـــ سأطفئ المصباح الآن. ولن يدخل أحد إلى هنا، لا تخافي! اسمعي، لن يدخل أحد إلى هنا. سنكون في خلوة...

قالت شهقة، وقد اغمضت عينيها:

ـــ لا، لا، لا أريد... اعذرني، أرجوك، يا فولوديا. لا حاجة لنا أن نفعل ذلك. لا يجوز لنا الآن أن نفعل ذلك...

ـــ لا استطيع على هذا النحو!.. افهمي لا استطيع!

فهمست له في صدره مقاومة صاكة على أسنانها:

ــ ولكنني أحبك، جداً. فقط لا حاجة إلى ذلك... وإلا فسيكره أحدنا الآخر. أنا أحبك!.. ولا أريد أن يكره أحدنا الآخر!...

ومرة أخرى جذبها إليه من كتفيها جذبة قصيرة:

ــ لماذا؟ لماذا؟

ــ لقد قلت لك. لقد فعلنا ذلك مرة... بعد ذلك لن يستطيع أحدنا أن ينظر في عين الآخر، يا فولوديا. أنا أتذكر كيف انقلبت سحنتك في تلك المرة، وأخذت تدخن... افهمني. إن هذا لا يجوز الآن، يا فولوديا. أرجوك. لا استطيع الآن، غير ممكن لي، هل تفهم؟ أعذرني، سامحني...

وبكت متضرعة بعينيها وصوتها، غير عارفة سبباً لانهمار الدموع، وأخذت تقبّل حنكه، ورقبته بلمسات باردة راعشة، وكأنها تطلب منه الصفح، وتعبر عن ذنبها.

ــ بلاهة! سأكرهك! تكذبين. أوه، لقد ضجرت، ضجرت!

ونحاها في حنق، ولبس قبعته، وخرج من الملجأ، وصفق الباب بقوة ارعشت نار المصابيح تحت الزجاجة.

الفصل الثامن

ارتقى الدرجات المحفورة في المنحدر. وعلى قمة الشاطئ، متبرداً قليلاً بالريح الثلجية الهابة في وجهه. وكرر بصوت مسموع من خلال أسنانه:

ـــ حمقاء، حمقاء! بلاهة!

وأحس في نفسه بامتعاض وكره لعجزه. ولخوفها الأحمق، ولرفضها أن تقترب منه قربها آنذاك، أيام تشكيل الوحدات في نقطة الاسعاف، حيث كانت في الخفارة، واستشعر نحوها بغيظ مهين تقريباً، ورغبة في أن يعود إليها، ويصفعها منتقماً. ولكنه في الوقت ذاته احتقر نفسه، وعذّبه أن يكون غير قادر على أن يضغط في نفسه على كل شيء، فقد كانت ليديه ولجسده ذاكره مستقلة خاصة بها، وكانت هذه الذاكرة، بعد ملامساتها تلك في نقطة الاسعاف، وعينيها المغمضتين، وركبتيها المرتجفتين، والحركات الحيّة لجسدها اللدن، مرافقة الآن، لسبب ما، على رقة مذلة له، شرط أن تكون معه...

«لا، لأترك هذا، كل شيء!» خاطب درزدوفسكي نفسه بذلك مقنعاً إياها، وقد لاح في ذاكرته في تلك اللحظة ما كان له من قدرة خاصة على أن يثير ويزيد نفوره منها بشكل لا هوادة فيه: فمها الكبير، والذعر المرتسم على وجهها، وصدرها الصغير للغاية، ورمانتا ساقيها

الممتلئتان بشكل مفرط، وكأنهما قد حشرتا في ساقي حذائها الطويل حشراً. وأراد أن يجد فيها ما يمكن أن يصرفه عنها، بعد الذي بدا له غير قابل للمصالحة. فاسترسل مخاطباً نفسه «ماذا وجدت فيها؟ ليتها كانت جميلة، ولكنها عاطلة من الجمال، لا شيء فيها! فما هي هذه العلاقة البلهاء معها؟ يجب أن يقطع كل شيء، دفعة واحدة، وإلى الأبد!».

ولما كان في احتدامه فاته أن يلحظ في الحال أن الهواء والثلج قد تنورا، واكتسبا جفافاً زمهريرياً، وسطعت نجوم كانون الأول سطوعاً رائعاً، خافقة في الأعالي الجليدية بالضوء الأخير قبيل تبلج الفجر. وعلى الأرض بدا وكأن سطوح بيوت القرية قد تقاربت، متميزة عن الثلج بسوادها. وقد شحب الوهجان فوقها، وشكلا نصف دائرة، واحتلا وراء القرية الجزء الجنوبي كله من السماء.

ولاح له وكأن في أطراف نصف الدائرة هذه، عند الأفق، وراء الوهدة، والمرتفعات، تطوف أنوار، وخفقات بروق شبيهة بلمعان مصابيح بعيدة، ثم خيّل إليه فجأة أن الريح تحمل إليه من هناك مزيجاً من أصوات المحركات، وتحشرجات الدبابات، والعجلات الجارة. فهل من المعقول أن يكون ذلك زحفاً دون معركة، ودون طلقات من جانب الجيش الألماني الشاق طريقه إلى هنا، إلى القرية، نحو البطارية؟...

وأخذ يدخن بنهم، وعب بضع مصات، وأرهف سمعه. كانت الريح تهب، وتجرجر أذيالها الثلجية على الشاطئ، وعلى مواقع البطارية، وفي الأعلى كانت الأغصان المتجمدة لأشجار الصفصاف الجرداء تشترك فيما بينها كالأسلاك الشائكة، وتتدلى ظلالاً على حافة وهدة النهر. وفجأة وكأن أصوات المحركات، والحركة غير المنظورة قد قطعت قطعاً، واختفت.

«ذهان» فكر مع نفسه، وسار إلى نقطة المراقبة التي هي الآن على مرتفع بارز يميناً في الهواء الخفيف.

عندما صعد درزدوفسكي عن طريق خندق الاتصال غير العميق ــ إلى حد الركبة إلى المرتفع، حيث ما زالت الأرفاش والمعاول تضرب الأرض. وكأنها طيور نقار الخشب، عادت إلى وجهه أمارات معالم الحزم البارد. كان رئيس الرقباء غولوفانوف وهو رجل عريض الصدر، مديد القامة، ينصب المنظار أمام المتراس. وعندما لاحظ درزدوفسكي، هرع إليه، وقال مبلغاً:

أيّها الرفيق الملازم، تلفنت لك منذ لحظة. فقالت الممرضة أنك قد خرجت! قبل خمس دقائق وصلت سيارة قائد الفرقة إلى منطقة الجسر... إن شيئاً ما يقلق... لم يعد رجال استطلاع الفرقة حتى الآن...

قال درزدوفسكي في حنق:

ــ ولماذا تتأخر في إخباري؟ لماذا لم تتلفن لي قبل خمس دقائق؟

قال غولوفانوف بصوته الضخم:

ــ تلفنت. بالتأكيد، فردت علي زوجتك... أيّها الرفيق الملازم، أقصد الممرضة...

ــ إخرس، غولوفانوف! هل فقدت عقلك؟ أيّة زوجة؟ ــ قاطعه درزدوفسكي بذلك، وقد فهم تماماً صراحة غولوفانوف، وفهم لماذا كان رجال الاستطلاع الثلاثة، كالصم، يقذفون التراب بأرفاشهم في الخندق المجاور، كآلات منصوبة، وسأل بصوت منخفض: من ينشر الاشاعات حولي؟ أهو أنت، يا غولوفانوف؟ أم من؟ على أيّة حال، سأعرف، يا رئيس الرقباء!... من جاء من الفرقة؟

ــ ثلاث سيارات، أيّها الرفيق الملازم. عرفت في واحدة العقيد دييف.

ــ يجب أن تعرف كل شيء، إذا كنت رجل استطلاع!

اتجه درزدوفسكي نحو مواقع المدفعية بخطوات واسعة، مارا برجال الاستطلاع المنضغطين على جداري الخندق مع أرفاشهم، وما تزال في رأسه ترن «زوجتك... زوجتك». وفجأة فكّر، متلوياً من الامتعاض، بأنّ البطارية كلها، في الأغلب، تتحدث الآن عن ذلك على المكشوف.

نزل درزدوفسكي من المرتفع، وركض نحو المدافع، التي حفرت موقعها إلى يسار نقطة المراقبة، على حدبة الشاطئ، ولمح، من بعيد، ومن خلال شفافية الهواء المتبلجة، ثلاث سيارات، وعلى بعد ثلاثمائة متر منها، فريقاً من الرجال متجمعين في موقع المدفع الأول. كان الجنود الذين يحفرون بمعاولهم خنادق الاتصال بين مواقع المدفعية، ينظرون إلى هناك، وكان أحدهم ــ وهو صغير الجسم في معطف قصير ضيق وبطانة قلنسوة مبللة تحت أنفه ــ وهو تشيبيسوف، قد حول وجهه الصغير المثلث غير الحليق، الشبيه بوجه وحش صغير متعب، إلى درزدوفسكي الذي مرّ راكضاً، وأبلغه:

ــ أيّها الرفيق الملازم، أن العقيد، والجنرال العام هناك، إنه صاحب العصا... ينتظران شيئاً. يبدو أن المعركة بادية!

قال درزدوفسكي:

ــ بطانة قلنسوتك... مبللة تماماً! أصلح هندامك... منظرك مخجل، مثل دجاجة مبللة. أين كوزنيتسوف؟ أين دافلانيان؟

تمتم تشيبيسوف ناشقاً بأنفه:

ــ الجميع هناك.

فحص درزدوفسكي أزرار معطفه بتمرير أصابعه عليها، على عادته، وركض إلى موقع المدفع الاول، ورفع يده إلى صدغه بالتحية باحثاً عن صاحب أرفع رتبة بين فريق القواد هذا، وعرف من بين رجال لا يعرفهم، العقيد دييف، وقائد الجيش الجنرال بيسونوف. وتكلم كاتماً أنفاسه:

ــ أيّها الرفيق الجنرال، أنا آمر البطارية الأولى الملازم درزدوفسكي!..

التفت بيسونوف، وكان يرتدي فروة لا تحمل شارات الرتبة، ربع القامة نحيل العود، لا تدل هيئته الاعتيادية أبداً على أنه جنرال، ونفذت عيناه الشائكتان الحادتان بجفنيهما المنتفخين قليلاً، في وجه درزدوفسكي الشاحب الجامد في تساؤل. ورفع العقيد دييف، حاجبيه الأشهبين في شيء من الأسى، وكان ممتلئ الأعطاف عافية كالفتى، أحمر الوجه يرتدي سدارة جندي، ويتمطق بأحزمة، وقال بصوت عالي النبرة ريان:

ــ أين كنت مختفياً، يا آمر البطارية؟

أجاب درزدوفسكي متمطقاً بكلماته:

ــ كنت في نقطة المراقبة، أيّها الرفيق العقيد. الأعمال الأخيرة لاعداد ممرات بين الخنادق موشكة على الانتهاء.

وفكر مع نفسه: «لأي غرض جاؤوا؟ لانتظار رجال الاستطلاع؟ أم لتفقد البطارية فقط؟ ولكن هذا هو قائد الجيش نفسه». وتساءل بيسونوف بصوت صارم:

ــ درزدوفسكي؟ اسم عائلة مألوف لي... يبدو أنه قد مرّ علي هذا الاسم.

ونفذ ببصره في درزدوفسكي بادي السهوم. مجاهداً لأن يعيد إلى ذهنه، ويلتقط إمارة قديمة لشيء زلق، إلا أنه تذكر، على ما يبدو، شيئاً آخر غير ما كان يريده ــ فتعبس، وحرف بصره عن درزدوفسكي، وخاطب دييف: ـــ أين رجال استطلاعك، في آخر الأمر، أيّها العقيد؟

كان جميع الذين في صحبة بيسونوف هنا ـــ المقدم الكهل رئيس شعبة الاستطلاع في الفرقة الذي نشر خارطة على محفضته، وفيسنين عضو المجلس العسكري المديد الطويل الساقين ذو النظارة، والميجور تشيريپانوف الفتي جداً، المنمش بشكل مضحك، المعكوف الأنف، آمر فوج المشاة الذي كانت كتائبه تتوكل بالدفاع على الشاطئ ــ كان هؤلاء جميعاً ينظرون إلى درزدوفسكي عندما كان بيسونوف يتحدث إليه، كما صرفوا أبصارهم عنه عندما شرع القائد يتحدث عن رجال الاستطلاع. ونظر الجميع في ناحية الوهج، حيث كان هدير مبهم يظهر تارة على شكل موجات محمولاً على هبات الريح، ثم يهمد تارة أخرى.

قال بيسونوف:

ــ إن شيئاً ما واضح بدون استطلاع. ما رأيك، يا فيتالي ايسايفيتش؟

أجاب فيسنين:

ـــ أظن ذلك. واضح بهذا القدر أو ذاك.

ورد دييف منحرجاً، مخفضاً صوته الجهوري قدر إمكانه:

ـــ أظن يجب أن نعود إلى نقطة المراقبة. يبدو أن شيئاً ما حصل لرجال الاستطلاع، أيها الرفيق القائد. يصعب أن أشرحه...

ـــ ماذا قلت؟

وكان من الممكن الاستدلال من لهجة القائد قطعاً أن سؤاله لا يبشر بشيء حسن. إلا أن دييف أتم كلامه قائلاً:

ــ أظن لا داعي لانتظار رجال الاستطلاع هنا، أيها الرفيق القائد.

قال بيسونوف بفكر:

ــ وأنا لا انتظرهم. مثل هذا الاستطلاع يعرض المرء للمسؤولية، يا عقيد، ليكن ذلك معلوماً لك! قال فيسنين:

ــ الدنيا تتنور تماماً.

وتناول المنظار من المقدم كوريشيف رئيس شعبة الاستطلاع في الفرقة، وطوف به، بحب استطلاع، على الوهج، وعلى القرية التي كانت تُرى جيداً الآن من الأمام. إلا أن جميع الأشياء أخذت تتخذ معالمها الكاملة دون الحاجة إلى منظار. وفي البطارية ــ على مبعدة ومقربة ــ ظهرت وجوه الناس مسطحة رمادية من سهر الليل، كالأقنعة، والمدافع، وأكوام التراب على المتراس، والشجيرات فوق الثلج، تطقطق بالريح أغصانها العارية. كانت آونة رجراجة من فجر كانوني صائر إلى صباح باكر قد تورد كليا إلى الشرق.

وفجأة أخذ الهدير المتذبذب في الأفق كله يهتز بوضوح، ويعلو، وكأن كرة حديدية هائلة تتدحرج على السهب. وفي تلك اللمحة طلعت من الامام، وسط الوهج، خطوط من الصواريخ الثنائية الألوان ــ واحداً تلو الآخر، في نصف دائرة ــ محلقة فوق القرية. إنها رشقات من اللونين الأحمر والأزرق.

وفكر درزدوفسكي مثاراً: «هذا ما كنا ننتظره! إنها إشارات الألمان... أمن المعقول أنهم بهذا القرب؟ ولماذا هم بهذا القرب؟ وما هذا الدوي؟»

بينما ظل هذا الهدير الجديد يملأ باطراد القضاء بين السماء والأرض.

ولم يعد يشبه صوت كرة حديدية متدحرجة، بل كان تارة يهدر في البعيد على شكل ضربات متتابعة، وتارة يتحلل إلى أصداء جبارة في مجرى النهر العميق إلى الخلف، زاحفاً باطراد من نقطة إلى الأمام مخيفاً لا يرد.

ولاح وكأن الأرض أخذت تتململ مثل جسم حي، وكانت خطوط الصواريخ الحمراء والزرقاء تبرق بلا انقطاع فوق القرية على شكل نصف دائرة، وكأنها ترسل الإشارات إلى هذا الهدير.

«أهذه دبابات أم طائرات؟ هل ستبدأ الآن؟ أم بدأت بالفعل؟ هل يجب أن أصدر أمر الاستعداد للقتال؟ يجب أن اتصرف على الفور!...».

ورأى درزدوفسكي وهو يحتفظ برباطة جأشه بجهد، غير مصدر أمرا، كيف أجال الجنرال بيسونوف عينيه في السماء، وكيف رفع العقيد دييف حاجبيه، وكيف توقف المنظار المصوب على الوهج في يدي فيسنين. ثم أعطى فيسنين المنظار إلى رئيس شعبة الاستطلاع، ونزع نظارته لسبب ما، وعندما التفت إلى بيسونوف كان على وجهه الذي بدا أعزل بشكل غريب وهو بدون نظارة، تعبير عجول مرح لرجل يعلن نبأ لا مناص منه:

ــ ها هي قادمة، يا بيتر الكسندروفيتش. اللعنة، كم عددها...

وهناك، وسط الوهج لمع شيء وردي كثيف، سحابة ما في السماء وكانت تقترب. وتتجه قدماً إلى هنا، إلى القرية طاغية بصوت محركات مندمج في هدير شامل. وصارت ترى في هذه السحابة معالم طائرات «يونكرس» الألمانية الثقيلة الحمولة. كانت تقبل من الجنوب، مجتازة الوهج، مغطية إياه، مثل أفواج هائلة طويلة من السمك. وكانت من

الكثرة بحيث تعذر على درزدوفسكي أن يعدّها في الحال. وبقدر ما كان يتضح ويتحدد بشكل متزايد اتجاه الطائرات نحو القرية بالذات، نحو البطارية واقترابها من هناك، كان وجه بيسونوف يزداد ضآلة وكأنما تزايله الرأفة، حتى تحجّر تقريباً. كانت عينا فيسنين القصيرتا النظر تحدقان متمعنتين مخمنتين لا في السماء، بل في القائد، وكانت أصابعه العارية وكأنها كانت تحيا حياتها (نسي أن يرتدي قفازيه اللذين كانا يبرزان من جيب معطفه) تمسح النظارة وتمررها على ياقته.

وفكر درزدوفسكي من جديد «لماذا هم واقفون ولا يصدرون أمراً؟ ماذا يجب أن أفعل في وجودهم؟».

وفي تلك اللحظة انزلق الميجور بوجيتشكو عبر المتراس إلى باحة المدفع الصغيرة، وكأنه على قبقاب تزحلق، وكان في معطف المرافق الأنيق ــ والظاهر أنه جاء راكضاً من السيارات ــ ونادى بيسونوف بإصرار دافق معهود من مرافق مسموح له، وفق قانون غير مكتوب، بأن يلفت نظر من يرافقه، وحتى أن يطلب منه أحياناً:

ــ أيّها الرفيق القائد، هل أجلب السيارة إلى هنا؟ يجب أن نرحل، أيّها الرفيق القائد!

قال دييف وهو يراقب حركة الطائرات من وراء حاجبيه الأصهبين:

ــ ربما من الأحسن أن ننتظر انتهاء الغارة هنا، أيها الرفيق الجنرال. أنا أشك في أننا سنلحق في الوصول إلى نقطة المراقبة قبل بداية...

ــ واثق أننا سنلحق، أيها الرفيق القائد! ــ قال بوجيتشكو مؤكداً، وشرح لدييف بعتاب: ــ ثلاثة كيلومترات بالعداد، سنقطعها...

ــ طبيعي، ستقطعها! ــ قال فيسنين متحدثاً بحيوية، ولبس نظارته،

حاسباً المسافة ما بين أسراب الطائرات التي اعتمت الوهج، وبين المرتفع الشديد الانحدار وراء النهر، حيث كانت نقطة مراقبة الفرقة ــ وقال مصححاً ــ إلا أن المسافة أربعة كيلومترات، يا بوجيتشكو، ــ ثم خاطب دييف بادي التأثر ــ هل أنت واثق، يا عقيد، أنها ستقصف هذه المنطقة؟ ألا يجوز أن تكون متجهة إلى ستالينغراد؟

ــ لست واثقاً، أيها الرفيق عضو المجلس العسكري...

وضحك بيسونوف ضحكة مقتضبة، وقال دون أي ظل لشك:

ــ ستقصف هذه المنطقة بالذات. الخط الأمامي. ذلك شيء حتمي. فالألمان لا يحبون المجازفة. لا يهجمون بدون طيران. لنذهب إذاً، سواء ثلاثة كيلومترات أو أربعة. لا يهم. ــ وهنا فقط، تذكّر درزدوفسكي، وكأن ذلك عرضٌ، وكان درزدوفسكي يقف وقفة الانتظار، فقال له:

ــ ما العمل، الجميع في المخابئ، يا ملازم. وكما يقال: سنجتاز الغارة! ثم هناك الشيء الأهم: ستأتي الدبابات. يعني، أيها الملازم، اسم عائلتك: درزدوفسكي؟ ــ سأل بيسونوف مرة أخرى، ممسكاً بشيء من ذاكرته ــ أنه اسم مألوف لي. سأتذكر. وآمل أن اسمع عنك مرة أخرة، يا ملازم درزدوفسكي! لا خطوة إلى الوراء! صد الدبابات، واصمدْ، وانس الموت! لا تفكر فيه مهما تكن الظروف! أن بطاريتك تستطيع أن تقوم بالكثير هنا، يا ملازم! وأنا آمل بالأحسن...

وارتقى على المتراس يعرج عرجاً خفيفاً لا يكاد يلحظ، وسار نحو السيارات، ووراءه المرافق بوجينشكو، والعقيد دييف. وتأخر رئيس شعبة استطلاع الفرق في مربض المدفع. أبطأ واضعاً قدماً واحدة على الحافة، دون أن يرفع الخارطة عن ركبته، ولم يترك المنظار من يديه مطوفاً عدسته على الفضاء الخالي أمام القرية. لم يكن يريد أن يغادر المكان

ببساطة وخلو بال دون أن يتأكد ويتحقق من مصير رجاله الذين خرجوا للاستطلاع. وحين مس فيسنين كتفه مسا خفيفاً مدركاً الأمر، قال له شيئاً بصوت خفيض. وبعد ذلك فقط سار هذا المقدم الصموت مطأطئ الرأس نحو خندق الاتصال. توقف فيسنين على بعد خمسة أمتار من موقع المدفع، وقال لدرزدوفسكي، وهو يرتقي مرتفع الشاطئ، بصوت لم يخل من مرح غطى عليه دوي الطائرات المقترب:

ـــ والآن، يا آمر البطارية، يبدو أن وقت الجد مقبل! ألا تخاف، في المرة الأولى؟

ـــ لا، أيها الرفيق قوميسار الفرقة!

ـــ رائع. قُدْ، يا قائد البطارية!

قضى درزدوفسكي بضع ثوان أخرى ساهماً جامداً مشدود الجسم، ولكن ما أن اختفوا وراء سدّة المتراس حتى تطلع كالذاهب البصر إلى السماء المسودة، المفعمة بالحركة والضجيج، وفجأة أصدر أمره بصوت هادر مرن:

ـــ البطارية، في المخابئ!

وهرع إلى نقطة المراقبة مارّاً بوجوه بيضاء خطفت بصره خطفاً قرب المدافع، وبظهور الجنود المحنية، وكأنما تضغط عليها السماء الهادرة.

الفصل التاسع

خيّم هدير المحركات الجبار على الرؤوس، مبتلعاً جميع الأصوات على الأرض، وتذبذب في الآذان وزمجر.

أخذ السرب الأول من الطائرات يغيّر تشكيلته فجأة على نحو ملحوظ؛ وينبسط، ثم راح يعيد تشكيل نفسه على شكل دائرة. ورأى كوزنيتسوف كيف بثت الصواريخ الألمانية نوافير من اللونين الأحمر والأزرق وراء بيوت القرية. وبعد ذلك انفصل الصاروخ الجوابي من الطائرة الأمامية بوهج أحمر، راسماً خطاً من الدخان وسقط بسرعة منصول اللون يلمع على سطوح عديدة، وانطفأ في الهواء المتورد. كان الألمان يرسلون الإشارات من الأرض والجو ليصيبوا منطقة القصف بدقة، ولكن كوزنيتسوف لم يكن يسعى في هذه اللحظة إلى أن يحدد ويحسب المكان الذي سيقصفونه، فقد كان ذلك واضحاً. فحلقت طائرات «اليونكرس» واحدة وراء الأخرى في دائرة هائلة، مخططة مستوعبة فيها القرية، والشاطئ كله، وخنادق المشاة، والبطاريات المجاورة، ووقع الخط الأمامي كله داخل هذا الطوق الجوي المحكم، حتى بدا من المستحيل الهروب منه إلى جهة ما، رغم أن السهب الطليق في الضفة الأخرى بدأ يتألق في شروق الشمش، والمرتفعات تشع بنور الصباح الهادئ.

ـــ غارة!.. غارة!...

صاحت أصوات في البطارية، وفي مكان في أسفل منحدر الشاطئ، مندفعة.

كان كوزنيتسوف يقف في الخندق إلى يسار المدفع مع أوخانوف وتشيبيسوف، وكان الخندق ضيقاً لثلاثتهم. كانوا يستشعرون ارتجاف الأرض بأقدامهم. وكانت كتل صلبة تتساقط من المتراس من جراء هدير المحركات المندمج الذي كان يهزّ الهواء هزّاً. ورأى كوزنيتسوف على مقربة شديدة منه عيني تشيبيسوف السوداوين كالغرافيت الندي، متسعتين من الرعب، في وجهه المثلث المصوب إلى السماء، وقد استولى عليه الذهول والانسحاق، ورأى إلى جانبه حنك أوخانوف المرفوع، وعينيه اللامعتين، المتحركتين، وكأنما تعدّان في غيظ، وجسمه كله منكمش مضغوط، وكأنه في حلم ثقيل، حيث لا تستطيع حراكاً من مكانك، بينما يجابهك شيء هائل لا يرد.

ــ ثمان وأربعون.

عد أوخانوف أخيراً في تنفس، وحول إلى تشيبيسوف عينين صافيتين متظاهرتين بعدم الفهم، ودفع كتفه المنكمش دفعة خفيفة من كتفه، وقال له:

ـــ ما بك، يا صاحبي، ترتجف مثل ورقة الحور الرجراج؟ لن يحدث ما هو أرهب من الموت. ولا ينفعك ارتجافك...

ـــ أنّها متجهة إلى هنا، إلينا!..

إن هذه الصرخة، وعيني تشيبيسوف الباحثتين الخائرتين، جعلت كوزنيتسوف يرفع رأسه للحظة. وإذا به وكأنما هبت على وجهه الرائحة

النارية للقدر المسلّط من السماء، وأن شيئاً هائلاً لامعاً عليه صلبان مرسومة بالأبيض والأسود، مرئية بوضوح ـــ أمن المعقول أنها طائرة «اليونكرس» الأمامية ـــ بدا وكأنه توقف لحظة، متعثراً في الهواء، ثم أخذ يهوي إلى الأسفل عمودياً تقريباً نحو حدقتي كوزنيتسوف باسطاً مخالب سوداء مفترسة، مُصمِّماً الآذان بصوت زاعق لحديد مسنن يحنك بحديد، باهراً الأبصار بلمعان معدن ثقيل منطلق إلى الأسفل تحت الأشعة القرمزية ـــ الأتية من الأسفل إلى الاعلى ـــ للشمس التي لم ترتفع بعد فوق الأفق. ومن تحت هذا اللمعان والهدير أنفصلت وتساقطت أشياء سوداء مستطيلة، ونزلت إلى الأسفل ثقيلة طليقة، مضيفة زعيقاً صارخاً إلى هدير «اليونكرس».

كانت القنابل تتهاوى متلاحقة، متساقطة على البطارية، وعلى الأرض، متعاظمة تحت الأبصار كل ثانية، متأرجحة في السماء بثقل كقطع مصقولة من جذوع الشجر. وفي أثر الطائرة الاولى خرجت طائرة «اليونكرس» الثانية من الطوق المغلق، وأنقضت على الشاطئ. نزل كوزنيتسوف إلى الخندق مستشعراً رعشة باردة في بطنه المشدود، بعد أن رأى أخانوف يطوي رأسه برجّات بينما كان يتابع القنابل ببصره، وكأنما يتفادى أحجاراً طائرة.

ـــ استلقِ!

ولم يسمع كوزنيتسوف في الصيحة المباغتة صوته، بل شعر بأصابعه وحدها كيف جذب بكل قوته طرف معطف أوخانوف إلى الأسفل.

سقط أوخانوف عليه، وحجب السماء وفي الحال غطّت الخندق زوبعة سوداء، وانسكب أتون من السماء، وأهتز الخندق، وتزحزح، ومال وبدا وكأنه يشرئب، ولسبب غريب لم يكن أوخانوف على مقربة

منه (انزاح ثقل جسمه عن كوزنيتسوف) بل كان وجه تشيبيسوف الرمادي كالأرض بعينيه المتجمدتين، وفمه المتحشرج: «فقط لا هنا، لا هنا، يا إلهي!...» ووقفت الشعرات على خديه إلى آخرها، وكأنما فارقت البشرة الرمادية. وعندما جثم على كوزنيتسوف تشبث بصدره بكلتا يديه، حاشراً كتفه وظهره في حيز ضيق لا وجود له بين كوزنيتسوف وجدار الخندق الزالق، صارخاً بتضرع:

ـــ الأطفال... عندي أطفال!... لا يحق لي أن أموت... لا!... الأطفال!...

وأحس كوزنيتسوف بالاختناق من جراء رائحة الحريق الشبيهة برائحة الثوم، ومن يدي تشيبيسوف الضاغطتين، وأراد أن يحرر نفسه، ويستنشق هواء نقياً، ويصيح «إخرس!» إلا أنه تنفس سم التولاين الكيمياوي، وسعل شاعراً بألم جارح في حنجرته. فك نفسه من يدي تشيبيسوف بجهد، والقاهما عن صدره. وامتلأ الخندق بدخان خانق كثيف، وانحجبت السماء. كانت تمور بالسواد والفرقعة. كانت الأجسام الماثلة للطائرات الهاوية تلمع فيها وحدها لمعاناً كابياً غير حقيقي، ومن الدخان في الأعلى تنقض البراثن السوداء المعوجة مصوبة، وفي تلاحق الانفجارات أعوج الخندق، وتقوس، وفي كل مكان كانت الشظايا تشق الهواء بأصوات الموت الرتيبة، الناعمة والغليظة، وتساقط التراب طبقات، مخلوطاً بالثلج.

وقال كوزنيتسوف لنفسه يستحثها «سينتهي هذا الآن» شاعراً بهصيص التراب في أسنانه، مغمضاً عينيه، فقد تراءى له أن الوقت، على هذه الحال سيمر بسرعة: «لم تبق إلا بضع دقائق... ولكن المدافع... كيف حال المدافع الآن؟ أعدت للقتال... قد تحطم الشظايا منظارات التسديد؟...».

كان يعرف أن عليه أن ينهض على الفور، أن ينظر إلى المدافع، أن يفعل شيئاً الآن، إلا أن جسمه المثقل كان مضغوطاً ومحشوراً في الخندق، وكان يحس ألماً في صدره، واذنيه، وكان العويل المنقض، وضربات الهواء الحارة المصحوبة بصفير الشظايا تضغطه أكثر فأكثر في قاع الخندق المتخلخل. ومن إلحاح الفكرة على رأسه في وجوب القيام بشيء ما فتح عينيه، ورأى على منحدر المتراس حافة الأرض التي شقتها شظية كالنصل. وانثالت كتل رمادية حيّة على الجدار الترابي ناثرة من الحفر الضيقة حبات القمح، وتراكضت إلى الخندق، وراحت وجاءت، وصعدت فوق الحدبة التي كونها ظهر تشيبيسوف المقوس، وقد انبطح على وجهه.

كان كوزنيتسوف يعرف هذه الكتل الرمادية، ولكن لم يستطع تذكر اسمها، وأين رآها بمثل هذا الوضوح الذي يراها فيه الآن. وفي تلك اللحظة نفذت صيحة أوخانوف من خلال الهدير، فقد نظر هو أيضاً إلى ظهر تشيبيسوف بتفرس وذهول.

ــ انظر، يا ملازم، اللعنة، حتى الفئران دمرت هيا، خلص نفسك! هيا.

وأخذ يد أوخانوف الكبيرة المقفزة بقفاز متصلب تتصيد وترفع عن ظهر تشيبيسوف هذه الكتل الرمادية التي كشرت عن أسنانها في غل فجأة، وتقذفها من الخندق إلى الدخان.

ــ تحرك، يا تشيبيسوف، ستأكلك الفئران! هل تحس، يا أب؟

وهتف كوزنيتسوف دون أن يهتم إلى تشيبيسوف:

ــ منظارات التسديد، يا أوخانوف! أجهزة التسديد! وللحظة فكر أنه كان يود ويستطيع أن يأمر أوخانوف ــ فقد كان له الحق في ذلك ــ بأن يخلع منظارات التسديد، أي أن يحمله بسلطته كآمر فصيلة، على

أن يترك أرض الأمان الآن، ويركض، تحت القصف، إلى المدافع، ويبقى هو، الآمر، في الخندق، إلا أنه لم يستطع أن يأمر بذلك.

وفكر كوزنيتسوف في سره: «لي الحق وليس لي الحق، لن أغفر لنفسي فيما بعد...».

الآن تساوى كل شيء بينهما، وساد مقياس واحد، ضخم، نهائي، عرضي، بسيط هو بضع أمتار أقرب أو أبعد، وحدة بصر الطائرات المنقضة من دائرتها المميتة على هذا الخواء الأعزل المريع لعالم كامل، خال من الشمس، ومن الناس، ومن الطيبة، والشفقة، مضغوط إلى حد لا يطاق في خندق واحد، تتقاذفه الانفجارات من حافة الحياة إلى حافة الموت.

«لا يجوز لي أن أتصرف هكذا، لا يجوز!» هذا عجز كريه... يجب رفع المنظارات! هل أخاف الموت؟ ولماذا أخاف الموت؟ شظية في الرأس؟ أخاف شظية في رأسي؟ لا، سأقفز الآن من الخندق. أين درزدوفسكي؟ أخانوف يعرف أنني مستعد لأن آمره.... لماذا؟.. لتذهب المنظارات إلى الجحيم! أنا لا أملك القوة على أن أغادر الخندق... مستعد لأن آمر، بينما أظل قابعاً هنا. إذا غادرت الخندق، فلن يحميني شيء. وتصيب رأسي شظية حامية؟ ما هذا، الهذيان؟».

أمالت الفرقعة الحديدية المسلطة على الرأس الخندق بقوة، ودفعت إلى وجه كوزنيتسوف سحابة من الدخان الأسود الملتوي، وسعل كوزنيتسوف ثانية، فقد كان يختنق بسم التولاين!

وعندما تبدد الدخان هزّ أوخانوف رأسه ماسحاً التراب عن شفتيه بردنه ــ كانت كتل الثلج الموحل تتساقط من قبعته ــ ونظر نظرة غريبة إلى كوزنيتسوف الذي كان يسعل بحرقة، وصاح، كاشفاً عن سن

معدنية لامعة، وكأن كليهما كان أصم:

ـ يا ملازم!... تنفس من خلال المنديل، سيكون ذلك أسهل!

«نعم، ابتلعت سخام التولاين. نسيت، واستنشقته من فمي. رائحة ثوم محترق وحديد. شممت هذه الرائحة لأول مرة في عام ١٩٤١. وعلقت في ذاكرتي إلى الأبد... عم يتكلم؟ أي مناديل هذه؟ فقط أن صدري ينخلع، والسعال يوجعني. لو كان هناك ماء بارد، ابتلعه...».

قال كوزنيتسوف مبتلعاً سعلته:

ـ آ! لغو! يا أوخانوف! اسمع. يجب رفع عدسات التسديد! سنسحق سحقاً. غير مفهوم متى ينتهي هذا.

ـ أنا أيضاً أظن ذلك، يا ملازم! سنظل بدون عدسات تسديد، وكأننا بلا ملابس!..

سحب أوخانوف ساقيه، وهو جالس في الخندق، وضرب قبعته بقفازه، دافعاً بها أقرب إلى جبهته، وأسند يده على قاع الخندق لينهض، إلا أن كوزنيتسوف أوقفه في الحال:

ـ قف! انتظر! حالما ينتهون من دورة القصف سنركض إلى المدافع. أنت إلى المدفع الأول، وأنا إلى المدفع الثاني! ونخلع عدسات التسديد!... أنت إلى الأول، وأنا إلى الثاني! هل هذا واضح، يا أوخانوف؟ عندما أصدر أمري، واضح؟ وسحب ساقيه أيضاً ليسهل عليه النهوض، كاتماً سعاله بصعوبة.

ـ يجب الآن، يا ملازم! الآن!..

وتطلعت عينا أوخانوف الفاتحتا اللون من تحت قبعته المنكسة على جبينه.

ومن أصوات الطائرات الصاعدة بعد انقضاضها، أحسَّ كلاهما في وقت واحد بأنها قد أتمت دورة من دورات القصف. كانت دوامات زوبعية من الدخان الحار تتصاعد من وراء المتراس. وعادت طائرات «اليونكرس» تتشكل، لدى طلوعها من انقضاضها واحدة بعد أخرى، في دائرة، في أرجوحة سماوية مستمرة، مصعدة فوق السهب أعلى من السواد الحلزوني. إلى الأمام، وإلى الخلف، وراء النهر، كانت القرية مشتعلة بحريق هائل، وكانت ألسنة اللهب المنطلقة في الشوارع تتصادم، وتدور. وكانت السقوف تنهار قاذفة في السماء سحباً حامية من الرماد والشرر، وكان الزجاج يتهشم، ويفرقع. وفي طرف القرية كانت تشتعل بعض السيارات التي لم تلحق في الاحتماء في ملجأ، وقد شوهتها شظايا القنابل. وكان البنزين يسيل في خطوط نحيلة نحو النهر، ويحترق. بينما جثم دخان كثيف فوق البطارية، والشاطئ، وخنادق المشاة مثل نقاب الحداد.

تطلَّع كوزنيتسوف من الخندق، فرأى كل ذلك، وسمع الصوت المتساوي لمحركات الطائرات التي حلقت وراء الدخان استعداداً للقصف. فأوعز بصوت قاطع:

ــ أوخانوف! سنلحق. لنذهب! أنت إلى الأول وأنا إلى الثاني...

وثب من الخندق شاعراً بخفة وزن متخلخلة في جسمه كله، وقفز عبر متراس مربض المدفع الأول، وركض على الثلج المسود بالسخام، وخلال التراب المتناثر إلى الأعلى من حفر القنابل، إلى موقع المدفع الثاني، ومن هناك بلغته صيحة:

ــ يا ملازم!... إلى هنا! إركض إلينا!...

كان موقع الرماية كله، ومشاكي السلاح، والخنادق مغطاة بجدار

سميك من الدخان الساكن، وفي كل مكان كتل التراب المحروق الذي قذفته الانفجارات، وفي كل مكان ثلج أسود، وتراب! على جراب المدفع المشمعي، ومؤخرة السبطانة، وعلى صناديق الذخيرة. إلا أن منظار التسديد كان سليماً. أخذ كوزنيتسوف يفك منظار التسديد، بأصابع محمومة ساعلاً، مبهور الأنفاس، متلفتاً إلى الخندق، حيث ارتفع رأس، واختفى، مثل ظلٍّ مدوّر داخل الدخان.

ـــ من هناك؟ أنت، يا تشوباريكوف! هل الجميع أحياء؟

أطل من الخندق الأيسر وراء مشكاة القذائف رأس مالت قبعته الملطخة بالتراب على أذن واحدة. تمايل الرأس على رقبة طويلة، وكأنه يتمايل على سويق نبتة، وبرقت العينان الجاحظتان بالتهيج، وبالاستغاثة. لقد كان ذلك الرقيب الثاني تشوباريكوف آمر المدفع الثاني.

ـــ إلينا، أيّها الرفيق الملازم! معنا رجل استطلاع! صاح كوزنيتسوف:

ـــ ماذا؟ لماذا لم تخلعوا أجهزة التسديد؟ هل حسبتم أنكم ترمون بلا جهاز تسديد؟

ـــ إنه جريح، أيّها الرفيق الملازم! في الخندق رجل استطلاع! جاء من هناك... وهو جريح.

ـــ أي رجل استطلاع؟ أصابتك صدمة، يا تشوباريكوف؟

ـــ لا... فقط أن أذني تطن... يبدو أنني أصبت بالطرش.. وما عدا ذلك، لا شيء... جاء إلينا رجل الاستطلاع!

ـــ رجل استطلاع؟ من الفرقة؟ أين رجل الاستطلاع؟

نظر كوزنيتسوف إلى السماء ـــ كانت الأرجوحة الهائلة التي كونتها طائرات اليونكرس، قد انطبقت وشكلت أطواقاً فوق السهب ـــ وقفز

عبر المشكاة، ووثب إلى الخندق، ودس المنظار في صدر تشوباريكوف. فأمسكه هذا بكلتا يديه، ورفت رموشه السوداء وكأنها مكحلة، من حركة كوزنيتسوف الحادة المفاجئة، ثم أخذ يحشر المنظار في فتحة صدره.

ــ هل نسيت منظار التسديد، ياتسوباريكوف؟ أين رجل الاستطلاع؟

في الخندق الطويل كان المسدد يفستيغنييف الكهل ذو الشعر الأشيب، ورجلان من الطقّم في معطفين ملطخين بالطين يجلسون منضغطين على الجدار قدر مستطاعهم، يدخنون لفائف سميكة بنهم لهوف. وكان هناك أيضاً السائقان روبين وسيرغونينكوف اللذان لم يتسن لهما الوقت للخروج إلى الخيول. كان كلاهما ينظر بصمت عابس وتوتر باتجاه واحد، نحو نهاية الخندق حيث كان شاب شاحب اللون مبيضه يستلقي نصف استلقاءة في بدلة تمويه، وقد خلع عن رأسه قلنسوتها، فلاح شعره الأجعد كشعر الغجر معفراً بالثلج الموحل، كان الألم يُطلّ من عينيه المدورتين، وتبرز تغددات على وجنتيه. كان الردان الأيسر من بدلة التمويه والسترة المبطنة، المشبع بالدم مقطوعاً حتى كتفه بخنجر منغرس في الأرض قرب قدميه. كان الشاب، وقد لوى فمه، يلف على زنده ضمادة خاصة، بارتباك ولكن بقوة، مستخدماً أصابعه الزرقاء زرقة الموت، الملطخة بالدم، وقد صكّ على أسنانه قائلاً:

ــ آه، الأوغاد، الأوغاد! هاتوا لي قائد الفرقة! أدعوا لي العقيد!

صاح كوزنيتسوف بتشوباريكوف الذي كان رأسه لا يفتأ يهتزُّ من جانب إلى جانب على رقبته الطويلة، وكأنه ينفض ماء قد دخل أذنيه:

ــ ساعده، بسرعة! لماذا أنت واقف؟ ضمده! قال السائق روبين بوجوم:

ـــ إنه حرن!

وبصق على كتفه المتصلبة، وأطفأ السيكارة في اللعاب، ثم حشر عقب السيكارة في طية قبعته الخارجية، وتابع قوله:

ـــ كأننا لم نر رجل استطلاع من قبل! غرور وعجرفة فارغة! لا يسمع كلمة، ويزعق على الجميع، كالمجذوب! رجل استطلاع!

قاطعه كوزنيتسوف قائلاً:

سخافة منك، يا روبين!

وزحم نفسه بين أقدام الجنود نحو رجل الاستطلاع، وقال بصوت عال:

ـــ اعطني الضمادة، لاساعدك! من أيت جئت؟ عدت وحدك؟

كان رجل الاستطلاع يحاول أن يشدَّ الضمادة بأسنانه، فانتزعها من زنده بضراوة، وانشب عينيه المخبولتين السوداوين كالفحم في الفضاء فوق الخندق، وظهر الزبد في أطراف شفتيه، والآن فقط، لاحظ كوزنيتسوف، وهو على قرب، خطوط دم دقيقة قد جفت على شحمتي أذنيه. كان مصاباً بصدمة، كما يبدو.

أنَّ الرجل، وأرسل صرخة، وكشَّر وقال عجولا:

ـــ لا تمسني! ابتعد، أيّها الملازم! أرسلني إلى قائد الفرقة، هل فهمت؟ أوصلني إلى العقيد... لماذا تتطلع بي، وكأنني امرأة؟ أنا من الاستكشاف، من رجال استطلاع الفرقة، هل فهمت؟ تلفن إلى العقيد، يا ملازم! ماذا تنتظرون، يا أوباش؟ سيغمى علي وينتهي الأمر. سيغمى علي!... فهمت، يا ملازم؟ ـــ وتحدرت دموع الألم من عينيه الحانقتين.

ألقى رأسه إلى الخلف، وقطع أزرار سترته المبطنة من تحت بدلة التمويه،

بيده السليمة، وكأنما أصيب بنوبة هستيريا، ثم قطع أزرار قميصه عند الرقبة، وراح يخدش بأصابعه القذرة المدماة ترقوتيه البارزتين من على فانلته البحرية المحولة اللون.

ــ عجّل، عجّل! ما دمت متمالكاً وعيي، فهمت؟ تلفن إلى العقيد. أسمي غيورغييف. تلفن. يجب أن أخبره!...

قال المسدد الكهل يفستيغنييف بتعقل:

ــ يجب نقله، أيها الرفيق الملازم.

مضى كوزنيتسوف يحدّق في أصابع الرجل وهي تخدش ترقوتيه، وقد أدرك الآن جيداً أن هذا البحار هو من رجال الاستطلاع الذي كانوا ينتظرونهم في الفجر، و لم يأتوا.

قال الرقيب الثاني تشوباريكوف:

ــ يبدو أن صدمة أصابته في رأسه. وقد سال الدم منه. كيف ننقله إلى الفرقة، أيّها الرفيق الملازم؟ نخشى أن يموت في الطريق...

التفت كوزنيتسوف إلى تشوباريكوف وقال:

ــ هل هناك اتصال مع درزدوفسكي؟ هل التلفون يشتغل؟

اكتفى تشوباريكوف بأن حوّل رأسه إلى جدار الخندق الخلفي، وكأنما يقول: لا بد أن يكون هناك اتصال. ــ لفّ الضمادة عليه، ولا تتركه ينزعها، يا تشوباريكوف سأتصل الآن!.. هتف سيرغونينكوف بصوت محذر، وضغط على أذنه:

ــ انتظر، أيّها الرفيق الملازم! ها هي تهاجمنا مرة أخرى!

حدّق كوزنيتسوف في السماء، وقد طلع إلى موقع الرماية. كانت

الأرجوحة الهائلة لطائرات «اليونكرس» تدور فوق الشاطئ. ومرة أخرى أنقضت إحداها خارجة من دائرة الأرجوحة، ولمع معدنها في الشمس غير المرئية، واتجهت نحو الأرض بانحدار شديد.

عندما قفز كوزنيتسوف إلى خندق الاتصال الضيق غير العميق، كان جندي الاتصال سفياتوف يجلس، وقد أحنى رأسه نحو جهاز الاتصال، ممسكاً بيد واحدة السماعة التي كانت مشدودة بشريط إلى رأسه. أنحشر كوزنيتسوف في الخندق الضيق مضطراً إلى أن يضغط ركبته بركبتي سفيانوف، وللحظة فزع من هذا التماس العرضي لم يفهم في الحال أي الركبتين كانت ترتعش ـــ ركبته أم ركبة سفيانوف ـــ وحاول بكل جهده أن ينتحي إلى الجدار.

ـــ هل هناك اتصال مع نقطة المراقبة؟ لم ينقطع؟ أعطني السماعة، يا سفيانوف!

ـــ يوجد، أيّها الرفيق الملازم، يوجد اتصال. فقط لا أحد...

ضغط سفيانوف إحدى ركبتيه بالأخرى ليوقف ارتجافهما. وهزّ وجهه الصغير المدبب الأبيض الريفي المتجمد إلى حدّ التنقيط، ومدّ يده نحو الشريط، إلا أنه لم يلقطه، جذب الأصابع، وأحنى وجهه إلى الجهاز.

صاح صوت من البطارية:

ـــ الدبابات!

إلا أن الصيحة ابتلعها في الحال هدير الطائرات الضاغط.

ومع هذا الصوت أخذت الانفجارات تتوالى مفرقعة، قاذفة إلى الأعلى بكل شيء، مقتربة بسرعة نحو البطارية بمحاذاة الشاطئ، مزلزلة الأرض زلزالاً كثيفاً منفجراً. وانقذف الخندق، ورأى كوزنيتسوف،

وهو يرتفع عن الأرض، أجسام الطائرات الصلبانية منطلقة فوق الانفجارات المرتفعة على طول الشاطئ، تخطف الأبصار نيران رشاشاتها المرتجّة. كانت خطوات الطلقات الكثيفة الملتوية تنصبُّ على الشاطئ، وتسير عبر خنادق المشاة إلى البطارية رأساً، وفي اللحظة التالية ظهرت أمام عينيه شفتا سفياثوف الهامستان بشيء ما، وركبتاه المرتجفتان، ولفافة الساقين المحلولة التي ارتجف طرفها، وتدحرج منحلاً على الأرض كالأفعى.

همست شفتا جندي الاتصال البنفسجيتان:

ــ الدبابات! الدبابات! هل سمعت؟ صدر الأمر...

أراد كوزنيتسوف أن يصرخ: «لف اللفافة حالاً!» ويدير رأسه ليتجنب النظر إلى ركبتيه المرتجفتين، وإلى ذعره القهّار كالمرض، الذي نفذ إليه، هو الآخر بقوة، فجأة، لدى سماعة كلمة «دبابات» مرتفعة في مكان ما، كالريح، فكر كوزنيتسوف «هذا غير ممكن! أحدهم أخطأ، توهم... أين الدبابات؟ من الذي هتف بذلك؟ الآن، الآن، سأخرج من الخندق.... أريد أن أتأكد بنفسي!...

أين الدبابات؟».

إلا أنه لا يستطيع الطلوع من الخندق. فقد كانت طائرات «اليونكرس» تندفع واحدة بعد أخرى، مائلة منخفضة فوق الرؤوس، حاجبة شريطاً ضيقاً من السماء فوق المتراس، بظلمة قاتمة نارية، بهياكلها المعوجة الثقيلة، وكأنما تبصق حديداً حامياً من رشاشاتها الكبيرة العيار اللاهثة.

نادى كوزنيتسوف على سفياثوف من خلال لعلعلة رصاص الرشاشات، وهزّ كتفه، وكان هذا الجندي يخفي وجهه في ركبتيه:

ـــ سفيانوف! اتصل بنقطة المراقبة! بدرزدوفسكي! ما هذا هنا؟ أسرع!

رفع سفيانوف وجهه المتجمد بعينيه المائلتين، وتحرك بجلية، وانشغل بجهاز التلفون، نافخاً في السماعة، صارخاً «نقطة المراقبة! ولكن لماذا؟...» إلا أن صوت طائرة منقضة بالغاً أقصاه جعل كليهما ينحنيان إلى الأرض. لعلعت صلية رشاش فوق رأسيهما بغلظة، وتساقطت قطع صغيرة من التراب على جدران الخندق، وعلى جهاز التلفون كالبرد. وفي تلك اللحظة خطرت في ذهن كوزنيتسوف، وهو يتوقع إصابة في ظهره أو في رأسه، فكرة غريبة شامتة تقريباً: «تخطتني، تخطتني!...»

نفضت يد سفياثوف قطع التراب المهشمة من جهاز المخابرة بحركات ارتجاجية تقريباً. وانفرجت شفتاه، دافعة إلى السماعة بخار أنفاسه المتقطعة: «نقطة المراقبة... نقطة المراقبة... لم يضربوكم؟» وفجأة زاغت عيناه مرة أخرى، وجمّدتا.

ـــ الدبابات!

صدرت صيحة هستيرية ممزقة فوق المتراس.

وهمست شفتا سفياثوف، مهشمة الكلمات المتدافعة:

ـــ أيها الرفيق الملازم.... اجابوا بالتلفون... يوجد اتصال... درزدوفسكي على الخط. الآمر: الدبابات، الدبابات قادمة. إلى القتال! ... يناديك، يناديك، آمر البطارية! ـــ وألقى قبعته المتغضنة، ورمى حبل السماعة من رأسه الأشقر الشبيه برأس صبي، وقدم السماعة إلى كوزنيتسوف مع تلك العروة الملفوفة.

ـــ أنا سامع. الملازم كوزنيتسوف على الخط!

كانت أنفاس درزدوفسكي تبدو في السماعة وكأنّها أنفاس من توقف عن الركض من توه، كأنّها تندفع من طبلة السماعة، تلذع الأذن بحرارتها:

ــ كوزنيتسوف!... أمامكم الدبابات!.. المدافع للقتال! هل توجد خسائر؟ كوزنيتسوف! كيف الناس، كيف المدافع؟

ــ لا أستطيع الآن أن أخبرك بدقة.

ــ أين أنت الآن؟... هل تعرف ماذا حصل لدافلانيان؟

ــ أنا، حيث يجب أن أكون، أيّها الرفيق قائد البطارية، قرب المدافع ــ قال كوزنيتسوف ذلك قاطعاً الأنفاس الصافرة من طبلة السماعة ــ لم اتصل حتى الآن بدافلانيان. الطائرات على رؤوسنا.

وصفر صوت درزدوفسكي:

ــ حُطم مدفع دافلانيان بإصابة مباشرة. وقُتل رجلان، وجُرح خمسة. الطقم الرابع بكامله.

ولمع ذهن كوزنيتسوف بحرارة: «ها قد بدأ الامر... بدأ مبكراً... يعني لحق أن يتكبّد دافلانيان خسائر... سبعة رجال، ومدفع واحد. بهذه السرعة!»

سأل كوزنيتسوف: «من الذي قُتل» رغم أنه كان يعرف رجال الطقم هذا بالوجه وبالاسم فقط، و لم يكن يعرف حياة أي واحد منهم.

هتف درزدوفسكي متنفساً في السماعة:

ــ لا أهمية لذلك الآن! إلى القتال، يا كوزنيتسوف! الدبابات قادمة!

ــ فهمت. أريد أن أخبرك أن رجلاً جريحاً من رجال الاستطلاع

قد وصل إلى مدافعي.

ـــ أي رجل استطلاع؟

ـــ من أولئك الذين كانوا ينتظرونهم. وهو يطالب بأن ينقل إلى مقر قيادة الفرقة.

صاح درزدوفسكي:

ـــ حالاً! أرسله إلي في نقطة المراقبة!

ألقى كوزنيتسوف السماعة في يدي سفياثوف، ونهض من الخندق، ناظراً إلى اليمين حيث كانت توجد مدافع دافلانيان. كانت سيارة محملة بالقذائف تحترق في تلك البقعة، وكان الدخان ينبسط فوق الشاطئ، ويغطي المواقع، ويمتد نحو النهر، مختلطاً بنار حرائق البيوت في طرف القرية. كانت الذخائر تفرقع في السيارات، وتنفجر، وتنطلق القذائف المضادة للدروع في السماء حلزونياً كالألعاب النارية.

ابتعدت أرجوحة الطائرات، وصارت تدور في المؤخرة، ووراء النهر، وغاصت فوق الطرق السهبية، ووراء المرتفعات. وبعد أن أتم جزء من الطائرات القصف، مضى في السماء البرونزية إلى الجنوب، فوق القرية المحترقة إلى الأمام، مرسلاً صوتاً متعباً ضاجاً.

ورغم أن الطائرات ما تزال تقصف المؤخرة، وأن بعض الناس هناك لاقوا حتفهم، فإن كوزنيتسوف قد أحسّ براحة قصيرة وكأنما قد تحرر من حالة غير طبيعية، حالة الكآبة والعجز والمذلة، وهذا ما يسمّى في الحرب بانتظار الموت.

ولكنه في تلك اللحظة بالذات رأى صاروخين أحمر وأزرق يرتفعان إلى الأمام فوق السهب، ويسقطان بشكل قوسين على الحرائق القريبة.

كان الجرم المحدودب العريض، والمنحدر الصبب، للمرتفع أمام الوهدة وإلى يسار القرية، مغلفين بنقاب من الدخان الأزرق، وقد أختلطا، وتحركا، وتبادلا المعالم من جراء اهتزاز كثيف بطيء لمربعات صفراء ورمادية تلوح هناك، وتبدو غير خطرة إطلاقاً، مندمجة في ظل هائل على الثلج، المضاء بشمس كدرة في الجو المعتم، طالعة فوق أفق السهب الصباحي.

وأدرك كوزنيتسوف أن هذه هي الدبابات، إلا أنه لم يحسّ بعد بحراجة الخطر الجديد، بعد اجتياز غارة الطائرات منذ لحظة، ولم يصدق بهذا الخطر.

إلا أن حراجة الخطر قد حلّت في اللحظة التالية: خلال الظلمة الملفعة في المنخفضات المعتمة سرى هدير مرتعش واطئ، شبيه باهتزاز محركات كثيرة، وظهرت بوضوح أشد، معالم تلك المربعات، وذلك الظل الهائل المندمج بقوة، الموحد في مثلث مفلطح باعوجاج، كانت قاعدته تتوغل وراء القرية، وراء قمة المرتفع.

ورأى كوزنيتسوف الدبابات الأمامية تهتز ثقيلة شوهاء، ودوامات شعثاء من الثلج تلتف بقوة، وتدور حول جنازير الدبابات الجانبية القاذفة الشرر من أنابيب التصريف.

ــ إلى المدافع! إلى المعركة!

صاح كوزنيتسوف بصوت آمر مستميت، وبدا له الصوت مرعباً غريباً غير متهاون معه ولا مع الآخرين.

وطلعت الرؤوس وتحركت فوق المتراس في كل أنحاء الخنادق، وكان الرقيب الثاني تشوباريكوف أول من طلع إلى موقع الرماية، مخرجاً جهاز التسديد من صدره. وأتلع رقبته الطويلة، ونظرت عيناه الجاحظتان

بتخوف إلى السماء وراء النهر، حيث ما زالت الطائرات الباقية ترشق برشاشاتها طرق المؤخرة في السهب.

ـــ إلى المعركة!

وأخذ الجنود ينطلقون من الخنادق إلى المدافع، وكأنما قذف بهم هذا الأمر. الآن لم يعد أحد قادراً على تقييم كل شيء بدقة، وبشكل واقعي. أخذوا فقط ينتزعون الأغطية عن مغاليق المدافع بشكل آلي، ويفتحون صناديق القذائف في مشاكي الذخيرة، ويجرُّونها إلى مسافة أقرب إلى المساند، متعثرين بكتل التراب التي قذف بها القصف إلى مواقع الرماية.

خلع الرقيب الثاني تشوباريكوف قفازيه، وكان يضع بأصابعه السريعة، جهاز التسديد في مكانه، حاثاً بنظرته رجال الطقم المنشغلين في القذائف. مسح المسدِّد يفستغنييف مينا المنظار الأسود بعناية وصبر، وكأن ذلك كان شيئاً ضرورياً الآن.

وصاح رجل من المشاكي بصوت الأنفاس:

ـــ أيّها الرفيق الملازم، هل نهيئ القذائف الواسعة التفجير؟ سنحتاج إليها؟ ها؟ هذه القذائف؟

قال كوزنيتسوف حاضاً، ضارباً قفازاً بقفاز دون أن يدري، بشكل أوجع كفيه:

ـــ أسرع، أسرع. اترك القذائف الواسعة التفجير، المضادة للدروع فقط، القذائف المضادة للدروع!..

وفي تلك اللحظة لمح بطرف عينيه رأسين برزا من الخندق كالعائق. إنهما السائقان سيرغونينكوف وروبين قد وقفا بطول قامتهما ينظران إلى الطقم، دون أن يخرجا من الخندق. كان سيرغونينكوف بادي التردد

تفضح انفعاله سحابة أنفاسه اللاهثة، وروبين يلوح التقطيب على عينيه الصغيرتين الثقيلتين كالحديد في وجهه الكبير الأسمر.

سار كوزنيتسوف إلى الخندق مسرعاً:

ــ كيف حال رجل الاستطلاع؟

ــ قال سيرغونينكوف:

ــ ضمدناه... يبدو أنه نزف دماً كثيراً. إنه سيموت. لقد هدأ...

وقال روبين بلا مبالاة إنسان ضجر من ذلك:

ــ لا يموت! ولماذا يموت؟ كان يهذي طوال الوقت بأن سبعة أشخاص ما زالوا باقين هناك، أمام الألمان. أبطال!.. أهذا استطلاع؟ هذه نكتة!

كان رجل الاستطلاع ما يزال على استلقاءته السابقة في الخندق، وقد ألقى رأسه إلى الوراء، وأغمض عينيه، وقد غطت بدلة التمويه كلها بقع داكنة، وكان زنده قد ضمد بالفعل، أوعز كوزنيتسوف قائلاً:

ــ هيا، أنتما الاثنان، احملا الرجل إلى درزدوفسكي في نقطة المراقبة. حالاً!

صاح سيرغونينكوف:

ــ والخيول، أيّها الرفيق الملازم؟ يجب أن نذهب إلى الخيول... لنتأكد من أن القصف لم يصبها، الخيول وحدها...

فتساءل روبين جهماً:

ــ الدبابات تزحف، إذن؟ سيوقدون جهنم! هل هو الاستطلاع!

ــ وهزّ سيرغونينكوف بكتفه المربع ــ وتهتم بالخيول! ستحتاج إلى الخيول عند الله، في الآخرة.

لم يلحق كوزنيتسوف أن يرد على روبين. إن ما لحق وقدر أن يفكر فيه عن مصير رجال الاستطلاع، وغيظ روبين، طردته من وعيه في الحال سحنة تشوباريكوف غير المألوفة له، المتوجهة إليه، الباحثة عن شيء من أمل. ثم رأى الطقم الملتف حول المسند، ومغلاق المدفع، والقذائف المحضونة بالركب بقوة، والظهور المحنية تحت درع المدفع، وأصابع المسدد الكهل يفستغنييف المتجمدة على أجهزة المدفع، المتدفئة ببخار أنفاسه. وكان في كل ذلك لا وقائية يائسة، كانوا يحسونها قبل أن يبدأوا بالاطلاق، وفي الوقت ذاته استعداد مشدد إلى أقصى حد، للأمر الاول، كالاستعداد للقدر الزاحف إليهم جميعاً بالتساوي، مع هدير الدبابات المتقدم في السهب.

ـــ أيها الرفيق الملازم، لماذا لا يطلقون النار؟ لماذا هم صامتون؟. إنهم يضغطون علينا.

وأحسّ كوزنيتسوف وكأن صدره ينضغط تحت وطأة إحساسات متضاربة: صوت المحركات المتعالي، وسحنة تشوباريكوف الباحثة، وصوته، والتوتر الكثيف في أوضاع الجنود، والأمر الموشك على الانطلاق من حنجرته الجافة يوعز بإطلاق النار (فقط ألا يطول الانتظار، أن لا يطول الانتظار) والقشعريرة الزمهريرية في ظهره، وعودة تفكيره الملحق في الماء. وصاح بتشوروباريكوف مكرهاً نفسه على ذلك:

ـــ لا تستعجل! لا يبدأ في إطلاق النار إلا في التسديد الثابت... اسمع، على أقرب مسافة! انتظر!... هل تسمع؟ انتظر!..

وفي غضون ذلك كان الخلاء إلى يسار القرية المحترقة، الممتلئ بدخان كثيف، قد اسودَّ بمثلث الدبابات المطول الهائل، المدبب الرأس استعداداً للضربة، وكانت أجسامها المربعة الصفراء والرمادية تبرز وتختفي في

الظلمة، وأبراجها تهتز فوق شريط من الدخان، وعاصفة الثلج التي أثارتها الجنازير تنبسط فوق السهب، والدوامات التي تتناثرها سرعة الحركة تتخللها نفثات من الشرر منطلقة من أنابيب التصريف. كانت القعقعة الحديدية، والصريف يقتربان محتدمين، والآن أصبح واضحاً اهتزاز مدافع الدبابات، ولطخات الثلج على أجسامها المدرعة.

ولكن الغريب أن الذين في الدبابات المقتربة، قرب نظارات التسديد ظلوا ينتظرون، ولم يفتحوا النار، عارفين، كما يبدو، قوة هجومهم الذي ابتدأ، مجبرين بطارياتنا على أن تكون أول من يكشف عن نفسه. وانطلق في السماء صاروخ أحمر فجأة فوق هذه الكتلة المتدحرجة من الدبابات، مطلقاً الإشارات، وإذا بالمثلث يبدأ بالتجزؤ إلى منعرجات من الدبابات. وأخذت مصابيحها تشتعل وتنطفئ ذئبوية، خارقة نقاب الظلمة.

وصاح تشوورباريكوف مديراً وجهه المصعوق:

ـــ لم اشعلوا المصابيح؟ يحثون على إطلاق النار؟ لماذا؟

قال المسدد يفستيغنييف مضخماً صوته، وهو راكع أمام منظار التسديد:

ـــ ذئاب. وحوش حقيقية تطوق!..

رأى كوزنيتسوف من خلال المنظار أن دخان الحرائق المنتشر من القرية إلى السهب يهتز برمته بشكل غريب، وقد لمعت فيه بؤر حمراء لمعاناً وحشياً، وارتج هدير المحركات، وانطفأت البؤر واشتعلت، ولاحت في ثقب الظلمة المتراكمة ظلال واطئة عريضة، متجهة تحت غطاء الدخان نحو خنادق الحراسة الأمامية. وقد تزنق كل شيء في كوزنيتسوف إلى حد تحجر العضلات، واستبدت به العجلة: ليت النار

تطلق بسرعة، بسرعة. فقط أن لا يطول الانتظار، ولا أعدد اللحظات المميتة، فقط أن أفعل شيئاً ما!

ــ أيّها الرفيق الملازم!...

قال تشوباريكوف دون أن يصطبر، زاحفاً على بطنه، على المتراس، مبتعداً عن البؤر النازية الزاحفة، مديراً مرة أخرى وجهه الفتي بعينيه الجاحظتين، محركاً رأسه على رقبته الهزيلة.

ــ تسعمائة متر... أيّها الرفيق الملازم... ماذا دهانا؟

صاح يفستغنييف، منحرفاً عن منظار التسديد:

ــ أنا لا أرى الدبابات، أيّها الرفيق الملازم، الدخان يغطي عليّ.

ــ انتظر، انتظر مائتي متر أخرى. قال كوزنيتسوف بصوت أجش، مقنعاً نفسه أيضاً بأن يصطبر، مهما يكن الأمر، على هاتين المائتين من الأمتار، ولا يطلق النار، مندهشاً في الوقت ذاته من دقة بصر تشوباريكوف في تقدير المسافة.

ــ أيّها الرفيق الملازم... آمر البطارية يدعوك... يسأل: لماذا لا تطلقون النار؟ ماذا حصل؟ لماذا لا تطلقون؟».

رفع سفياتوف جندي الاتصال قامته، فلاح من خندقه الصغير، كانت قبعته لا تكاد تستقر على رأسه الأشقر، وقد دفعها شريط السماعة، وضغط قفازه على أذن واحدة، وراح يتلقى الأوامر من التلفون وكأنما يلتقطها بفمه، ويكرر بتلحين:

ــ الأمر بإطلاق النار! الأمر بإطلاق النار! «لا، لنتريث. لو نتريث برهة أخرى! أتراه هناك لا يرى؟ لا يدري ما هي الطلقات الأولى؟... سنكشف عن أنفسنا حالاً، وينتهي الأمر!».

قفز كوزنيتسوف إلى الخندق قائلاً: «اعطني السماعة، يا سفياثوف!» وانتزعها من أذنه الوردية، وصاح ملتقطاً الكلمات المندفعة من طبلة السماعة:

ـــ إلى أين نطلق النار؟ على الدخان؟ هل تريد أن نكشف البطارية مقدَّماً؟

اندفع صوت درزدوفسكي من السماعة:

ـــ هل ترى الدبابات، يا ملازم كوزنيتسوف أم لا تراها؟ أطلق النار؛ آمرك بفتح النار!.. في هذه الدقيقة! نار!

أجاب كوزنيتسوف همساً:

ـــ من هنا أرى أحسن منك! ـــ وألقى السماعة في يد سفياثوف.

ولكن حين ألقى السماعة بنفس الفكرة السابقة، الشبيهة بقرار: «إذا كنا لا نصطبر، ونكشف البطارية مقدماً، فإنّهم سيسحقوننا هنا»، وما كاد ينتهي من التفكير بذلك، حتى انفجر الهواء إلى يمين البطارية ببريق وهدير. ومرق خط القذيفة الكاشفة فوق السهب، ودخل منطفئاً في اللمعان الوحشي إلى الأمام. إن مدفعاً من مدافع دافلانيان قد أطلق نيرانه. وفي الحال ردت الدبابات، ووقع انفجار كالصدى الخاطف، إلى يمين المدفع المنطلق وخرقت رشقات حمراء من النار الظلمة الرجراجة أمام البطارية. لقد أخذت بعض الدبابات تخرج من الدخان أشباحاً ثقيلة. واتجهت مصابيحها، الوامضة بوحشية، نحو مواقع دافلانيان، واختفى مدفعه القصي، وغرق في الفوران الأسود الناري للانفجارات.

وصدرت صيحة من الخندق:

ـــ أيّها الرفيق الملازم! يبدو أن الفصيلة الثانية قد تحطمت.

وفكر كوزنيتسوف بغيظ «لماذا فتح النار مبكراً؟» وقد رأى هذه الدبابات قد دخلت في مكان تماس مدافعه مع فصيلة دافلانيان، إلا أنه، رغم ذلك، لم يصدق أنها قد أصابتها كلها بهذه السرعة، ولبرهة من الوقت تصور الطقم المنبطح تحت المتراس، والذي ضغطته على الأرض شظايا القذائف الصافرة فوق الرؤوس، القاطعة بالنار، وفجأة سمع صوته المجلجل المرتد في أذنيه:

ــ نار على الدبابات إلى اليمين.... التصويب على الأمامية! التسديد أثنا عشر، القذائف خارقة الدروع...

في ذلك الجزء من الثانية، أدرك وهو يحس إحساساً غير محتمل بانكشافه، قبيل أن يصرخ «نارا»، أنه لن يحتفظ بالمسافة التي أراد الاحتفاظ بها، وأنه سيعرض الآن مدافعه إلى الدبابات، قبل الأوان، إلا أنه الآن لم يكن له الحق في الانتظار. فنفث آخر كلمة من أمره: نارا

اجتاحت موجة الطلقات أذنيه بألم حار.

ولم ير بوضوح مسار قذائفه. فقد شع خط مسارها شرراً بنفسجياً ثم انطفأ في كتلة الدبابات الرمادية المتحركة كعقارب متلاصقة. وكان من المستحيل تصحيح الهدف عليها بدقة، فأسرع في إصدار أمر جديد عارفاً أن التباطؤ صنو الموت. وحين انطلقت تصويب القذيفة الثانية مفرزة في الظلام شواظاً، أخذ كل شيء هناك إلى الأمام، يتوهج في آن واحد بضراوة، ويضيء، ويتوامض مختلطاً بخطوط القذائف الأخرى. وأطلقت البطاريات الأخرى من الضفة كلها سوية تقريباً، مع مدافع كوزنيتسوف، وفي أثرها أرعد الهواء، متمزقاً، مسحوقاً، مرتجاً. كانت خطوط القذائف الخارقة للدروع تمرق، وتختفي في رجات النار الحمراء المعاكسة. لقد كانت الدبابات ترد النار بالمثل.

كان كوزنيتسوف لا يسمع إلا طلقات مدافعه، مأخوذاً بنشوة غامرة لعزلته المحطمة، وصوته المتهلل في حنجرته يصدح بالأوامر، و لم يسمع الانفجارات القريبة وراء المتراس. لفحت وجهه لفحة هواء حار. ومرق صفير الشظايا فوق رأسه برجات متلظية. وما كاد يلحق أن ينحني حتى كانت هناك حفرتان من حفر القنابل تدخنان مسودتين على بعد مترين من درع المدفع، بينما وقع جميع رجال الطقم في موقع الرماية، ووجوههم إلى الأرض، وظهورهم ترتجف عند كل انفجار جديد أمام المتراس. إلا المسدد يفستيغنييف، الذي لم يكن له الحق في ترك جهاز التسديد، كان راكعاً وحده على ركبتيه أمام الدرع، حاكاً مطاطئاً المنظار بصدغه الأشيب على نحو غريب، ويداه المتجمدتان تضغطان على جهاز التصويب. كان ينظر من جانب إلى رجال الطقم الراقدين بعين متقدة، صارخاً بلا صوت، متسائلاً بنظرته عن شيء ما.

ـــ الرقيب الثاني...

واخرج الرقيب الثاني تشوباريكوف رأسه من خندق الآمر، ووثب من هناك، منحنياً، معفراً بالتراب ــ والمنظار يتأرجح على صدره ـــ وسقط على ركبتيه قرب المدفع، وزحف نحو يفستيغنييف، وهزه من كتفه وكأنه يريد أن يوقظه.

ـــ يفستيغنييف، يفستيغنييف!

صاح كوزنيتسوف، وقد زحف أيضاً إلى المسدد:

ــ هل أصبت بالطرش؟ ما بك، يا يفستيغنيف؟ هل تستطيع التصويب؟

نطق يفستيغنييف هازاً رأسه:

ـــ استطيع، استطيع... أذناي أصيبتا بالطرش... ارفع صوتك بالأمر أكثر... أعلى!

ومسح بكمه خط الدم القاني الذي سال من أذنه دون اهتمام به، والتصق بجهاز التسديد.

ـــ نهوض الجميع إلى المدفع!

أوعز كوزنيتسوف بصوت حانق عجول، مستعداً لأن يدفع الجنود على المدافع بيديه، شاعراً في حنجرته بشيء حاد حانق:

ـــ الجميع نهوض! نهوض! إلى المدفع! الجميع إلى المدفع!... عبئ!

خرجت الدبابات، وهي تشكل بخط منكسر جبار، وزحفت على طول الجبهة إلى خط الدفاع الأمامي، فائضة، يميناً، على طرف القرية المحترقة، ملتفة عليها. وكانت مصابيحها تومض في الدخان، كما كانت. أضواء القذائف الكاشفة تتصالب، وتلتقي، وتنبسط على شكل مخاريط شعاعية، مصطدمة بقذائف الدبابات الحادة المتتابعة المتوامضة.

وفي هدير المدفعية الكثيف أخذت تسمع خبطات ضعيفة للبنادق المضادة للدبابات في خنادق المشاة. وإلى اليسار اجتازت الدبابات الوهدة، وطلعت إلى الشاطئ، ودبت إلى خندق الحراسة الأمامية. فتصدت لها البطاريات المجاورة والبطاريات التي كانت واقفة وراء النهر وراحت ترميها بنار حاجبة متحركة، وإلى الأمام، وراء القرية، كانت تُرى أيضاً أسراب من طائراتنا المهاجمة تطير في السماء الداخنة بلا صوت، تهاجم من الجو موجة ثانية من الدبابات لم تلُح للأبصار بعد. إلا أن الشيء الذي لم يكن يواجه البطارية، كان لا ينعكس في الوعي إلا كخطر بعيد. أحاطت الموجة الاولى من الدبابات بدفاع الشاطئ بنصف حلقة، في حركة متعرجة، وأخذ ضوء مصابيحها

يضرب العيون متجهاً مباشرة نحو المدافع. وصار كوزنيتسوف يميّز بوضوح كلّي وسط الدخان الجسمين الرماديين للدبابتين الأماميتين أمام المواقع الأمامية للفصيلة تماماً، وبعد أن هتف بأمره للطقم الذي اندفع إلى المدفع، التقط في عدسة منظاره، بعد الطلقة الأولى مباشرة، خط القذائف المنقط الخاطف أوطأ من الدبابات الخارجة من الفوران المظلم.

ــ أعلى! إلى قاعدة البرج! أسرع! يفستيغنييف! إلى قاعدة البرج! نار!

إلا أنه لم تعد، ثمّة، حاجة لاستعجال الرجال. فقد كان الطقم يتحرك، وكأنهم مأخوذون: كانت القذائف تمرق فوق مؤخرة السبطانة، وتسحب يدان ذراع المغلاق، وترتمي أجسام على المسندين في نخير وأنين، عند ارتداد المدفع. وكان الرقيب الثاني تشوباريكوف يكرر الأوامر وكأنه يلتقطها بوجهه كله. راكعاً على ركبتيه قرب يفستيغنيف، الذي لم يكن يحوّل بصره عن مطاط منظار التسديد.

ــ ثلاث قذائف... تباعاً!

صاح كوزنيتسوف في نشوة حانقة، وفي توحّد مع الطقم متحمس مميت، وكأنما لم يكن في العالم شيء آخر يوحدهم هذا التوحد الأخوي.

وفي تلك اللحظة بالذات بدا له أن الدبابة الأمامية، وهي تشق الدخان ببرجها، قد اصطدمت بصدرها الماثل فجأة، في لهوجة، وأثناء سيرها، بشيء ما، وأخذت تدور في مكانها مرسلة زعيقاً ضارياً من محركها، وانغرزت في الأرض مثل مثقاب ضخم مكدوم.

صاح تشوباريكوف باندهاش وفرح مديراً رأسه على رقبته الطويلة، ضارباً قفازه على جنبه كالمرأة:

ـــ بالجنزير!... أيها الرفيق الملازم!

ـــ أربع قذائف... تباعاً، بسرعة!

أمر كوزنيتسوف، وكأنه في غيبوبة، سامعاً صرخة تشوباريكوف وغيرها، وهو لا يرى إلا المظاريف الداخنة تطير من مؤخرة السبطانة، والطقم عند كل طلقة، وعند ارتداد المدفع يرتمي على المسندين المناطين.

ظلت الدبابة تدور في مكانها، وقد أنفك جنزيرها متحولاً إلى شريط مسطح. وكان برجها يدور أيضاً، وماسورة مدفعها الطويلة تتحرك بارتجاج، مصوبة نحو المربض. بصقت الماسورة ناراً معوجة، ومع انفجار وزعيق الشظايا، المتلظي فوق الترس تناثر على درع الدبابة شعاع كالمغنسيوم. ثم زحفت عليها أفاعي اللهب مثل عظايا خاطفة. وصاح كوزنيتسوف بنفس الحدة العارمة من الفرح والبغض:

ـــ يفستيغنييف!.. شاطر!... هكذا يجب! شاطر!

ارتجت الدبابة رجّة عشواء إلى الأمام، وإلى جانب، مرتعشة ارتعاش كائن حي، وكأنما من النار التي لسعت جوفها، وانتفضت ووقفت أمام المدفع بانحراف. وفي تلك اللحظة بدا وكأن ميدان القتال، المملوء في رحابته كلها بزلزال هجوم الدبابات، وقصف البطاريات المجاورة قد اختفى. لقد اختفى كل شيء، وأنزاح، وتجمع، وكأنه نقطة واحدة، والتقى في تلك الدبابة الأمامية، وراح المدفع يقصف، بلا انقطاع. جنبها المعروض الذي ما زال حياً، بصليبه الأبيض، هذا العنكبوت الخطر بشكل مميت، الجسم الآتي من كوكب آخر كما بدا.

أوقف كوزنيتسوف النار فقط، حين خرجت الدبابة الثانية من الدخان وكأنما من غوص، وكبرت خلال بضع ثوان، وأطفأت

مصابيحها، وانعطفت يميناً وشمالاً، وكأنّها تتحاشى تصويب المدفع، ولحق كوزنيتسوف أن يسبق طلقتها الأولى:

ــ على الدبابة الثانية، بقذيفة خارقة للدروع!...

شقت طلقة الدبابة الجوابية الأرض أمام المتراس بهدير. سقط كوزنيتسوف على موقع المدفع، وهو يفكر أن الدبابة قد حددت موضع المدفع عن قرب، وزحف إلى الطقم في غمامة البارود الطالعة من المتراس خانقة، ولم تتبين له رأساً الوجوه الملطخة بالسخام، السوداء سواد الأردواز، الجامدة في انتظار الطلقة التالية، ورأى يفستيغنييف، الذي ترنح مبتعداً عن جهاز التسديد، ونطق في زفرة:

ــ صوب! لا تنتظر!... يفستيغنييف! تشوباريكوف!

كان الرقيب الثاني تشوباريكوف مستلقياً على جنبه على المتراس، وقد فرك جفنيه بكلتا يديه، وكرر مشدوهاً:

ــ أنا لا أرى... دخل الرمل في عيني... الآن...

وأثارت قذيفة الدبابة الثانية، ركاماً مسحوقاً من التراب، وانقدحت الشظايا على درع المدفع، وغص كوزنيتسوف بنفثة مقززة من سخام التولاين، ولم يستطع أن يلتقط أنفاسه، وطلع إلى المتراس ليرى الدبابة، ولكن ما هي إلا نظرة حتى لذعته فكرة لذع تيار كهربائي: «النهاية! الآن سينتهي كل شيء... أمن المعقول الآن؟».

ــ يفستيغنييف، نار! نار!

كان رجال الطقم يضطربون في الدخان، ووجوههم السوداء المزينة تلمع، كانوا يعبئون المدفع راقدين ضاغطين على المسندين. بل وبدت يدا يفستيغنييف الحمراوان الضخمتان قد كفتا عن الحركة، وجمدتا

على عجلة التدوير، وقد ألصق عينا واحدة على جهاز التسديد. وكانت القبعة تضايقه، فكان يدفعها طوال الوقت، وأخيراً دفعها بمطاط جهاز التسديد. وقعت القبعة من رأسه العرق، سارحة على ظهره. وتحرك يفستيغنييف على ركبتيهن وقد طلع بخار من جبهته العريضة المتوترة، وشعره المتلبد. ثم أخذ كتفه يتحرك. وارتفعت يده اليمنى في الهواء، وتلمست زناد الغطلاق لمسات متقطعة. كانت تتحرك ببطء غير واقعي، وكأنها في حلم مزعج، كانت تبحث عن زناد الإطلاق برقة متريثة، وكأنما لم تكن هناك معركة، ولا دبابات، مجرد أن عليها أن تتلمسه، وتفحصه، وتمسده.

ــــ يفستيغنييف!.. قذيفتان!.. نار!..

رشقت صليات من الرشاشات المتراس، ناثرة التراب على درع المدفع. ودوّى محرك مصمم بشهقات فوق الرؤوس. ونفذت القعقعة والصريف إلى الصدور والآذان والعيون، وضغطتا على الأرض، حتى كان من المستحيل أن ترفع رأسك. ولثانية تخيّل كوزنيتسوف أن الدبابة ستظهر في اللحظة التالية فوق المدفع، بشراسة عارمة، وتسحق سدة المتراس بمخالب جنزيرها الحديدية، ولا يستطيع أحد أن ينسل، ويركض مبتعداً، ويصرخ... «ما دهاني؟... نهوض، نهوض، نهوض...!».

ــــ يفستيغنييف! قذيفتان، نار!

أطلق المدفع قذيفتين. ضربتان قويتان على طبلات الآذان، وظرفان فارغان طارا برنين وبخار من مؤخرة السبطانة إلى كومة المظاريف المطلقة من قبل، وقد فقدت سخونتها. وعندئذ نط كوزنيتسوف من الأرض، وطلع على حافة المتراس، لكي يلحق أن يلاحظ خط سير قذائفه، ويصلحه.

لفح وجهه شيء حاد ناري نافث، وكأن حجر مسنٍ هائلاً كان يدور أمام عينيه. كانت شرارات كبيرة تخرج منقدحة من درع الدبابة ــ كانت قذائف أخرى تنطلق نحوها من جنب، ومن يسار، حيث كان يقع مدفع أوخانوف، ثم اهتزَّ انفجار أصمّ، دفع الدبابة إلى الوراء، وتصاعدت فوقها نافورة كثيفة من دخان النفط.

وفجأة أحسّ كوزنيتسوف مثل إحساس بالدموع بانضغاط ساخن حلو في حنجرته مع إيمان صارخ في سعادته السهلة، في توقيعه، وفي الأخوّة المسلَّم بها في هذه اللحظة. لقد رأى وأدرك أن مدفع أوخانوف إلى اليسار هو الذي كان يجهز على الدبابة المقتحمة. بعد القذيفتين اللتين أطلقهما يفستيغنييف بدقة وتسديد مباشر.

كان كل شيء إلى الأمام ينبض بحمرة قانية داكنة، وكل شيء على الشاطئ الأيسر قد التهمته بؤر الحرائق، وكان القصف المستمر من المدفعية قد أحدث في هذه النار خروقاً سوداء. واختلطت الانفجارات السريعة، وأدخنة القرية الملتهبة بالأدخنة الثقيلة الكثيفة التي ارتفعت وسط نصف الدائرة الهائلة التي شكلتها الدبابات، واندمجت فوق السهب مثل ستار كثيف، ومن تحت هذا الستار المضاء من الأسفل بنيران الدبابات المحترقة كانت الدبابات تدبّ خارجة بلا انقطاع، وبإلحاح، مضيفة نصف الدائرة حول دفاع الشاطئ الجنوبي. إن هجوم الدبابات لم يُحبط و لم يفترّ تحت النار الدائمة من المدفعية، بل تباطأ قليلاً فقط، في وسط نصف الدائرة، وشدَّد وركَّز الضربات على الجناحين في وقت واحد. لقد كانت صواريخ الإشارة ترتفع هناك واحدة تلو الأخرى بلا انقطاع، والدبابات تنعطف بأسراب طويلة، نحو اليمين، وراء المرتفع الذي كانت تتخندق فيه نقطة المراقبة للبطارية ونحو اليسار، إلى الجسر الذي كانت أمامه البطاريات المجاورة.

ـــ الدبابات إلى اليمين! اخترقت!

نفذت هذه الصيحة إلى وعي كوزنيتسوف، وإذا به يرى، وهو غير مصدق بعد، ما لم يكن يتوقعه.

صاح صوت آخر:

ـــ الدبابات في البطارية!

وبرقع السماء الدخان فوق السهب ضاغطاً وحاجباً الشمس التي كانت تبدو مثل قطعة نحاس صغيرة. وفي كل مكان إلى الأمام كانت تمزقه الطلقات، وتغلي فيه أمواج النار التي بدت وكأنها مضاءة من تحت الأرض بشكل جهنّمي، ويزحف على البطارية، وينزل على المتاريس، وفجأة خرجت من هذا المزيج الفائز ظلال هائلة لثلاث دبابات يميناً أمام موقع دافلانيان. بينما كان مدفع دافلانيان صامتاً.

«ألا يوجد أحد هناك؟ هل هم أحياء؟» فكر بذلك كوزنيتسوف، وكانت الفكرة التالية واضحة تماماً: لئن خرجت الدبابات إلى مؤخرة البطارية فإنّها ستحطم جميع المدافع واحداً تلو آخر.

ـــ على الدبابات إلى اليمين!

والتقط أنفاسه غاصاً بالصيحة مدركاً أنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً، إذا لا يطلق دافلانيان النار فوراً. وصاح:

ـــ أدر المدفع!... إلى اليمين، إلى اليمين! أسرع! يفستغنييف! تشوباريكوف!..

واندفع إلى الطقم الذي كان يسحب المسندين وينقلهما بكل قوة رجاله، ضاغطين بأكتافهم على العجلتين، والدرع، نافثي اللعنات، مجاهدين أن يديروا المدفع خمساً وأربعين درجة إلى اليمين. وقد رأوا

أيضاً الدبابات هناك. كانت الأيدي تتحرك بجلبة، وتتشابك، وتنزلق الأحذية على التراب، وترف عيون مشبعة توتراً، بارزة، وظهر أمام الدرع وجه يفستيغنييف المنتفخ المتفصد عرقاً. كان يسند رجليه على المتراس، ويدفع عجلة المدفع بكل جسمه، وما تزال خطوط دقيقة من الدم تسيل من أذنه على ياقة معطفه. والظاهر أن طبلة أذنه قد أصيبت.

نخر يفستيغنييف قائلاً:

ــ أكثر... هيا... أكثر!

ــ المدفع إلى اليمين! أسرع!

ــ هيا، أكثر!..

كانت الدبابات التي اخترقت دفاع البطارية تقتحم خارجة من غيهب الحرائق الأحمر، وسارت نحو موقع دافلانيان. وكانت الحركة تزيح الدخان عن دروعها.

صاح صوت في حنق:

ــ أمن المعقول أن جميعهم قد قتلوا هناك في الموقع؟ لماذا لا يطلقون؟ أين هم؟

ــ أسرع! اضغطوا! الجميع دفعة واحدة! تحشرج صوت يفستيغنييف مكرراً.

ــ إلى اليمن أكثر!... أكثر!...

وحول المدفع إلى اليمين، وثبتت الجذوع الخشبية تحت سكك أخمصه، وارتفعت ماسورة المدفع فوق المتراس سريعاً، بعد أن أدار يفستيغنييف عجلتي التحريك بسرعةن وكانت التقددات على خديه القذرين العرقين قد انتفخت. إلا أنه بدا من غير الممكن الآن الصبر على

الثواني اللانهائية، كالأبد، الثواني التي تستغرقها عملية التصويب. وفي تلك الثواني المستنفدة كان كوزنيتسوف لا يسمع غير إيعازه: «نار! نار! نار!»، وكان هذا الإيعاز الذي كان يصمه هو نفسه، يبدو وكأنه يدفع رجال الطقم في ظهورهم، ومن عليائهم، وأكتافهم، ومن أيديهم العاملة بعصبية، والتي لم تكن تلحق أن تسبق زحف الدبابات المتحركة.

وخطرت ببال كوزنيتسوف فكرة: «هل من الممكن أن يكتب لنا أن نموت جميعاً الآن؟ الدبابات تنفذ إلى البطارية، وتبدأ بسحق الطقوم والمدافع! ماذا حدث لدافلانيان؟ لماذا لا يطلق رجاله النار؟ أحياء هم؟ لا، لا، لا بد أن أفعل شيئاً... وما هذا الذي يسمى بالموت؟ لا، لا يجوز أن يقتلوني!.. لا، يجب أن أفكر فقط بأنني لن أقتل، وعندئذ ان أقتل! يجب علي أن أتخذ قراراً، يجب أن أفعل شيئاً! حتى وإن لم يكن هناك أحد قرب المدفع!...».

ووصلت إلى وعيه صيحة تشوباريكوف «لم تدر المدفع الدورة اللازمة أيها الرفيق الملازم!». وكان ينظر إلى كوزنيتسوف هازاً برأسه وماسحاً جفنيه باصبعه، وكأنه كان يذرف دموعاً حمراء.

ـــ نار! نار! نار على الدبابات!

صاح كوزنيتسوف آمراً، وقفز بغتة، وكأن شيئاً جعله ينتصب، واندفع نحو خندق الاتصال غير العميق الذي لم يتم حفره بعد. وقال:

ـــ أنا ذاهب إلى هناك! إلى الفصيلة الثانية! حل محلي، يا تشوباريكوف! أنا ذاهب إلى دافلانيان!..

وركض في خندق الاتصال غير الكامل متجهاً إلى مدافع الفصيلة الثانية الصامتة، منحصراً بين جداري الخندق الترابيين الضيقين، غير عارف بعد ماذا يفعل في مواقع دافلانيان، وماذا يمكن أن يفعل، وماذا

يقدر أن يفعل. كان خندق الاتصال يصل في عمقه إلى وسطه، فكانت ترتعش أمام عينيه الشربكة النارية للمعركة: طلقات، وخطوط القذائف الكاشفة، وانفجارات، وأدخنة كثيفة وسط حشود دبابات، وحريق في القرية. وإلى اليمين سارت ثلاث دبابات مترنحة بيسر فيما يعرف بـ«الزاوية الميتة» ــ خارج المنطقة التي تصل إليها نيران البطاريات المجاورة، وكانت على بعد مائتي متر عن مواقع دافلانيان. وبعد ذلك لمع اللهب في مواسيرها الطويلة، وابتلعت الانفجارات على المتراس هدير المحركات، وانطلقت الرشاشات في اللحظة ذاتها فوق كوزنيتسوف مباشرة بخطين مزدوجين.

«فقط أن لا يحدث الآن... أن لا أجرح وأنا في الخندق!.. ماذا استطيع أن أفعل الآن، في هذه الثواني؟.. أركض إلى المدفع، وتكون النهاية؟...».

وليأسه من أنه لا يستطيع الآن، ولا يحق له أن يعود أدراجه، بل يركض للقاء الدبابات، لحتفه القريب، كما بدا له، صاح منادياً على نحو مرعب، شاعراً بالقرص على خديه:

ــ دافلانيان!... إلى المدفع!

وطلع من طرف خندق الاتصال متسربلاً بالعرق، أسود، ملطخ المعطف بالطين، وسقط على موقع الرماية، وهو يصيح بصوت مبحوح:

ــ إلى المدفع! إلى المدفع!

وما رآه على الفور في موقع دافلانيان، وما أحس به رأساً كان شيئاً فظيعاً. حفرتان عميقتان طريتان من الحفر التي تحدثها القنابل. وأكداس من الأجساد بين مسندي المدفع، ووسط مظاريف القذائف الفارغة، وعند المتاريس كان رجال الطقم يرقدون في أوضاع غير

طبيعية مضغوطة. وكانت وجوههم الطباشيرية، وقد بدا شعرها الأسود النامي قد لصق عليها بالفراء، مغروزة في الأرض، في الأصابع البيضاء المنشورة. كانت أرجلهم مطوية تحت بطونهم، وأكتافهم منكمشة، وكأنما كانوا يريدون على هذا النحو أن يحفظوا آخر دفء للحياة. ومن هذه الأجساد الملتوية، والوجوه البيضاء السوداء، كانت تنبعث رائحة الموت الباردة. ولكن هنا أيضاً، كان، ثمة، أحياء، على ما يبدو. فقد بلغته من الخندق أنات، وهمهمات ولكنه لم يلحق أن يلقي نظرة إلى هناك.

نظر إلى عجلة المدفع الذي حطمته الشظايا، وكان ثمّة رجلان يلتبطان تحت المتراس. وارتفع من الأرض ببطء وجه المسدد كاسيموف المدمّى العريض الوجنتين، بعينين زجاجيتين، كفيفتين، وكانت إحدى يديه تتشبث في عجلة، غارزة أظافرها السود في مطاطها. والظاهر أن كاسيموف كان يحاول النهوض، وجر جسمه إلى المدفع، إلا أنه لم يكن يستطع ذلك. كانت أصابعه تعرف بأظافرها، وتنزلق على المطاط الممزق. ولكنه قوس صدره، وأمسك بالعجلة من جديد، وصرخ بل ترابط:

ــ اذهبي، يا أخت، اذهبي! لازم أن أرمي... لماذا تدفنينني؟ أنا شاب بعد! اذهبي! ما زلت حياً... سأعيش!

وكأن جسمه القوي قد كسر عند الخاصرة، كان سائل أحمر يسيل من تحت جنبه المضمد، وكان هو في بحران الجرح، في حالة الغيبوبة التي كانت وكأنها تبعده عن الموت.

صاح كوزنيتسوف:

ــ يا زويا!... أين دافلانيان؟

كانت زويا ترقد إلى جانب كاسيموف تحت المتراس، تضع ضمادة نظيفة على بطنه، فوق القميص المبلل ببقع حمر مباشرة، ماسكة إياه مُنحّية طرفي سترته المبطنة، وكان وجهها شاحباً، مبوّزاً، عليه خطوط داكنة من السخام، وشفتاها مزموتين، وشعرها نافراً من تحت القبعة ــ وجهاً غريباً غير جميل خالياً من الفرح، عليه تعبير غير مألوف.

حين سمعت صياح كوزنيتسوف جفلت كأنما من ضربة، ورفعت عينيها المفعمتين بالاستغاثة، وحركت شفتيها الخاليتين من الحياة، إلا أن كوزنيتسوف لم يسمع أي صوت. ومضى كاسيموف يصرخ في غيبوبته:

ــ اذهبي، اذهبي، يا أخت! سأعيش! لماذا تدفنينني؟ لازم أن أرمي!...

ولأن كوزنيتسوف لم يسمع صوتها، بل صياح كاسيموف الهاذي وحده، ولأن كلا من زويا وكاسيموف لم ير و لم يعرف أن الدبابات المخترقة تتجه إلى موقعهما رأساً عانى كوزنيتسوف مجدداً من الإحساس الغريب باللاواقع. وكأنما لم يكن يكلفه سوى أن يضغط على نفسه، وينفض رأسه، ليستيقظ من الحلم الكابوسي في الصباح الساكن الهادئ، والشمس خلف النافذة، والورق الملصق على جدار الغرفة، ويتنفس الصعداء لأن ما رآه قبل لحظة ما هو إلا حلم.

إلا أن ذلك لم يكن حلماً.

سمع فوق رأسه شهقات قريبة مصمّة لمحركات الدبابات، وإلى الأمام، أمام المدفع لعلعت صليات صارخة من الرشاشات، حتى بدا وكأن الرمي يجري من على بعد خمسة أمتار وراء المتراس. وأدرك هو وحده أن هذه الأصوات كانت أصوات الهلاك المقترب.

ـــ زويا، زويا! إلى هنا، إلى هنا! عبئي، وأنا إلى جهاز التسديد، وأنت عبئي! أرجوك. زويا!..

كانت بكرات جهاز التسديد زلقة جداً، وكان مطاط جهاز التسديد يلتصق بأسفل الجبين، وتنزلق دفات التدوير في اليدين ـــ كان دم كاسيموف قد تناثر على جهاز التسديد، غير أن كوزنيتسوف لم يفكر بذلك إلا خطفاً ـــ تحرك خطا الصليب الأسودان في عدسة التسديد إلى الأعلى وإلى الأسفل، ثم إلى جانب، وفي وضوح العدسة الحاد التقط كوزنيتسوف جنزيراً متحركاً هائلاً على نحو لا يصدق، بالثلج الملتصق عليه بقوة والمتناثر منه في الحال، جنزيراً قريباً واضحاً على نحو بدا فيه وكأنه قد حجب كل شيء، وزحف على جهاز التسديد نفسه، وها هو يخدش حدقة العين. وغشى على عيني كوزنيتسوف عرق حار، وصار كل شيء يرتعش في جهاز التسديد، كما في الضباب.

ـــ عبئي، يا زويا!

ـــ لا أقدر... الآن... فقط أن أسحب..

ـــ أقول لك، عبئي! قذيفة! قذيفة!

وأشاح وجهه عن جهاز التسديد عاجزاً: كانت زويا تبعد جسد كاسيموف المتوتّر عن عجلة المدفع، وتضعه لصق المتراس تماماً، وعندئذ فقط رفعت قامتها، وكأنما لم تفهم شيئاً بعد، محدقة في وجه كوزنيتسوف الجزء الذي شوهه العجز.

ـــ عبئي فوراً، قلت لك! ألا تسمعين؟ قذيفة! قذيفة! من الصندوق!.. قذيفة!

ـــ نعم، نعم، يا ملازم...

وتقدمت مترنحة من الصندوق المفتوح قرب المسندين، وسحبت منه

قذيفة بأصابع متشبثة، وعندما دفعت بها في مؤخرة السبطانة المفتوحة، وانقفل الترباس، سقطت هي قرب المسند، مقلصة عينيها.

إنه لم يرَ ذلك. إن سواد الجنزير الدائر الهائل كان ينسل إلى جهاز التسديد، ويتحرك في حدقته ذاتها، وكان الهدير العالي لمحركات الدبابات يضغط. ويكبسه على المدفع، ويدخل في صدره حاراً خانقاً، ورنت الأرض رنيناً حديدياً وارتعشت. وخيّل إليه أن ذلك هو ارتجاف ركبتيه المثبتتين في الأرض المتعرجة. أو ربما ارتعاش يده، المستعدة للضغط على زناد الإطلاق، واهتزاز قطرات العرق في عينيه اللتين كانتا تريان في تلك اللحظة ما لم تستطع هي، أن تراه، وقد قلصت عينيها في انتظار الإطلاق. وكأنها لم تر و لم ترغب في أن ترى تلك الدبابات التي نفذت على بعد خمسين متراً من المدفع.

أما الخطان المتقاطعان في عدسة التسديد فما كان في ميسوره أن يلتقط نقطة واحدة، فإن شيئاً أسود هائلاً مصلصلاً غطى على كل شيء. وحجب العالم كله.

ضغط على الزناد، و لم يسمع طلقات الدبابات تسدد عليه مباشرة.

الفصل العاشر

رمت كوزنيتسوف عن المدفع قوة رهيبة، ولطمت صدره بشيء صلب حديدي، وبوعي غامض، ورنين في الرأس رأى نفسه، لسبب ما، تحت الأغصان الداكنة لشجرة الزيزفون الموجودة قرب مدخل البيت، والمطر يزمزم خلالها، وأراد أن يفهم ما هو الشيء الذي أصابه في صدره بألم بهذا القدر من البغض، وهو الشيء الذي سفع الشعر على عليائه بموجات لاهبة. أحسّ بميل إلى التقيؤ، إلا أنه لم يتقيأ، ومن هذا الأحساس برقت في وعيه بريقاً كدرا فكرة أنه ما يزال حياً، فشعر في الحال بأن فمه مملوء بشيء مالح دافئ، ورأى، وكأنه من خلال غشاوة، بقعاً حمراء على كفه المعفرة بالتراب، المضغوطة على وجهه. وفكر مع نفسه «أهذا دم؟ من أين؟ هل أنا مجروح؟ ما هذا؟».

ــ يا ملازم! يا عزيزي! ملازم! ماذا بك؟ ورفع رأسه باصقاً دماً، محاولاً أن يفهم جُلَّ أمره.

وفكر متذكراً «لماذا نزل المطر، وأنا واقف تحت شجرة الزيزفون؟ أيّة شجرة زيزفون هذه؟ أين كانت؟ في موسكو؟ في الطفولة؟.. ماذا بدا لي؟».

كان يرقد وصدره على صندوق قذائف مفتوح، بين مسندي المدفع، وقد قذفت به عن درع المدفع موجة من الانفجار. وقد شق الجانب

الأيمن من الدرع، وتدلى وقد شوهته الشظايا تشويهاً فظيعاً. وتقوض الجانب الأيمن من المتراس وخلفت فيه قذيفةٌ حفرةً عميقة، وعلى بعد عشرين متراً كان حريق هادئ، ولكنه يزداد اشتعالاً، يسري في ذلك الشيء الحديدي الهائل المصلصل الذي كان قد زحف، قبل حين، على المدفع، أهوج، حاجباً العالم كله.

وكانت الدبابة الثانية تقف قريبة جداً من هذا الحريق، وقد أدارت ماسورة مدفعها المنكّس إلى اليسار، في ناحية الجسر، وتصاعدت منها خطوط طويلة كالمجسّات من دخان المازوت.

كانت القذائف تنطلق من الدبابة الأولى برجّات زاعقة، والبرج يهتز، والجنزير يصلصل ويرتعش. إن هذه الدبابة ما تزال على قيد الحياة. وكانت تنتشر في الهواء الرائحة الكريهة القليلة الحلاوة، رائحة اللحم المشوي المخلوطة برائحة زيت محروق.

وتذكر كوزنيتسوف مخنوق الأنفاس من الرائحة المقززة، ومفكراً بكل ما حدث «أنا الذي أصبت الدبابتين؟ ومتى جرحت؟ وأين جرحي؟ أين زويا؟ كانت على مقربة...».

ــ زويا! ناداها، وعاد إليه غثيانه.

ــ ملازم... عزيزي!

كانت تجلس تحت المتراس، تنتزع وتفك أزرار الصدر، فاقدة السمع، كما يبدو مغمضة العينين. و لم تكن القبعة البيضاء الأنيقة على رأسها، فكان شعرها المخلوط بالثلج مسترسلاً على كتفيها، وعلى وجهها، حتى كانت تلتقط بعض الشعرات بأسنانها البيضاء، وتعضها.

ــ زويا!

عاد يناديها همساً، وحاول أن ينهض، وينتزع جسمه الثقيل كالحديد من صندوق القذائف، من الرؤوس الفولاذية للقنابل المضادة للدبابات، التي كانت تضغط على صدره. إلا أنه لم يستطع أن يفعل ذلك رأساً.

دفعت زويا شعرها بحركة من رأسها، ورمقته من الأسفل إلى الأعلى بنظرة عذاب وألم، وهمست بشيء. ولم يتبين صوتها من خلال الرنين الطويل في أذنيه، ولكنه لاحظ فيما بعد أن بصرها كان يتجه إلى يد كاسيموف التي تكشط الأرض بأظافرها، خارجة من وراء عجلة المدفع.

ورأى كومة الجسد الداكن الساكن، المغروز رأسه في حافة المتراس. وكان كاسيموف قد كفَّ عن الأنين. وانكفأ على وجهه، وقد مزَّقت الشظايا سترته المبطنة، وتناثرت على ظهره كتل سود من التراب والثلج المخلوط بالبارود المحترق قذفها الانفجار، وانعكف بوزا حذائه إلى الداخل. كانت الحياة ما تزال تدبّ في يده وحدها. ورأى كوزنيتسوف أيضاً تلك الأصابع الكاشطة.

ابتلع البلل المالح قليلاً، الذي كان يملأ فمه، وأراد أن يصيح على زويا بأن كليهما قد أصيب بصدمة انفجار، وفقد سمعه، وأن كاسيموف يحتضر، ويجب نقله إلى المشكاة وراء المدفع، نقله حالاً، وبأقصى سرعة. ولم يكن يفهم لماذا عليهما أن يفعلا ذلك بأقصى سرعة، ولماذا تتأخر زويا. حين لا يجوز التأخر ثانية واحدة. لأنه لم يبق سواهما في هذا الموقع...

ـــ زويا!

نادى مرة أخرى، وبصق دماً، والتقط أنفاسه، وانسل من صندوق القذائف إلى تحت المتراس، وأمسكها من كتفيها بكلتا يديه، وخاطبها بأمل وعجز:

ـــ زويا! هل فقدت السمع؟ ألا تسمعين، يا زويا؟

هل جرحت؟ جرحت؟ زويا!..

لم يقاوم كتفها تحت يديه. بل قاومت عيناها وشفتاها المزمومتان تحت خصلات شعرها. وفجأة مسحت الدم من ذقنه بطرف ظاهر لقفازتها فرأى دمه هو على قفازتها.

صاح في وجهها:

ـــ هذا هراء... أفقدوني سمعي واصطدمت بالصندوق! انظري، يا زويا، ماذا حصل لكاسيموف! هل تسمعين؟ أسرعي! علي أن أعود إلى المدفع!... يبدو أن كاسيموف...

ونهض بصعوبة مترنحاً من الدوار الغائم، واتجه نحو مسندي المدفع، مستعداً لأن يندفع نحو صندوق القذائف، نحو جهاز التسديد، إلا أنه في تلك اللحظة لمح زويا تزحف نحو عجلة المدفع، وسمع صوتها:

ـــ ملازم.... عزيزي، ساعدني!

وسحب الاثنان كاسيموف إلى مشكاة القذائف. وانحنت زويا، وكانت راكعة على ركبتيها طوال الوقت، وأخذت تتحسس بيديها، صدره، والضمادات القديمة الوسخة على بطنه، المنتفخة ببلل بني، والممزقة بالشظايا.

أسبلت يديها، ورفعت ظهرها أخيراً، ونظرت في وجه كاسيموف بعينين فاهمتين كل شيء. وفهم كوزنيتسوف: لقد قتل كاسيموف بشظايا اصابته في صدره وكما يبدو في اللحظة التي أراد فيها أن ينهض إلى جهاز التسديد، حين انفجرت القذيفة الأخيرة على المتراس...

«يجب إطلاق النار! أنا استطيع أن أرمي! على هذا الدخان، على

الدبابات، على هذه الصلبان، على السهب. فقط أن يكون المدفع سليماً، وجهاز التسديد غير محطم...» كانت هذه الأفكار تدور في رأسه، حين نهض، كالسكران، واتجه نحو المدفع. ونظر، وتلمس عدسة التسديد بيديه، متخوفاً مسبقاً من أن يجد عليها آثار تخريب. وقد اكتشف أنها سليمة، و لم تصب بالشظايا، وجعله ذلك يستعجل، بل أن أصابعه أخذت ترتعش من قلة الصبر.

وأوعز دون صوت، ودون أن يسمع نفسه: «قذيفة! قذيفة!» وبعد أن عبأ القذيفة لصق عينيه بسرعة ونهم على عدسة التسديد، وأطبق أصابعه بقوة شديدة على بكرتي الانعطاف والرفع، حتى بدا لنفسه هو أنه قد أندمج بماسورة المدفع الزاحفة على دوامة الدخان، وكأن المدفع كان يطيعه مثل كائن حي، ويصغي له ويفهمه مثل قريب له:

ـــ نار!

«سأجن!» فكر كوزنيتسوف وقد أحس بكراهيته هذه لموته المحتمل، واندماجه هذا بالمدفع، وحمى الجنون هذه الشبيهة بتحد، مدركاً بحاشية وعيه فقط ما هو فاعل.

وبنفاد صبر التقطت عيناه في الخطين المتقاطعين في عدسة التسديد توشيات الدخان السوداء، والتماعات النار المقابلة، وجوانب الدبابات الصفر، وهي تدب مثل قطعان عديدة إلى اليسار واليمين أمام الوهدة. كانت يداه الراعشتان تقذفان القذائف في فم مؤخرة السبطانة، وأصابعه تضغط على الزناد بتلمس عصبي عجول. وكان مطاط عدسة التسديد المبلل كله بعرقه يضرب أسفل جبينه، فكان لا يلحق تتبع كل مسار لقذائفه المضادة للدروع، النافذ إلى الدخان، وأعاصير النار والدبابات، ولا يستطيع أن يلتقط بدقة نقطة سقوطه. إلا أنه لم يعد قادراً الآن على

التفكير. والحساب، والتوقف، فكان يطمئن نفسه، وهو يرمي، أن قذيفة واحدة على الأقل ستصيب الهدف. وفي الوقت ذاته كان مهيّئاً لأن يضحك، وكأنما من سعادة، حين رأى، وهو يندفع إلى مؤخرة السبطانة، ويعبئ صناديق القذائف مغتبطاً بأنها تكفي لوقت طويل. وكان يهتف من خلال دويّ المدفع:

ـــ أوباش! أوغاد! أكرهكم!

وفي إحدى الفترات بين طلقة وأخرى، حين ارتدَّ عن عدسة التسديد صدمته عينا زويا المتوقفتان عليه، المتشبثتان ببصره، الواسعتان، المذهولتان في وجه بدا غريباً عليه حتى أنه لم يفهم في اللحظة الأولى سبب وجودها هنا، و لم هي معه الآن.

ـــ ماذا دهاك؟ اذهبي إلى الملجأ! هل تسمعين؟ حالاً! أنا لا أريد أن أراك قتيلة! ـــ وراح يشتم فجأة، كما لم يشتم قط في حضورها ـــ اذهبي! أقول لك!

ـــ أنا أساعدك، يا ملازم... عبّأت المدفع بالفعل... أنا معك، يا ملازم...

و لم تسمع سبابه الغليظ بوضوح، سوى أنها حدَّقت به متفرّسة، وكأنّها لم تعرفه قط، أو لم تتذكره، وهو الملازم الحضري، المتحفظ دائماً، بينما كانت تمسك القذيفة بكلتا يديها، وتضغطها على صدرها. وبعد ذلك أكرهت نفسها على أن تضحك ضحكة مبتسرة.

ـــ لا داعي لذلك، يا ملازم! لا يجوز لك أن تشتم، يا ملازم!

ـــ اذهبي إلى الملجأ. ليس لك ما تفعلينه هنا! هل تسمعين؟

كانت تنظر إليه مندهشة. كأنما كانت تسكنه. كأن حضورها،

ووجهها، وصورتها يرفع عنه جزءاً من حنقه، جزءاً من الكراهية الضرورية، المفهومة من قبله فجأة، اللازمة له، والتي لم يحسَّ بها على هذا النحو طيلة حياته.

ومرة أخرى اندفعت إلى الخطين المتقاطعين لعدسة التسديد صور سريعة التبدل مقرَّبة إلى عينيه بشكل مريع: أدخنة مكثفة، وحرائق سيارات وناصيات فطساء لدبابات، في الفجوات التي أحدثتها الانفجارات... إلا أنه حين ضغط على الزناد اليدوي، مرسلاً القذيفة إلى تلك الحركة التي يراها، إلى تلك الدبابات التي لا توقف شق السماء كلها لمعان برق حاد، وومض في عدسة التسديد، مصحوباً بالحرارة القاتلة للتولاين المحترق. وألقت كوزنيتسوف ضربة من الجانب أبعدته عن عدسة التسديد، وضغطته أرضاً، وتساقطت كتل الأرض على ظهره. وعندما كان منبطحاً لمعت في رأسه فكرة متشفية سعيدة هي أنه الآن أيضاً لم يقتل. وفكرة أخرى التمعت في ذهنه كالوهج:

ــ زويا! إلى الخندق! إلى الخندق!

ونهض قرب المسند ليرى أين هي، إلا أن برقا تفجر من جديد قد خطف بصره في الحال. وتلقّى ضربة دافعة في صدره. وسقطت زويا على جنبها على مقربة منه، وقد أمسكت كلتا يديها بصف أزرار معطفه، زافرة بوجهه العرق، ضاغطة نفسها عليه بشدة وقرب، حتى رأى عينيها المتقلصتين، وجفنيها الأسودين من البارود، وقد جمّد جسدها الباحث عن حماية مضغوطاً على جسده.

ــ فقط ألا أصاب في البطن، في الصدر... أنا لا أخاف، إذا جاء رأساً... فقط أن لا يحدث ذلك!...

ولم يكد يسمع ما تقوله. كانت شفتاها تكادان تمسان شفته، ولكنه

كان ضعيف الالتقاط لذلك الهمس، المهموم، المطلسم، على رحى الهدير الدائرة.

وعند كل انفجار كان جسمها يزداد انضغاطاً على جسمه، وعندئذ طوقها، كازاً على أسنانه، بآخر حماية غريزية، أمام المصير المتساوي، الموحد لهما، المغتفر لكل شيء، بآخر غوث، بغوث شخص راشد لطفل، وضغط رأسها على رقبته العرقة... وبهذا العناق القوي انتظر الثانية الأخيرة، متحسساً شعرها يخفق على وجهه بخفقة انفجار، مختنقا بالرائحة الحارة للتولاين المحروق، وقبيل نهاية هذه الثانية فكر برعب، وهو يحس بصدرها، وبشفتيها الباردتين على رقبته، أن جسدها سيرتخي فجأة، بين يديه حين تصيبها شظية في ظهرها. «هنا، إلى عجلة المدفع... يجب أن اضغط ظهرها إلى العجلة! إنها تحمي من الشظايا، إذا...».

وأراد أن يتحرك، وينقلها إلى عجلة المدفع، إلا أن الرنين غشّى على أذنيه في تلك اللحظة كأنه من رحاب الأبدية، وابتعدت السحابة السوداء الأردوازية وراء المتراس، ضاغطة إياهما على المدفع. وهبطت على الموقع. رغم أن الأرض والهواء المسخن بالتولاين كانا يترنحان بطنين، مهزوزين بالمعركة، شق شرخ من السكون حاد هفهاف، كالهواءالطلق، الموقع، ودخل في خط انطباق جسديهما.

ولم يكن ذلك سكوناً، بل تنفيساً. دفعت زويا رأسها إلى الوراء، وفتحت عينيها اللتين اذهلتاه بعمقهما الداكن، وهما في رموشهما السود المخططة بالسخام. ثم حررت نفسها من بين يديه بتؤدة ملصقة ظهرها بمسند المدفع.

وبنفس التؤدة دفعت إلى الوراء شعرها الذي ألقته الانفجارات على

وجهها قبل حين، دفعته بظاهر أصابعها القذرة، ساحبة معطفها الفرائي على ركبتيها المغبرتين من الطين الملتصق بهما. وتكلم كوزنيتسوف:

ــ انتهى...

فهمست بين شهقة وزفرة قصيرتين:

ــ ملازم، ملازم. يبدو أن رأيك فيَّ ليس صحيحاً تماماً... اسمع... إذا جرحت في صدري، أو بطني، هنا ــ وأشارت بيدها إلى حزام الضباط الذي كانت تشده على خصرها بقوة، حتى بدا لكوزنيتسوف أنه من الممكن أن يحاط بأصبعين ــ فأنا أرجوك... إذا كنت لا استطيع أن أفعل ذلك بنفسي... هنا في الحقيبة مسدس ألماني أهدي لي منذ مدة طويلة. هل تفهم؟ إذا أصبت هنا، فلا حاجة إلى التضميد...

أما هو، الذي كان يتصوَّر في رعب، قبل لحظة من الزمن، احتمال أن تصيبها شظية في ظهرها وتقتلها، فقد صمت غير فاهم تماماً السبب في حديثها معه بهذه الصراحة الآن عن شيء غير طبيعي ورهيب كان في الإمكان أن يحدث، و لم يحدث. لقد كان يفزعها أن تجرح في صدرها أو بطنها. كانت تخاف الضعف، والمهانة، والخجل قبيل الموت، تخاف أن ينظر الرجال إليها، وهم يلمسون بأيديهم جسدها المعرَّى، ويشدّون الضمادات عليها...

همس كوزنيتسوف:

ــ واضح، ولكن ماذا تطلبين مني؟ أنت مخطئة. أنا لست حفار قبور! من الذي أمرك بأن تكوني قرب المدفع؟ ليس من واجبك أن تكوني هنا! المعركة لم تنته بعد. أهذا واضح لك؟

وكأنه كان يحدس ذلك. فإن السكون العابر تمزق في الحال أمام

المتراس. وارتفعت الانفجارات سوداء أمام المدفع، زحف كوزنيتسوف على ركبتيه إلى جهاز التسديد. ومثل أبرة حامية وخزت عينه نار طلقة بدت وكأنها نفذت إلى الخطين المتقاطعين في عدسة التسديد ذاتهما، وفي الحال اختفت من رأسه زويا، وشعرها المرسل على خدها، ومسدسها، ورجاؤها الغريب، اختفى كل شيء، وصار العالم من جديد إلى أقصى حد من الواقعية والقسوة والهلاك، خالياً من الطيبة، ومن الأمل في الطيبة، ومن الشكوك.

وفكر ممسكاً بعجلة التدوير «المدفع المتحرك على مقربة...».

في تلك اللحظات كان لا يصدق إلا بدقة الخطين المتقاطعين اللذين يتحسسان جوانب الدبابات، وبكراهيته المدمرة التي عادت إليه، بعد أن التصق بالمدفع.

«وددت لو اكتشف هذا المدفع المتحرك... إنه كان يطلق من مكان قريب... كأنما هو من وراء الدبابتين المحترقتين. أين هو؟».

إلا أنه أحس، وهو يدير عجلة التدوير، بمقاومة من جانب آلية المدفع، وبعدم توافق بين جهاز التسديد، وماسورة المدفع، فانصرف عن مطّاط عدسة التسديد. كانت ماسورة المدفع تتراجع بكل كتلتها. وكان سائل بني يتناثر بخط نابض من جهاز الرجوع على الدرع الممزق، وعلى ماسورة المدفع الساخنة.

ــ أوغادا هذا عمل المدفع المتحرك من مخبئه! يا لنكد الحظ!

صاح كوزنيتسوف غير عارف ماذا يفعل. متهيئاً لأن يبكي في عجز، ضارباً بجمع يده على مؤخرة السبطانة المتراجعة. لقد أصابت شظية جهاز الرجوع.

كانت دبابتان تحترقان أمام المدفع تماماً. وكانت نار مزدوجة نشيطة تلعق برجيهما، وإلى اليمين، في حافة الوهدة تماماً كان ينبعث دخان جانبي من دبابة ثالثة. ومن وراء هذه المدخنة الكثيفة كان ينط لهب طلقات مثلث إلى يسار خط البطارية، حيث كان يقع مدفع تشوباريكوف ومدفع أوخانوف. كان المدفع المتحرك يقذف المدفعين من جانب على بعد مائتي متر، محجوباً بستار الدخان رائياً الهدفين بشكل جيد.

وأبعد من ذلك، على بعد كيلومتر ونصف يساراً، على مشارف معبر النهر، كانت الدبابات تخرج من الوهدة، مترنحة في الدخان، مارة بالسيارات المحترقة بفتور، وكأنها أكوام دريس رطب. وكانت جميع البطاريات المجاورة في منطقة الجسر، ومدفعا فصيلته، والبنادق المضادة للدبابات من خنادق المشاة تطلق النار في وقت واحد فكانت خطوط القذائف المضادة للدبابات، والانفجارات العالية لمدافع الهاون الثقيلة، والخيوط النارية لقذائف هاونات «الكاتيوشا» النفاثة المنطلقة من الشاطئ الآخر تندمج، وتتقاطع أمام معبر النهر، وتختلط هناك.

أما ذلك المدفع المتحرك المختبئ وراء الدبابة، فقد كان يختار هدفه، ويصوب من جانب على الجناح بهدوء وانتظام. وكان كوزنيتسوف يرى ذلك.

سمع نداء زويا:

ـــ يا ملازم!.. لماذا أنت واقف؟ هل ترى؟..

إلا أن كوزنيتسوف لم يعد قادراً على أن يفعل شيئاً الآن.

كان المدفع المتحرك يقذف مدفع تشوباريكوف بنار سريعة. وقد كف المدفع عن الرمي، واختفى في الظلام المتوائب قرمزياً. وكانت إحدى الدبابات قد خرجت من مكان ما إلى اليسار، وراحت تتحرك نحو

وثبات الظلام هذه، ملقية من على درعها، جراء سرعة حركتها، ألسنة لهب واطئة. والظاهر أنها احترقت بقذيفة مضادة للدبابات من مدفع تشوباريكوف. قبل أن يعترض ذلك المدفع المتحرك، ويغكي الموقع. والآن لم يكن أحد يراها من قرب المدفع المحاط بالانفجارات كالسياج. بينما ظلت الدبابة تنغرز بكل جرمها في ذلك الظلام المحيط بالمدفع، مزيدة من سرعتها، وقد ازدادت النار التهاماً لها، وانتشاراً على درعها، وأخذت تنعطف يمنة ويسرة في بقعة واحدة، وكأنها تسحق وتسوي شيئاً بثقلها الهائل. ثم هزّ الهواء انفجار، وارتفعت من برج الدبابة مظلة دخان سوداء مصحوبة بنار، وجمدت واقفة بأحد جنازيرها على المدفع المسحوق. ومن جانب نفذت إلى النار المندلعة خطوط القذائف واحدةً تلو الأخرى بارقة على طول جبهة البطارية. كان ذلك مدفع أوخانوف الواقع في أقصى الجناح يقذف النار على الدبابة.

كان كوزنيتسوف مصعوقاً ومنسحق النفس من الاقتحام المسعور للدبابة المحترقة، وصار وعيه لا يستوعب غير الوضوح الصارخ الجلي، وهو أن الألمان يهاجمون الجناح الشمالي باستماتة، محاولين بكل ثمن أن يشقوا طريقهم إلى الضفة، إلى الجسر، وأن طقم تشوباريكوف قد هلك، كما يبدو، وسحق تماماً ــ لم يخرج أحد من رجالها من الموقع ــ وأنه لم يبق للبطارية إلى اليسار غير مدفع واحد، هو مدفع أوخانوف.

ــ زويا... أنا آمرك بالذهاب إلى الملجأ! اذهبي من هنا، أتسمعين؟ أنا ذاهب إلى أوخانوف!

صاح كوزنيتسوف بصوت أجش، وفي نفس اللحظة رأى زويا تعضّ شفتيها المتورمتين، وتُلقي محفظتها الطبية على فخذها، وتسير على جنب، ثم تثب إلى خندق الاتصال غير الكامل، المؤدي إلى المدفع.

ـــ يجب أن أذهب إلى تشوباريكوف! ربما ما يزال أحدهم حيّاً. لا أصدق أن الجميع...

ودفعت شعرها. واختفت في خندق الاتصال، وكأنها لم تسمع أمره.

كز كوزنيتسوف على أسنانه جزعاً، وخرج من موقع النار راكضاً، ملتفتاً إلى الدبابات المحترقة في حافة الوهدة، حيث كان يقف المدفع المتحرك، الذي كان عاجزاً الآن على الوقوف ضده.

الفصل الحادي عشر

ـــ قف! إلى أين؟ كوزنيتسوف؟

كان درزدوفسكي يجري وثبا نحو المدفع على مرتفع الشاطىء، وحذاؤه اللبادي الطويل الملطخ بالثلج يرمح عادياً بين كثبان الثلج، وفمه الفاغر بالصيحة يبدو أسود على رقعة وجهه البيضاء:

ـــ ارجع!

ووراءه كان السائقان روبين وسيرغونينكوف يعدوان قافزين حفر القنابل؛ وكلاهما كان يحدّق عجولا لاغطا إلى الدبابتين المحترقتين أمام البطارية، وإلى الحريق في القرية، وكان سيرغونينكوف ينحني إلى الأرض بين الحين والآخر، عند الانفجارات القريبة على الشاطىء.

وارتفعت صيحة درزدوفسكي محرقة:

ـــ إلى أين؟.. ارجع! عد، كوزنيتسوف! تهرب؟ تركت المدفع؟ لماذا قطعت النار؟ تراجعت؟ قف!

دنا درزدوفسكي شاهراً مسدسه فوق رأسه، وفي عينيه بريق كدر مخبول ومنخراه يرتعشان، وقد لوّن وجهه غير الحليق منذ أيام شحوب صارخ حانق إلى حد الزرقة:

ـــ إلى المدفع!

أمر درزدوفسكي، وغرز يده اليسرى في كتف كوزنيتسوف كالكماشة، وجذبه بقوة إليه:

ـ ولا خطوة إلى الوراء! لماذا تركت المدفع؟

إلى أين ذاهب؟

ـ هل عميت؟..

نفض كوزنيتسوف يد درزدوفسكي عن كتفه بقوة، وألقى نظرة سريعة على المسدس الذي كانت يد درزدوفسكي اليمنى تصوبه بارتعاش أمام بطنه، وقال:

ـ أعد المسدس إلى مكانه! هل جننت؟ انظر إلى هناك ـ وأشار نحو مدفع تشوباريكوف، حيث كانت الدبابة التي اخترقت الموقع تشتعل قاذفة بحزم الشرر، وقال: ألا ترى ما هناك؟..

مرت رشقة واطئة على أكوام الثلج كالمروحة اللامعة. والظاهر أن الذين في المدفع المتحرك المختفي وراء الدبابتين المدمرتين لاحظوا ناسا على الرابية، وبدأوا اطلاق النار من رشاشة يدوية مسددين على الشاطىء.

ـ لا تقف!.. استلق!

قال كوررزنيتسوف محذرا، بيد أنه لم يستلق هو نفسه، وبشعور مريح من الانتقام رأى درزدوفسكي ينحني، والسائق روبين يحول وجهه الغليظ باتجاه الرشاشة، ويقعد ثقيلا على رجليه القويتين القصيرتين، أما سيرغونينكوف الناحل الطويل الرقبة فقد ارتمى، بهذا الأمر، تحت كثيب، وزحف منبطحا على الأرض، إلى موقع المدفع، إلى حماية المراس، جارفا الثلج بغدارته.

قال درزدوفسكي لاعنا:

ـ لماذا تزحف كالجرو؟ ، وانتصب، وضرب حذاء سيرغونينكوف بقدمه وقال: ـ انهض! الجميع إلى المدفع! أرموا! ارموا!.. أين زويا؟ أين الممرضة؟

وبعد أن خطا بضع خطوات نحو المدفع، نشب في كتف كوزنيتسوف ثانية، وبتشكك ثبت في وجهه عينيه الشفافتين إلى حد أنهما بدتا بيضاوين:

ـ أين أرسلتها؟ كانت هنا قبل لحظة!

قال روبين ساعلا بحدة:

ـ ركضت... نشلها الشياطين!

ـ إلى المدفع، يا كوزنيتسوف! إرم!..

عدوا إلى الموقع، وسقط الاثنان على ركبتيهما أمام المدفع ذي الدرع المحطم، ومؤخرة السبطانة المتراجعة إلى الوراء، الفاغر شدقها الأسود.

وتكلم كوزنيتسوف بموجة غيظ لا يفترّ:

ـ والآن انظر! هل ترى جهاز الرجوع؟

المدفع المتحرك يضرب من وراء الدبابتين! كل شيء مفهوم؟ وزويا ذهبت إلى تشوباريكوف! ربما بقي أحدهم على قيد الحياة...

سأل درزدوفسكي بصوت عال، دافعا المسدس إلى غمده بعجلة، ورموشه الطويلة ترف من الانفعال:

ـ من كان يرمي على الدبابات؟ أين كاسيموف؟

ـ قتل. إنه هنا، في المشكاة. وثلاثة من الطقم.

لو لم يكن هذا المدفع المتحرك... تغطى في الدخان، وراء الدبابتين. وهو يضرب موقع أوخانوف في الجناح... يجب أن نذهب إلى أوخانوف، الظاهر أنه لا يراه جيدا! ليس لنا ما نفعله هنا!

- انتظر! لم هذا الذعر؟

واستند درزدوفسكي على كوعه، وأطل بسرعة من وراء المتراس المحفَّر المحطَّم بالقذائف، والشظايا المصقولة مغروزة في الأرض المحروقة - وفي الحال عادت رشقات الرشاشة ترن فوق الموقع، مخترقة أصوات المعركة.

والتمعت الشرارات الزرق للقذائف المتفجرة في رؤوس كثبان الثلج وراء المدفع. أجال درزدوفسكي، وهو يجلس تحت المتراس، ناظريه المتقلصين اللهوفين في ميدان المعركة، وتقلص وجهه كله حالا، وانكمش، وسأل بصوت متقطع:

- أين القنابل اليدوية؟ أين القنابل اليدوية المضادة للدبابات؟ لقد وزعت على كل مدفع ثلاث قنابل من هذا النوع! أين هي، يا كوزنيتسوف؟

- لأي شيطان هذه القنابل اليدوية؟ المدفع المتحرك على بعد مائة وخمسين مترا من هنا، هل ستصيبه؟ والرشاشة أيضاً لا تراها؟

- وهل تظن أننا سننتظر، هكذا؟ اجلب القنابل اليدوية بسرعة! هاتها هنا!.. الرشاشات موجودة في كل مكان في الحرب، يا كوزنيتسوف!...

وارتسم على وجه درزدوفسكي الخالي من الدم، المجزع بنفاد الصبر، الاقدام والاستعداد لكل شيء، واكتسب صوته فجأة رنة مجلجلة.

- يا سيرغونينكوف، هات القنابل اليدوية، هنا!

- إنها في المشكاة، أيها الرفيق الملازم...

- إلي بها!..

وعندما ذهب السائق سيرغونينكوف إلى الخندق، أخرج من المشكاة قنبلتين يدويتين مضادتين للدبابات ملوثتين بالتراب، نظفهما في الحال بطرف معطفه، ووضعهما أمام درزدوفسكي فأوعز هذا، ناهضاً بنصف قامته فوق المتراس:

- هيا!... سيرغونينكوف! عليك أن تقوم بذلك! أما النياشين على صدرك، وأما... هل فهمتني، يا سيرغونيكوف؟

رفع سيرغونينكوف راسه، وحدج درزدوفسكي بنظرة متفرسة لا ترمش، ثم سال غير مصدق:

- كيف ذلك... أيها الرفيق الملازم؟ إنه يقف وراء الدبابتين وأنا... إلى هناك؟

- ازحف إلى الأمام، وضع القنبلتين تحت الجنازير! هذا المدفع المتحرك! قنبلتان يدويتان، وتسحق الحقيرة!..

كان درزدوفسكي يتكلم بقطعية. وفجأة رفع القنبلتين من الأرض بيدين مرتعشتين، وبحركة حادة، وقدمهما لسيرغونينكوف، فبسط هذا كفيه بشكل آلي، وكاد يسقطهما حين تسلمهما، وكأنهما مكواتان حاميتان.

كان يبدو أنه لم يحلق وجهه مرة في حياته، فقد كان يلمع على خديه الفتيين، وشفته العليا المنتفخة زغب أشقر بدا الآن بسبب شحوبة داكنا خشنا.

ورأى كوزنيتسوف، وهو على مقربة شديدة، لازورد عينيه العجيب،

وحنكه الصبوي الناعم، ورقبته النحيلة والناعمة أيضاً، البارزة من ياقته الواسعة. ثم سمع همسته:

ـ إنه وراء الدبابتين، أيها الرفيق الملازم...

يقف بعيداً.

ـ خذ القنبلتين!.. بلا تأخر!

ـ فهمت...

حشر سرغونبنكوف القنبلتين في طية صدره بحركة مرتجة عشواء باحثة، وانزلق لازورد عينيه الصافي على وجه درزدوفسكي الحازم المتغير، وعلى وجه كوزنيتسوف، وعلى ظهر روبين المدور الذي يبدو عليه عدم المبالاة، وكان روبين مستلقيا نصف استلقاءة بين مسندي المدفع، ناخراً بثقل، محدقا في المتراس باستغراق غامض.

ولم يحتمل كوزنيتسوف فقال:

ـ اسمع، يا آمر البطارية. ألا ترى بعينيك؟

عليه أن يزحف مائة متر في فضاء مكشوف! ألا تفهم هذا؟

فتكلم درزدوفسكي بنفس صوته الرنان، وضرب ركبته بقبضته:

ـ وأنت تظن أننا سنجلس طاوين أيدينا؟ بينما هم يسحقوننا؟ ـ والتفت نحو سيرغونينكوف التفاتة حادة، وآمرة: ـ هل المهمة واضحة؟ إلى المدفع المتحرك زحفا وركضا! إلى الأمام! ـ وانطلق أمر درزدوفسكي كالرصاصة ـ إلى الأمام!

إن ما كان يحدث الآن بدا لكوزنيتسوف خطوة لا توصف في الخذلان فقط، كاليأس، بل ومريعة وسخيفة ولا أمل فيها. وكان يجب

أن يقوم بها سيرغونينكوف حسب منطوق الأمر «إلى الأمام!» الذي لم يكن، وفق القوانين الحديدية المعمول بها خلال المعركة، الحق لأحد - لا لسيرغونينكوف ولا لكوزنيتسوف - في إهماله أو إلغائه، وفكر كوزنيتسوف من حيث لا يدري: «لو كان هناك مدفع سليم، وقذيفة واحدة فقط، لما حصل شيء، نعم، لما حصل شيء من هذا».

- اسمع، يا سيرغونيكوف... زحفا فقط، ملتصقا بالأرض. هناك الكثير من الاجمات، ازحف إلى الوهدة، يمينا، في شريط الدخان، هل تسمع؟ فقط أن تأخذ حذرك، ولا ترفع رأسك!..

قال كوزنيتسوف في لهجة شبه آمرة واقترب من سيرغونينكوف زحفا، وضغط على كوعه بحفظ، ونظر في حدقتيه الغارقتين في زرقة سماوية وضاءة، وغير المتقبلتين شيئاً. وهز سيرغونينكوف رأسه، وابتسم ابتسامة قبول واهنة، ابتسامة متجمدة، ولسبب غير معروف ظل يضرب بقفازيه معطفه المنتفخ بالقنبلتين على صدره، وكأن هاتين القنبلتين كانتا تلذعان صدره، فكان يريد تبريد لذعهما.

همس بشفتيه فقط:

- أيها الرفيق الملازم، أرجوك رجاء حاراً أن تخبر أمي، إذا حدث لي... قل لها إنه مفقود...!

ليس لها غيري...

صاح كوزنيتسوف:

- ابعد ذلك عن رأسك! هل تسمع، يا سيرغونينكوف؛ فقط أن تزحف زحفا! ادفن نفسك في الثلج!

ابعد درزدوفسكي ذراعه عن المتراس:

ـ هيا، يا سيرغونينكوف! بلا تأخر! إلى الأمام!

ـ أنا مستعد، أيها الرفيق آمر البطارية، الآن أنا...

ولعق سيرغونينكوف شفتيه الجافتين وبلع ريقه، وتلمس القنبلتين لسبب ما مرة أخرى تحت معطفه، وتسلق على المتراس شاحطا بحذائه على أرض الموقع المحروقة بالانفجارات. رفع قامته على المتراس، والتفت من كل كتفه، وكأنما نسي شيئاً، ووجدت عيناه الغريبتان الطفوليتان وجه روبين المتطلع إليه، المتجمد جموداً عبوسا، وقال فجأة ببساطة كبيرة، بل وبهدوء:

ـ إذا رحت لا تعذب الخيول، يا روبين، فسأجدك في الآخرة. والآن وداعاً...

ضغط كوزنيتسوف صدره على المتراس. زحف سيرغونينكوف حوالي خمسة أمتار نحو الاجمات، في مجاميع حفر القنابل السوداء، أمام المدفع، شاقاً الثلج المخلوط بالأرض التي تناثرتها الانفجارات وكانت العين ترى حركة جسمه النحيل المتلوي بين الاجمات المعراة، المقطوعة بشظايا القنابل إلى النصف، وكان كوزنيتسوف بكل كيانه ينتظر اللمعان الخاطف لرشقات الرشاشات المنطلقة من وراء الدبابات على سيرغونينكوف. كان المدفع المتحرك يطلق النار إلى اليمين، باتجاه الجسر، باتجاه مدفع اوخانوف، حيث كان اللهب يندلع داكناً أحمر، مغطيا الدبابات المهاجمة. والذي كان يطلق النار من الرشاشة لم يكن يرى سيرغونينكوف الآن. بينما مضى سيرغونينكوف يزحف بين حفر القنابل والاجمات، ويختفي وراء كثبان الثلج، طالعا وغاطسا، شاقا الثلج بكوعيه ورأسه، حتى بدا واضحا أن المسافة قد قصرت بينه وبين الدبابتين الداخنتين، اللتين كان المدفع المتحرك يقف خلفهما.

أرجو أن يدخل في شريط الدخان بسرعة، فقط أن يدخل فيها..» فكر كوزنيتسوف مع نفسه في أمل، وهو راقد على المتراس بقلب واجف، مقدرا المسافة بالأمتار حتى المدفع المتحرك المختفي وراء الدبابتين.

ـ لِمَ يتباطأ؟ عدواً! وثبا!

كان درزدوفسكي يقول متقطع الكلمات، مختطفاً بأصابعه المقفزة كتل التراب المتيبسة، ساحقاً إياها على المتراس، منتظراً هذه الوثبة الأخيرة على المدفع المتحرك.

ـ أيِّ عدوٍ! إن قلبه ينبض الآن مثل قلب العصفور.

قال السائق روبين عن كره، وتراخت كلماته، وتلزجت في الجو المكفهر.

ـ اسكت، يا روبين! تسمع؟

وبكره تقريباً رأى كوزنيتسوف عن جنب رفة الانتظار في رموش درزدوفسكي الطويلة، وإلى جانب منه بروفيل روبين الثقيل كالرصاص، وقد انبطح هذا الرجل مسطحا بجسمه العريض على المتراس، بحيث كانت رقبته المتينة السمراء غائصة كلها في ياقته، وفي الحال تذكر كوزنيتسوف محاولته لقتل الحصان الذي كسرت ساقه في المسيرة برصاصة ولما تذكر ذلك، رأى روبين أيضاً يبصق عبر المتراس في حنق، وصارت عيناه الصغيرتان النافذتان المصوبتان نحو درزدوفسكي عابستين كارهتين.

ـ ليتك أوكلت لي أمرك، أيها الرفيق الملازم!

كل شيء سواء لدي. وأنا لا أتشبث في الحياة! أنا لا أذكر أحداً ولا أحد يذكرني!

ومرة أخرى تلزجت كلماته في الجو المكفهر.

بينما راح كوزنيتسوف، ولم يعد يسمع شيئاً، يراقب الخلاء أمام الدبابتين المحترقتين، وهذا المدفع المختفي وراءهما. وكانت الدودة الآدمية المتلوية تزحف ببطء أكثر، وحذر أشد، ثم هدأت مسطحة على الأرض على بعد عشرة أمتار من الدبابتين. ولم يكن واضحاً للعين تماما ما كان يفعله سيرغونينكوف هناك، ثم تبين أنه ارتفع عن الأرض قليلاً، ناظراً من الأرض، إلى المدفع المتحرك وقد تحركت إحدى كتفيه، وكأن يده كانت تنتزع بعجالة قنبلة من طية الصدر. إلا أن ذلك من بعيد، لم يكن إلا تصوراً ولم يلمح كوزنيتسوف ببصره لحظة أن سحب سيرغونينكوف سداد الأمان، وقذف بأول قنبلة.

وفي الهدير العام للمعركة قرقعت القنبلة قرقعة ضعيفة مكتومة مثل قرقعة جوزة عند تهشمها. وارتدت عن الأرض كتلة برتقالية مغبرة، وتشبعت بالسخام المخيم على الدبابتين، بينما كان المدفع المتحرك من هناك ماضيا في رميه باتجاه الجسر.

ـ أخطأ الهدف!... ـ زفر روبين، وبصق ثانية عبر المتراس، ومسح شفتيه بقبضته، وتقارب جفناه الأحمران.

ـ لماذا؟ لماذا يتباطأ؟.. إلى الأمام، المدفع...

ألقِ الثانية!..

وكانت اصابع درزدوفسكي، ما تزال تفتت كتل التراب، باحثة، لما تزل، عن مسند في المتراس.

كفَّ المدفع المتحرك عن الرمي. ثم انكشف من وراء الدبابتين الداخنتين شيء مستطيل واسع طلع واستدار ثقيلاً في السخام الكثيف.

وفي تلك اللحظة زحفت الدودة الرمادية بضعة أمتار إلى الأمام بين حفر القنابل السود، وانضغطت على الثلج حالا كاللولب، وململت نفسها، وفي اللمحة التالية قفز هذا المخلوق الرمادي الصغير من الأرض، ورفع ذراعه، واندفع، دون أن ينحني، نحو ذلك الشيء المستطيل الهائل المتحرك في الدخان، الطالع من خلف الدبابتين.

وفي تلك الثانية نفسها ارتفعت بروق قصيرة للقاء هذا المخلوق، والتمعت خاطفة منحرفة، وأوقفته، وهو مندفع إلى الأمام، رافعاً ذراعه، فتعثر، وألقى رأسه إلى الخلف بقوة، وكأنما يتلقّى بصدره رماح البروق الحامية، واختفى، واندمج مع الأرض.

انفجرت القنبلة اليدوية مثل سحابة ممزقة قرب الكومة الرمادية الساكنة أمام الدبابتين. وانداح الدخان ناحية. ومرة أخرى لعلعت الرشاشة اليدوية من الأعلى، ودفعت سيرغونينكوف، الميت الآن، على الأرجح، رشقات مستمرة من التفجرات، وجرته على الأرض، وكانت العين ترى تدخين المعطف على ظهره.

ـ آوه، الشاب، الشاب، ثكلته أمه! حاول فعل المستحيل!.. قتلوه؟

لم يستطع كوزنيتسوف أن ينطق بكلمة، وهو يغالب نوبة تشنج، وقطع بأصابعه الابزيم من ياقة معطفه ليتخلص من ضيق أنفاسه الحار «من قال أنهم قتلوه. روبين، كما يبدو؟». و لم يعرف كوزنيتسوف ماذا يفعل الآن، وما زال غير مصدق، إلا أنه رأى موت سيرغونينكوف الفاضح هذا، المكشوف بفظاعة، قرب مدفع العدو. التفت مختنق الأنفاس إلى درزدوفسكي، إلى فمه المشوه بشكل مقزز، الذي نطق معتصرا الكلام اعتصارا: «لم يتحمل، لم يقدر، لماذا نهض؟» وفجأة قال كوزنيتسوف ما لم يتوقع قوله وبصوت جاف غريب، وكأنما اعترته قشعريرة:

ـ لم يقدر؟ يعني أنت تقدر يا آمر البطارية؟ هناك في المشكاة بقيت قنبلة واحدة، هل تسمع؟ آخر قنبلة. لو كنت في مكانك لأخذتها، وركضت إلى المدفع. سيرغونينكوف لم يقدر، أما أنت فتقدر! هل تسمع؟..

ولمعت في رأس كوزنيتسوف فكرة ضبابية ومن أغوار نفسه:

«إنه أرسل سيرغونينكوف، وهو يملك الحق في اصدار الأمر له. وأنا كنت شاهداً سأظل ألعن نفسي طوال حياتي على ذلك» إنه لم يكن يدرك ما يقوله إلى آخر مدى و لم يفهم مقدار معقولية أفعاله.

ـ ماذا؟ ماذا قلت؟ ـ قال درزدوفسكي ممسكا درع المدفع بيد، وحافة الخندق باليد الأخرى، وأخذ يصعد، رافعاً وجهه الأبيض الخالي من الدم، بمنخريه المرتعشين الرقيقين، وقال: هل تحسب أنني كنت أريد موته؟ ـ وارتفع صوته إلى زعيق، وخالطته نبرة دامعة: لماذا نهض؟.. هل رأيت كيف نهض؟ لماذا؟

وفي تلك اللحظات التي كان يحدق فيها في عيني درزدوفسكي الذاهلتين المأخوذتين، لم يكن يسمع، وكأنما أصيب بالصمم، طلقات البطاريات ولا الدندنة المنخفضة للدبابات المهاجمة يسارا ولا الانفجارات على الساحل، وكان الشيء الوحيد في ذاكرته معطف سيرغونينكوف الداخن، وجسمه، الذي كانت تدحرجه على الثلج كالزكيبة صليات الرشاشة. فإن ما حدث لسيرغونينكوف لم يكن يشبه موت كاسيموف، ولا حتى مصرع طقم تشوباريكوف الذي سحقته الدبابة قرب المدفع. و لم يكن يتصور، مهما يكن من شيء، أنه سيرى موت سيرغونينكوف على هذا النحو الفاضح، البسيط بشكل غير معقول:

ـ لا أستطيع أن أراك، درزدوفسكي! لا أستطيع...

وسار كوزنيتسوف إلى خندق الاتصال، وكأنه يسير في ظلمة ساخنة، واتجه إلى الجهة التي كان يجب أن يقع فيها مدفع أوخانوف إلى أقصى اليسار. كانت تعتريه رعشة عصبية، سار متكئاً على حافة المتراس، ثم ركض، وحين كان يركض داهم كيانه كله شعور منقذ بالانفصال، لأنه هو نفسه ما يزال حياً، وأنه قادر على أن يفعل شيئاً ما الآن.

ولم يكن قد حدد لنفسه ما حصل. ولكن عندما أحس في نفسه من جديد، كما حدث له حين كان يطلق النار على الدبابات، بشراسة المعركة الآن، بدا وكأنه فقد القيمة الوحيدة لحياته، التي كانت وكأنها لم تكن تخصه، والتي لم يكن يستطيع تقييم أهميتها في سريرته حتى خفية عن الجميع. لقد فقد شعور الخطر المستفحل، والخوف الغريزي من الدبابات، من الموت أو الاصابة بجرح، من كل هذا العالم الذي يطلق النار ويقتل، وكأن القدر وهبه حياة أبدية، وكأن كل ما في الأرض أضحى متوقفاً على أفعاله، وعلى جسارته الحازمة، وعلى الخفة الغريبة التي كانت ترن في كل اعطافه.

وعندما خرج من خندق الاتصال نصف المتهدم، وقفز إلى موقع مدفع أوخانوف، كان المدفع يطلق ناراً سريعة مرتدا قاذفا من مؤخرة السبطانة المظاريف الفارغة. كان الرجال يروحون ويجيئون، ويدبون قرب مسندي المدفع، ووقع كوزنيتسوف على المتراس دون أن يتبين وجوه رجال الطقم في الدخان، ونفث بصعوبة:

ـ أوخانوف! الجميع أحياء؟

كانت المظاريف الفارغة تنط ما بين المسندين مرنة باخرة.

ـ ملازم! القذائف!.. لم يبق غير خمس مضادة للدبابات! أين

القذائف، قذائف، يا ملازم! كان المتحدث أوخانوف، إلا أن كوزنيتسوف ما كاد يعرفه، وهو يسمع صوته. كان أوخانوف راقدا على المتراس في سترته المبطنة وحدها، ينظر إليه، وعيناه المتقلصتان ملتهبتان في وجهه الأسود العرق، والسترة محلولة الأزرار عند الصدر، وياقة القميص مشقوقة، وعرق رقبته القذرة منتفخ كالحبل، من جراء الصياح، وسخام البارود يتجمع لطخات على جفنيه وحاجبيه.

ـ قذائف، يا ملازم! قذائف، اللعنة عليهم! الدبابات تطوق! قذائف!

إنه لم يسأل كوزنيتسوف كيف الحال مع المدافع الأخرى، وهل رجالها احياء. والظاهر أنه قد حدس ذلك، وتصور ما جرى للبطارية، لأنه قبل بضع دقائق رأى بنفسه كل شيء، بينما هو يطلق النار على الدبابات المخترقة، والآن كان يصيح مطالباً بالقذائف فقط، لأنه وكل الذين إلى جانبه كانوا بلا حول من دونها.

ـ اسمع، يا أوخانوف! ليذهب رجال الطقم جميعاً لجلب القذائف! إلى تلك المدافع، ما تزال هناك قذائف. احملوا جميع القذائف إلى هنا! كلها ولا تبقوا واحدة! أنا سعيد، لأنك حي، يا أوخانوف!

قال أوخانوف وقد رفع جسمه قليلاً على المتراس مثبتا مرة أخرى عينيه الحادتين للحظة واحدة في عيني كوزنيتسوف وقد اشتد توتر العرق على رقبته. متخططا بخطوط العرق:

ـ لم تصبْ رصاصة لي اذن، قُضي على الآخرين، و لم يبق أحد سوانا، يا ملازم؟

ـ قلت: الجميع إلى القذائف! جميع الأحياء إلى القذائف!..

الفصل الثاني عشر

في أواخر النهار أصبح واضحاً أن ضربة الألمان الرئيسية موجهة إلى نقطة التقاء جيش بيسونوف، بالوحدة المجاورة إلى اليمين التي لا تكاد تتحمل الضغط، وفي نهاية اليوم أصبح الوضع صعبا في قطاع فرقة الجناح الأيمن للعقيد دييف. في الظهيرة احتل الألمان جزءاً على الضفة الجنوبية من القرية بعد هجومات مستمرة، وفي هذه البقعة حاولت الدبابات عبور النهر في مكانين، للخروج إلى الضفة الشمالية لنهر ميشكوفا، ودق اسفينين في أعماق الدفاع، وتقطيع القوات السوفييتية التي كانت تدافع عن هذا الخطر وتطويقها.

كان بيسونوف جالساً في نقطة المراقبة التابعة للجيش، ينظر في خارطة منشورة على طاولة، ويستمع في التلفون إلى بلاغ جديد من الجنرال ياتسنكو، عندما دخل فيسنين عضو المجلس العسكري بادي الانفعال.

وفكر بيسونوف مع نفسه «أمر عجيب. إن فيه شيئاً من صبي ـ وهو يكاد يفهم ما يتهيًأ فيسنين لقوله الآن، قطع حديثه مع ياتسنكو، وفكر ـ بأي شيء جاء إلى نقطة المراقبة؟»

ـ أنا مصغ إليك، يا فيتالي ايسايفيتش.

قال فيسنين وهو واقف عند الموقد:

ـــ الدبابات شقت طريقها إلى الضفة الشمالية، يا بيتر الكسندر وفيتش! واستولى الألمان على بعض الشوارع في جزء من القرية واقع على الضفة الشمالية.

وهذا يرى بشكل جيد من نقطة مراقبة العقيد دييف. وقد بدأ القتال على هذه الضفة، وعلى وجه التحديد على بعد حوالي عشرة كيلومترات إلى الجنوب الغربي منا. وقد قرّر دييف أن يقوم بهجوم معاكس، وأشرك في الأمر فوج الدبابات المستقل بقيادة خوخلوف. ولكن حتى الآن لا توجد أية نتائج ايجابية...

قال بيسونوف في التلفون:

ـــ يا سيمون ايفانوفيتشن أنا منتظر أن أُبلّغ حالما يصل فيلق الدبابات والفيلق الآلي إلى منطقة التجمّع.

ـــ ووضع السماعة على الجهاز، وأسند يده عليه، وأضاف: ـ إن ممثل القيادة العليا قلق من الوضع عندنا. أعطونا فيلقا آليا بالاضافة إلى فيلق الدبابات، من احتياط القيادة العليا.

قال فيسنين:

ـــ يوجد ما يدعو إلى القلق. الوضع حرج للغاية... إن الألمان يضغطون بقوة جنونية.

فرك فيسنين يديه، وهز كتفيه المقوستين، وضرب قدما بقدم، وكأنما لم يتدفأ في السيارة، والآن فقط كان ينعم بالدفء، بعد الريح الزمهريرية الحادة في نقطة مراقبة العقيد دييف، حيث قضى زهاء ساعتين.

وكرر بيسونوف:

ـــ إذن، فقد شقوا طريقهم إلى الضفة الشمالية؟ في النصف المجاور

من المخبأ كانت أصوات جنود الاتصال تدندن، والتلفونات تطنُّ بلا انقطاع، وكان كل شيء يبدو، على حاله وبلا تغيير، بينما في هذا الجزء من نقطة المراقبة ساد سكون مفاجىء. أدار رقيب الاتصال ألكث الشاربين مقبض جهاز التلفون بحذر، مرسلا إشارة انتهاء المكالمة بعد حديث قائد الجيش مع مقر قيادة الجيش. وتحول إلى الهمس جندي اللاسلكي حالما أرسل في الأثير نداءات فيلق الجانب الأيمن، كان الميجور بوجيتشكو يمسح خزانة مسدسه بخرقة بادي السهوم، جالساً على مصطبة في ركن، ونظر نظرة حادسة إلى فيسنين، وبيسونوف، وأدخل الخزانة المصقولة إلى حد التلميع في قبضة المسدس ودفعه إلى الجراب وربطه بحيوية، مظهراً لبيسونوف بكل هيئة أنه مستعد لتنفيذ الأوامر. لم يلق بيسونوف التفاتا إلى بوجيتشكو، كان يجلس إلى المنضدة، واضعاً يده الصغيرة على الخارطة، وينقر باصبعه نقراً خفيفا، ثم استفسر:

ـــ تريد أن تقول، يا فيتالي ايسايفيتش، ان دييف لا يعتمد كثيراً على نجاح هجوم خوخلوف المضاد؟ هل جرى حديث عن هذا مع دييف؟

ـــ نعم، عن هذا أيضاً، يا بيتر الكسندروفيتش ـ أجاب فيسنين بذلك مبتسماً ابتسامة خفيفة. وكان مرحه متكلفا، في الغالب، إلا أن شيئاً آخر أصبح مفهوماً أيضاً: ـ إن العقيد دييف كان أكثر مسايرة وصرامة مع فيسنين منه مع بيسونوف، والظاهر أنه كان يخشى أن يكشف عن قلقه أمام قائد الجيش الجديد، فلم يبده إلا لفيسنين.

قال بيسونوف بصوت صارم:

ـــ عندما كنت في نقطة المراقبة، يا فيتالي ايسايفيتش، أبلغونا من مقر قيادة الجبهة أن الطيران الألماني زاد تحليقاته على التشكيلة المحاصرة. يلقي بالذخائر. يبدو أن الاستعداد يجري على قدم وساق لخرق الحصار للالتقاء بمانشتين. ما رأيك في هذا الشأن، يا فيتالي ايسايفيتش؟

قال فيسنين:

ــ أظن أن كل شيء سيتوقف على الظروف التي ستحصل هنا. ثمة مسافة ٤٠ كيلومترا من الطرف الأمامي لدفاعنا حتى ستالينغراد. سنقطعها دفعة واحدة في حالة شق الخط.

فقال بيسونوف مدقِّقاً:

ــ بالنسبة للتشكيلات المتحرّكة. غدا شق الخط، في هذه الحال، نعم.

ــ ائذن لي بالدخول، أيها الرفيق القائد.

وانزاح الستار الخيشي الذي كان يغطي المدخل إلى النصف المجاور، حيث كانت تشتعل مصابيح المركبات، ودخل غلاديلين نائب رئيس قسم العمليات مدفوعا بالضوء الساطع الملتطم على الكوة، وكان هذا برتبة ميجور في نحو الأربعين من العمر، جاد الهيئة يتفصد العرق على جبينه الأبيض العالي. في الوقت الذي نازعته نفسه لأن يقول في قلق انساني: «إن دبابات العدو دخلت القرية فعلاً، أيها الرفيق القائد!» انشأ يقول برباطة جأش مشدَّدة تليق برجل من هيئة الأركان، مجرب، فاهم جداً للشخص الذي يبلغه، ولما يبلغه به:

ــ أيها الرفيق القائد... أصبح معروفاً من الإخبارات الشفاهية التي نقلت قبل حين من الفوج الثاني والسبعين، والفوج السادس والثلاثين بعد الثلثمائة أن الدبابات الألمانية عبرت النهر قبل نصف ساعة، ودقت اسفينا...

ــ أعرف، يا ميجور.

قاطعه بيسونوف الذي انزعج بعض الشيء من هذا البلاغ المتأخر

لقسم العمليات، ومن صوت الميجور الباهت، وهدوئه الزائف الخالي من الحياة، وكأنه هو، قائد الجيش، بوجوده وحده هنا كان يجبر الناس على التزام الحذر والتكلف.

ــ أما كون الدبابات الألمانية قد عبرت النهر إلى الضفة الشمالية، فهذا واضح، كما يبدو. فماذا بوسعك أن تضيف على ذلك؟

ــ قبل ساعة دخل المعركة فوج خوخلوف المستقل، أيها الرفيق القائد. وبدأت الدبابات القتال، وهي تقوم بهجوم مضاد في الجزء الواقع على الضفة اليمنى من القرية، غير أن العدو لم يوقف، وهو يقرض في دفاعنا.

قال الميجور غلاديلين، ولمعت قطرات العرق على جبهته العالية الشاحبة بلحوظ أكثر. فقال بيسونوف في تذمُّر، وقد عجز عن كبح لهجته المنزعجة:

ــ يقرض، يقرض... أية كلمات جميلة!

كم دبابة؟ سرية، كتيبة؟ أم دبابتان؟

اجاب غلاديلين:

ــ هناك افتراض، أيها الرفيق القائد بأن الألمان أنزلوا إلى المعركة في النصف الثاني من النهار فرقة جديدة للدبابات. أظن أن ما يقرب من كتيبتين قد خرق خط الدفاع، بناء على...

ــ اضبطوا افتراضاتكم حالا!

قاطعه بيسونوف ثانية، وقد حرك القلم على الخارطة، رغم أن ملاحظة غلاديلين حول إنزال الألمان فرقة جديدة من الدبابات كانت تتفق مع افتراضه هو.

واستمر بيسونوف قائلاً:

ــ أرجو في المستقبل أن لا تستعجل ببلاغاتك قبل أن تتحقق من كل شيء. غالباً جداً ما نقع تحت تأثير الانفعالات الأولى. إذهب، يا ميجور.

خرج الميجور بهدوء، على رجلين مستقيمتين، وحتى علباؤه البيضاء ـ الشائبة قليلاً، وظهره كانا يكشفان عن خضوع مطلق. سحب ستارة الجيش. ثم رتب طرفها بعناية، ناظراً خلال ذلك إلى بيسونوف نظرة كامدة لرجل خائف في حضرته. وفكر بيسونوف مع نفسه أن نائب رئيس قسم العمليات غلاديلين هذا، الذي هو ميجور كهل، بقي مدة طويلة جداً في رتبته، التي لا تناسب منصبه المهم في هيئة الأركان أنه مرهف الحس وليس بالشخص البليد أبداً، إلا أن ليونة طبعه وتهيُّبه كانا يثيران في النفس احساساً شبيها بعدم الرضى.

صمت بيسونوف قليلاً، ومد يده إلى عصاه تلمّسا، وكانت مسندة على حافة المنضدة، ونهض معتمداً عليها. وفي الحال وثب بوجيتشكو الذي كان قبل ثانية، ينظر في أظافره وديعا، ورفع فروة بيسونوف التي كانت معلقة في مسمار قرب باب المخبأ. ومزح فيسنين، في الصمت الشامل، وهو يرتدي قفازيه:

ــ أنا في حالة الانذار، منذ زمان، يا بيتر الكسندروفيتش.

ونظر فيسنين إلى بيسونوف، وراقبه يحشر يديه في كمي فروته في اطيط، وقد رفعها له مرافقه.

اهتزت أرض المخبأ الترابية بقوة أشد بفعل الانفجارات، وتحرك القلم الأحمر على المنضدة المهتزة، وتدحرج على الخارطة.

ــ إلى نقطة مراقبة ديف ـ قال بيسونوف ذلك وهز رأسه لفيسنين هزة لا تكاد تلحظ ـ هل تذهب في سيارتي، يا فيتالي ايسايفيتش؟

ـــ نعم، لو سمحت. في سيارة واحدة أروح.

قال بوجيتشكو، وهو يتناول البندقية الأوتوماتيكية من المصطبة:

ـــ اتسمح لي أن أقول لتيتكوف، أيها الرفيق القائد؟

ـــ لا تأخذ حراسة معنا. دعها تبقى هنا. لا شيء تفعله هناك.

وتقدم بيسونوف من باب المخبأ.

قطعوا الكيلومترات العشر إلى نقطة مراقبة دييف بسرعة.

كان العقيد دييف موجوداً في نقطة المراقبة، في قمة المرتفع، واقفاً عند النظارة المزدوجة مع فريق من أمراء الوحدات، ينظر إلى ميدان المعركة وراء النهر. إن كل شيء هناك قرمزي، محطم، تلوثه توهجات الانفجارات ونيران الطلقات بألوان شتى ولكن ما إن دخل بيسونوف الخندق العميق لنقطة المراقبة، واتخذ أمراء الوحدات هيئة الاستعداد أمامه. ورفع جنود المخابرة رؤوسهم، وهم جالسون إلى تلفوناتهم، وصدر صوت ينبه دييف من ورائه ناطقاً «القائد!» حتى ابتعد دييف عن النظارة بسرعة، واستعد لتبليغ القائد مالئا بالهواء صدره تحت الحمَّالة المشدودة على فروته.

كانت ريح شديدة تصفر على المرتفع، وتعصف، وتنثر أصوات الطلقات. وجميع الوجوه حمراء من الشفق، ساطتها الريح، يرتسم عليها انتظار هالع، وفي الوقت ذاته شعور بالذنب لا يكاد يلحظ، ازاء الوضع الذي نشأ في قطاع الفرقة. مرر بيسونوف بصره على الوجوه، وأوقفه على دييف. فأخذ هذا يبلغه بصوت عالي النبرة فتي:

ـــ أيها الرفيق القائد! قبل ساعة شل الألمان البطاريات المتقدمة إلى الأمام في الضفة الأخرى، واخترقوا الخندق الأول، وعبروا النهر

بحوالي كتيبتين من الدبابات شرق المرتفع وغربه، وطلعوا إلى طرف القرية الواقع على الضفة الشمالية... وبدأ فريق من مطاردي الدبابات يقاومها. وأنزل إلى المعركة فوج من الدبابات... ـ وفجأة تعثر الكلام في لسان دييف ـ نشأ وضع خطير في جناحي الفرقة، أيها الرفيق القائد.

قال بيسونوف:

ـــ اعرف، يا عقيد. فقط أن تتمّ كلامك إلى النهاية. هل خطورة الوضع تتعلق بحركة التفاف جناحيه أم عملية التفاف من المؤخرة؟ هكذا، على ما يبدو؟ يقطعون الجناحين؟ أظن أنك قد درست مثل هذه المصطلحات في الأكاديمية؟

ـــ أنا لم أنه الأكاديمية، أيها الرفيق القائد.

ـــ لم تنهها؟ مع الأسف.. بالمناسبة ـ وهنا تذكر بيسونوف بتداع مفاجىء، حديثا قديما جداً على ما يبدو، في القيادة العليا عن أعوام دراسته في الأكاديمية، أسئلة عن الجنرال فلاسوف. غرز عصاه في الأرض، وتقدم من النظارة المزدوجة، واستأنف كلامه: بالمناسبة أن ذلك غير مهم جداً الآن، يا عقيد ـ والتفت إلى أمراء الوحدات الذين تجمعوا صامتين من مختلف أطراف الخندق، وقال:

ـــ إذا، قد اتُّخذ القرار، يا دييف يجب أن يقوم فوج خوخلوف للدبابات بهجوم مضاد وطرد الدبابات من رأس الجسر. واستدعاء فوج مدافع الهاون النفاثة كله إلى هنا أيضاً. وأبلغْ أمراء أفواج المشاة أمري الشخصي. ونظر بيسونوف مرة أخرى إلى دييف، وكأنما يفرز كل كلمة ببصره كالرصاص: على الأفواج أن تقاتل في كل الظروف. إلى آخر قذيفة. إلى آخر رصاصة. والشيء الأهم أن يسمِّر الألمان، وتسحق الدبابات. بكل الوسائل. أنا لا أعطي حقاً في التراجع! وأرجو أن

تتذكروا ذلك في كل لحظة! أهذا واضح، يا عقيد دييف؟ هذا كل ما في الأمر الآن. سأظل معك في نقطة المراقبة حتى نهاية المعركة. يجب البقاء في المواقع التي نحتلها إلى آخر رجل. السبب الموضوعي الوحيد للخروج من الموقع يمكن أن يكون واحداً للجميع دون الاستثناء، وهو الموت...

وقف بيسونوف عند النظارة، وحشر رأسه في ياقته، وراح ينظر إلى الأسفل إلى ميدان المعركة أمام المرتفع. كان الشفق قد نشر لونه الدموي على كل شيء: على العراء وراء تعرجات النهر الوردية قليلاً، المرقّش بسواد الجليد الفاحم الممزق بالقنابل والقذائف، وعلى الضفة العالية التي كانت تطلق منها بطارياتنا النار بلا انقطاع، وعلى منحدرات المرتفعات القليلة الانحدار وراء الوحدة الواسعة إلى يسار القرية، حيث كانت طلقات الدبابات تلمع في الدخان المنبسط على الجبهة. وكان كل شيء يتشابك، ويتحرك، ويتشربك في نيران صغيرة وكبيرة، ويجرجر على الأرض أذيالاً حدادية مائلة لحديد محترق، وزيت محترق، وبنزين. وكأن الثلج ملتهب من الحرائق ومن الشفق.

إن هذه الفوضى، وهذه الشربكة التي أثارتها القذائف الكشافة بالقرب من الشاطىء، وعلى مسافة غير بعيدة أمام المرتفع الذي تقع عليه نقطة مراقبة الفرقة ـ كل الوضع المنظور للمعركة، والذي لا تميزه العين جيداً في الدخان وراء المرتفع، في الجزء الشمالي من القرية، في البقعة التي خرقتها الدبابات الألمانية التي كانت هاونات «الكاتيوشا» تصوب نيرانها عليها منذ وقت قصير، كان هذا الوضع كله يبدو لبيسونوف واضحاً محدداً جداً: حتى جعله يفكر بأن الوضع الحرج تقريباً قد جاء، على ما يظهر، وحلت مرحلة الذروة في المعركة، حين بلغ الوتر المشدود منتهاه وهو موشك على الانقطاع بين لحظة وأخرى.

وترددت أصوات من الخندق: «القائد مطلوب على التلفون!» فتلقّفها بوجيتشكو في الحال، ونادى:

ـــ أيها الرفيق القائد، يطلبونك!..

خمّن بيسونوف بأنه ياتسنكو، وتحرك متخوفاً، وفكر مع نفسه «منذ مدة لم يجر اتصال. ماذا عندهم هناك؟ ماذا سيقول ياتسنكو الآن؟»

الفصل الثالث عشر

كان كل شيء مكتوما في المخبأ تحت ثلاث طبقات من الجذوع. كانت أصوات المعركة تنفذ من خلال سمك الجذوع والتراب ضعيفة بشكل ملحوظ. وكان كلام الناس هنا يتردد طبيعياً. وكان مصباحا كيروسين معلقان يشتعلان، وكان الوقت ليلا. وكانا يهتزان اهتزازاً رتيباً كبندولين تحت الطبقات السميكة ويضيئان بضوء أصفر الوجوه غير الحليقة، والخرائط، وأجهزة التلفون على منضدتين.

وضع قائد المدفعية الذي كان يتحدث إلى آمر فوج الهاونات النفاثة سماعة التلفون على الخارطة، ودار نصف دورة مبتعداً عن المنضدة، يريد أن يبلغ، إلاّ أن بيسونوف أوقفه بإشارة من رأسه، وسار وسط نظرات جنود الاتصال المتتبعة إلى حجرة قصية فيها تلفونات وجهاز لاسلكي كانت على اتصال بقيادة الجيش.

... ولم يكن بيسونوف مخطئاً في ظنه، فقد كان يطلبه في التلفون اللواء ياتسنكو رئيس هيئة الأركان. وهنا، في حجرة المخبأ هذه، حيث نصب جهاز لاسيلكي وخط سلكي بقيادة الجيش وبالفيالق كان يوجد رئيس استطلاع الفرقة المقدم كوريشيف. وكان يقف بالقرب من منضدة صغيرة وقد ارتسم الجد على وجهه الذكي الداكن من الهموم والارهاق. وكان يتحدث في التلفون مع ياتسنكو مكرراً بنبرة رتيبة:

«نعم، يا رفيق خامس. فهمت، يا رفيق خامس» وأصابعه الصفراء من التدخين تدحرج القلم على الخارطة. وكان جنجي اللاسلكي غير الملحوظ في الظل يجلس في زاوية، منكبا على جهاز اللاسلكي بهدوء، وكأنما بظهره وعلبائه كان يستمع إلى هذا الحديث مع نقطة قيادة الجيش.

قال المقدم كوريشيف: يطلبونك، أيها الرفيق القائد. ومدَّ السماعة إلى بيسونوف.

تردد صوت ياتسنكو القوي الاستعراضي واضحاً، كالعادة، ورغم أنه أبلغ بنتيجة الموقف في نهاية النهار بلغة عسكرية حرفية معقدة، لغرض الحيطة المعمول بها خلال المحادثات التلفونية، فإن بيسونوف نقل الحديث بسهولة إلى اللغة الاعتيادية. إن الألمان مستمرون في هجومهم كالسابق على جناحي الجيش الجنوبي والشمالي مع مساندة قوية من الجو. وفي المساء لم تنقطع الهجمات، ولم تخف، وبضربة قوية من أكثر من ستين دبابة لفرقة الجناح الأيسر تمكنوا من التضييق بعض الشيء. وتجري الآن معارك ضارية في قلب خط الدفاع الأول، حيث توغل الألمان فيه ما بين كيلومتر ونصف وكيلومترين. واقتضى الأمر اشراك لواء المشاة الآلي ولواء للدبابات من الفيلق ١٧ الآلي الذي يحمي الجناح الأيسر، إلا أن الوضع لم يصلح بعد. أما في مركز دفاع الجيش فيمكن اعتبار الوضع مستقرا. واحتياط القيادة العليا ـ الفيلق الأول للدبابات والفيلق الالي الخامس ـ لم يصلا بعد إلى منطقة التمركز. وقبل بضع ساعات التقط رجال استطلاع الجبهة برقية لاسلكية من تشكيلة الجيوش الألمانية المسماة «الدون» التي يجب أن يفترض أن مقر قيادتها في نوفوتشركاسك الآن، مرسلة إلى مقر قيادة باوليوس تقول: «اصمدوا. النصر قريب. نحن قادمون للنجدة. استعدوا لإشارة عيد

الميلاد عن الطقس». ومن الصعب بعد معرفة ما تعنى العبارة الأخيرة. ربما المقصود منها الضربة المقابلة لتشكيلة باوليوس المحاصرة للالتقاء بدبابات مانشتين. فقد كان ملحوظا جداً نشاط طائرات النقل الألمانية، تلقي لباوليوس بالوقود، والذخائر، رغم أن طائرتنا تحاصر المطارات الألمانية بشدة. وقد لوحظ في التشكيلة المحاصرة تحرك الدبابات نحو الجزء الجنوبي الغربي من «المرجل». إلى منطقة مارينوفكا.

لم يقاطع بيسونوف مرة واحدة تقرير الجنرال ياتسنكو المفصَّل بحذلقة. أسند عصاه على حافة المنضدة، وقف صامتا، واضعا يده على جهاز التلفون. عندما ظهرت في صوت رئيس الأركان نبرات الختام، عندئذ فقط، ربط بيسونوف ابزيم ياقته، وجلس إلى المنضدة، وسأل بعد تريّث:

ــ هذا كل شيء عندك؟

وقال، وقد حزر جوابه مقدما:

ــ أوضح من الواضح أن الضربة الرئيسية يوجهونها هنا، والضربة المساعدة إلى اليسار.

ــ أنا أيضاً أعتقد أنهم يريدون أن يشقوا ممراً إلى باوليوس خلال تشكيلات دييف. أظن أن مانشتين لن يغير تكتيكه. سيشقُّ دفاعنا في منطقة واحدة ضيقة، وفي أقرب نقطة نحو الهدف.

ــ أنا متفق معك.

ــ سأحاول أن أعرف بتفصيل أكثر ما عند باوليوس الآن. ما هو وضع قواته المتحركة؟ وهل هو قادر، بالفعل، على شق طريقه للقاء مانشتين؟ هذا شيء ليس قليل الأهمية الآن، يا بيتر الكسندروفيتش.

فقال بيسونوف مؤكدا:

ــ هذ أكثر من مهم ـ ثم اضاف ـ ويهمني أيضاً متى سيصل الأول والخامس، أخيراً؟ استعجلهم!

ــ أنا أستعجلهم طوال الوقت، يا بيتر الكسندروفيتش! قال ياتسنكو بصوت عالي النبرة مبهور الأنفاس من الانفعال والكدر على أن الفيلق الآلي وفيلق الدبابات اللذين ألحقا بالجيش لم يصلا حتى الآن إلى منطقة التمركز المعينة لهما. وسأل:

ــ متى سننتظرك عندنا؟

ــ لا تنتظروا الآن. هنا حجر العثرة، على حد تعبير الناس.

سعل ياتسنكو، وتريث برهة. ثم ترددت أنفاسه في التلفون صخباً:

ــ ولكن، حسب الوضع، لا ينبغي لك أن تبقى كثيراً عند دييف. ستعرض نفسك... ليس لي الحق، في الحالة هذه، أن أنصحك. ولكن قد يكون من الصح أن تنتقل إلى نقطة المراقبة التابعة للجيش.

قاطعه بيسونوف غير مستمع له ومقلصا عينيه:

ــ أرجوك، يا سيمون ايفانوفيتش أن توجه عنايتك كلياً إلى الجناح الأيسر، ما دمت أنا هنا. هجمات مضادة بلا انقطاع!

ومرر أصابع يده اليسرى على جبهته، كانت الأصابع رطبة، مرتجفة من التعب. وكانت قدمه المتخدرة من الألم ترتجف أيضاً، وكان قد لواها في وضع غير مريح، بعد أن سقط في قاع خندق الاتصال أثناء قصف الهاونات السداسية المواسير.

وضع بيسونوف السماعة، وجلس وقتا طويلا وكأنه غارق في تفكير ساهم، باسطا رجله تحت الطاولة بحذر، وكان ينتظر أن يزول

الألم، ويستطيع أن ينهض، إلا أن الألم لم يبرخه.

وسأل بيسونوف المقدم كوريشيف محاولاً أن ينشغل عن الاختلاج الحارّ في ركبته:

ـــ ألم يقل شيئاً جديداً رجل الاستطلاع ذاك الذي استطاع أن يفلت؟ هل عاد له وعيه؟

أين هو؟

تكلم المقدم كوريشيف، وهو ينظر في الخارطة المرصعة بالاشارات، دون أن يبدي في صوته الارهاق البالغ لرجل قلق وقتا طويلاً.

ـ عندما جلبوه من البطارية كان في شبه غيبوبة، أيها الرفيق القائد. وكان من الممكن أن يفهم المرء من كلماته أن رجال الاستطلاع الآخرين قد اكتشفهم الألمان في طريق عودتهم من الاستطلاع، واشتبكوا في معركة، وانحصروا مع الأسير الذي أخذوه في مكان أمام خنادق الحراسة الأمامية. وقد أرسل العائد إلى كتيبة الاسعاف، ولكم من المشكوك أن يقول شيئاً جديداً... نعم، وأنا أتحمل المسؤولية الكاملة على عملية الاستطلاع هذه.

قال بيسونوف ضارباً كفه على المنضدة ضربة خفيفة:

ـــ كَفَّ عن تقريع النفس هذا. إن ذلك لا داعي له، وغير مناسب، البتة، يا مقدم. إنه لا ينفعك ولا ينفعني. لا يوجد لدينا أسرى ـ والآن لا يمكن أن يكونوا ـ الألمان يهاجمون، وأنا بحاجة إلى ألماني جدّيّ معتبر حسن الاطلاع. فماذا نفعل، يا مقدم؟

ـــ هل تسمح لي بمهلة من التفكير، ايها الرفيق القائد؟

نقر بيسونوف على المنضدة بأصابعه، ورأى المقدم كوريشيف يزيح

كتل التراب المتساقطة من تحت الجذوع عن الخارطة بحافة يده بتؤدة وعناية، وكأنها فتات خبز. وقد بدا ذلك لبيسونوف غير طبيعي، وغير لازم، مثل عملية استطلاع فاشلة، مثل الألم الممض في قدمه، وإذا به يفكر مع نفسه: «لو شربت شيئاً من الفودكا لصفا رأسي، وانكمش الألم، وسرى عني!» إلا أنه استغرب في الحال من أن تكون لنفسه هذه الرغبة المفاجئة، هذا التفكير في التسري، وظل في جلسته يعاني في ركبته ألما لاذعا غير مبارح، يعيقه عن التركيز ويغيظه.

كفّت الهاونات السداسية المواسير عن ضرب نقطة المراقبة، إلا أن المخبأ كان يترنّح، كالرمث في الظلمة، وسط قذائف المدافع والانفجارات التي كانت تهزّه، وسط موجات الرشاشات المتلاطمة بلا انقطاع إلى الأمام في الظلمة. ولسبب ما استطاع بيسونوف أن يميز بين الأصوات المكتومة بجذوع السقف لهدير الدبابات والدمدمة المتتابعة المحتدمة للبندقية الأوتوماتيكية التي كانت تكتنف المرتفع من شمال وجنوب حسبما تتبيّنها الأذن، فيبدو المرتفع وكأنه فصل عن الجيش، وعن الفيالق، والفرق أي عن العالم المحيط أجمع.

ــ ... لكن قلت لك، حتى ولو أطلقت رصاصة بنفسك من مسدسك. هل فهمت؟ دع الدبابات تمر عبرك، ولكن اصمد، مفهوم؟

رفع بيسونوف رأسه، وقدد استطال وجهه، وارتسم عليه العذاب. في النصف الثاني من المخبأ كانت التلفونات تطن، وترن يقاطع بعضها بعضا، والأصوات المتوترة تنفذ، وصوت دييف الجهوري القوي يعلو على هذه الضجة هاتفا بالأوامر مخلوطة بالأسباب والتهديد:

ــ إذا تقهقرت ميلمترا واحداً فمن الخير أن تضع بنفسك رصاصة في جبهتك، مفهوم، يا تشيريبانوف؟ كل المدفعية عندك، وجميع

القوى المضادة للدبابات كل شيء عندك! أعرف أنهم يحاصرون. فهل نستغيث؟ اصمد، ولو زهقت روحك! لا دبابات أخرى ما دام المعبر قد هدم! أنت تهذي؟

سمع بيسونوف ذلك، وأدرك أن تشيريبانوف آمر فوج المشاة قد أبلغ بأنه محاصر من الجناحين بالدبابات، وأنه يقاتل في شبه حصار، وكان يطلب دعما، إلا أن دييف لم يعده بعون، ورد عليه بكلمات حانقة، ونصحه في موقف الموت أن يستنجد بالموت. إذا لا يصمد... بينما كان بيسونوف جالساً في هذه الحجرة المنفصلة يعاني الألم في ركبته، ولا يملك الحق في التدخل فلم يخرج. وكان دييف ينفذ الأمر الذي أعطاه هو نفسه الصمود إلى آخر رجل. حتى يكون على بيسونوف الآن أن ينظر في عينيه المنتظرتين ايضاً غوثا له ولفرقته ـ رغم أنه كان يعرف اهمية هذا الأمر القاطعة لأفواجه التي كانت تتلقى كل ضربات الدبابات المخيفة، التي أرادها القدر، كما يحدث ذلك في الحرب، حيث لا خيار.

صاح دييف متحولاً إلى نبرات الاستماتة ـ تشيريبانوف لا تستجد كشحاذ. وتصورني لا أفهم! قلت لك كل شيء! إربط صرتك بثلاث عقد، واصمد في مكانك. المدفعية تساندك بكل قواها! إذا كنت لا ترى، فأنا أرى! لا تتباك، وتذرَّع بالصبر! اصمد مثل فتاة عفيفة. استعمل أسنانك وأظافرك، ولكن اصمد. لا تتلفن بهذا الخصوص مرة أخرى! لا أريد أن اسمع!

وطاف في ذهن بيسونوف «أن دييف ينفِّذ أمري، ولكن ماذا يفكر وهو يصدر هذه الايعازات؟»

ولثانية التقت عيناه بنظرة رئيس قسم الاستطلاع الذي كان واقفاً قرب الطاولة صامتا بلا حراك. وكان قد كفَّ عن ازاحة كتل التراب من

الخارطة. كان على وجهه الذكي المتعب ما ينمُّ عن ادانة غير مفصح عنها مشوبة برجاء لعون. كان يفهم وضع الفرقة الآن فهما ممتازا، يفهمه من أصوات المعركة تلك، ومن أوامر دييف التي كان يصدرها من الحجرة الأخرى من المخبأ. مسح بيسونوف جبهته بباطن كفه، وقال شيئاً غير الذي كان يريد أن يقول، وغير الذي كان يفكر فيه:

ــ تحدَّث، يا مقدم، وأنا مصغ إليك.

بادر المقدم كوريشيف يقول بصوت موزون:

ــ أيها الرفيق القائد، يبدو أن إمكانية تطويق الفرقة قائمة.

ــ هل أنت واثق؟

- نعم، أعتقد. الدبابات تلتف حول نقطة المراقبة، أيها الرفيق القائد.

لبث بيسونوف جالساً دقيقة واحدة، ثم نظر إلى كوريشيف بتعب، وكأنما أفاق على نفسه، ثم نهض، وتكلم بفضول قاس:

ــ لا تُكمل قولك. أردت أن تقول إنا أنفسنا يمكن أن نصير «أسرى»؟ أهذا، على ما يبدو، أيها المقدم؟

شرح المقدَّم بنفس الصوت الموزون:

ــ انا أتحدث عن الموقف الموضوعي. بعد شيء من الوقت يمكن أن يقطع الألمان الاتصال. وعندئذ سنفقد خطوط التوجيه.

قال بيسونوف:

ــ شكراً، على هذه الكلمات الموضوعية، يا مقدم. وكفى. ما تزال خطوط التوجيه قائمة. وكما أن أمري بالحصول على أسير لم ألغه بعد، حتى لو أسرنا أنا وأنت. وهو أمر مؤسف جداً.

ورفع سماعة التلفون:

ــ أعطني قائد المدفعية.... الخط يعمل. هذا شيء ممتاز. أعطني لوميدزه.

وفيما بعد، عندما جاء في السماعة الصوت الحلقي، صوت الجنرال لوميدزه، قائلاً بلكنة جورجية: «جنَّ الألمان عندكم كلياً، أيها الرفيق الأوّل...» قاطعه بسؤال:

ــ هل هناك امكانية استخدام الفوج الثاني والأربعين للهاونات النفاثة باتجاه دييف؟

ــ سأصدر أمري، يا بيتر الكسندروفيتش. هل نستخدمه ضد الدبابات؟ هل فهمتك صحيحاً؟

ــ فهمت صحيحاً.

لم يتوقف بيسونوف في النصف الثاني من المخبأ الذي كانت التلفونات تدندن فيه. وقد امتلأ جوُّه بدخان السكائر، فكان مثل ضباب يمامي اللون، تتحرك فيه شخوص الضباط. ما إن لمح قامة العقيد دييف المديدة بين رجال قسم العمليات حتى دفع الباب بعصاه، دون أن يتفوه بكلمة، وخرج من المخبأ. وتبعه مرافقه الميجور بوجيتشكو...

كان المرتفع يصفر تحت ضربات الريح، تحت زمزمات المعركة، فكان تارة يبدو وكأنه يرتفع نحو السماء المنورة، مضاءً بوابل الصواريخ المتكسر، وتارة يسقط في الظلام. كانت الأضواء والظلال السريعة تتابع عليه، مرتعشة في الخندق، مضيئة الوجوه، ثم تنطفىء، قاذفةً الظلمة في الأبصار لمحة واحدة.

ــ أيها الرفيق الجنرال! أرجوك أن تأتي إلى المخبأ! إلى المخبأ أرجوك!

هتف بذلك بوجيتشكو، وقفز من مكانه، واندفع إلى خندق الاتصال، محذراً شخصاً ما بصيحة ضاربة:

قف! من أنتم؟

وهناك، في الأسفل، في خندق الاتصال سرت ضجة حركة، وترددت صيحات الحراس المذعورة، ثم تجمهرت ظلال في الممر الضيق. ركض بوجيتشكو إلى عطفة الخندق، وقد أعدَّ بندقيته الأوتوماتيكية للاطلاق، وهتف ثانية بتهديد عتيق:

ــ قف! سارمي! من أنتم؟

سكت كل شيء هناك، وكفت الظلال عن الحركة، وأعلن صوت الحارس وحده من الأسفل:

ــ من أركان الجيش يريدون القائد. هل أسمح لهم؟

ــ إنتظر!

أوقفه بوجيتشكو بهذا القول، وركض إلى الأسفل، وأمعن النظر.

صاح صوت آخر من خندق الاتصال:

ــ من هذا الآخر الذي يأمر؟ ماذا يعني «انتظر»؟

ــ أهذا أنت، يا بوجيتشكو؟ لماذا تزعق على جماعتك، وكأنما مقذوف من مسمار؟ أين القائد؟ أين عضو المجلس الحربي؟

قال بوجيتشكو ممطوط اللهجة وضحك:

ــ هذا أنت، أيها الرفيق العقيد! ظننت أن الألمان يتسللون! ما قدومك إلينا، أيها الرفيق العقيد؟

ــ جننت؟

ـ أحن إليك منذ زمان، يا ميجور بوجيتشكو. صوتك الجهوري لا يؤهلك لأن تكون مرافقا، بل آمر فصيلة مشاة. أين الجنرال، هل هو هنا؟ أين عضو المجلس الحربي؟

ـ هكذا ولدتني أمي، أيها الرفيق العقيد... ممكن أن أكون آمر فصيلة أيضاً، لن أضيع... إنهما هنا، تفضل.

خرج العقيد أوسين رئيس استخبارات الجيش من خندق الاتصال إلى الخندق، نافضاً ثيابه بلا اهتمام، وأسرع يصلح حزامه، وقراب مسدسه، ومحفظة الميدان. وكانت جميعها قد انحرفت عن أماكنها. وكأنما كان يركض ويسقط، ويزحف طويلاً على كثبان الثلج. وكان مرافقه المسلح ببندقية أوتوماتيكية، المسربل بالثلج من رأسه حتى قدميه وكأنما قد غاص فيه، رجلا صغير الجسم، مترهّلا، لاهث الأنفاس، يطأطئ رأسه عند كل رشقة زاعقة، وقد وقف وراء العقيد يساعده في تنظيف اللطخات البيضاء الملتصقة على ظهره وجنبيه. وكان بوجيتشكو يتطلع إليهما تطلعا لا يخلو من اهتمام، ويبتسم ابتسامة خفيفة. وفي الوراء، في الخندق، كان ثلاثة آخرون يضربون الأرض بأقدامهم لاهثين، هم الميجور تيتكوف القصير الجذع، الحديدي البنيان كمصارع، واثنان من حملة البنادق الأوتوماتيكية طويلان ركينان، من حرس بيسوف الذين تركهم في نقطة المراقبة التابعة للجيش.

سأل بوجيتشكو بدهشة وغيرة في الوقت ذاته:

ـــ وأنتم أيضاً قد وصلتم، يا أولاد؟ هل استدعيتم؟

ـــ ما هذا الفضول؟ أنت تريد أن تعرف الكثير مما لا لزوم له، يا بوجيتشكو ـ قال أوسين ذلك قاطعاً الاستجواب، وبعد أن هدأت أنفاسه دفع يد مرافقه التي كانت تمسح فروته معتنية، قائلاً: كفى، يا

كاسيانكين، كفى! ستمزّق جبينك من شدة المجاهدة! لا تدخل معي، وانتظر هنا! ابقَ مع الحرس - وأشار برأسه إلى داخل الخندق - يا ميجور بوجيتشكو، دلني على عضو المجلس الحربي.

ـــ أين مخباه؟

ـــ إنه مع قائد الجيش، أيها الرفيق العقيد، في نقطة المراقبة.

ـــ قدني، يا ميجور!

حث أوسين آمرا، وسار خلف بوجيتشكو بعزيمة وبمشية واسعة، ووقار من يعرف قيمة نفسه، ويؤدي واجبه بجدية وبلا لغط. وعندما كان أمراء وحدات الفرقة الذين لا يعرفونه يلتقون به في الخندق كانوا يصاحبونه بنظراتهم مخمنين شخصيته، والأمر الذي جاء به في هذه الساعة.

حينما وصلا إلى بيسونوف الذي كان منكبا على عدستي المنظار، وأعلن بوجيتشكو وصول رئيس الاستخبارات بشيء من الاستغراب المرح، تحركت دفتا بيسونوف على ظهره الضيق، والتفت معتمداً على عصاه، وتفرس في وجه أوسين القوي الوجنتين، الملتمع بالعرق، وكأنه لم يعرفه، وبعد أن تريث قليلاً قال على غير ثقة:

ـــ لا أفهم... لماذا أنت هنا، على وجه التحديد، يا عقيد؟

أجاب أوسين بنطق ذلق مبتسما ابتسامة عذبة واسعة، ماسحا العرق عن خديه بكفه:

ـــ وددت أن أرى ما يجري عندكم، أيها الرفيق القائد! الجميع يتحدثون عن الوضع في قطاع ديف، فلم اصطبر. في البداية ركبت السيارة، وفي القرية هنا زحفت زحفا، ونططت نطا... وصلت

بمغامرات، الطلقات كانت تأتيني من كل الجهات. ولكن الأمر انتهى بسلام!

سأل بيسونوف:

ـــ هل جئت من مقر قيادة الجيش رأسا؟

ـــ ركبت من مقر القيادة إلى نقطة المراقبة التابعة للجيش. ومن هناك إلى هنا رأسا ـ وراقب أوسين تدفق خطوط القذائف الكشافة فوق المرتفع، وتلاشت الابتسامة من شفتيه العريضتين، وقال:

ـ انظروا ما يفعل هؤلاء الألمان! أحقاً أنهم يأملون في شق طريقهم إلى باوليوس، أيها الرفيق القائد؟

أجاب بيسونوف باقتضاب، غير ميال إلى التفسيرات، وهو ما يزال غير فاهم السبب في قدوم هذا العقيد القليل التعرف عليه والذي لم يكونوا بحاجة إليه هنا على الاطلاق:

ـــ لست على خطأ، يا عقيد.

ـــ أهذا أنت، يا رفيق أوسين؟ سأل فيسنين هذا السؤال وقد حيَّره أيضاً قدوم رئيس الاستخبارات المفاجىء، وخرجِ إليه من ظلام الخندق، ومس بأصابعه جسر نظارته، ورفع حاجبيه سائلاً:

ـــ أي شؤون لك هنا، في نقطة المراقبة؟ هل هناك شيء مهم؟

ـــ أيها الرفيق عضو المجلس الحربي...

و لم يتم أوسين عبارته، وارتسم الجد فجأة على وجهه المدور المعافى، وألقى ببصره تحوطاً عبر كتفه إلى الوراء، ناظراً إلى أمراء الوحدات في الخندق، وإلى بوجيتشكو الذي كان يلعب. ويطقطق بحزام بندقيته الأوتوماتيكية، مستقلا بنفسه، مسندا كوعه على قومة. قال أوسين دون

أن يتمَّ فكرته إلى النهاية:

ــ أيها الرفيق عضو المجلس الحربي، أنا افهم أنني زائر نادر في نقطة المراقبة، على أية حال... لا أريد أن أضايق القائد، هل تسمح لي بالتحدث معك؟ الحديث يستغرق ثلاث دقائق لا أكثر.

الفصل الرابع عشر

كان المخبأ الصغير الذي حفره رجال المدفعية، كما يبدو، في نهاية الخندق، خالياً، تفوح منه رائحة أرض فقدت حرارتها. وكان مصباح كيروسين يشتعل معلقاً في الأعلى، وكان ما يتساقط من تحت جذوع السقف من قطع التراب الصغيرة يدق بزجاجة المصباح، ويجعله يهتز اهتزازاً خفيفاً.

جلس فيسنين إلى منضدة صنعت من صناديق المدافع، وألقى على سطحها علبة سكائر، وقال، وهو يتناول منها سيكارة:

ــ أنا مصغ إليك، يا رفيق أوسين. أرجو أن تشرح لي بطريقة ملموسة أكثر، إذا كان ذلك ممكناً. ألقى العقيد أوسين نظرة خاطفة على المخبأ، وأركانه المظلمة، ولمس بيده المشمع الملقى على الرف بالقرب من قرابي البوصلة والمنظار، ثم سحب الستارة على المدخل، وعندئذ فقط، جلس إلى المنضدة، وخلع قبعته، وفك ابزيم فروته العلوي. كان يستشعر حراً، وما يزال عرقا بعد النط والزحف في الثلج، وأنشأ يتحدث مخفضاً صوته.

ــ أيها الرفيق عضو المجلس الحربي، اعذرني على هذا السؤال غير اللازم: كيف تقيِّم شخصياً وضع الفرقة، في اللحظة الراهنة؟

سحق فيسنين السيكارة ليخلخل التبغ فيها، وأشعلها، ومصَّ نفساً، وقال:

ـــ وهل المسألة غير واضحة حقاً؟ أنت نفسك، في أغلب الظن قد تأكدت كيف تطور الوضع في الفرقة نحو المساء. فلأي غرض هذا السؤال.

انتصب العقيد أوسين وراء المنضدة.

ـــ تأكدت بنفسي، أيها الرفيق عضو المجلس الحربي...

ـــ أنا مصغ لك، مصغ.

قال ذلك فيسنين، ومصَّ سيكارته، لا ليوقف أوسين، بل ليستعجله، وبعد أن نفث الدخان في نار المصباح الكيروسيني، هز رأسه له، وهو ما يزال في واقع الأمر غير فاهم السبب في قدوم رئيس الاستخبارات.

مرَّر العقيد أوسين جمع يده على جبينه مفكراً، وكان شعره الأشقر المجعد ملتصقاً ووجنتاه البارزتان الحليقتان جيداً تبدوان كالقرميد الأحمر.

استنشق الهواء من انفه، وتكلم بصوت سرت فيه قوة:

ـــ أغلب الظن أن قدومي يبدو غريباً، أيها الرفيق عضو المجلس الحربي. ولكن لست أنا وحدي متخوفاً من وضع فرقة ديف في الوقت الراهن. لقد سمعت رأي الجنرال ياتسنكو، وغولوبكوف عضو المجلس الحربي للجبهة.

رفع فيسنين حاجبيه وقال:

ـــ ما الخبر؟ ماذا قلت عن غولوبكوف؟ هل هو في مقر قيادة الجيش؟ هل التقيت به؟

ـــ نعم، إنه وصل... وهو أيضاً عبَّر عن تخوفه بشأن الوضع المعقد للفرقة. وغولوبكوف الآن ليس في مقر القيادة، بل في نقطة المراقبة

التابعة للجيش. أراد أن يراك، أيها الرفيق عضو المجلس الحربي، ولكنك هنا...

ومسّد العقيد أوسين بيده الكبيرة سطح المنضدة الخشن يمنة ويسرة، وابتسم لفيسنين معتذراً بعينيه الزرقاوين قليلاً، المتشبثتين، كما بدتا، بعيني فيسنين و لم تكن تنعكس فيهما تلك البساطة الريفية الوقائية التي لاحت لدى حديثه مع بيسونوف. بل كانت تشع فيهما الرغبة في حسن المعاملة، والتزام الحدود التي تفرضها العلاقات بين رئيس ومرؤوس.

ــ جرى الحديث حول المكان الأنسب لك ولقائد الجيش لتقودا المعركة منه الآن، وهو المكان الذي لا يهددكما فيه خطر، مثل نقطة المراقبة التابعة للجيش على سبيل المثال.

ــ وإذن؟ ننتقل من نقطة مراقبة الفرقة إلى نقطة مراقبة الجيش؟ الآن؟

ــ إفهمني بشكل صحيح، أيها الرفيق عضو المجلس الحربي. لماذا تغفلان، أنت وقائد الجيش، الحيطة إذا كان من الممكن ألا تغفلاها؟ أنا أعرف طبع قائد الجيش الذي ما كان ليسمعني، ولهذا أتحدث إليك، وأنت المسؤول الحزبي ذو النفوذ، حديثا صريحا للغاية.

ــ هكذا. تابع كلامك.

قال فيسنين ذلك مزيداً من انكبابه على المنضدة، ناظرا في حدقتي أوسين، ومع ذلك غير حادس كليا شيئاً لم يُتمّ رئيس الاستخبارات قوله، بسبب من التكتم المعتاد، كما يبدو، أو من الخوف أمامه، وهو عضو المجلس الحربي، المخوَّل صلاحية أكبر بكثير.

قال أوسين، وقد تقوس قليلاً حاجباه الأشقران:

ــ ليس هناك أسرار بالنسبة لك، أيها الرفيق قوميسار الفرقة. أنت

تعرف أية أحداث مفجعة وقعت في جبهة فولخوف في حزيران من هذا العام. أنت تذكر، بالطبع؟

ــ يعني؟

قال ذلك فيسنين، وأبعد نفسه عن المنضدة بدفعة قوية من أصابعه، وحشر يديه بجيبي معطفه الفرائي، وسار عدة خطوات في المخبأ، وأحس بقشعريرة مفاجئة، وقال دون أن يخرج يديه من جيبيه:

ــ لست افهمك كثيراً، على أية حال. هل تريد أن تتحدث عن جيش الصدام الثاني؟

ــ نعم، عن الأحداث في جيش الصدام الثاني.

فلا يمكن نسيان تلك... تلك بالذت ـ قال أوسين مؤكداً بعظمة، ونظر إلى جذوع سقف المخبأ، فقد كانت تقرقع بفعل الانفجارات القريبة، وكان المصباح يتأرجح يمنة ويسرة فوق الرأس، وقال أوسين: أنظر كيفّ الدبابات تقصف نقطة المراقبة طوال الوقت...

جلس فيسنين على المقعد قرب المنضدة، واخرج يديه من جيبيه بحركة حادة، وتناول علبة السكائر التي تناثر عليها التراب من السقف، إلا أنه دفعها في الحال، وفرك صدغيه وكأنه يهدىء صداعا، ونظر إلى أوسين فجأة، باندهاش وتفرُّس. اعتمل شيء في نفسه، فأحسَّ بأنه مستشاط غيظا، وبأنه يريد أن يضرب الطاولة بجمع يده في هذه اللحظة، إلا أنه اكتفى بأن قال محنقا:

ــ وما علاقة كل هذا؟.. هل أنت قلق، يا رفيق اوسين... تخاف أن يحدث ما لا يعرفه إلا الشيطان لبيسونوف ولي إذا تم تطويق الفرقة؟ من أين جاءك هذا الحذر؟

ـــ ما الداعي إلى ذلك، أيها الرفيق عضو المجلس الحربي؟

وأسبل أوسين رموشه الشقر، وراح يتحدث باخلاص وبتكدر:

ـــ لماذا تقول ذلك؟ أنا أعرف شجاعة الجنرال بيسونوف، وأعرفك، وأنا لا أستطيع أن أفسر لنفسي لماذا تعتبرني، وأرجو المعذرة، أحمق كلياً، أيها الرفيق عضو المجلس الحربي؟ أنا لا أود أن أُفهم فهماً غير صحيح.

ـــ وكيف تفهم؟

ـــ أنا أتحدث عن الطوارىء. ألا تعرف، لحد الآن، بالمصير المفجع لابن قائد الجيش الملازم بيسونوف؟

رجّت المخبأ انفجارات القذائف، وعاد المصباح إلى تأرجحه تحت جذوع السقف المقرقعة، وتساقطت كتل التراب الصغيرة مرتطمة بألواح الأرضية. ركض شخص في الخندق ماراً بالمخبأ، ضارباً الأرض بقوة، صارخاً بشيء ما وترددت أصوات جوابية مبهمة. غير أن فيسنين لم يعر التفاتاً للضجة المفاجئة في الخندق، وأجابه:

ـــ لا! أعرف، على العموم، أن ابن القائد فُقد في جبهة فولخوف. وأنت ماذا تعرف؟

أدار أوسين رأسه إلى مدخل المخبأ، وتنصت إلى الانفجارات على المرتفع، وإلى الأصوات في الخندق، ثم وضع على المنضدة، في غير ما حزم، محفظته العسكرية المنتفخة، الجديدة، الخالية من كل خدش، وفتحها. وخشخش الورق تحت أصابعه وهي تتصفحه.

ـــ تفضل اطلع، أيها الرفيق قوميسار الفرقة، على المعلومات الأخيرة، لقد تلقيت هذا المنشور من توي، وعزمت على أن أطلعك عليه في الحال.

تفضل...

خشخش المنشور الصغير خشخشة الفأر، وقد أخرجه أوسين بعناية من ملف للأوراق في محفظته، ومده إلى فيسنين عبر المنضدة فاستقر أمامه كالمستطيل الأصفر على سطح المنضدة غير المسحوج. غام بصر فيسنين للحظة، ثم أخذت تظهر أمام عينيه الصورة المطبوعة بشكل سيء على ورق رخيص، والحروف السميكة تحتها: «ابن قائد عسكري بلشفي مشهور تحت العلاج في مستشفى ألماني». والصورة تمثل فتى نحيلا وكأنه مصاب بداء مسقم، حليق الرأس كليا، يرتدي قميصا عسكرياً عليه شارة ملازم ثان، محلول الياقة لسبب ما ـ وقد لاحت بطانة الياقة الداخلية جديدة مخاطة بشكل معوج ـ يجلس على كرسي ذي مسندين وراء منضدة بين ضابطين ألمانيين أدارا وجهيهما له في ابتسامة كاذبة. كما أن الفتى يتبسم بغرابة وعذاب وينظر إلى كؤوس عالية وسط المنضدة الصغيرة، وقد ظهرت في الصورة عكازة أسندت على مسند الكرسي.

ـــ ألا يكون هذا تزويرا؟ أم هو ابن الجنرال بيسونوف فعلاً؟

سال فيسنين مقاوما نفسه، غير مصدق بعد، بأن هذا الفتى الحليق الرأس، الذي يبدو وكأن التيفوئيد قد أضناه، يمكن ان يكون ابن بيسونوف، وبعد سؤاله هذا حوّل بصره إلى أوسين، محذراً اياه بصمت من أن الخطأ لا يغتفر.

قال أوسين مطمئناً بهيئة جادة حادة، هيئة رجل يعرف الأمر الذي يتحمل مسؤوليته.

ـــ كل شيء صحيح، أيها الرفيق قوميسار الفرقة. الخطأ في مدلول الصورة مستبعد كلياً. اقرأ النص، أيها الرفيق عضو المجلس الحربي.

ومال أوسين بجذعه إلى الوراء، وصرَّ الصندوق تحته، وأرسل الزفير من أنفه.

مرر فيسنين عينيه سريعاً على النص القصير تحت الصورة، مستوعباً الفكرة بصعوبة وليس رأسا، معيدا عدة مرات قراءة العبارات المعروفة السموم، المشبعة بالرائحة الغريبة، الكذب الصارخ المفضوح، لمنشور اعتيادي من منشورات الدعاية الفاشية، وكان انتباهه يزيغ عن النص طوال الوقت، ولا يستطيع تركيزا، فكفَّ عن القراءة، ونظر إلى هذه الصورة المسودة كلطخة، وإلى الابتسامة المعذَّبة للفتى الحليق الراس، والعكاز الصغير المسند إلى ذراع الكرسي وإلى البطانة النظيفة المخاطة بانحراف، تحت الياقة المحلولة، وإلى الرقبة الفتية النحيلة البائسة، رقبة ابن الجنرال بيسونوف. وتوقف عند بعض العبارات: «ان ابن بيسونوف القائد العسكري السوفييتي البارز الذي يقود، كما هو معروف احدى التشكيلات منذ بداية الحرب، صرَّح لممثلي القيادة الألمانية، أن السرية القليلة التدريب، السيئة التسلح التي كان يقودها قد سيقت إلى المذبحة. وكانت المعركة الأخيرة لا تطاق... إن الملازم الثاني بيسونوف الذي جُرح جرحاً بليغاً، وقاتل بشجاعة وبعصبية تقريباً قد صرَّح أيضاً: «لقد جهدت كثيراً لأنني أرسلت إلى المستشفى وعولجت. ورأيت في المستشفى الكثيرين من الأسرى السوفييت. وهم يعالجون معالجة كاملة. إن دعاية القوميسارين السوفييت تبث الاشاعات حول فظائع الألمان الوحشية، وهذا ما لا يتفق مع الواقع. هنا، في المستشفى، سنح لي الوقت لأفهم أن الألمان أمة رفيعة الحضارة إنسانية النزعة تريد أن تقيم الحرية في روسيا، بعد إسقاط النظام البلشفي في روسيا...»».

وتردد صوت اوسين الجاد، وكان يراقب قراءة فيسنين الطويلة:

ــ هل قرأت، ايها الرفيق عضو المجلس الحربي؟

ــ أتسمح لي بأن آخذ المنشور؟

فكر فيسنين مع نفسه، وهو ما يزال غير قادر على أن يصرف بصره عن الصورة الرمادية غير الواضحة لهذا الفتى الضاوي الحامل رتبة ملازم ثان: «اذن، هذا ابن بيسونوف، وهو حي. إن هذا واضح الآن. وبيسونوف لا يعرف ذلك. ربما يحدس، ولكن لا يعرف؟ أي شيء هذا؟ إن النص مزور وهذا واضح تماماً. زائف دون شك. وهناك غير قليل من أمثاله. إن واحداً من الاخساء الذين وقعوا في الأسر معه دلَّ الألمان قائلاً إن آمر السرية هذا هو ابن جنرال. نعم، بهذا الشكل، على ما يبدو. بهذا الشكل في أغلب الظن. ولا يمكن أن يكون غير ذلك. وبعد هذا أدخل إلى المستشفى. وصوروه في أول استجواب، واختلقوا النص. لا يمكن أن يكون غير هذا! ذلك لأنه ابن مدرسة، صبي رباه الكومسومول، والسلطة السوفييتية! لا، أنا لا أصدق بشيء آخر، ولا يمكنني أن أصدق!

ــ أيها الرفيق عضو المجلس الحربي، إن هذا المنشور، كما تدرك بنفسك، لا يجوز أن يُخبر عنه. يعني... أرجو كثيراً الا يصل إلى أسماع القائد.

ــ إنتظر.

ــ «نعم، بيسونوف، بيسونوف... قال إنه أبلغ فقط بأن ابنه مفقود. ولم يرد اسمه في قوائم القتلى والجرحى... ما هو تاريخ هذا المنشور؟ ١٤ تشرين الأول ١٩٤٢. قبل حوالي شهرين».

ــ ايها الرفيق عضو المجلس الحربي. أرجو المعذرة. أعد المنشور لي. قد يدخل القائد إلى هنا فجأة. ليس لنا الحق في أن نجرح معنوياته...

«هل كانوا يعرفون ذلك في موسكو، أم لا يعرفون حين كان هناك بيسونوف؟ «هذا المنشور، كما تدرك بنفسك، لا يجوز أن يخبر

عنه»... «ليس لنا الحق أن نجرح»، يعني أن بعضهم بهذا الشكل أو ذاك يقي القائد من المأساة الحقيقية التي حلّت بابنه. ولكن لماذا؟ لأي اعتبار؟»ـ.

سأل فيسنين بصوت خافض:

ــ قل لي، يا رفيق أوسين، هل أنت تصدق هذا المنشور؟ هل تصدق أن هذا الغلام خان، وغدر؟

أجاب أوسين: «لا أظن» وشمر ذارعه احتقارا، ثم استدرك:

ــ ولكن كل شيء محتمل في معمعة الحرب.

ــ كل شيء تماما. أنا أعرف ذلك ايضاً.

ــ تعرف ذلك أيضاً؟ ـ كرر فيسنين، وطوى المنشور أربع طيات محاولاً أن يخفي ارتعاش أصابعه، وفك معطفه، ودس المنشور في جيبه الداخلي. قائلاً: سيبقى المنشور معي، «ولا يجوز أن يخبر عنه» على حد قولك ـ وضع فيسنين قبضتيه المضمومتين على الطاولة ـ والآن إليك نصيحتي هذه: ارحل من هنا على الفور! غادر نقطة المراقبة في هذه الدقيقة. فإن ذلك سيكون أحسن. ارحل، الآن!

ونهض فيسنين ضاغطا قبضتيه على الطاولة.

نهض أوسين أيضاً، ولكن بحركة شديدة جداً، فهز الطاولة بركبتيه. وغاض على الفور الدم الدافق في وجهه الممتلىء قليلاً، وحل محله بياض، وتوترت البشرة على وجنتيه.

وأتم فيسنين قوله بتؤدة:

ــ عندما يحصل شيء في التطويق، يا عقيد أوسين. فإن الأمان... هنا ـ مرر يده على حزامه وربت على قراب مسدسه على جنبه: هذا هو الأمان...

صمت أوسين بأدب. انه لم ينس لحظة واحدة سلطة فيسنين الكبيرة، وعلاقاته الطيبة مع غولوبكوف عضو مجلس الجبهة الحربي، و لم ينسَ حقه في الاتصال بموسكو مباشرة، وفكر في الوقت ذاته بفيسنين كإنسان حاد المزاج جداً، غير بعيد النظر، ولا ملتزم جانب الحذر، بل وضعيف الإرادة، ومثل هؤلاء الناس لم يكونوا يوحون بالثقة في متانة مكانتهم. وكان أوسين يعرف كل شيء عنه: كان يعرف أن فيسنين لم يكن من العسكريين النظاميين بل من المدنيين، من أساتذة المدرسة الحزبية العليا، والأكاديمية السياسية. وكان يتذكر جيداً أنه تزوج مرتين، وأن زوجته الثانية مدرِّسة كيمياء، أرمنية، وأن له ابنة في العاشرة تدعى نينا، من زوجته الأولى التي حكم على شقيقتها في أواخر الثلاثينيات وعلى أثر ذلك صدر بحق فيسنين توبيخ صارم لم يُرفع عنه إلا قبيل الحرب. وكان يعرف أنه في عام ١٩٤١، وقد أصبح قوميسار فرقة، قد اخترق الحصار قرب يلنيا، وأخرج معه فوجاً كاملاً تقريباً. كان يعرف ويتذكر الكثير مما غاب عن ذاكرة فيسنين، في أغلب الظنٍ، منذ زمن بعيد. إلا أن أوسين دارى نفسه على عادته بابتسامة لا تدل على شيء، وكأنما يوازن كل ذلك في ذاكرته المتماسكة المستوعبة. وأجاب فيسنين بالهمومية ذاتها:

ـ أنا لم أصرَّ على شيء، أيها الرفيق قوميسار الفرقة. أنا فقط أديت واجبي.... الوظيفي والحزبي، فقال فيسنين متجهماً

ـ ما دمت قد أديت واجبك، فليس لك ما تفعله هنا أكثر. أكرر مرة أخرى: غادر نقطة المراقبة في الحال، ولا تخف الطوارىء! ليس هناك أسخف من حذرك! ليس من المعقول أن مفهوم «التطويق» يثير مخاوف باطنية!

تقدم فيسنين من الطاولة، ولمعت نظرته وهو ينظر إلى أوسين، واختطف من على الطاولة علبة السكائر التي تناثر عليها التراب، وانحنى

عند باب المخبأ، وخرج إلى الظلام الذي تتوامض فيه الصواريخ، إلى لعلعلة رشقات الرشاشات الأوتوماتيكية، إلى الطلقات التي تتناهبها الريح فوق متراس الخندق.

الفصل الخامس عشر

لم يجد فسنين بيسونوف حال خروجه من المخبأ. كانت توهجات الصواريخ الحمراء ـ الخضراء. تخطف بصره ودمدمة الرشقات القوية تصم أذنيه، وكأنها قريبة منهما.

وفكر فسنين مع نفسه: «قد يسأل عن سبب قدوم أوسين. فماذا أجيبه؟ أي حق انساني لي في أن اذهب إليه، وأكذب في عينيه؟ أية علاقة يمكن أن تكون بيننا فيما بعد؟ لا، لا استطيع أن أذهب إليه، وأتظاهر بأن شيئاً لم يحدث. يجب ان يكون بيننا اخلاص مطلق ونزاهة... ولكن لا أستطيع أن أدير لساني ليحدثه عن ابنه الآن، لا أستطيع...»

وأحس فسنين بأن اللابساطة الخالية من الوهم، والتشدد في علاقاته مع بيسونوف لم يعطياه حقا ولا صلابة في المراوغة دبلوماسياً، وهو لم يكن قادراً على تهوين الأمور، وتخطي المهم، وهكذا شعر، وهو واقف في كوة البوصلة، بخجل محرق كريه في داخل نفسه، وكأنه تقيأ أمام الناس.

ـــ يا بيتر الكسندروفيتش! هتف فسنين، وخرج من الكوة مندهشاً من نفسه على تصرفه هذا، واقترب من بيسونوف الذي كان محاطاً بالضباط قرب المنظار.

قال بيسونوف، وقد انصرف عن المنظار المزدوج:

ــ وأنا بحاجة إليك، يا فيتالي ايسايفيتش ـ ومسح بيسونوف بمنديله وجهه الملذوع بحبات الثلج ـ نزلت الفرقة «٣٠٥» إلى المعركة. سنرى الآن ماذا سيحصل. ولكن الشيء الأهم هو...ـ وظل يمسح وجهه بمنديله بهيئة استغراق ساهم ـ الشيء الأهم الآن الفيلق الآلي وفيلق الدبابات. من الضروري استعجالهم، استعجالهم بكل الجهود! بودي أن تذهب للقاء فيلق الدبابات في منطقة التمركز، يا فيتالي ايسايفيتش، وإذا ليس لديك مانع، ابق هناك في الوقت الراهن لتنسيق العمليات بشكل أنجح أنا اعتبر ذلك ضرورياً. وأحس فسنين بغصة تصعد إلى حلقومه، فأجاب بالكاد:

ــ سأقوم بكل ذلك، يا بيتر ألكسندروفيتش... سأخرج حالاً...

ــ سافر. فقط أن تبدي يقظة في القرية. فإن الوضع على الضفة الشمالية لم يتغير بعد.

... عندما وصل فسنين إلى موضع في الخندق كان قد التقى فيه بالميجور بوجيتشكو من توّه كان الأخير يطلق النار مستلقيا على المتراس، فكان كتفه يتحرك من رشقات البندقية، وقد انسرحت القبعة على علياته.

ــ يا ميجور بوجيتشكو، أنا بحاجة إليك!

التفت بوجيتشكو على النداء، وعدّل وضع قبعته من على علياته بضربة من يده وهتف بحماس بهيج:

ــ على أية حال، الألمان يطوقون! إنهم يتقدمون في ناقلات مصفحة، ويزحفون كالقرود! أنا مصغ إليك، أيها الرفيق قوميسار الفرقة!

كان فسنين يقف في الخندق، وقد أحنى رأسه:

ـــ اسمعني، يا بوجيتشكو، ينبغي علي في هذه الدقيقة أن أذهب إلى فيلق الدبابات. لا تنس شيئاً واحداً: إحرص على القائد حرصك على حدقة عينك. أنصحك بأن تكون على مقربة منه دائماً.

ـــ مفهوم، أيها الرفيق قوميسار الفرقة. ـ وأنزل بوجيتشكو البندقية الأوتوماتيكية، وتساءل: ـ هل أنت ذاهب الآن؟ ولكن أعذرني، ألا يكون خطرا جداً الآن؟ المرتفع يبدو هدفا للرمي من كل الجهات.

قال فسنين وقد هز ساعد بوجيتشكو هزاً ضعيفاً.

ـــ سيذهب معي العقيد أوسين وحراسه: توافه. بنفس الطريق الذي جاء به أوسين. سيكون كل شيء كما ينبغي، يا بوجيتشكو. حصل اسوأ من ذلك...

ـ يبعد عنك الشر، أيها الرفيق قوميسار الفرقة! عندئذ ابتسم فسنين، وهز ذراعه.

ـــ لا يهم، ليكن ما يكون، يا بوجيتشكو!

كان العقيد أوسين وكاسيانكين ما يزالان جالسين إلى الطاولة في مخبأ رجال المدفعية. وكلاهما، يسمع الرمي، وينتظر شيئاً ما في صمت كئيب. عبر فسنين العتبة، ودون أن يبدي عجلة نظر إلى أوسين بتماهل متفحص، فقفز هذا في الحال. قال فسنين بلهجة آمرة غير معهودة:

ـــ طريقنا واحد، يا عقيد أوسين، إلى قرية غريغوريفسكايا. أين تقف السيارة؟ خذ معك حراسة!

ـــ أنا مسرور، أيها الرفيق قوميسار الفرقة... مسرور جداً. شكراً. السيارتان تحت التمويه وهما تقفان في زريبة أسفل المرتفع، شكراً... ـ تكلم بذلك أوسين راضياً، وتناول من على الطاولة محفظته العسكرية

الجلدية وسأل بحذر ـ : وكيف: الجنرال بيسونوف؟ كيف؟ هل ستبقى هنا؟

لم يصطبر فسنين فقال:

ـــ أما زلت تعتقد أنني ذاهب معك لغرض سلامتي الشخصية؟ معقول أنك واثق من ذلك؟

قال أوسين متكدراً، وأسبل رموشه البيضاء:

ـــ أيها الرفيق قوميسار الفرقة. لا داعي لأن تغضب مني. أظن أنك ستجد عضو مجلس الجبهة العسكري في نقطة المراقبة التابعة للجيش، وسيعرب لك بنفسه عن قلقه.

ـــ لا تبطئ يا اوسين، وسر بي إلى السيارة.

قال أوسين:

ـــ لنذهب عبر الطرف الشمالي الغربي للقرية، باتجاه الطريق الريفية. فإن هذه الطريق ما تزال حرة.

في الأسفل فقط، في أسفل المرتفع، حين استدارت السيارات، بأمر أوسين، في شارع صغير في القرية، وانطلقت بسرعتها نحو الطرف الشمالي الغربي، عندئذ فقط فكر فسنين بما في وضع فرقة دييف من ضعف وتخلخل. لقد كان الوضع على هذه الضفة يبدو له من الأعلى، من نقطة المراقبة مختلفا بعض الشيء، وليس على هذا القدر من الخطورة، ولا على هذا القدر من الحراجة القصوى.

كانت الضربات الحادة للمعركة المقتربة تماما تدق في الآذان بدفعات لا تنقطع.

كان جزء القرية الواقع على الضفة الشمالية نهباً كله لحرائق تتسع

كلما دنت المسافة ـ كان كل شيء يتلوى، ويهوي ويميل، ويزحف في النار التي تشبُّ وسط البيوت بانفجارات القذائف، وكانت رشقات الرشاشات ترسل من حجرات السطح المحترقة حزما متناثرة من الشرر. وكانت حرارة الهواء المحمي بحرارتها ولذعها تحس في السيارة أيضاً. إن هذه الحرارة المخلوطة بالدخان كانت تدمع العيون، وتتآكلها. وصارت تسري في الحنجرة دغدغة وحرقة. وأخذ سائق السيارة يسعل بين الحين والآخر، ملقيا صدره على الدفة ولمح فسنين الدبابات للحظة واحدة في الطرف القصي من الشارع. انزلقت كلمعان أحمر وراء البيوت. لمعت واختفت، مبتعدة عن السيارة، أو بالأصح ابتعدت السيارة عنها. و لم يسنح لفسنين الوقت ليعرف لمن هذه الدبابات.

ـــ دُسْ على البنزين إلى الآخر، والحَقْ بتيتكوف، فهو يعرف الطريق! وفي القرية استدر إلى اليمين رأسا! ـ صاح بذلك أوسين بانفعال من أخذ على عاتقه كامل المسئولية، أدار فسنين وجهه المستدير القوي وقال:

ـــ سنعبر، ايها الرفيق قوميسار الفرقة!

ـــ أنا لا أشك في ذلك.

فأكد أوسين، واستنشق الهواء من منخريه بقوة:

ـــ سيكون كل شيء على ما يرام تماماً. حوالي ثلاثة كيلومترات هي الخطرة...

كان راغباً في مطارحة الحديث، إلا أن فسنين لم يكن راغباً في الحديث على الاطلاق.

كان يجلس إلى الخلف مع كاسيانكين منضغطا على ظهر المقعد صموتا. وكانت البندقية الموضوعة على ركبتي المرافق تهتز لدى

مرور السيارة في حفر الطريق وكانت توخز جنب فسنين. كان بصر كاسيانكين ينتقل هائماً من علياء السائق الذي كان يهزه السعال، إلى الطريق المغطى بالثلج والذي كانت تضيؤه البيوت المحترقة اضاءة شاملة ساطعة. وعندما تكلم أوسين جفل، متصوراً، في أغلب الظن، هذه الكيلومترات الثلاثة، وأدار عينيه في خوف ذات اليمين وذات الشمال. وفكر فسنين: «أن هذا شاب ارعن، ربما هو خائف أكثر من اللازم؟»

قال فسنين:

ـــ أمسك البندقية أقوى، يا كاسيانكين. أو أعطها لي.

رد كاسيانكين بصوت مهبهب:

ـــ أمسكها... أمسكها أنا، أيها الرفيق قو ـ ميسار الفر ـ قة، ـ وهز رأسه متوسلاً قائلاً: أعذرني أرجوك.

إلى اليمين تراءت حرائق متناقصة، وإلى الأمام يبدو الشارع قد انتهى. سارت السيارة بمحاذاة الشاطىء. والآن لاح المرتفع المدور الذي تقع نقطة المراقبة إلى الخلف، وإلى اليسار فوق سطوح البيوت، وراء النهر شب وارتفع وهج المعركة الحار عريضا فانيا تشعشعه ومضات الصواريخ.

ابتعدت السيارة، وكانت تسبح في الضوء القرمزي. يمين هذا الوهج، عند المعركة وراء النهر، وصعدت في جبل إلى طرف القرية، مارة بالبيوت الأخيرة. وكان فسنين يرى الآن، وهو يحس بارتياح لا إرادي بشيء من التخفيف، سيارة الحرس إلى الأمام، تصعد بكل سرعتها المرتقى الصقيل المدكوك من كثرة الحركة، إلى المرتفع وراء طرف القرية حيث كانت تنتهي حدود الرمي. كانت الظلمة هنا تشِفُّ عن حمرة ناعمة.

ـــ ماذا بك؟ هل جننت؟ لماذا قللت السرعة؟ لماذا؟ ما الخبر؟ ـ صاح أوسين وضغط بكل جسمه على السائق.

ـــ أيها الرفيق العقيد!.. أنظر! ـ نطق بذلك السائق بعسر، خلال سعاله الموصول. ـ أنظر! أنظر إلى الأمام!

ـــ هذا تيتكوف.... يبدو أن سيارة تيتكوف، تنعطف...

أعلن كاسيانكين ذلك بصوت رقيق، وقد مد رقبته إلى السائق، ورفع جسمه، وتشبث في المقعد الأمامي بكلتا يديه، فسرحت البندقية من على ركبتيه، وسقطت على أرضية السيارة المهتزة وراحت تقفز على قدمي فسنين.

قال السائق بصوت مبحوح، مهتاجاً بشكل جنوني:

ـــ الدبابات!.. الألمان إلى الأمام!

صاح أوسين:

ـــ أين؟ أين الألمان؟ من أين جاءوا؟ إنها دباباتنا «ت ـ ٣٤»! إلى الأمام!.. أنت، يا عجيب، هل فقدت عقلك؟ زد السرعة!..

كانت البندقية تضرب قدمي فسنين بسرعة متزايدة.

كان فسنين في كل لحظة يريد أن يقول لكاسيانكين: «امسك واخيراً، ألا تمسك البندقية!» ـ إلا أنه لم يقل، لأنه رأى ما حدث إلى الأمام.

صعدت السيارة إلى المرتفع وراء طرف القرية، زاعقة على المرتقى وانكشف في تلك اللحظة، ونهض كالجدار ظلام اللهب الوردي الممتد حتى سواد الأفق وسط هذا السواد، المتوقد بالوهج، المتحول إلى غبش راحت سيارة الحرس الأمامية تستدير على المرتفع، أمام أشباح ضخمة مثل أكوام الدريس، متعجلة مرتجة إلى الأمام وإلى الخلف رجات غير

موزونة، وأخيراً استدارت، وتقافزت على الطريق الوعرة، وانطلقت نحوهم على المرتقى.

كان باب السيارة إلى يمين السائق مفتوحاً، ولاح منه شخص الميجور تيتكوف طالعاً إلى وسطه. كان يصرخ بشيء ما، كما يبدو، ملوحاً بالبندقية الأوتوماتيكية إلى فوق. ثم أطلق رصاصة في السماء.

ـ والآن أيضاً تعتقد أنها دباباتنا يا أوسين؟ سأل فسنين بهدوء غير متوقع في مثل هذه اللحظة، حتى أنه هو نفسه لا يكاد يسمع صوته.

وفي تلك اللحظة ارتطم صدره بظهر المقعد الأمامي ارتطاما شديدا بسبب فرملة السيارة الحادة، إلا أنه استطاع أن يلمح الأشباح السوداء تنفث الشرر في السماء الليلية الكدرة من الوهج، وترامى من هناك دوي كثيف لمحركات الدبابات. وفي الحال تطاير اللهب إلى الأمام مثل وميض برق أحمر، وزمزم رعد هناك. وارتفع مخروط ناري عريض أمام سيارة الحرس، وقذفها ناحية، وأقعدها على جنبها على المرتقى. لم يقفز من السيارة غير شخص واحد، ركض في الطريق إلى الأسفل في خط متعرج، ساقطا. كان يصرخ بشيء، على ما يبدو، دافعاً بالبندقية فوق رأسه.

أوعز أوسين بصوت مسعور «إلى الوراء!» وقد انقذف هو نفسه إلى الوراء، وضرب كتف السائق، وقال:

ـــ استدر: بسرعة! إلى الأسفل! إلى القرية!

ـــ الألمان! الألمان!.. كيف يمكن هذا؟

صرخ بذلك كاسيانكين منهارا في ركن من السيارة، بل بدا وكأنه يحاول أن يضمّ ركبتيه إلى بطنه وشفّت حركاته الرعناء هذه، وصوته

المرعوب عن شيء حاد شائك، كالذعر، وخز فسنين في حشاشته.

ــ إخر.....س، يا كاسيانكين! ـ قال له في حنق، ودفع ركبته المرتفعة المرتجة مشمئزاً، وكرر:

ــ اسكت حالا، تماسك!

صرخ كاسيانكين بصوت تملؤه العبرة:

ــ ولكنهم قريبون، قريبون! وقعنا! ما هذا!

ــ قلت لك اسكت!

كان فسنين يسمع أوامر أوسين ـ «إلى الوراء! بسرعة أكثر! استدر! اضغط على آخر السرعة!» ـ وسعال السائق القاتل الشبيه بنوبة متشنجة، وفي غير أوانه وكان يرى كيف يدير الدفة بدفعات حادة من يديه وكتفيه، وكيف كان أوسين المائل بكل جذعه إلى الأمام كالوحش يضرب الغطاء الحديدي فوق لوحة المقاييس بجمع يده في نفاد صبر. كان فسنين يريد أن يرى الدبابات من خلال الزجاجة الجانبية، وفي اللحظة التالية أحس وكان بصره قد خطفته النار المتأججة لومضة برق ثانية مصوبة نحوه، شاعراً بأن السيارة قد استدارت أخيراً، وصارت تنحدر بانحراف زاعنة باطاراتها، وتنزلق إلى الأسفل. وانقذف فسنين في السيارة بقوة رهيبة، انقذف ناحية على شيء حي ناعم صارخ بصوت مجلجل، أخذ يتحرك تحته. وبمحاولة خارقة لتخليص نفسه من هذا الطارئ المشؤوم الذي وقع له لحق أن يفكر بوضوح «فقط أن لا أفقد الوعي الآن! مَن يصرخ، كاسيانكين؟ هل جرح؟ لماذا يصرخ هذا الصراخ؟»

إلا أنه، على الأرجح، فقد وعيه للحظة من ارتطام رأسه بقوة للمرة الثانية بشيء معدني صلب. ثم افاق على صيحة على شيء ما كان

يضطرب تحته، و لم يدرك رأسا بأنه يرقد مضغوطا على نحو غير طبيعي، في تضبب رمادي، على شخص ما، وباب السيارة لم يكن إلى يمينه، بل فوق رأسه. وحدس بشكل مبهم: أن السيارة قد انقلبت، واستقرت على جنبها تحت المرتقى. كان كل شيء قد تغشى بكفن الغيبوبة: إن النظارة لم تكن على عينيه. تلمس فسنين باحثاً عن النظارة بشكل آلي، وهو ما يزال غير متمالك وعيه تماما، فرأى في غير وضوح رأس السائق الحاسر الجامد منضغطاً بخده على باب السيارة المغروز في كومة ثلج. كانت زجاجة السيارة الأمامية مهشمة، وغطاء المحرك يبرز معوجا. كان الهواء الصقيعي ينفذ إلى السيارة مع دوي قريب مبهم، وكان هذا الدوي يغطي على انين كاسيانكين وصيحاته المخنوقة. وكان فسنين مضغوطا عليه، وهذا ما أعاد إليه وعيه كليا.

قال فسنين بصوت واهن سمعه بالكاد:

ــ هل جرحت، يا كاسيانكين؟ لماذا أنت تصرخ هكذا؟

فدق أذنه صوت كاسيانكين:

ــ قدمي... قدمي!

ــ أيها الرفيق قوميسار الفرقة، هل جرحت؟

ــ أخرج بسرعة، بسرعة! أيها الرفيق قوميسار الفرقة!..

سد شخص بجسمه الواسع ضوء الوهج، وبقوة عجلى جذب باب السيارة في الأعلى، ورجه، محاولاً فتحه، وعندما انفتح، امتدت ذراعان وأمسكتا بكتفي فسنين، ورفعتاه إلى فوق باصرار حازم. ولاح أمام عيني فسنين وجه أوسين الأبيض، ثم زال. وسمعه يأمر بصوت مكتوم:

ـ أسرع، أسرع، أيها الرفيق قوميسار الفرقة، يجب أن تغادر! أرجوك بسرعة! هل جرحت؟ هل تستطيع أن تتحرك؟

ـــ أوسين... الأفضل أن تساعد كاسيانكين، يبدو أنه جريح، ـ همس بذلك فسنين، وطلع من الباب، وقفز على الثلج، ثم أمسك بالسيارة بسبب دوار خفيف.

صاح أوسين بضراوة، وهو ينحني على الباب:

ـــ كاسيانكين! هل جرحت؟ جرحت أم تتظاهر؟ أخرج حالا! هل فهمت؟ أخرج، ولو كنت نصف حي! أين البندقية الأوتوماتيكية؟ اين البندقية؟!

وفي تلك اللحظة قفز شخص نحو فسنين، وترددت أنفاس إلى جانبه حارة صافرة: «أيها الرفيق قوميسار الفرقة!» ـ وقبل أن يتم كلامه أمسك يده بأصابع حديدية، وجذبه إلى الأسفل، وامر بصيحة قطعت أنفاسه:

ـــ استلق وراء السيارة، هنا! بالله عليك، لا تقف بطولك، أيها الرفيق قوميسار الفرقة!... وقعنا! غير مفهوم من أين هذه الدبابات؟ من أين جاءت؟ لم تكن!..

كان ذلك هو الميجور تيتكوف رئيس الحرس. وفي الحال تذكر فسنين أن هذا قد جاء ـ راكضاً اليهم من السيارة المصابة، حين انفجرت القذيفة الأولى بعد تخديره برشقة. والآن، حين دفع تيتكوف فسنين نحو السيارة لحمايتهم سقط غطاء المحرك على صدره وكوعيه، ودفع بالبندقية إلى يده اليسرى الموضوعة تحت المخزن القرصي، متطلعاً إلى حافة الربوة، حيث كانت دندنة المحركات تنبعث منتشرة وتخيم على الرؤوس. أوقفه فسنين قائلاً:

ـــ لا تطلق النار، يا تيتكوف! انتظر حتى تمرَّ الدبابات! لا تحتد! لن تستطيع أن تقاوم الدبابات ببندقية أوتوماتيكية! انتظر!

قال تيتكوف متلاحق الأنفاس:

ــ أنا مذنب أزاءك، ايها الرفيق قوميسار الفرقة فأنا مسؤول عن حياتك...

قاطعه فسنين:

ــ ارجو أن تكف عن التبريرات! أنا نفسي مسؤول عن حياتي.

قال تيتكوف:

ــ ها هي... تطوف القرية من اليسار! لو لم يلاحظونا... حوالى اثنتي عشرة دبابة، مع ناقلات مصفحة.

لم يستطع فسنين، وهو بدون نظارة، أن يتبين بالتفصيل، كل ما رآه تيتكوف بعينيه فقط. كانت أشباح الدبابات الهائلة المترهلة تزحف ببطء على خطوط المرتفع الداكنة وسط الوهج في غبش السهب القرمزي، مغطية على كل شيء بهدير محركاتها، مطلقة من مداخنها شررا متلوياً، وسارت على بعد مائة متر من المنخفض، حيث استقرت السيارة المقلوبة. وفكر فسنين في عجز حاد في أن بيسونوف ودييف، هناك، في نقطة المراقبة، ما يزالان، في الغالب، لا يعرفان عن هذه الدبابات التي شقت طريقها إلى هنا، إلى طرف القرية الشمالي ـ الغربي.

وفي اللحظة التي فرغ من التفكير بذلك، مرت فوق السيارة صلية كاشفة من رشاشة، خاطفة كالبرق، وكان الميجور تيتكوف أول من رأى ما لم يستطع أن يراه فسنين القصير النظر. حوالى عشرة من الألمان كانوا ينزلون من الربوة إلى الطريق، والظاهر أنهم من رجال الاستطلاع أرسلوا ليتبينوا هل بقي أحد سالماً في السيارة.

اخذ الألمان ينزلون المنحدر بحذر. تخلف اثنان منهم على الربوة

يحملان رشاشا يدويا كانا يطلقان النار. انحنى أحدهما، ووضع الآخر الرشاش على ظهر صاحبه من الخلف، وكأنما يضعها على قاعدة. كان تيتكوف قبل ثانية ما يزال يأمل في أن يتخطاهم الألمان. أما الآن فالتفت إلى فسنين بشيء من الجزع تعتمل في نفسه رغبة لا لزوم لها في أن يصيح «أنهم قادمون إلى هنا، على أية حال!» إلا أن فسنين خلع قفازيه صامتا، وأخرج مسدسه من قرابه، فقد حزر أنهم لن يفلتوا ـ لقد كان الألمان يقتربون من السيارة.

ــ ابتعد، ابتعد! أيها الرفيق قوميسار الفرقة، اركض إلى البيوت الصغيرة. اجر من هنا! سنغطيك! اصحب القوميسار، يا كاسيانكين! انهض، كاسيانكين!.. آمرك بالوقوف!..

حاول العقيد أوسين، بعد أن أخرج كاسيانكين من السيارة أن يسند ظهر مرافقه هذا على غطاء المحرك بدفعة قوية من يده اليمنى، وضغط على بندقيته باليسرى. أما كاسيانكين فقد انزلق عن الغطاء، وتلوى، محاولاً طوال الوقت القعود على الثلج، وكان يزعق بتوسل:

ــ أيها الرفيق العقيد... يا عزيزي... قدمي، قدمي انفصمت... لا أقدر، لا أقدر! ـ وانهار، ودفع يد أوسين، وهز من جنب إلى آخر، وجهه الذي شوهه البكاء.

جفل فسنين.

وقال «أتركه!» شعر حتى ببرودة في ظهره من هذا الزعيق المملوء رعبا، من هذا التوسل الذي كانت تخالطه نبرة الموت نفسه.

وعندئذ أطلق أوسين جسم كاسيانكين الرخو كالزكيبة باشمئزاز ناقم، وانتفض بكل جسمه، وهرع نحو تيتكوف، ونحو فسنين، وأوعز بلهاث أجش، آخذا الأمر كله على عاتقه:

ـــ أيها الرفيق قوميسار الفرقة، اذهب نحو البيوت حالا! ركضا وزحفا نحو البيوت! واختبىء هناك! البيوت على بعد مائتي متر. يا تيتكوف! أنا وأنت سنبقى هنا! لا أمل في كاسيانكين...

ظل عويل الاحتضار الذي أطلقه كاسيانكين يتردد طويلاً في أذني فسنين، رغم أن كاسيانكين كان يئن فقط، ويجهش، متكورا تحت قعر السيارة مثل كومة داكنة.

أجاب فسنين واقفا وراء السيارة:

ـــ لا، يا أوسين، ـ وجذب ترباس الأمان في مسدسه. ـ لن أهرع إلى أي مكان من هنا.

ـــ لماذا؟ ليس هذا مخرجا، يا أوسين.

صاح أوسين:

ـــ ولكنك تفهم، أيها الرفيق قوميسار الفرقة، أنت تفهم ما يعني هذا؟

واقترب وجهه الأبيض من وجه فسنين.

ـــ افهم... سنشتبك هنا، يا أوسين.

كان فسنين يفهم كل شيء بذلك العري الذي لا أمل معقولا فيه، كان يفهم أنه لن يصل إلى البيوت ـ مائتي متر في المنخفض المضاء بالوهج ـ وكان يفهم أن لا مخرج، وأن شيئاً مستحيلاً ومفاجئاً قد حصل له، مثلما حصل لآخرين، شيئاً كان من الصعب أن يصدق به، وكأنه حلم كابوسي، عندما تغلق دونك جميع الأبواب واحداً بعد الآخر غلقا تاما. كان يفهم أن الألمان قادمون، نازلون من الربوة إلى السيارة، وأن هذه المعركة التي قرر من انعدام الحيلة أن يشتبك فيها، المعركة الميئوس منها،

لن تكون طويلة. إلا أنه لم يكن يتصور، على أية حال، أن من المحتمل أن يموت بعد نصف ساعة، بعد ساعة، وأن كل شيء سيختفي فجأة وإلى الأبد، وسيزول من الوجود.

وقف فسنين، مقلصا عينيه من قصر النظر، واضعا اليد الحاملة للمسدس على رفرف السيارة، وشعر ببرودة الحديد الميتة في صدره لا في يده، وأحس في الوقت ذاته بكتفي تيتكوف وأوسين تضغطان عليه من الجانبين.

أحاطت الدبابات بالقرية من جهة السهب هازة الأرض مصرفة مدوية، وتحدرت ظلال حملة البنادق الأوتوماتيكية المنشورة على الربوة نازلة المنحدر إلى السيارة. وكانت الرشاشة اليدوية قد توقفت عن اطلاق النار. والظاهر أن الألمان كانوا يحاولون تحسس الوضع باطلاق طلقات أولية ليعرفوا ما إذا كان هناك شخص حي. ولهذا ساروا مرفوعي القامة يتحادثون فيما بينهم في هدوء بأصوات غير مفهومة.

- نار! - أمر أوسين الذي كان يشتم بقسوة، وأطلق، وهو منبطح على بطنه على رفرف السيارة، صلية أولى مخيفة بانفتاحها على تلك الأشباح، وفي ومضات النار المثرثرة كانت تلهب وجنتيه القوية كالصخر، بتغددها البارز. ومضى في أمره:

- نار، يا تيتكوف! اضرب الأوغاد ولا تدعهم ينزلون! اللعنة عليهم!.. أرمهم حالا...

ورش تيتكوف رشة طويلة إلى يسار فسنين.

وأطلق فسنين مرتين حاسبا الرصاصات، على الأشباح الشعثاء على خلفية الربوة الضاربة إلى الحمرة. واندمجت الأشباح مع الأرض. ولم تصدر نار جوابية، وفي اللحظة التالية بدأت الدفقات النارية تلمع كثيفة

من الثلج زاعقة بشكل جارح، وأصابت أعلى السيارة، وتناثرت على الطريق نيران الانفجارات الزرقاء. وكانت الرشاشة الألمانية ما تزال صامتة، والبنادق الأوتوماتيكية تنطلق عن كثب، حتى بدا وكأن الريح أخذت تحرك القبعة على الرأس ثم تردد، من خلال لعلعة الرصاص صوت أجنبي يكسر الكلمات يصرخ بتلحين «يا روس، لا ترم، لا ترم!» ونهض شبح من وراء كومة ثلج في النقطة الخاطفة لدبابة التسديد، تلك النقطة التي كان فسنين يبحث عنها، ورش الشبح في الهواء رشة قصيرة تحذيرية من بندقيته، ثم بلغت الوعي هذه العبارة «يا روسي، كبوت، سلم!» إلا أن فسنين أطلق مرتين أخريين في ذلك الصوت المكسر الغريب، في هذا الصوت الكاره الواعد بالرحمة، وأطلق اطلاقة أخرى، عاضا، عاضا على شفته مسددا بدقة، وبلغت أذنيه وشقتهما صيحة أوسين وكأنها آتية من بعد ضبابي:

- حجارة في جعبتك، أيها الخنزير الفاشي! لن ينفعك هذا!

عندما أخذت الرشاشة اليدوية تطلق رشقات مباشرة على الجانب الآخر من الطريق، من بعد عشرين مترا عن السيارة لم يكن وعي فسنين مسلّما بعد بأن الألمان قد دنوا دنوا تاما. كان وعيه آنذاك يقاوم، ويرفض القدر المحتوم المقترب، كان آنذاك يصدق وهو يستشعر ارتداد المسدس في يده، ويقنع نفسه بأن هذا القدر المحتوم لا يقترب الآن، بل بعد بضع دقائق فقط، وليس في الحال، بل عندما تنتهي رصاصات أوسين وتيتكوف، وعندما تبقى عنده الرصاصة الأخيرة... وفكّر، موقّعاً ضغط أصبعه على الزناد لا شعوريا: «كم بقي عندي؟ كم بقي؟.. فقط أن تكون هادئاً، ولا تستعجل، فقط أن تحسب... لا بد أن تكون عند تيتكوف رصاصات احتياطية، لا بد أن تكون، لا بد...»

ـــ ميجور تيتكوف، هل عندك...

وفجأة أختنق. دفعته ضربة حارة قاسية من صدره، فارتد إلى الوراء بحدة، وكان كل ما لحق أن يلمحه فسنين الذي خنقته الكلمات الأخيرة بسبب هذه الضربة، هو عيني الميجور تيتكوف المتحولين نحوه، الصارختين بخرس من تعاسة مستحيلة. وصوت آخر آت من ناحية:

ـــ يا رفيق قوميسار!.. يا رفيق قوميسار!..

ولمع في ذهن فسنين: «ماذا رأى في وجهي؟» ومسَّ صدره باليد التي كانت تضغط على المسدس مدهوشاً من تعبير اليأس والعذاب في عيني تيتكوف، وكأنه يعد ذلك الشيء المحتوم الذي وقع له مفكرا «الآن حقا؟ أحقا هذا؟.. معقول أنه حل بهذه السرعة؟» وأراد أن ينظر إلى يده ليرى الدم عليها مستشعراً الراحة من هذا الوضوح البسيط المفاجىء والزائل لما حدث له الآن... إلا أنه لم ير دما.

ـــ ايها الرفيق قوميسار الفرقة! هل جرحت؟ أين جرحت؟ أين جرحت؟..

تردد صوت مألوف وغير مألوف كليا ورويداً رويداً راح يهدأ كل شيء، ويبعد في خواء أبكم، وتراءت أمام عينيه موجات حمراء ـ وانداحت على شيء هائل بشكل لا يحد، أسود ذي ألق خافت شبيه بصحراء حارة محترقة أو سماء جنوبية ليلية واطئة.

وإذا كان يحاول بعذاب أن يفهم ذلك، رأى نفسه بوضوح صارخ جالسا مع ابنته نينا في الظلام الخانق لليلة جنوبية، على ساحل البحر قرب سوتشي، عندما أخذها إلى هناك بعد طلاقه لزوجته في عام ١٩٣٨. كان يرتدي ـ لسبب ما ـ بنطلونا أبيض وجاكته سوداء حدادية، ويقف على الرمل في البلاج الخالي تماماً تناثرت فيه تختات منفردة رطبة

من تلك التي يستلقى عليها المستحمون، تبدو مثل بقع داكنة، كان يقف وفي حنجرته كتلة من المرارة الخانقة من أثر احساس بذنبه عارفا أنه هنا على هذا البلاج بالذات كان يلتقي، بعد نزهاته النهارية مع ابنته، بالمرأة التي كان يجب أن تكون زوجته الثانية.

وحزرت نينا شيئاً فبكت وجذبته، وشدّت بنطلونه الأبيض، ورفعت إليه وجهها الطفولي المخضلّ بالدموع، وطلبت إليه أن يأخذها إلى أمها في موسكو، وتضرعت إليه قائلة «بابا، أنا لا أريد أن أبقى هنا، بابا أريد أن أعود إلى البيت، أريد أن أذهب إلى أمي. خذني، أرجوك...».

وإذ أحس بيدي ابنته المرتجفتين، المتشبثتين به، وبجسمها الصغير الضعيف، الذي كان يدفعه من رجليه، أراد أن يقول لها أن لا شيء حصل، وأن كل شيء سيكون على ما يرام، إلا أنه لم يعد قادراً أن يقول شيئاً أو يفعل شيئاً. إن ثبات الأرض كان يزول من تحت قدميه...

إن رشقة الرشاشة التي أصابته جعلته يرتد خطوتين إلى الوراء بقوة مميتة، وفي تلك الثواني التي غطى فيها فسنين بالمسدس المنطبقة عليه أصابعه موضع الضربة الحادة غير المتوقعة في صدره، كان ينبطح، على ظهره في الثلج، وكان الدم يخرج من حنجرته.

ــ تيتكوف! ماذا حصل للقوميسار؟ ماذا؟! ولم يسمع فسنين ولم ير كيف كفّ أوسين عن الرمي، وهرع إليه متخفياً قافزاً قفزات جبارة، حين كان الميجور تيتكوف راكعاً على ركبتيه أمامه، يحاول، والذعر مرتسم على وجهه، أن يتلمس بيديه معطفه الممزق الداكن اللزق على صدره، ولم يسمع أيضاً جواب تيتكوف القصير، ولا صياح أوسين الضاري الوحشي الأجش:

ــ الأوغاد!... يا ميجور تيتكوف! احمل القوميسار ولو ميتا! ولو ميتا!.. مفهوم اسحبه! إلى البيوت خلال الخندق! سألحق بك!..

ألقى تيتكوف، وهو يعضُّ شفته إلى حد التدمي، جسد فسنين الممزق بصلية رشاشة على ظهره الحديدي، وسحبه عليه. واستلقى أوسين بضع دقائق قرب السيارة يطلق صليات طويلة على الألمان، صارخا بشتائم رهيبة، وعندما صمتت البندقية الألمانية، قفز وضرب رفرف السيارة بأخمص بندقيته الأوتوماتيكية وأخذ يصرخ بجنون إلى قاع السيارة الذي كانت تأتي منه أنَّات صمَّاء، وكأنما من خلال غيبوبة الوعي.

ـــ كاسيانكين، ايها الخنزير الجبان. الناس يقتلون، وأنت ما تزال حيا؟ هل تفكر في أن تركع للألمان؟ لتحفظ حياتك؟ قدمك منعتك من الرمي؟ أخرج أيها الخسيس، أخرج!

ـــ أيها الرفيق العقيد، العزيز، أيها الرفيق العقيد! لا داعي لذلك! لست ملوما! ـ واحتمى كاسيانكين وراء نشجات زاعقة، دون أن يخرج من تحت السيارة ـ

ـــ يا عزيزي، اقتلني! اقتلني!

صاح أوسين كازا على أسنانه:

ـــ اخرس! الرصاصة خسارة بك! أخرج، يا جبان! أركض وراء تيتكوف!.. هيا، قبل أن أغيِّر رأيي...

وبجذبة سحب من تحت قاع السيارة مخلوقا لا شكل له، مائعا، مرتجفا ذا عينين جامدتن يردد بصوت كاسيانكين:

ـــ سأغسل قدميك طول حياتي، قدميك...

ـــ أصمت، يا وضيع! اركض!..

ثم ابتعد عن السيارة متخفيا قافزاً إلى الخندق لاحقا بتيتكوف الذي كان يركض ويزحف، ساحبا عليه جسم القوميسار فسنين الذي فقد حرارة الحياة.

الفصل السادس عشر

كان مدفع أوخانوف الوحيد، الذي بدا وكأنه نجا بأعجوبة، يقف على بعد كيلومتر ونصف من الجسر المحروق الذي شوهته القذائف، وقد انتهت حياة المدفع في ساعة متأخرة من المساء، حالما نفدت جميع الذخائر التي حملت من المدافع الثلاثة المحطمة.

لم يكن في مقدور كوزنيتسوف ولا أوخانوف أن يعرف على وجه التحديد أن دبابات مجموعة جيش الجنرال غوت قد نجحت في عبور نهر ميشكوفا في موضعين على الجناح الأيمن للجيش، وتوغلت في دفاعات فرقة دييف في الليل، غير مخففة من هجومها. وفي شقها للفرقة حصرت في كماشة فوج تشيريبانوف في جزء القرية الواقع على الضفة الشمالية من النهر. ولكنهما كانا يعرفان جيداً أن جزءاً من الدبابات ـ من الصعب تحديد عدده ـ سحق في آخر النهار البطاريات المجاورة، واجتاح إلى الأمام واليسار دفاع كتائب المشاة، طالعا إلى مواقع المدفعية. بما في ذلك بطارية درزدوفسكي، وعبر الجسر إلى الضفة الأخرى، وبعد ذلك حطّم هذا الجسر نصف تحطيم واشعلت هاونات «الكاتيوشا» النفاثة النار فيه.

كان أغمض ما في الموضوع أن المعركة أمست، مع هبوط الظلام، تبتعد، وتخفت بالتدريج في الخلف، حيث ارتفع الوهج، وانتشر الاحمرار على طول الضفة الشمالية التي كانت، قبل مدة، قصيرة،

مؤخرة. وهنا على الضفة الجنوبية، أمام الخندق الأول للمشاة، الذي صفرته الدبابات بشكل مخيف، وأمام مواقع مدفعية البطاريات المسحوقة ـ بشكل لا يتصوره العقل ـ كانت المعركة قد هدأت أيضاً، وتوقفت الهجمات، رغم أن كل شيء بقي ملتهباً بنار متحركة ـ في كل مكان كان البنزين الاصطناعي يحترق على شكل جزر، وكانت الدبابات منفردة ومتجمعة على الروابي ما بين محترقة ومحروقة وكان درع الناقلات المحروقة والتي قلبتها القذائف تسودّ، ويتطاير اللهب من الهياكل الحديدية للوريات «اوبل» الألمانية. لم يكن كوزنيتسوف قد رآها في المعركة، والظاهر أنها كانت تسير وراء الدبابات.

كانت الريح في حافة الوهدة تحرك وتوجج من الدبابات حزم الشرر فتطفؤها ريح أرضية في المنخفض، وكانت العيون يؤذيها إلى حد التدميع ذلك الفتات الثلجي الجارح، وتلك النيران الهادئة الشريرة في السهب. كانت ثمة ثلاث دبابات ما تزال تدخن أمام مواقع البطارية تماما، وكان الدخان الكثيف ينسرح على دروعها المسخمة نحو الأرض، وفي كل مكان رائحة حديد محترق، ومطاط حلو المذاق قليلا، ولحم انساني مشوي.

أفاق كوزنيتسوف على نفسه حين أحس بالغثيان من هذه الرائحة المقززة التي وخزت منخريه ودام غيثانه طويلاً، فانحنى على المتراس، وهو مستلق، وجاشت نفسه، وسعل، إلا أن معدته كانت خالية، ولم يشعر بالراحة، ومن تقلصات التجشؤ أحس بضيق في صدره وحنجرته. وبعدئذ مسح شفتيه، ونزل من المتراس، دون أن يشعر بأي خجل من احتمال رؤية أوخانوف والطقم كله لضعفه. فإن ذلك لم يكن له أي أهمية.

إن كل ما كان يفكر فيه كوزنيتسوف ويحسّه، ويفعله، كأنما كان يقوم به شخص آخر فقد الأحاسيس السابقة ـ لقد تغير كل شيء، وانقلب في غضون يوم واحد، وصار كل شيء يقاس بمقاييس، غير التي كان يقاس بها قبل أربع وعشرين ساعة. كان ثمة احساس في التعري الصارخ في كل شيء.

وهمس كوزنيتسوف أخيراً:

ــ لا أستطيع. كل شيء في داخلي يتقلب.

وقبل أن يستوعب السكون الذي كان ينتشر أمام البطارية دلّك صدره المعذّب بتشنجات قوية، والتفت إلى رجال الطقم، وقد أصمتتهم المعركة تقريباً.

كان الرقيب الأول أوخانوف جالسا في موقع النار، وقد ألقى رأسه على قرمة المتراس في إعياء لا حدّ له، وعيناه الجامدتان نصف مغمضتين، كان يبدو وكأنه نائم، وجفناه لا يرفان. بعد نصف ساعة من إعلان نيتشايف عن نفاد القذائف، انهدّ أوخانوف على الأرض قرب المدفع، وقد ضحك ضحكة غريبة، وظل جالساً ببسمته الخالية من المعنى، والمنظار على سترته المبطنة المفتوحة، محدقا بجمود في الوهج الذي أخذ يتضرم، وإلى خطوط القذائف الكشافة الغادرة في الجانب الآخر من النهر، حيث تحوّلت المعركة.

كانت ماسورة المدفع التي أحماها الرمي محببة بالشريرات المزرقة، كانت الشريرات تتحرك، وتنطفىء كالحباحب في الظلام. وكانت ذرات الثلج ترن على درع المدفع.

نادى كوزنيتسوف بصوت غير متكامل:

ــ أوخانوف!.. هل تسمعني؟ انتزع أوخانوف عن الوهج بصره غير المكترث، وقد سمع هذا النداء في غير ما وضوح ـ هو ايضاً سمعه في المعركة ـ وبعد ذلك رفع يدا واحدة في وهن، ورسم دائرة في الهواء، فهز كوزنيتسوف رأسه الموشوّش كرأس سكران دون أن ينطق بكلمة.

ــ من المحتمل، ـ أجاب، ونظر بمؤخر عينه إلى الطقم يريد أن يعرف من وجوههم هل يدركون بأي شيء انتهت المعركة.

لم يبق من رجال الطقم السبعة غير اثنين هما نيتشايف وتشيبيسوف، وكان الطقم هذا بمجموعه منهوكا كليا، فقد، بعد معركة دامت ساعات عديدة، الاحساس بالواقع، وفي حالة قصوى من الانهيار العضلي لم يسألا عن شيء، ولم يسمع صوتهما. ظل المسدِّد نيتشايف على ركوعه السابق أمام جهاز التسديد، وقد وسّد جبينه على مرفق ذراعه المطوية، ويشقُّ فمه تثاؤب عصبي قاهر، فكان يردد «آخ ـ خا ، خا ـ أ...» وكان تشيبيسوف نصف مستلق في الجانب الآخر من مؤخرة السبطانة، متلوياً، ضاما رأسه في معطفه، وكان يلوح من تحت الياقة وبطانة القلنسوة جزء من خده المزرق المغطى بشعر خشن قذر، وتصدر من فمه شهقات متعبة رتيبة متوجعة، وكأنما هو الآخر لم يكن قادراً على التقاط أنفاسه.

ــ أوه، يا إلهي... لم تبق لي قوة...

ــ يا ملازم... ملازم! سنعيش، يا ملازم، أم سنتجمَّد كالجراء؟ أريد أن آكل في الآن واللحظة! أنا أموت من الجوع. لماذا هدأ الجميع، ناموا؟ هل أنت حي، يا ملازم؟

هتف بذلك الرقيب الأول أوخانوف. وجذب وانتزع من رقبته المنظار الذي لا ضرورة له، وألقاه على المتراس، وأطبق سترته المبطنة،

ونهض، وضرب حذاء بحذاء مترنحا، ممالا، ثم رفس بقدمه حذاء نيتشايف دون كلفة، وكان هذا ما يزال في تثاؤباته العصبية، وعلى ركوعه السابق أمام جهاز التسديد واضعا جبينه على يده المنطوية على مؤخرة السبطانة.

ــ بأي سبب تستبيح لنفسك أن تتثاءب هكذا، أيها البحار؟ كف عن هذه الشغلة غير النافعة!

قال كوزنيتسوف بتعب:

ــ لا تمسه، يا أوخانوف. لا بأس. ولا تمس أحداً. أبق هنا. ـ وجذب قراب مسدسه إلى جنبه بصورة آلية، وقال: ـ سأعود حالا، ـ أمرّ على البطارية. إذا لم يتسلل الألمان هناك. أريد أن أرى.

صفق أوخانوف قفازيه، وهزّ كتفيه المرتخيتين. وقال وألقى على كتفه حزام البندقية الأوتوماتيكية:

ــ لنذهب إلى المدافع، سنرى. فقط أن شيئاً يغشّى على عيني. هناك نحو سبعمائة متر إلى القرية لا يبدو أن الألمان موجودون.

ــ احتلوا القرية، فما نفع السهب الأجرد لهم؟ وسبعمائة متر لا شيء بالنسبة للدبابات! أغلب الظن أنهم يظنون أن أحداً لم يبق هنا.؟ لا سيما وأنهم قد خرجوا إلى الضفة الأخرى.

ــ على كل حال، أنت شاب غريب، يا ملازم. ولكن لا بأس. المرء يحتمل القتال معك.

ــ لطيف أن أسمع منك هذا! قل شيئاً آخر! ثناء آخر وسأذوب...

ــ حسنا. موافق. بالمناسبة، ماذا حصل لآنستنا؟ أين هي؟ هل هي حية؟

ـــ نعم، إنها في المخبأ مع الجرحى. وجرّت الجرحى من مدفعك. ألم تلاحظ؟

ـــ لم أكن أرى غير الدبابات. و لم أكن أفهم شيئاً...

ما إن غادرا موقع المدفع، وسارا في خندق الاتصال حتى أطبق عليهما سكون تام إلى حد الصمم في ذلك الممر الضيق، سكون ثقيل يضغط على الرأس كالرصاص. كان كوزنيتسوف أول من توقف، وقد خيل إليه وكأنه دخل في الماء، وأن طبلتي أذنيه قد انسدتا، هزّ رأسه فرنّ في أذنيه رنين ممدود. وفي الحال توقف أوخانوف أيضاً وراءه. سكنت خشخشة الثياب، ووقع الخطوات تماما. ثم لعلعت إلى الوراء في ناحية الوهج صلية رشاشة منفردة وتوقفت، مؤكدة هذا السكون الثقيل غير الحقيقي. وتخدّر كل شيء، في الليل. حتى ارتفع صوت أوخانوف الطاعن للصمت برنين مؤذ:

ـــ ماذا وراء الأكمة، يا ملازم؟ رشاشة ألمانية في المؤخرة؟

ـــ هل أذنك توشوش، يا أوخانوف؟ ـ وخلع كوزنيتسوف قبعته مترددا، وقد ظن أنه قد أصيب بالصمم تماما. ـ هل تسمع شيئاً؟

ـــ في رأسي جنادب، يا ملازم. هذا بعد الرمي...

ـــ لا شيء آخر؟

ـــ إسمع. الأمر انتهى هناك، على الضفة الأخرى. هل من المعقول أنهم تعمقوا إلى هذا الحد؟

ـــ الهدوء في كل مكان.

ـــ هدوء كلي. يبدو أنهم كبسوا برجالنا حتى ستالينغراد، وخرقوا

الجبهة، ونحن وحدنا هنا... انظر إلى الشمال الشرقي، يا ملازم. تلك الحرائق فوق ستالينغراد. على بعد حوالي ثلاثين كيلومترا من هنا.

ـــ انتظر... أنصت! ـ واقترب كوزنيتسوف من المتراس، ومدّ جسمه مرهفاً سمعه. ـ يبدو أن أحداً يصيح إلى الأمام... أم هذا في أذني؟

كان يسمع صياحاً انسانياً، في مكان وراء خنادق المشاة على التلال، تلاشى في الصمت رأساً وسط الثلوج المحمّرة. تصنّت كوزنيتسوف من خلال الرنين الخافت في أذنيه حابسا أنفاسه، مبقيا قبعته في يده، ونظر إلى الوهج المضطرم من الصمت المبهم فوق الضفة الأخرى من النهر وإلى السماء الخافتة الضوء، في ناحية الشمال الشرقي، حيث كانت تقع ستالينغراد، وإلى نيران الحديد الخامدة المتناثرة في السهب، على امتداد هذه الضفة كلها، وأمام البطارية ـ نار، وريح، وذرات ثلج، وهياكل مبهمة منحوسة لما احترق من ناقلات مصفحة ودبابات على التلال.

قال كوزنيتسوف بصوت منخفض:

ـــ غير ممكن أن يكونوا قد شقوا طريقهم إلى ستالينغراد.

لقد توهم ذلك اللفظ الانساني، كما يبدو. فأطلق أنفاسه أخيراً. لا طلقة في أي مكان. لا حركة. لا صوت. كأن الأرض كلها قد همدت، إلى آخر نفس حي، وكانت تبرد بتأثير الرياح الوحشية، وتنبسط في وهج ميت كالصحراء. أما هما، واللذان بقيا وراءهما قرب المدفع معذبين منهوكين، فهم، أربعتهم، بقوا في العالم وسط الموت الشامل والخواء. إن النفس لفي ذهول من هذا الجمود البارد، الليل الديسمبري الميت. نطق كوزنيتسوف بابتسامة معوجة:

ـــ توهمت... وارتدى قبعته. ـ إنك على حق: الأذن توشوش.

وعادا إلى سيرهما في خندق الاتصال. ومن جديد تردد وقع أقدامهما، وخشخشة ثيابهما. وكان ذلك، على أية حال، أمارتين على الحياة.

وضحك أوخانوف:

ــ إذا أخذنا نتوهم الأوهام، يا ملازم، فإن أمورنا ليست على ما يرام. على أية حال، ربما الذي صرخ كان جريحاً ألمانياً، أو واحداً من جنودنا المشاة. .

ــ أظن أن قليلين من جنود الحراسة الأمامية بقوا أحياء. ظلت الدبابات تسحق طوال اليوم. ينبغي الذهاب إلى هناك...

ــ موافق، يا ملازم. وعليك أن تتصل بنقطة المراقبة. فقد يكون عند درزدوفسكي اتصال ما بالقيادة.

ــ لنعاين البطارية، ثم نفكر كيف سيكون الأمر، ـ قال كوزنيتسوف، وبعد أن خطا بضع خطوات في خندق الاتصال، قال بصوت غريب: ـ مدفع تشوباريكوف... أنا لا أفهم كيف لم يلاحظوا تلك الدبابة؟

قلّب أوخانوف فكره بصوت مسموع:

ــ وأنا أيضاً لا أفهم. أطلقت أنا النار عليها عندما رايتها، وهي أمام المتراس. يبدو أنهم جرحوا جميعاً، قبل الضربة الساحقة.

ــ كنت أرى حين فتحت النار.

واقتربا.

إن هذا المكان كان يُسمّى من قبل بموقع المدفع الثاني، موقع الرقيب الثاني تشوباريكوف، حيث بدأ كوزنيتسوف القتال صباحاً، حين أدركه هجوم الدبابات الأول. ولكنه الآن ليس من الممكن أن يسمى

حتى بموقع. جسم دبابة واسع محروق أسود كالفحم، ومدفع مسحوق مدفوع عن ساحته مدكوك بجنازير فولاذية، قد ارتفع هنا على نحو غريب رهيب، بين المتاريس المهدومة، والأحذية الناتئة على الأرض، ومزق المعاطف والستر المبطنة، وصناديق القذائف المتحولة إلى كسر. إن أحداً منهم لم يلحق أن يهرب من المدفع...

كان كل شيء مقلوبا، محروقا، ساكناً ميتا تفوح منه بقوة الرائحة المرة لحديد حام، وبارود تأكل التراب والثلج، وطلاء محروق. كانت الريح تصفر بوحشية، عابثة مدوية في ثقوب الدرع الذي أبرده الصقيع منذ وقت طويل، نصف المخلوع، الملويّ حلقات حلزونية، الملصوق بجنزير ملتف بمزق قذرة، الصارف صريفا حذرا، مرسلا قشعريرة في الظهر بدندنته الحديدية الموحشة.

كانت برودة الموت القاسية تفوح بقوة من معدن الدبابة الأسود الذي قسّاه الصقيع، ومن المدفع المسحوق حتى أن الجلد على الوجنة تشوّك إلى حد القشعريرة.

«كيف حدث كل هذا هنا؟ كيف؟ لماذا لم يلحقوا أن يطلقوا النار؟»

كان كوزنيتسوف يريد، والغصة تطبق على حلقومه، وشعور الذنب يضايقه ـ لماذا غادر موقع المدفع آنذاك؟ ـ كان يريد أن يفهم كيف تحوّلت إلى موت تلك الثواني المهلكة التي كان فيها مع زويا يطلق النار على الدبابات في موقع دافلانيان، وجاهد أن يتصور هل حاولوا اطلاق النار في تلك الثواني الأخيرة قبيل الموت، وأن يتخيل وجوههم، وحركاتهم لحظة جثوم الدبابة العملاقة الملتهبة على المتراس.

لم ير هلاك الطقم إلا من بعيد. و لم يكن قادراً على أن يفعل شيئاً. إن تلك الثواني الخاطفة كالبرق أزالت عن الأرض بلمحة واحدة كل

الذين كانوا هنا، رجال فصيلته، الذين لم يسنح له الوقت ليتعرف عليهم بصورة تليق بانسان: الرقيب الثاني تشورباريكوف برقبته الساذجة الطويلة مثل سويق عباد الشمس، وبايماءاته الطفولية حين كان يفرك عينيه بعجالة: «وقعت في عيني ذرات تراب»؛ والمسدد الدقيق العملي يفستيغنييف، بظهره الهادىء البطىء، وبخط الدم المتلوي، المتخثر قرب أذنه التي أصمها الانفجار: «أصدر الأوامر لي بصوت أعلى، ايها الرفيق الملازم، بصوت أعلى!...»

إنه ما زال يتذكر نظراتهم، أصواتهم. كانت تتردد في حناياه، كأن موتهم كان خداعا له، ولا بد أنه سيسمعهم من جديد، ويراهم... لقد بدا له أن ذلك لا بد أن يقع، لأنه لم يلحق أن يقترب منهم، وأن يفهم ويحب كل واحد منهم...

أحس كوزنيتسوف بأن وجهه ويديه قد تجمدت وبشعور الاستنكار القتّال للنفس تقريباً، استنكار ما حدث، واستنكار كونه لم يكن قادراً عندئذ، على تلافيه وايقافه، أراد أن يعرف آخر ما حدث هنا، الشيء الذي كان من الممكن أن يشرح كل شيء.

إلا أن ما رآه في موقع الرماية ـ الشيء المتبقي من طقمه، المحدوس فقط، غير الواضح، القاتم، المعفّر بالتراب، الشيء الذي لم يكن بحاجة إلى دفن ـ قد غمره بصمت الموت. لم يكن أحد قادرا أن يجيب سواهم، وهم ليسوا في الوجود... وفي الريح فقط كان يصدر رنين وهزهزة لا يكادان يسمعان: كان درع المدفع المعوج حلقات يمس ويصطدم بجنزير الدبابة الحديدي.

رفع كوزنيتسوف وجهه المتجمد. صدر خلفه فجأة صوت رفش صارخ زاعق. كان الصوت في الصمت واضحا حادا. كان أوخانوف

الذي لاح شبحه وسط الوهج أسود يضرب الرفش في الأرض حانيا ورافعا قامته في مشكاة القذائف.

اقترب كوزنيتسوف بهدوء، ونظر. كان أوخانوف يحفر ليخرج من كومة التراب جسم انسان مبطوح في المشكاة على وجهه، مضغوط، يتشبث في يديه بشيء تحته. كان المعطف على ظهره ممزقا. والظاهر أن صلية رشاشة من الدبابة أردته صريعاً.

سأل كوزنيتسوف بصوت كامد:

ـــ من هذا؟ من هذا، يا أوخانوف؟

أمسك أوخانوف الجسد المتصلب من كتفيه صامتا، وبعد أن انتزعه من شيء مسطح رمادي، قلب وجهه إلى فوق. كان من المستحيل التعرف على وجه القتيل. إن طبقة من التراب قد جمدت عليه. وتبين أن الشيء المسطح الرمادي هو صندوق قذائف.

ـــ إنه حمّال قذائف، قال أوخانوف ذلك، وغرز الرفش قرب صندوق مغرغرا بحنجرته، وقال: ـ يبدو أنه أصيب بصلية في ظهره عندما كان يأخذ القذائف. ومع ذلك، فأنا لا أفهم، يا ملازم: هل أنهم سهوا عن الدبابة، أم أنهم كانوا قد جرحوا قبل هذا. ـ وأشار برأسه نحو الدبابة ـ كان ثمة قذائف باقية! كانت عندهم قذائف؟ وكان تشوباريكوف ويفسيغنييف يرميان رميا إلهيا. وكانت الدبابة في تلك اللحظة تحترق!

أدهشت كوزنيتسوف الضراوة والانكار وعدم الرضى القاسي في لهجة أوخانوف، وكأنما هم، الذين لم يكن بمقدورهم أن يردوا عليه، كانوا الملومين في موتهم، وأنه، أوخانوف، لم يكن يريد اطلاقا أن يغفر هذا الموت لطقم كامل سحقته دبابة. قال كوزنيتسوف بصوت أجش:

ـــ نحن لا نعرف ماذا حصل هنا. فمن نلوم؟

قال أوخانوف، وقلع صندوق القذائف من الأرض؟ وألقاه بقوة على المتراس:

ـــ أنا لا أستطيع أن اصفح عن نفسي. كان عليّ أن اطلق القذيفة الثانية. ولكن كانت سبع دبابات تزحف عليّ. ومع ذلك فقد رأيت تلك الدبابة وكأنها على راحة يدي. إن دبابة تشوباريكوف هذه كانت توليني جنبها بوضوح. ـ وهنا خرج من المشكاة، ونظر إلى جسد حمّال القذائف الداكن المبطوح على الأرض، وقال: ـ شكراً، يا اخوان، على القذائف على الأقل. اين ندفنه، يا ملازم؟

أجاب كوزنيتسوف:

ـــ في المشكاة. وأنا ذاهب إلى مدافع دافلانيان...

كان كل شيء أيضاً في موقع الفصيلة الثانية محطماً وممزقاً ومطموراً، وفي كل مكان حُفر، أحدثتها القنابل فاغرة افواهها عن ظلمة، وكانت الشظايا تخشخش تحت الأقدام. إن الموقع لم يعد له وجود: لا شيء سوى متاريس محروثة لساحات المدافع، والخراطيش الفارغة المنتثرة، والمدفع الوحيد مسترجع محطم، المدفع الذي كان كوزنيتسوف يطلق منه النار، هذان فقط كانا دليلين على وجود موقع متروك خاو، هادىء لا رجاء فيه، وكانت الحفرة خلف المدفع، التي وثب فيها كوزنيتسوف أثناء الغارة إلى جندي الاتصال سفياثوف قد ثلمت إلى النصف بانفجار قذيفة. وبينما كان كوزنيتسوف يمشي تشربكت قدمه بسلك مقطوع، وفجأة أحسَّ إحساسا حادا بترهل هذا السلك المتشربك به، غير النافع لأحد الآن، حتى أنه شعر بتقلص في كل ما في صدره.

إن أفزع ما وعاه في تلك اللحظة لم يكن متمثّلاً فيما عاناه في كل

معركة اليوم، بل في فراغ الوحدة الداني هذا، في هذا السكون الفظيع على البطارية، وكأنما كان يسير في مقبرة منبوشة و لم يبق أحد في العالم حوله.

عاد إلى مدفع تشوباريكوف مُحِثاً خطاه، يريد الاسراع في رؤية أوخانوف والسماع له، فقد كان يجب أن يقرر معه ماذا يفعلان بعد، وبأي تسلسل: نقل القذائف، محاولة الاتصال بنقطة المراقبة، العثور على زويا، ومعرفة حالتها وأحوال الجرحى في المخبأ، وكيف حال دافلانيان والآخرين...

كان جسم الدبابة المحروق يبدو كتلة سوداء تسد موقع الرماية، و لم يكن أوخانوف موجوداً في الموقع ولا عند المشكاة. كانت الريح تصفر عابثة في ثقوب المعدن، وكان الرفش يبرز منحرفا على كومة رخوة من التراب في المشكاة مثل علامة مشؤومة على الوحدة كان ذلك هو قبر حمّال القذائف من مدفع تشوباريكوف.

ــ أوخانوف!..

و لم يأت رد. نادى كوزنيتسوف بصوت أحزم:

ــ أوخانوف. هل تسمع؟

ثم جاء النداء الجوابي من مكان وراء المتراس:

ــ يا ملازم، إلى هنا!.؟. تعال بسرعة إلى هنا!..

اندفع كوزنيتسوف إلى الأمام نحو أشباح دبابات ثلاثة، حيث كان أوخانوف، قافزاً عبر الأرض المتجمدة التي قذفتها القنابل، ولما وصل رأى ظل أوخانوف المحدد بالحرائق البعيدة، قرب الدبابة الأخيرة. وسأل كاتما أنفاسه:

ـــ ماذا؟ ماذا لاحظت يا أوخانوف؟

ـــ يبدو أن هناك أحياء هنا...

الآن كان من الممكن للعين أن تتبيّن بوضوح أوخانوف، والبندقية الأوتوماتيكية موضوعة على أهبة الاستعداد على ألواح الجنازير العريضة، وعند قدميه كانت حقيبة صغيرة جلدية مجهولة المصدر تشبه حقيبة ظهر ألمانية. وضع أوخانوف قفازيه في صدر سترته المبطنة، ونفخ في أصابعه، يدفئها، وألقى نظرة سريعة على كوزنيتسوف، من طرف عينه، وقال:

ـــ انظر إلى الأمام، إلى هناك. وأنصت... إلى هناك، يا ملازم، أنظر إلى الناقلتين المصفحتين على الربوة ألا ترى شيئاً؟ هل تتبين؟

ـــ لا أرى شيئاً! يبدو أن هناك صوت محرك.

ـــ ها هو... انظر، أنظر... ومض مصباح جيب... هل رايت؟

لم يكن من الممكن التأكد فيما إذا كان ذلك وميض مصباح، أو شعلة قداحة. ولكن وهجاً قصيراً لمع كالشرارة إلى الأمام، ما بين الجسمين الميتين لناقلتين مصفحتين على الربوة، قدّام الوهدة، ثم تحرك هناك شيء على نحو غير واضح: بضعة أشخاص باهتة في ظلام الليل ساروا في السهب في صف واحد، حاملين من المصفحتين شيئاً طويلاً، وأخذت أشباحهم تتضح باطراد على خلفية الوهج.

همس كوزنيتسوف:

ـــ نعم، إنهم ألمان.

زفر أوخانوف ببرودة في أذن كوزنيتسوف حين قال:

ـــ إسمع، يا ملازم، إنهم يدبرون أمراً. أنا لا افهم. ماذا سنفعل؟..

عندي قرص كامل من الرصاص. والبندقية تعمل كالساعة. ـ وفي الظلمة المهلهلة لمعت عينا أوخانوف كالزئبق في وجه كوزنيتسوف. ـ لنتركهم يقتربون قليلاً، ثم نبيدهم جميعاً وإلى الشيطان! يبدو أنهم حوالي عشرة اشخاص.

قال كوزنيتسوف دافعاً يد أوخانوف عن البندقية الأوتوماتيكية بتحذير:

ــ لا ترم. انتظر! أنظر ماذا يفعلون... إما هم من رجال الاسعاف، أو فريق للدفن. يبدو أنهم يجمعون رجالهم...

ومرة أخرى لمعت في السهب قدام الوهدة شعلة حجبها شيء ما، واشتغل محرك بصوت مخنوق، ودبَّ ظل طويل لآلية تصرف بجنازيرها، في قمة الربوة إلى اليسار، وتوقفت. وتقدمت الأشباح المبهمة إلى الأمام، وحملت شيئاً إلى الآلية بلا ضوضاء، وفي صف واحد، وأخذت تشحنه فيها.

أسند أوخانوف مرفقه على الجنزير، ونظر في السهب، وراح في الوقت ذاته يدفئ راحتيه بأنفاسه.

ــ يبدو أنهم أعوان الموت الألمان يجمعون رجالهم. ـ قال ذلك وقد زايله الشك، وسأل: ولكن ماذا ستفعل، يا ملازم؟

تصنّت كوزنيتسوف مقطّب الجبين: لم يعد يسمع محركا، ولا أصواتا. وكان يفصلهما عن الألمان والآلية حوالي ثلاثمائة متر.

قال كوزنيتسوف دون اقتناع تام:

ــ لا ترم، ـ ثم أضاف: ـ رجال الاسعاف أو دفّانون ليسوا دبابات. دعهم يجمعون. ـ وصمت مقلّباً فكره. ـ عليهم اللعنة! لن نبدأ المعركة قبل الأوان. لنذهب إلى المدفع.

ـــ يا خسارة! ذلك لأنهم لا يشكون في أننا موجودان هنا. صليتان ويسوّي الأمر! موقعنا ممتاز. كيف؟ نرميهم؟ - عاد أوخانوف يلح، وخوص عينيه، وقال: - حتى لا يزحفوا...

ـــ قلت لك لن نطلق النار على الدفانين، هل فهمت؟ هل ستربح المعركة إذا صرعت اثنين من الدفانين؟ نحن بدون ذلك تنقصنا رصاصات. هل تظن أن كل شيء قد انتهى؟ أنظر إلى هناك. إلى هذه الجهة، نحو القرية. ثم وراءك!

ـــ لا تستعمل التحريض معي، يا ملازم!..

جذب أوخانوف قفازيه من صدره، وحتى دون أن ينظر إلى الجهات التي أشار إليها كوزنيتسوف. لا إلى جزء القرية الجنوبي المحروق نصفه إلى الأمام وإلى اليمين، ولا إلى الضفة الشمالية التي احتلها الألمان ايضاً. لبس قفازيه وقال بتسليم:

ـــ حسنا. مقبول. ألم تر غنيمتي؟ وضرب الحزام العريض الذي يطوق سترته بمسدسين وتناول الحقيبة المستديرة من على الأرض، وقال: أخذتها من الناقلة المحكمة. وقد فتحتها فإذا برائحة سجق مقدد. شيء لا ضرر منه أبداً. أما هذا فلك، يا ملازم... على شجاعتك. خذه هدية من آمر المدفع.

فكّ أوخانوف حزامه ساحبا منه قرابا لامعا بمسدسه، غير أن كوزنيتسوف أوقفه:

ـــ أعطه لأحد رجال الطقم. عندي مسدس، - ومسَّ جيب معطفه المنتفخ بمسدس، متذكرا رائحة الزيت المقززة الشبيهة برائحة عرق انساني. - أنت تعرف أن الغنائم تهدى لكتيبة المؤخرة. هيا.

ضحك أوخانوف ضحكة مقتضبة.

ــ والله، كنت أعتبرك حتى اليوم زهرة، مثقفا... حتى ليتراءى لي أنك تحمرُّ احيانا. انك شاطر! من اين أخذت هذا؟ أنهيت الثانوية؟ لا شيء آخر؟

ــ مرة اخرى! لقد ضجرت يا أوخانوف.؟ هل تريد أن أقص عليك تاريخ حياتي؟

ــ اجبني: هل أنهيت الثانوية؟ أم جئت من المعهد؟ لقد كنا في المدرسة العسكرية في بطاريتين مختلفتين. وأنا لم أعرفك إلا عن بعد.

ــ انهيت الثانوية. ولكن أنت أيضاً تبدو...

ــ لا، يا ملازم، أنهيت سبعة صفوف، أما البقية فخارجها. يبدو أنني أكبرك بثلاث سنين.

ــ يعني؟

ــ تركت المدرسة. وأغرمت بقراءة نات بينكرتون وشرلوك هولمز، وأسعدني الحظ، وعملت في التحقيقات الجنائية في لينيغراد. وقد ساعدني عمي. فقد كان يعمل هناك أيضاً. وعلى العموم كانت حياتي بهيجة. هذه سني قلعت في أحد الأوكار أثناء حملة للتفتيش.

ــ أنا أرى أنها كانت حياة بهيجة.

ــ لا تستغرب. إنها مهنة نادرة. كان عملي مرتبطا بالمجرمين واللصوص ومن على شاكلتهم. وهذا بالنسبة لك عالم مجهول. كنت أسير على حد السكين، ولكن ذلك كان يروق لي. أنت لا تعرف هذه الحياة.

ــ لا أعرفها. ما الذي حصل لك في المدرسة العسكرية؟ لماذا لم تمنح الرتبة؟

ضحك أوخانوف:

ــ صدق أو لا تصدق. قبيل التخرج غادرت من تلقاء نفسي، ولكنني عدت، والتقيت بآمر كتيبة وجها لوجه. هل تعرف النافذة في المرحاض الأول بالقرب من المخرج؟ ما إن صعدت إلى تلك النافذة حتى رأيت هذا الميجور وكأن على رأسه طائر، يحط على عدة المرحاض كالنسر.

ــ كيف دخل في دماغك أن تغادر قبيل التخرج!

ــ هذا سؤال ساذج، يا ملازم. حكاية قديمة وقد انتهت. ولكن هل أدركت عنصر الفكاهة في المسالة؟ صعدت إلى النافذة، ولكني بدلاً من أن اهرب رأسا لم استطع أن أكبت ضحكي حين رأيت الميجور في هذا الوضع المكشوف. فحدّق فيّ مشدوها، أما أنا فقد انفجرت أضحك كالأبله، غير قادر على أن أضبط نفسي. وأقف على طوار النافذة في وضع حائر كالأحمق. وبعد ذلك بالطبع ارتفع الصياح والوعيد وأيقظ من النوم مساعد آمر الفصيلة دروزدوفسكي وهذا الأخير مساعد آمر فصيلة ممتاز من جميع النواحي، وأرسلوني إلى التوقيف.

ــ هل تصدق، لا؟

ــ لا؟

قال أوخانوف، وقد لمعت سنته الأمامية المعدنية، وقد كشفت عنها ابتسامة:

ــ هذا أمر يعود لك.

الفصل السابع عشر

سمع قرب المدفع هتاف مذعور آت من الحفرة:

ـ قف، من يمشي؟ سأطلق النار!..

أجاب أوخانوف ساخرا، وألقى صندوق القذائف بين مسندي المدفع:

ـ ارم، رأسا فقط! يجب أن تصيح هكذا، يا تشيبيسوف: «قف، من القادم؟» أزعق بصوت أقوى بحيث ترتجف ركبتاه. هيا اهتف مرة اخرى!

ـ لا اقدر... لا أقدر، أيها الرفيق الرقيب...

إنهم يطلقون النار. ـ تمتم تشيبيسوف من الحفرة تبريرا لنفسه بصوت مهتزٍّ ناشج. ـ قبل حين أشعلت سيكارة، إذا بصفير فوق رأس، فيصيب الرصاص المتراس. وها هم يطلقون النار من بندقية أوتوماتيكية!..

ـ من أين؟ اين يطلقون؟ ـ سأل كوزنيتسوف بلهجة صارمة، قبل أن يرى تشيبيسوف، وهو يقترب من الحفرة.

لم يطلع تشيبيسوف من الحفرة، فكان غير مرئي فيها، مندمجاً مع حوافيها، لا تبد منه إلا حركة قليلة، فقال كوزنيتسوف بنبرة آمرة مغيظة لنفسه:

ـــ لماذا أنت محجور في الأرض كالخلد، يا تشيبيسوف، أنت لا ترى حتى في النظارة المزدوجة!

ـــ أخرج من هناك. أين نيتشايف؟

ـــ أنا أراقب، أيها الرفيق الملازم. ونيتشايف في المخبأ... هم هناك... الممرضة زويا وصلت إلى هناك... والسائق روبين أيضاً... يتحدثون عن شيء... بينما يستمر اطلاق النار من تلك الضفة... ما إن قدحت لأشعل سيكارة حتى صفّرت رصاصة في المتراس. الأفضل أن تنحني، فلا أحد يعرف ماذا يحصل...

أمر كوزنيتسوف قائلاً:

ـــ راقب، يا تشبيسوف. فقط لا من قعر الحفرة. هل فهمت؟ إذا حصل شيء أرسل إشارة، طلقة من بندقية، وإلى المخبأ حالا. أعد كلامي.

ـــ إذا حصل شيء ـ أرسل طلقة من بندقية، أيها الرفيق الملازم...

ـــ فقط ألا تغفُ! لنذهب إلى المخبأ، يا أوخانوف.

وأخذا ينزلان على الدرجات المحفورة في المنحدر.

كانت قشرة النهر الجليدية محمرة صقيلة من الوهج.

كان مدخل المخبأ مغطى بستارة من المشمع، ومن ورائها كانت تأتي أنفاس حية، وأصوات غير مفهومة، التقط كوزنيتسوف من بينها صوت زويا حالا. وتذكر في نفس اللحظة، وقشعريرة خاطفة تسري فيه كيف ألصقت به جسدها الباحث عن حماية، وعيناها متقلصتان ـ كانت ركبتاها ملطختين آنذاك ـ في تلك الثواني النهائية، كما بدت، حين اكتشفهما ـ المدفع المتحرك، وحين غطاها هو بجسده دون إدراك تقريباً، غريزيا، وكان مستعدا لأن يموت على ذلك النحو، حاميا إياها

من شظايا القنابل. إلا أنه حتى الآن لم يكن يعي جيداً ما حصل له ولها بوجه خاص في تلك اللحظة. ربما انبعث ذلك من قرون سحيقة، حين كان الرجل بقوة الغريزة القاهرة يحمي المرأة.بمثل تلك التضحية والتفاني لبقاء النسل على الأرض.

وفكر كوزنيتسوف عند المدخل تماما بما سيكون عليه وجهها الآن، وتعبير عينيها، بعد أن يدخل هو وأوخانوف، وعقد بين حاجبيه، وسحب الستارة.

صمتت الأصوات. وسعل شخص سعال زكام.

ــ حبّذا لو عدّلت الستارة على نحو أتقن... القنّاصة يتصيدون!

كان المخبأ رطبا، باردا، وفي ظرف قذيفة فارغة كان يتصاعد لهب بنزين مزورق، مضيئا الجدران الرطبة. كان في المخبأ ثلاثة: زويا، وروبين، ونيتشايف. كانوا جميعهم يتدفأون منحشرين قرب النار العالية للمصباح المرتجل المفرقع. وأدار الجميع رؤوسهم نحو المدخل. كان الرقيب نيتشايف نصف مضطجع قرب زويا، يكاد مرفقه يمس ركبتيها ـ كان معطفه مفتوحا على صدره حتى بدت فانيلته ـ ورمقها ممتحنا، وانفرجت من تحت شاربيه ابتسامة مطلية بالميناء.

ــ وها هو الملازم، يا زويا، حضر إلينا بعد انتظار!

بدأ السائق روبين الجالس على صندوق قذائف فارغ يتململ، وأخذ يمسك بانهماك مبالغ ألسنة النار المتراقصة من ظرف القذيفة بأصابعه الكبيرة المتصلبة. حوّلت زويا رأسها بسرعة نحو كوزنيتسوف، وكأنها لم تصدِّق نيتشايف، حتى أن عينيها برقتا وشعَّتا رهبة، ثم ابتسمت بهدوء وارتياح. لم يكن لوجهها أي شبه بوجهها ذاك حين كانت عند المدفع، قبل وقت قصير. كان قد نحل وهزل، وظهرت تحت عينيها

ظلال نصف دائرية. واسودت شفتاها، وبدتا وكأنهما معضوضتان خشنتان، وومض في ذهن كوزنيتسوف: «لا، لا أحد يمكن أن يقبلها الآن من هاتين الشفتين السوداوين. ماذا حصل لشفتيها؟ ولماذا ينظر نيتشايف إليها هذه النظرات؟»

قالت زويا مبتسمة بفرح صريح:

ـــ الحمد لله، على أنكما جئتما، أيها العزيزان أنتظرتكما كثيراً، أردت أن أراكما على قيد الحياة. الحمد لله على مجيئكما. أين كنتما؟

ـــ في مكان غير بعيد. في ضيافة الألمان، يا عزيزتنا زويا. أنا والملازم تفقدنا مواقع الألمان. ردّ بذلك أوخانوف، وألقى نحو نار المصباح، وهو ما يزال واقفا محني الرأس الحقيبة الجلدية المستديرة البيتية كليا بأبازيمها النيكلية التي تغطت بالجمد، وقال: تسلّموا الغنيمة، يا إخوان. إفرش المشمع، يا نيتشايف! أغلب الظن أنكم جميعاً جياع كالخيول، ها؟ تحية كفاحية لرئيس رقبائنا العزيز. لا بد أن بوز البقرة هذا جالس في المؤخرة، في مكان ما إلى قصعته، يوسوس بميدالياته في شجاعة، هذا العتر القديم، ويحزن علينا!

وضحك نيتشايف، أما زويا فرمقت كوزنيتسوف من أسفل، عاضة على شفتيها، غير مبتسمة الآن، وعلى وجهها مسحة من الشفقة غير المخفية وظلّ روبين يدفىء على النار كفيه الضخمتين، مقسيّا وجهه القرمزي، رامقاً زويا من تحت حاجبيه المعقودين.

نادت زويا لا بصوتها، بل بعينيها الواسعتين:

ـــ يا ملازم، ـ وأومأت له قائلة، ـ اجلس معي، من فضلك. أنا أريد أن أتحدث إليك، لا. ـ وعضت شفتيها، واستدركت، ـ خذ هذه المذكرة. إنها من دافلانيان. رجاني أن أعطيها لك. لم أستطع في المساء أن أسلّمها.

كان من غير الممكن ترك الجرحى. لطيف أن روبين ساعدني. قل لي، يا ملازم، هل نحن مطوّقون؟

أخذ الورقة التي مدتها له، غير مجيب عن سؤالها.

سأل:

ــ كيف حاله، يا زويا؟ هل هو في وعيه؟

قال روبين بصوت موحش:

ــ ما بين هذا العالم والعالم الآخر. كان طوال الوقت يناديك. يقول يجب ان أقول له شيئاً...

كان كوزنيتسوف يعرف حالة الملازم دافلانيان الذي جرح جرحا بليغا في بداية المعركة، كما كان يعرف أنه مشرف على الموت، وبعد أن ألقى نظرة على زويا، لا على روبين، أدرك أن حالة دافلانيان ميؤوس منها كالسابق، فتح الورقة بحذر. وكان مكتوبا فيها بخط مخربش كبير، وبقلم رصاص:

«شخصي إلى الملازم كوزنيتسوف من الملازم دافلانيان. يا كوليا، لا تتركني هنا جريحا. لا تنسني. هذا رجائي إليك. وإذا لم نلتق فإن في جيبي الأيسر هوية الكومسومول، وصورة فوتوغرافية عليها اهداء، وعنوانان. عنوان أمي وعنوانها. فاكتب لهما، لا أعرف كيف، ولكن حسب تقديرك. فقط دون واطف. وهذا كل شيء! لم أنجح في شيء. أنا فاشل. أعانقك. دافلانيان».

نهضت زويا، وسرت في شفتيها لية تشنجية تشبه الابتسامة.

ــ أتمنى لكم الحياة أيها الأعزاء الصغار. أنا ذاهبة إلى الجرحى. بقيت عندكم طويلاً.

ـ زويا ـ قال كوزنيتسوف متجهما، ودسّ الورقة في جيبه، وسار وراءها نحو المخرج، ـ أنا ذاهب معك. خذيني إلى دافلانيان.

وعندما خرجا صمت جميع من في المخبأ.

ـــ زويا، كيف دافلانيان؟ هل يمكن أن أتكلم معه؟

ـــ لا يجوز الآن. أردت أن أقول لك... عندما يعود إلى وعيه يظل طوال الوقت يسأل هل أنت حي، يا ملازم. هل أنتما من مدرسة عسكرية واحدة؟

ـــ نعم... ولكن هل هناك أمل؟ هل سيعيش؟ أين جرح؟

أصيب أكثر من الجميع. في رأسه وفخذه. وإذا لن يرسل إلى كتيبة الاسعاف فستكون نهايته سيئة. وللآخرين أيضاً. لا أستطيع أن أساعدهم في شيء. عاجزة تماما! وأنا أخدعهم في قولي لهم ستأتي العربات قريباً. ولكن أظن أننا قد قطعنا عن المؤخرات تماما. فإلى أين ننقلهم؟ ومن يدري أين كتيبة الاسعاف؟

ـــ هل يوجد في نقطة المراقبة اتصال مع جهة؟

ـــ لا يوجد. إنهم طوال الوقت يديرون جهاز اللاسلكي. هذا ما أعرفه. رجال الاتصال مع درزدوفسكي هناك. أين كنت يا ملازم، بعد أن ركضت إلى مدفع تشوباريكوف؟ هل رأيت الدبابة التي سحقت المدفع؟

ـــ لم أكن أعرف أنك...

ـــ انسَ هذا، ملازم. أنا لا أتذكر شيئاً. كان احساسا مريعا، حتى ركبتاي كانتا ترتجفان. آه، نعم، يبدو أنني رجوتك شيئاً بخصوص المسدس. إن ذلك لمضحك، بالطبع. أنا أريد أن أعيش مائة عام، وألد

عشرة أطفال نكاية بنفسي وبالآخرين. هل تتصور عشرة وجوه نواعم ساحرة حول المائدة، وجميعهم ذوو رؤوس شقر، وأفواه ملطخة بالعصيدة؟ هل تعرف الصورة المرسومة على علبة عصيدة الأطفال؟

ــ لا أعرف... زويا، يبدو أنك تثلجت؟ لنذهب؟ لا نطل الوقوف.

ــ ملازم، عندما كنت قرب خاركوف اضطررنا إلى ترك الجرحى. وأنا أتذكر كيف صرخوا...

ــ هذه ليست خاركوف، يا زويا. لن نشق طريقنا إذ لا طريق أمامنا. بقيت عندنا سبع قذائف ولن يترك أحد أحداً. لا مجال حتى للتفكير بذلك.

توقفنا على بعد عشرين خطوة من المخبأ في درب ضيق دكته الأقدام على طول حافة الشاطىء. قال:

ــ برد لعين. على العموم يبدو أنك تثلجت؟

ــ لا، هذه حالة عصبية. أنا أعرف أنني لا أتركهم الآن. أنت قلت لا طريق أمامنا؟..

رفعت ياقة معطفها الفرائي، وهي تكتم اصطكاك أسنانها، ونظرت عبر كوزنيتسوف إلى الوهج، وإلى الضفة المقابلة التي يحتلها الألمان. كان وجهها الأبيض، المحاط بفراء الغنم، وخطا حاجبيها الطويلان، وعيناها الداكنتان على نحو غريب، المتبرئتان من شيء ما، تنم كلها عن عذاب متعب عميق في نفسها.

ــ لا أريد أن أترك الجرحى مرة ثانية. لا أريد... لا شيء أفظع من ذلك.

وفجأة تصوَّر كوزنيتسوف، والقشعريرة تسري في بدنه كله، أن

الألمان، بعد أن يحاصروا البطارية يأتون راكضين يصرخ بعضهم على بعض بالأوامر ويقتحمون المخبأ الذي فيه الجرحى، وفي أيديهم البنادق الأوتوماتيكية، ولا تلحق هي لتخرج مسدسها، وتنزوي في ركن، وتضغط بظهرها ويديها على الحائط كالمصلوبة. وسأل مخفضا صوته:

ــ قولي لي هل تعرفين استعمال السلاح ـ المسدس، البندقية؟

رمقته بنظرة، وضحكت ضحكة غريبة دافنة شفتيها في فراء ياقتها، وبدا خطا حاجبيها المختلجان.

ــ بشكل سيء جداً!.. والآن قل لي أنت، لماذا طوقتني بشكل غريب عند المدفع، عندما جبنت، هل حميتني؟ شكراً لك، يا ملازم. جبنت كثيراً.

ــ لم ألاحظ.

ــ انتظر!.. ـ وسحبت الياقة عن شفتيها، وكفَّ حاجباها عن الاختلاج الذي سببته تلك الضحكة المفاجئة، وقالت:

ــ ما حصل بعد أن ذهبت إلى مدفع تشوباريكوف؟

ــ قتل سيرغونينكوف هناك.

ــ سيرغونينكوف؟ ذلك الصبي الخجول، السائق؟

انتظر، سأتذكر الآن. عندما كنا نسير إلى هنا قال لي روبين عبارة مريعة: «لن يغفر سيرغونينكوف لأحد في الآخرة على موته». ما معنى ذلك.

ــ لا يغفر لأحد؟ ـ بادرها بالسؤال، وأحس حين أدار رأسه ببرودة الجمد على ياقته التي حكَّت خده مثل ورق الصنفرة، وقال:

ـــ ولكن لماذا قال لك هذا؟

وتابع كوزنيتسوف التفكير مع نفسه: «نعم، وأنا أيضاً مذنب. ولن أغفر لنفسي هذا. ليتني كنت أملك الإرادة الكافية آنذاك لأوقفه... ولكن ماذا أقول لها عن مصرع سيرغونينكوف؟ إن التحدث عن ذلك يعني التحدّث عن كل ما حدث. ولكن لماذا أتذكر ذلك، بينما ثلثا رجال البطارية قد هلكا؟ لا، لا أستطيع، لسبب ما، أن أنسى ذلك!...» أجاب كوزنيتسوف بحزم:

ـــ لا أريد التحدث عن مصرع سيرغونينكوف.

ـــ لا معنى للتحدُّث الآن عن ذلك.

همست:

ـــ يا إلهي، كم أنا مشفقة عليكم جميعاً، يا صبيان!..

أما هو فقد فكر، وهو يسمع صوتها الذي تلون بالعذاب والاشفاق على الجميع، ومعنى ذلك عليه أيضاً: «أمن المعقول أنها تحب درزدوفسكي؟ أمن المعقول أنه استطاع أن يمسَّ شفتيها المعضوضتين المتورمتين؟ وهل من المعقول أنها لم تستطع أن تلاحظ أن لدرزدوفسكي عينين باردتين لا رأفة فيهما، والنظر إليهما كريه؟».

وسألته بهمس سمع فيه النبرة الرقيقة الناعمة:

ـــ لماذا تنظر إليّ هكذا، يا ملازم، يا عزيزي؟ تطيل النظر إلي، وكأنك لم ترني من قبل قطُّ..

أجابها بصوت كامد:

ـــ سأعود دافلانيان فيما بعد. وهناك شيء آخر: لا تناديني بـ

«عزيزي». تشفقين علي أيضاً؟ أنا لم أجرح بعد و لم أقتل. لا سيما وأنا لا أريد أن أموت ميتة حمقاء لا معنى لها.

ـــ وهل توجد ميتة ذكية، يا ملازم؟ أريد أن تبقى حيا، أيها الصغير، وأن تعيش طويلاً. مائة وخمسين عاما، وأن تكون لك زوجة وخمسة أطفال. والآن، وداعاً، أنا ذاهبة إلى الجرحى... لماذا تنظر إليّ هكذا، يا ملازم؟ يبدو أنني أعجبتك بعض الشيء؟ ها؟ هذا ما كنت لا أعرفه! ـ واقتربت منه، ودفعت بيدها فراء ياقتها، ورنت إليه بدهشة منقصة، وقالت:

ـــ آه، ما أسخف وأغرب هذا كله، يا جندب!

ـــ ولماذا جندب؟

ـــ لقب عائلتك قريب من لفظة جندب...

ـــ هل من المعقول أنك لا تحب الجنادب؟ عندما أنا اسمع صريرها، أحس بارتياح شديد. وأتخيل، لسبب ما، ليلة دافئة، ودريسا في حقل، وقمرا أحمر فوق بحيرة. والجنادب في كل مكان...

هبت برودة من جليد النهر. وحركت هذه الريح السفلية الجليدية طرف معطفها. ولمعت عيناها المبتسمتان ولاحتا داكنتين وهما فوق الياقة الفرائية التي طوتها بيدها في قفازها الأبيض إلى الأسفل. كان خطا حاجبيها المغطيان بالجمد بارزين كالوبر، وقد تقست أطراف رموشها، ومرة أخرى خيِّل لكوزنيتسوف أن أسنانها ما تزال تصطك قليلاً وكتفيها ترتعشان كأنما قد تثلجت كلية. وتخيل له بوضوح تام أن هذه الأسنان المصطكة ليست أسنانها، وأن التي تحدثت الآن ليست هي، بل امرأة أخرى بصوت آخر، وأنه لا وجود للشاطىء، ولا للوهج، ولا للدبابات الألمانية، وأنه واقف مع امرأة بالقرب من مدخل البيت في ليلة

ديسمبرية، بعد التزحلق على الجليد، والعاصفة الثلجية تبدِّد الدخان من السطوح، والمصابيح فوق أسيجة الشارع في الظلمة الرذاذية... متى كان ذلك؟ وهل كان ذلك؟ ومن كانت معه؟

ـــ هل تريد تقبيلي؟... يتهيأ لي أنك تريد... هل عندك أخت؟ من المحتمل أن نُقتل كلانا، يا جندب...

ـــ اسمعي، ما الحاجة إلى ذلك. من تحسبيني؟ صبيا؟ أهذا ما يسمى غنجا؟ أم ماذا؟

ـــ وأي غنج هذا؟ لا، مطلقا، ـ وكتمت ضحكتها بياقتها بعد أن غطَّت بها نصف وجهها، واتسعت عيناها، ـ التغنج في البداية بالعيون فقط. يتحوَّل إلى زاوية، إلى أنف، وإلى شيء. وإذا كان هذا الشيء أنت...

ـــ وأنا لا أفعل ذلك، هل ترى؟ لا، يا ملازم. لقد حميتني قرب المدفع مثل اخت. بل وشعرت بذلك.

ـــ حقا ليست لك أخت؟

«قرب المدفع... كانت دبابات تسير، وكنا نرمي. وقتل كاسيموف. وكانت هي على مقربة، ثم جرت إلى مدفع تشوباريكوف، عندما اقتحمت الدبابة. ثم قلبت رشقة رشاشة سيرغونينكوف عدة ممرات أمام المدفع المتحرك... وطلع الدخان من المعطف على ظهره. وجه درزدوفسكي الملتوي المصعوق: «أمن المعقول كنت أريد له الموت؟...»

ـــ أنت مخطئة!

«درزدوفسكي! لا أستطيع أن أتصور ـ أنت ودرزدوفسكي!» كاد ينطق بهذا، إلا أن وجهها المرفوع إليه المترقِّب بحذر أضيء فجأة ببرق

أحمر كاشفا بشكل صارخ عينيها المتسعتين، وشفتيها، والجمد على حاجبيها الدقيقين، حتى أنه لم يدرك في الوهلة الأولى ماذا حدث.

همست شفتاها:

ــ ملازم، الألمان؟..

وفي تلك اللحظة تناثرت رشقات بنادق أوتوماتيكية في مكان في الأعلى، وراء مرتفع الشاطىء، وحلقت صواريخ من جديد. وعندما نظر إلى الأعلى، في الجهة التي كان فيها المدفع راودته الرغبة حالا في أن يقول لها صارخا بأن الواقعة قد بدأت، وأن الألمان قد بدأوا، وأن ذلك هو، في الغالب، هو الشيء الأخير الذي ينهي كل شيء، إلا أنه صرخ بصوت متفجّر لا بالشيء الذي دار في خلده:

ــ إجري إلى المخبأ! حالا! اذكري: لا أخت لي! ليس لي أخت! ولا تتفوهي بالسخافة! لم يكن ولن يكون!..

ودفعها تقريبا، وهو سائر في الدرب، منتقما منها لسبب ما بالكذب عليها، مبغضا نفسه على ذلك فابتعدت عنه خطوة إلى الوراء بوجه بائس متغير وندت هامسة:

ــ لم تفهمني كما يجب، يا ملازم! ليس كما يجب، يا جندب...

وركض هو على حافة الشاطىء إلى مخبأ الطقم. وهو يسمع صوت بنادق طويل معول في الأعلى، وإلى اليسار كان جليد النهر في الذبذبات السريعة لضوء الصواريخ يقترب تارة تحت الاقدام، وينزلق أخرى مسرعا ويبتلعه الظلام. ثم دوت طلقة بندقية في الأعلى، عند المدفع ثم أخرى، وترامت إلى الأسفل صيحة نداء أرنبية. وكانت تلك إشارة من تشيبيسوف، وتلك هي طلقته.

«إذاً، بدأ الهجوم... إذاً، الآن!.. وليس لنا غير سبع قذائف، سبع فقط...»

ركض كوزنيتسوف نحو المخبأ، ودفع الستارة جانباً، ورأى نار هاون «الكاتيوشا» البنفسجية، وعلى المشمع خبزاً مقطعاً، وعيون أوخانوف وروبين ونيتشايف المصوَّبة نحوه والفاهمة لشيء ما، فأصدر أمره:

ــ إلى المدفع!..

الفصل الثامن عشر

انتظر حتى يخرج الجميع من المخبأ. كانت دفقات متسارعة من الضوء تهز الليل، وتتّحد في السماء، وبالقرب من المدفع أزّت طلقة بندقية للمرة الثالثة في رعب، ولعلعت البنادق الأوتوماتيكية متوالية معربدة، ومرق سرب الرصاص فوق الشاطىء مضيئاً.

وأمر كوزنيتسوف مستحثاً:

ـــ بسرعة! بسرعة! إلى المدفع! إلى الأعلى!

وتردّد إيعاز أوخانوف في المخبأ كالصدى مكررا أمر كوزنيتسوف، ووثب نيتشايف وروبين خارجين إلى الدرب، وكأنما قذف بهما هذا الأمر، وهما يمضغان الطعام بعجالة. وظهر أوخانوف نفسه من المخبأ، بعد أن أطفأ المصباح، فكان آخرهم. ألقى البندقية وراء كتفه، وراح يلعن بشدة، وهو يمضغ طعامه أيضاً.

ـــ لم يتركونا نأكل. الملاعين! خذ شيئاً من السجق، يا ملازم. على الأقل تبلع بشيء- ووضع في يد كوزنيتسوف قطعة خشفاء- إلى المدفع! أسرعا، كالفتيان!

ـــ إلى الأعلى! جريا!

وضع كوزنيتسوف القطعة الخشفاء في جيب معطفه بشكل آلي،

وجرى على الشاطىء في المقدمة نحو الدرجات الترابية المؤدية إلى الأعلى. رمت الريح في عينيه ذرات حادة من الثلج، وكانت خطوط واطئة من رشقات البنادق الأوتوماتيكية تتوامض إلى الأمام، ومن هذا التوامض المتشابك فوق موقع المدفع انطلق للقائه صياحٌ متوحش.

ـــ رفيق ملازم! رفيق ملازم!

كان ذلك نداء تشيبيسوف. كانت مصابيح الصواريخ المشتعلة في السماء كضوء النهار تُضيء وتُبرز المدفع وساحته والحفرة، حتى إن كوزنيتسوف، وهو على بعد حوالي عشرة أمتار، رأى تحت قرمة ساحة المدفع، شخصا منحنيا على الأرض، وعلى بعد خطوتين منه، وراء المتراس، كان ثمة شيء داكن مبسوط على الثلج، شبيه بجسد إنسان منكبّ على بطنه.

«ألماني! تسلّل إلى هنا؟ أخذوا يهاجمون المدفع؟»

ـــ تبادر ذلك إلى ذهن كوزنيتسوف، وقبل أن يعي شيئاً، ركض نحو تشيبيسوف محنيَّ القامة، ووقع قربه إلى جانب عجلة المدفع.

ـــ ماذا؟ ماذا؟

كان تشيبيسوف يرتجف محموما، وهو جالس تحت المتراس، ولم تكن البندقية معه. كان يدق صدره بيديه، ويهز راسه، ويصرخ مولولا:

ـــ قتلته!.. يا رفيق ملازم؛ كان يركض إلى هنا. وأنا في الحفر متجمد بكل كياني وهو مقبل إلى هنا. الألمان يطلقون النار، وهو يركض نحو المدفع... ويصرخ «أنا منكم، روسي!» أما أنا فكيف أصدقه؟.. الألمان بدأوا اطلاق النار...

أمسك كوزنيتسوف كتف تشيبيسوف، وهزه بكل قوته:

ـــ إهدأ! هل تسمع؟ إشرح لي كما يجب!

ـــ قتلته، أنا قتلته! ـ كرر تشيبيسوف وهو يحرك قفازيه على صدره، وعيناه ترفّان بانشداه ـ كان يركض ويصرخ «أنا منكم، روسي!» وأنا، كيف أثق به؟ فقتلته!

قال أوخانوف:

ـــ أنظر، يا ملازم، إنها بندقية روسية.

ونهض إلى القرمة على ركبتيه، وسحب من وراء المتراس بندقية أوتوماتيكية بقرص مستدير، وأظهرها لكوزنيتسوف:

ـــ هل أن هذا سلافي، حقا؟

قال كوزنيتسوف، بعد أن فحص البندقية التي غطاها الجليد:

ـــ إنه واحد منا. اجلبه إلى هنا، يا أوخانوف!

فقط بحذر لا تقفز على المتراس!

ـــ سنحاول، يا ملازم.

تحرك أوخانوف إلى الأمام مثبتا ركبتيه في الأرض، واستلقى على المتراس، وأمسك بكلتا يديه كتفيّ الانسان الممدود بلا حراك، المطروح بلا حياة، الذي بدا في مظهره متحجرا، وجذبه بجهد وبطء إلى ساحة المدفع. عندما أخذ يقلب جسد هذا الانسان الذي لا حياة فيه ليسنده إلى المتراس في وضع أروح وقع إلى الخلف، إلى حافة القرمة، رأسه المعتمر بخوذة سوداء من التي يلبسها رجال الدبابات، واسعة عند الصدغين، ألمانية، وأخذ الرجل يئن أنينا ضعيفا ممطوطاً دون أن يفتح عينيه، ولمعت أسنانه المصفوفة مثل شريط ضيق. قال أوخانوف في شيء من التأكيد وقد انحنى نحوه:

كان الجميع يتجمهرون أمام المدفع ينظرون بارتياب تارة إلى الرجل المتوجع، وتارة إلى بروق الصواريخ، وتارة إلى التماعات طلقات البنادق إلى الأمام. وكان كوزنيتسوف صامتاً غير فاهم جيداً معنى لما جرى هنا، إلا أنه قد أيقن بالفعل أن هذا الرجل ليس ألمانيا، بالطبع، فقد كان من الممكن تمييز وجهه الفتى المدور بوضوح، تحت القلنسوة الألمانية السوداء، وجهه الروسي العريض الوجنتين الذي شوّهه الألم، الذقن النامي، وتفاحة آدم البارزة في رقبته، وقد تلطّخ كلاهما في الثلج، والسترة المبطنة بقشرة من الجليد، والكفين العاريتين المطويتين على الصدر، مثل كفي الميت، والحذاء اللبادي الذي مال بوزاه إلى جانب بلا حياة. كان يبدو أنه قد أمضى ساعات عديدة راقداً على الثلج في البرد.

سأل نيتشايف:

ــ من هو، يا ملازم؟ ربما من جنود المشاة؟ أو من رجال الدبابات؟ جريح هو؟ أم متجمد كليا؟

لقد ضم يديه...

فنشج تشيبيسوف من الخلف قائلاً:

ــ صوبت عليه النار، رميته. وكان هو يركض ويصيح وأنا...

أوقفه كوزنيتسوف قائلاً:

ــ كف عن التأوه، يا تشيبيسوف! لا تنطق بكلمة واحدة!

ــ من أين جاء المشاة؟ من أين جاء جندي الدبابات؟ لا أحد من رجالنا إلى الأمام... هاي، يا شاب! ـ نادى أوخانوف، وضربه على خده ضربة خفيفة، ـ هل تسمع، يا شاب؟ هل تسمع شيئاً؟

صرف الرجل بأسنانه، وزحفت تفاحة رقبته، وتحركت إلى الأعلى، ومرة أخرى خرجت من خلال أسنانه أنة ممطوطة.

أمر كوزنيتسوف:

ــ انظر، يا أوخانوف، هل عنده هوية. إفحص الجيوب.

قال روبين مخاطبا تشيبيسوف باستنكار:

ــ كيف هان عليك أن تطلق النار عليه، أيها الرأس الأحمق؟ كيف ترميه بلادة إذا كان يصرخ إنه روسي؟

ــ لم أعرف، أنا مذنب، مذنب!

فقال كوزنيتسوف متخذا قرارا:

ــ يا روبين! اذهب لاستدعاء زويا في الحال.

استدع زويا إلى هنا!

فأجاب روبين في قليل من الرغبة:

- سمعا. سنجلبها إذا كان ذلك يساعد...

- أجر إلى زويا، يا روبين، هل سمعت؟

فك أوخانوف السترة المبطنة من على صدر الرجل جالسا القرفصاء، وتحسس، وقلب على البطانة جيوب قميصه وبنطلونه المبطن، وأعلن بذهول: «الجيوب فارغة!» وطلب إلى نيتشايف بغيظ لا يخلو من تفريع:

- هات زمزمية الروم الألماني بسرعة. إنها في حزامك. هات!

وبعدئذ قرب عنق الزمزمية من أسنان الشاب الذي دفع رأسه متأوها، مقاوما دون وعي، وكأنه تحت التعذيب، إلا أن أوخانوف أمسك رأسه بيد، وسكب بضع قطرات في فمه بحزم، بل وبغلظة، قائلاً في الوقت ذاته:

ــ الآن، الآن، يا أخي...

كان الجميع ينتظرون. شرق الشاب، وقد تنفس من فمه، وسعل، وانثنى بكل جسمه، محركا علباءه طويلا على حافة المتراس. انفتح جفناه قليلاً، وأطل من عينيه الكدرتين المتواريتين تعبير الخواء الذي يكون عادة لدى المدنفين من المرضى في حالة نصف الوعي. انسحبت ذراعاه المطويتان إلى الجانب الذي كان يجب أن تكون فيه البندقية الأوتوماتيكية. عندئذ سأله كوزنيتسوف:

ـــ اسمع، يا فتى، مَن أنت؟ من أين جئت؟

ـــ نحن روس، وأنت من؟

طاف بصر الفتى في الوجوه، وفي الغالب أنه لم يسمع شيئاً، وما زال غير واع أين هو، ولا ماذا جرى له. وأخيراً صدرت منه همسة مبحوحة:

ـ قلنسوة... قلنسوة... اخلع...

ـ الظاهر أنه لا يسمع، يا ملازم. عنده قلنسوة ألمانية،من أين أخذها؟ هيا، أيها السلافي!

دفع أوخانوف القلنسوة عن رأسه، وضعها تحت علبائه. حمحم الشاب، ومد ساقيه، وطوف ببصره في السماء المتشققة بأضواء الصواريخ المضطربة، فوق الشاطىء، ثم نظر إلى المدفع، وإلى كوزنيتسوف وإلى أوخانوف، وما رف على وجهه كان يدل على أنه قد وعى كل شيء. قال الشاب بحشرجة هامسة:

ـ اخوان... من المدفعية! بطارية؟.. ركضت إليكم!.. أين غيورغييف؟ غيورغييف؟... صباحا...

وصمت مستفهما ببصره فقط، وفجأة تذكر كوزنيتسوف بحدس

لذعه مع كلمة «صباحا» هذه، الغارة، والحفرة في طقم تشورباريكوف، ورجل الاستطلاع المصدوم الذي كان في غيبوبة الإدراك يطلب استدعاء العقيد آمر الفرقة، نعم، إن رجل الاستطلاع ذاك تحدث آنذاك عن الذين بقوا في المقدمة...

قبل دقيقة كان هذا الشاب يشبه كثيراً هاربا من الأسر، أو جندي مشاة من الحراسة الأمامية ضل طريقه لسبب ما. إن الفكرة التي أطلت على كوزنيتسوف، من أن هذا الشاب من رجال الاستطلاع الذين حوصروا أثناء الحملة الاستطلاعية، والذين تحدث عنهم رجل الاستطلاع الأول الذي تمكن من الوصول إلى البطارية في الصباح في بداية المعركة، إن هذه الفكرة حتى هذه اللحظة كانت تبدو غير محتملة ومستحيلة. كيف استطاع أن يبقى حياً؟ واين كان خلال المعركة؟ لقد سارت في تلك الأرض إلى الأمام عشرات الدبابات، وتحلزنت في زحفها ونبشت السهب كله، وكانت القذائف تمزق كل متر من الأرض طوال اليوم...

قال كوزنيتسوف:

ــ أوخانوف، أعطه مزيدا من الروم. التكلم صعب عليه.

ــ أظن أنه قد تجمد كلياً، يا ملازم. تجمد حتى أظافره.

أجاب بذلك أوخانوف صابا في فم الشاب بضع جرعات أخرى من روم الزمزمية.

دفع هذا رأسه إلى الوراء، وكان قد استرد أنفاسه من توه. وهنا سأله كوزنيتسوف بصوت واضح عال:

ــ هل تستطيع الكلام؟ سألقي عليك أسئلة، وأجب أنت عنها. ذلك أسهل. هل غيورغييف من رجال الاستطلاع؟ في الصباح جاء إلى بطاريتنا. وأنت أيضاً من رجال الاستطلاع؟

ظل الشاب يحرك علباءه على القلنسوة، ثم انفرجت شفتاه:

ـــ اخوان... يوجد رجلان في حفرة قنبلة... رجلان منا مع ألماني... نصف حي... جرحى، ومتجمدون جميعاً... النهار كله كنا مع هذا الألماني. أسرناه عند الفجر، على الطريق العامة. من سيارة ألماني مهم... أرسلنا غيورغييف... ليقول...

قال أوخانوف متبادلاً النظرات مع كوزنيتسوف:

ـــ هكذا. هل فهمت، يا ملازم؟ رجل الاستطلاع ذاك الذي كان عند تشوباريكوف في الصباح؟ نفسه؟ هذا يحصل! يا أولاد الحلال! أهؤلاء هم رجال الاستطلاع؟

رد كوزنيتسوف بالايجاب، ومس كتف الشاب الذي كان يجلس مرتخيا على المتراس، مغمض العينين:

ـــ أين الآخران؟ بعيدان عن هنا؟ هل أنت جريح؟ والألماني معهما كما تقول؟ هل أطلقوا النار عليك؟

لم يفتح الشاب عينيه، إلا أنه استوعب معنى هذه الأسئلة. وأخذ يئن، والتقط كوزنيتسوف، وهو ينظر إلى شفتيه المتحركتين بلزوجة:

ـــ حوالي خمسمائة متر إلى الأمام. قدام الوهدة. كنت أستطيع التحرك... قررا إرسالي إلى هنا. ركضت.. والألمان هناك في كل مكان. سيارتان. ولم أستطع الرمي. يداي متجمدتان، وكأنهما مقطوعتان. وأطلقوا النار عليّ... يجب أن تأخذوهم، يا أولاداً رجلينا...

والألماني المهم جداً.

عاد كوزنيتسوف يسأل:

ـ على بعد خمسمائة متر تقريباً؟... ولكن اين بالذات؟ ونظر من وراء المتراس.

كانت الريح الصقيعية الجافة الضاغطة على الوجوه تقتطع أصوات صليات من البنادق الأوتوماتيكية وهي آخذة بالخمود، وترسل رشقات مسفة قادمة من السهب، كان السهب كله يتعرى متغيرا في ضوء الصواريخ، ويتشعبن، ويتماوج تموجات بيضاء، من تحت الأكوام السوداء للدبابات المحترقة التي كانت السماء الواطئة في لحظة الظلام تنهض وراءها كالجدار. وكان من غير الممكن التصديق بأن في مكان هذا السهب الذي نشرت فيه الدبابات والصقيع الحاد الموت يمكن أن يكون ثمة أناس، وأن يبقى فيه رجلان من رجالنا... كان يريد ان يفهم إلى اين كان الألمان يطلقون النار، ويريد أن يعرف اتجاه الطلقات، إلا أن أجسام الدبابات المحترقة الجبارة كانت تعيقه.

وسأل كوزنيتسوف مرة اخرى، وانحنى على وجه رجل الاستطلاع تماماً:

ــ خمسمائة متر تقريباً؟ والأدق؟ هل تستطيع أن تقول أدق؟

استنشق رجل الاستطلاع الهواء، رافعا إلى ذقنه أصابع متقلصة مضمومة كالعسالج، محاولاً أن يدفئها، وحركها إلا أنها لم تنثن من سلامياتها. دون أن ينزل يديه عن ذقنه قام بتحريك ساقه لكي ينهض إلا أن هذه المحاولة أوهنته حالا وارتطم بحافة المتراس وهمس:

ــ أرجو أن تنهضوني. يا اخوان... ساقاي أيضاً.... ناقلتان مصفحتان... أمام الوهدة تماما... استعجلوا، يا مدفعية!..

سأل كوزنيتسوف:

ــ أين زويا، أين روبين؟

قال أوخانوف:

ــ يبدو، يا ملازم أن الشاب سيفقد يديه يجب دلكهما بالثلج، ـ وتلفت يمنة ويسرة وقال: ـ تشيبيسوف! املأ قصعة بالثلج بسرعة! وهاتها إليّ. فقط أن يكون ثلجا نقيا، غير مخلوط ببارود.

ــ خذه من وراء الموقع. فهمت؟

كان تشيبيسوف طوال هذا الحديث مع رجل الاستطلاع قابعاً قرب المدفع، فألقى إلى أوخانوف نظرة حيوان ذليلة، ولملم معطفه على صدره.

وخرج صوت خافت مولول مع بخار أنفاسه من تحت بطانة قلنسوته التي تجمَّد عليها الجمد خطوطا، قال كوزنيتسوف مندهشا:

ــ ما هذا، يا تشيبيسوف؟ ماذا دهاك؟ انهض، واركض!

إلا أن تشيبيسوف زحف على ركبتيه إلى الحفرة ناشجا متمتما تمتمة متقطعة، وغطس في ظلامها. فقال نيتشايف في أثره، عاضا على شعرات شاربيه المتجمدة وكأنها مكسوة بالسكر:

ــ اصيب بالجمود تماما. بينما هو من أطلق النار على الشاب. الظاهر أنه فقد عقله كلياً. أنا ساذهب، يا أيها الرقيب الأول.

أوقفه أوخانوف قائلاً:

ــ اجلس! ليذهب هو ذلك نافع له! افرك خديك يا نيتشايف، سيكون ذلك نافعا أيضاً كأن وجهك مبودر بالبوردة. وفي نفس الوقت أدار وجه نيتشايف إليه بضربة خفيفة من قفازه:

ــ افرك وإلا لن يسلم خداك!

لذع الزمهرير كوزنيتسوف أيضاً، وقد اشتد الزمهرير إلى أقصاه، وصارت يداه تتخدران وهما في القفازين، ورجلاه وهما في الحذاء

اللبادي الطويل. وتقلص وجهه متشققا بأظافر الصقيع وبينما كان ينظر إلى رجل الاستطلاع، وإلى أصابعه المتقلصة بالقرب من حنكه، وإلى صلابتها الباردة العظمية تمثل بالتفصيل كيف قطع هذا الشاب الأمتار الخمسمائة إلى البطارية، دون أن يطلق نارا، فإن أصابعه، في الغالب لم تكن قادرة على أن تضغط على زناد البندقية الأوتوماتيكية وكان شعر الشاب يبدو وكأنه قد شاب لما علق فيه من حبات الثلج، ولاحت قطرات جمد كثيفة في منخريه والتصقت رموشه جمدا، ومع نفثات البخار كان يخرج من فمه همس:

ـــ بسرعة، يا مدفعية!.. خمسمائة متر من هنا!.. رجلان من رجالنا مع ألماني. وراء ناقلتين مصفحتين. في حفرة خلفتها قنبلة.

ـــ ألبسه الخوذة، يا أوخانوف.

أمر كوزنيتسوف، وجلس على مسند المدفع، وانتظر ريثما يضع أوخانوف الخوذة على رأس رجل الاستطلاع، وقال بصوت خفيض:

ـــ ماذا سنفعل، يا أوخانوف؟ خمسمائة متر.

والألماني إلى اليسار. فريق لدفن الموتى. فإذا ذهب ثلاثة مع ثلاث بنادق؟.. نأخذ قنابل يدوية. ونُبقي نيتشايف وتشيبيسوف عند المدفع للحيطة. يجب الذهاب.

ـــ ما رأيك؟

كان يعرف إلى أين عليهم أن يذهبوا، وفي الوقت ذاته كان يقنع نفسه بأنه لا يحق لهم في ألا يذهبوا، ولا يحق لهم في ألا يحاولوا التسلل إلى ذينك الجريحين من رجال الاستطلاع اللذين أبلغ عنهما الشاب، الذي قطع لنجدتهما خمسمائة متر دون اطلاق نار. وكان في قول

كوزنيتسوف عن السلاح ـ ثلاث بنادق أوتوماتيكية وقنابل يدوية ـ شيء شبيه بخداع النفس، ومع ذلك فقد كان يدرك أن ما من أحد منهما ـ لا هو بصفته آمر الفصيلة، ولا أوخانوف ـ يمكن أن يعيش مطمئن البال بعد ذلك إذا كان كلاهما لا يتخذ مثل هذا القرار. و لم يكن ثمة من مخرج آخر. وانتظر جواب أوخانوف واثقا برصانته وحنكته أكثر مما يثق بنفسه.

ــ هذا اقتراحي. فلنقرّر، يا أوخانوف. فإن رجال الاستطلاع خرجوا إلى مواقع بطاريتنا... سنحاول؟

كان أوخانوف صامتا ينفخ بقوة في قفازيه المخلوعين، دافعاً فيهما أنفاسه الدافئة. ثم لبسهما، وضرب بهما ركبتيه، ونظر إلى كوزنيتسوف من تحت غشاء الجمد الأبيض على جفنيه بأسى متظاهراً بالعداء.

ــ أيمكن أن تخترع شيئاً أكثر ذكاء؟ لن نخترع شيئاً آخر، يا ملازم! رغم أن خمسمائة متر ليست خمسة أمتار. المهم ألا يتجمد الزيت في البنادق من الصقيع! واسمع، يا ملازم. الألمان هدأوا.

كل شيء هدأ، وجمد إلى الأمام، وما من صلية، وما من رصاصة، وما من صاروخ. لا شيء غير الأشباح الرمادية للدبابات المحترقة في السهب، وثعابين الريح الأرضية المتلوية بينها، وهبّاتها على المتراس.

صاح أوخانوف:

ــ تشيبيسوف! أين تتوارى؟ إلي كالبرق! أين الثلج؟ أي شيطان!

خرج شبح تشيبيسوف الصغير من وراء المتراس بعجالة خرقاء. وعيناه حفرتان سوداوان من الرعب تحت بطانة قلنسوته اللامعة من الجليد. ودبَّ إلى المدفع على الأربع شاحطاً بحذائه، ساحباً على الأرض قصعة مملوءة ثلجاً، هاتفاً بلا صوت:

ـــ شخص يجري هناك! يجري على الشاطىء! إلى هنا!..

قال أوخانوف واختطف القصعة من يديه:

ـــ من يجري؟ ألا تفهم ماذا تقول؟ نيتشايف دعه يشرب من الزمزمية، فسيعود إلى وعيه!

ـــ انهم يركضون هناك... إلى هنا... لم أتبين...

كرر تشيبيسوف قوله همسا، وتراجع، وهو يهمس، متقهقراً على رجليه المطويتين إلى النصف، عن الشاب الذي راح يئن أنينا عاليا، عندما وضع أوخانوف يده في قصعة الثلج.

والآن صار كوزنيتسوف نفسه يسمع كركبة أقدام راكضة، وقرقعة الثلج المقتربة إلى يمين المدفع. اختطف بندقية رجل الاستطلاع هاتفا «من القادم؟» إلا أن شبحين ظهرا من شبه الظلمة على خلفية الثلج، وصدرت صيحة جوابية من هناك:

ـــ جماعتكم! ألم تعرفونا؟.

وقد عرفهما. كان درزدوفسكي وآمر فصيلة الإدارة رئيس الرقباء غولوفانوف. فعلى مسافة قصيرة على مرتفع الشاطىء أبرز الوهج المتخافت على الجانب الآخر من القرية معالمهما بوضوح.

دخل كلاهما موقع الرماية راكضا وكان درزدوفسكي في معطفه المفصل جيداً، الضيق، المزرر باحكام، التقط أنفاسه تعبا، وقال:

ـــ من أطلق النار؟

وفجأة أحس كوزنيتسوف برعدة عصبية حادة في جسمه من مجرد سماع رنة صوته الآمر، فاستدار والبندقية مضغوطة على صدره، وجلس على المسند مطبق الشفتين مفهما اياه بصمته أن ما حصل بينهما لم ينس.

ـــ ماذا هنا؟ يا الرقيب الأول أوخانوف، ماذا تفعل هنا؟ جريح؟ من أين؟

مر درزدوفسكي بكوزنيتسوف مندفعا، ملقيا أسئلته أثناء سيره، وقد نشر في الجو رائحة معطفه المتجمد، ولكي يتأكد بنفسه، انحنى على أوخانوف، وعلى رجل الاستطلاع، وأشعل مصباحا للجيب. ونفذ الضوء إلى التضبب الأصفر، ومس الأسنان المطبقة بقوة في وجه الشاب المتقلص، المعكوف الآنف، ولمعت على وجنتيه قطرات جمد كونتها دموع الألم.

ـــ مدفعية!.. مدفعية!.. هما في حفرة قنبلة... لماذا ألبستموني الخوذة، أنا لا أسمع...

ـــ أطفىء المصباح، يا آمر البطارية! ما الداعي إلى ذلك؟

قال أوخانوف ذلك دافعا المصباح بكتفه بغيظ، وهو ماض في فرك يدي الشاب بالثلج.

وفي تلك اللحظة صدرت طلقتان من الشاطىء الآخر، وكأنما في انتظار اشارة، وسرت وميضات نار فوق المتراس، فأحنى درزدوفسكي رأسه قليلاً، مخبئاً مصباحه المنطفي، ونطق بسخرية، غير مندهش كليا:

ـــ أنتم في وضع لطيف لا أمرح منه! ـ ثم سأل بلهجة تعنُّت معروفة عنه، ـ من هذا الشاب؟ وكيف وصل إليكم؟

ـــ لعنة على روبين. إنه أبطأ من سلحفاة، ـ قال أوخانوف، ثم أجاب درزدوفسكي بتراخ مفرط، ـ إن هذا الشاب هو رجل استطلاع، يا آمر البطارية. من جماعة رجال الاستطلاع الذين خرجوا في الليل، و لم يعودوا. وإذا تذكر فإن الأول قد جاء إلينا أثناء الغارة. وهو يدعى

غيورغييف، وهذا هو الثاني. وتبين أن هناك اثنين آخرين حيين أيضاً. لا يستطيعان التحرك... والشاب يقول إنهما متجمدان وجريحان. ثم إن في صحبتهما أسيرا أيضاً. يوما كاملاً. تلك هي الحكاية، يا آمر البطارية.

عاد درزدوفسكي يسأل:

ـــ رجلان من رجال الاستطلاع، ومعهما أسير؟

وماذا؟ أهذا مضبوط؟

ـــ مع أسير؟ ما الداعي إلى الكذب، يا أوخانوف؟

سأل رئيس الرقباء غولوفانوف الضخم بفجاجة وهز ذراعه جالساً القرفصاء، فاحصاً ببصره رجل الاستطلاع الذي كان يئن بين الحين والاخر أنينا خافتا، ـ هل هو أعلن ذلك؟ ولكنه فاقد الوعي، في حالة هذيان. الدبابات هناك قلبت الأرض قلبا. فكيف يبقى رجال استطلاع فيها؟

ـــ يحصل الذي لا يحصل. ألم تسمع بذلك؟

ـــ هل تصدق بالهذيان، يا أوخانوف؟ ولكن من أين ظهر هذا الشاب؟

ـــ اسكت، يا غولوفانوف، إذا كنت لا تفهم! ـ ارتفع صوت درزدوفسكي بذلك، وانتصب بحدة ولدانة وكأن لولبا نط في داخله، وقال، ـ هل نسيت رجل الاستطلاع الذي أرسلوه إلى مقر الفرقة؟ وهل نسيت أن رجالا من الجيش كانوا ينتظرون الحملة الاستطلاعية هنا؟ هل ذاكرتك ذاكرة صبية؟ ومع ذلك فأنت آمر فصيلة الإدارة! إذن، احضر لي جنديين من خدمة الاتصال! مهما كلف الأمر صلني بقيادة الفرقة. هل فهمت، يا غولونوف؟ أعطيك عشر دقائق لا غير. أعد أمري!

استقام رئيس الرقباء غولوفانوف بكل قامته غير المتناسقة وبخفة غير منتظرة، وكرر الأمر، وقفز على المتراس بسرعة. وطبطب كالفيل مبتعدا من موقع الرماية إلى نقطة المراقبة التابعة للبطارية.

ضغط كوزنيتسوف على أخمص بندقيته الأوتوماتيكية الموضوعة على ركبتيه بأصابعه التي كانت تفقد حاسة اللمس، وقال أخيراً:

ــ اسمع، يا درزدوفسكي، لقد تأخرت هذه المرة كشأنك دائماً. أنا وأوخانوف اتخذنا قرارنا بالذهاب. وفي امكانك أن تطمئن. هيء جهاز اللاسلكي، وأبلغ...

ــ اين الجريح، يا أعزاء؟

لم يكمل كوزنيتسوف كلامه؛ فقد دخل روبين، أو بالأحرى، تدحرج على رجليه القصيرتين إلى موقع الرماية في خشخشة من الثلج، ولهاث متقطع، وفي الحال لمع معطف زويا الفرائي مثل بقعة بيضاء. وقد رنَّ صوتها في الهواء القارس رنينا زجاجيا ملحَّناً، وانقطع على الفور. ثم تحركت بقعة المعطف البيضاء فوق الأرض إلى يسار المدفع، وعاد صوت زويا إلى الظهور، في رنة أخرى هذه المرة:

ــ اترك القصعة، يا أوخانوف. إنه جريح. أعطني سكينك... أمسك قدمه بهذا الوضع، سأقطع حذاءه. فقط بحذر، أمسك من الكعب، أنظر، فقد انتفخ من تجمع الدم.

«أمن المعقول أن تشيبيسوف قد أصابه»؟ ـ فكر بذلك كوزنيتسوف وقد تصوَّر هذه السخافة الممكنة الوقوع، وصكَّ على أسنانه إلى حد الألم. وقد عرف ما يفعل الآن، وأي أمر سيصدر، ذلك لأن الانتظار كان مستحيلا. كان البرد يخدش وجهه مثل ورق صنفرة، وقد تجمد ظهره وصدره ويداه على البندقية، ـ وكان يجب القيام بعمل، المخاطرة، كان يجب أن يتحرك في الحال على الأقل، ورغم كل شيء.

وكان، على أية حال، واثقا من أنهم سيقطعون هذه الأمتار الخمسمائة تحت غطاء الدبابتين المحترقتين أمام البطارية، ويصلون إلى الناقلتين المصفحتين المحطمتين اللتين تقع في مكان خلفهما حفرةُ القنبلة التي احتمى فيها رجلا الاستطلاع. ولكن هل هما على قيد الحياة هناك؟... ولماذا انقطع اطلاق الرصاص إلى الأمام فجأة؟

ــ «نعم، الآن... فقط ألا نلتقي بألمان في طريقنا إلى حفرة القنبلة، وألا نكشف عن أنفسنا مقدما! وأن نصل دون اطلاق نار».

ضرب قرص البندقية الأوتوماتيكية بجمع يده حتى من دون أن ينظر إلى درزدوفسكي، ونهض، وسار نحو الحفرة شاعراً بفراغ خفيف في صدره، ونادى بصوت خفيض مبحوح:

ــ أوخانوف، روبين. تزودا بالقنابل اليدوية وبندقيتين، وتعالا إلي!

صار أوخانوف وروبين الآن واقفين إلى جانبه في الحفرة، كان كلاهما يعبىء جيوبه بالقنابل اليدوية منهمكاً صامتاً، ومعطفاهما يخشخشان وهما يمسان الأرض المتصلّبة.

ــ الملازم كوزنيتسوف!

اقبل درزدوفسكي سريعا، وصار على بعد خطوة منه، مشدودا كله كالوتر، على عادته دائماً، متهيئاً لاتخاذ عمل، ملموسا، متسما بالبرود، كما كان من قبل في القطار، وأثناء المسيرة.

قال مؤكداً ومصمماً:

ــ اسمع، يا كوزنيتسوف، يجب الخروج إلى رجال الاستطلاع في جماعة كبيرة. لا يستطيع ثلاثة أشخاص أن يحملوا ثلاثة. أنا سأذهب أيضاً، مع رجلين من رجال الاتصال. سأذهب في أثركم، على يمين الناقلتين المصفحتين المحروقتين.

أجاب كوزنيتسوف بنفور بارد:

ـ يمكنك أن لا تقلق، يا آمر البطارية. لئن بقي هنا أحد على قيد الحياة، فسنستطيع حمله.

ــ لا، لست قلقا، يا كوزنيتسوف! ولكني سألحق بكم! ـ قال درزدوفسكي. واختلج منخراه، ورفّت رموشه الأنثوية، وتطلع في كوزنيتسوف من رأسه حتى قدميه.

وفي غضون ذلك دبت حركة قرب المدفع، ولاحت شخوص في الساحة، ومرت زويا ونيتشايف يحملان على ايديهما رجل الاستطلاع باتجاه الشاطىء، وقد ضمدت ساقاه تضميداً سميكاً جداً وسمع كوزنيتسوف همسة خفيفة كالنسمة، لا يكاد يتبيّنها:

ــ مع السلامة، يا أولاد. عودة ميمونة! عسى أن لا يصيبكم سوء!

ولم يرد كوزنيتسوف عليها.

الفصل التاسع عشر

كانت الحفرة التي اضطر رجال استطلاع الفرقة إلى الاحتماء بها عند تأخر عودتهم من حملة الاستطلاع، ومداهمة المعركة لهم، حفرة هائلة من تلك الحفر التي تخلفها القنابل، واقعة على بعد مائة متر من الوهدة. والظاهر أنها، في بداية المعركة كانت تدخن سوداء رهيبة فاغرة الشدق بعد الغارة الجوية، وسط بياض السهب المشمس، فكانت الدبابات، وهي تهاجم من الوهدة تتحاشاها، مصعدة في المرتفع، ثم مرت الناقلتان المصفحتان بها على بعد بضعة أمتار، وكانت مدافع البطارية تصوب النار عليهما تصويبا مباشرا، فأحرقتهما بسرعة.

عندما اندفع كوزنيتسوف وروبين إلى حافة الحفرة، ورأيا من الأعلى في قاعها الرمادي الداكن أوخانوف، الذي كان قد أرسل قبلهما للاستكشاف، منهمكا بشيء في بطن القاع، كان يشغل بال كوزنيتسوف شيء واحد هو: هل بقي أحد من المستطلعين سالما وهل هما هنا؟ نزل راكضا على المنحدر الشديد، ولهث بالكاد:

ـــ احياء؟

اجاب أوخانوف:

ـــ هنا، اثنان...

كان هذان الاثنان يرقدان في قاع الحفرة، متماسكين وكأنهما إلى

الأبد. وكان أوخانوف، وقد جلس القرفصاء، يبذل جهودا شديدة في محاولة عابثة لفكهما، وفصل جسديهما، وكأن أحدهما ملحوم بالآخر. كان يمسك بكتفيهما، ويدفعهما كليهما. والعجيب أن علائم حياة واهنة ما تزال تبدر منهما. فقد طلع بخار أنفاس من قلنسوة أحدهما التي حببها الجمد بكثرة، وكان هذا يرتدي مريول تمويه وتحولت إلى أوخانوف عيناه اللتان لا تكادان تعيان تحت طبقة كثيفة من نديف الثلج، وتقلص حاجباه وانفرجا مثل اسر وعين سميكين مزغبين، وخرج من حنجرته نحيط مبهم.

ــ فك يديك، يا فتى، فك يديك! نحن جماعتكم. روس! هل تعي؟ ـ قال أوخانوف مقنعا ـ والآن، انظر إلي، يا أخ!

وقال روبين حائراً:

ــ قل لي بحق الرحمة، إن صاحب المريول هو من رجالنا، وذاك ألماني، على ما يبدو؟ أنظر، إنهما يتنفسان. يا للعجب!

اعلن أوخانوف:

ــ الثاني ألماني، يا ملازم. انظر!

وفي تلك اللحظة فقط ميز كوزنيتسوف بصعوبة الواحد عن الآخر ـ رجلين يرقدان متماسكين في قاع الحفرة في احتضان متيبس. وهذان الرجلان هما أحد رجال الاستطلاع، وألماني بادي الضخامة مكتنز يرتدي قبعة فرائية، ومعطفا أبيضين تماما مما تراكم عليهما من ذرات الثلج كحبات الملح الكبيرة. كانت يدا الألماني المقفزتان ملويتين على ظهره، ووجهه الأبيض العظمي اللون قد حجب إلى النصف بباقته الفرائية، ولم يكن فمه قد ألقم بما يمنعه من الصراخ. وعندما أحس بوجود أناس بالقرب منه اكتفى بارسال حشرجة، دون أن يفتح فكيه المدورين

الشبيهين بشدقي كلب كبير، داسا خده في الثلج. وقد برزت أبر ثلجية صغيرة كالشوارب الطويلة المبللة من منخريه الواسعين المنتفخين.

ــ يا فتى، أطلق يديك! نحن من جماعتك، هل فهمت؟ جئنا إليكم...

وأخيراً استطاع أوخانوف باستعمال القوة اطلاق الألماني من بين يدي رجل الاستطلاع الماسكتين به كالطوق، وكان الرجل يئن أنينا لا يكاد يسمع ـ وأغلب الظن أنه كان خلال ساعات كثيرة يحتضن هذا الأسير من ظهره محاولا الاحتفاظ بآخر دفء في جسده وفي هذا الأسير. وقال أوخانوف لكوزنيتسوف وهو ينحي رجل الاستطلاع قليلا:

ــ الألماني قوي! أما الفتى فأمره مشكوك فيه،

ولكنْ، اللعنة لماذا لم يخلع عن هذا الكلب معطفه؟ توجد بطانة من الفراء، انظر، يا ملازم! أكان يرعى هذه التحفة الثمينة! هل نفك يديه؟ الآن، لن يهرب...

قال كوزنيتسوف مستعجلا:

ــ اين الثالث؟ أنا لا اراه. لقد قال ذلك الشاب أن هناك رجلين من رجال الاستطلاع. أسرع، يا روبين، إلى الأعلى. ربما أنسل إلى هناك؟ فتش قرب الحفرة!

نظر كوزنيتسوف إلى رجل الاستطلاع الذي كان مستلقيا على ظهره دون صوت، وقد انحدرت قلنسوته حتى عينيه المغمضتين وكانت مغطاة بالجليد مثل قناع من السكر، وكان مريول التمويه كله ممزقا على صدره وعند البطن، ولا وجود للحزام، وكان الثلج في تمزقات المريول يتجمد على السترة المبطنة كاللزقة. وقد انفرجت ساقاه اللتان بدتا، وهما في البنطلون المبطن، مثل قطعتين من جذع الشجر، وتلطخ

حذاؤه الطويل بالتراب المعجون بالثلج. وكانت احدى الساقين بارزة على نحو خاص، وقد لفت بشيء عدة مرات عند الركبة، وكان يتدلى من الركبة إلى الثلج كاللسان شيء ملوي دقيق يشبه حزاما متجمدا. كان ذلك حزام الوسط بالفعل، مشدودا كالحبل المفتول تحت الركبة على ضمادة غير متقنة شدت على عجل ومنذ وقت طويل فوق البنطلون المبطن مباشرة. والظاهر أنه لم يخلع حذاءه، ولم يقطع بنطلونه، بل أراد أن يوقف الدم بحبل مفتول.

والظاهر أنهم جميعاً، وقد وصلوا إلى القرية في الصباح الباكر، قد اصطدموا بالألمان، وبالكاد وصلوا إلى هنا، حين بدأ القصف. ولكن أين السلاح؟ وكم كان عددهم؟ وأين الثاني؟

لم يكن في الحفرة سلاح رجل الاستطلاع. كان هناك قراب مسدس أجنبي ضخم مع حزام على منحدر الحفرة منتزع من ألماني، كما يجب أن يفترض، وقد اندفن إلى النصف، وبرزت حافته من كومة ثلجية. أخرج كوزنيتسوف القراب من الثلج وكان فارغا. وقد رماه ثم انحنى على رجل الاستطلاع، وحاول أن يزيح حافتي القلنسوة عن وجهه قليلاً، ولكنه لم يفلح. كان كل شيء قد تجمد على وجهه، كل شيء كان في قشرة صلبة، ويخشخش. سحب كوزنيتسوف يده، وقال وامله خفيف في سماع رجل الاستطلاع له:

ـــ اسمع، يا شاب. نحن قومك، روس... كنتما هنا اثنين. فأين الثاني؟ إلى أين ذهب الثاني؟

إلا أن ما استطاع أن يحدسه في النحيط المكره من خلال القلنسوة لم يكن من الممكن ضمه في كلمة معقولة. إن هذا النحيط كان مؤلفا من مقطعين:

ـــ الـ ـ ما... الـ ـ ما...

ودار في خلد كوزنيتسوف: «ألماني؟» هل اراد أن يقول شيئاً عن الألماني؟ أم يعتبرني ألمانياً؟»

وتردد صوت أوخانوف:

ـــ هل نبدأ باخراجهما، يا ملازم؟ هل علينا أن نحمل على أكتافنا هذا الأحمق الضخم أيضاً؟ أنظر إليه، ماذا يفعل؟ هل جن أم توحش؟ هل أسدد له ضربة بين عينيه، ليهدأ؟

ولم يفهم كوزنيتسوف في البداية ماذا جرى للألماني. كان هذا، بعد أن فك أوخانوف يديه، يتدحرج في قاع الحفرة مثل جذع أبيض، ويضرب الثلج بحذائه الفرائي ويديه بضراوة، ويدفع رأسه كالمصروع، ويلتوي، ويضرب صدره على الأرض، مرسلا عواء مولولا. وقد تكشرت اسنانه الزرق، وكأنها من ضحكة لا صوت لها، واتسعت عيناه بشكل هستيري. كان بين احتمالين: إما أن يكون البرد قد افقده وعيه، واما أنه يتلمس الدفء، شاعراً، ربما، بفرح وحشي لانتهاء رقاده المعذب في الحفرة، وهو بين ذراعي المستطلع الروسي المتحجرتين، في انتظار الموت.

ـــ فير فليوختر، فير فليوخترا ـ تمتم الألماني بهذه الكلمة الأجنبية غير المفهومة بحشرجة، وقد ظهر الزبد في أطراف فمه وهو يتقلب من جانب إلى جانب ـ روس... روس! فير فليوخترا..

قال أوخانوف وهو يراقب الألماني بفضول متساهل:

ـــ يبدو أن هذا الألماني من ذوي الرتب، وهو يشتم يا ملازم، ها؟ في نوبة عصبية؟

أجاب كوزنيتسوف:

ـــ يبدو ذلك.

ثم همد الألماني، ورقد على جنبه، وأخذت يداه المقفزتين بقفازين فرائيين تعبثان في موضع أسفل بطنه، وتفتحان طرف معطفه. وتوتر ظهره، ثم ألقى رأسه إلى الوراء، مبحلقا عينيه، وأصدر صوتا نابحا ما بين البكاء والعويل، ضاربا الثلج بحذائه الفرائي بتململ.

قال أوخانوف للألماني بسخرية مشفعا كلامه بإشارة:

ـــ انفخ في بنطلونك، يا ألماني، فستتدفأ أكثر. لا أحد يفتح لك فتحة بنطلونك هنا. تحمل، أيها الوباء الهتلري. لا يوجد هنا الجندي الخادم الذي يحمل لك ما تبول فيه.

ـــ فير فليوختر روس، فير فليوخترا.. ايخ شتيربه(٧)، روس... شتيربه، روس...

ـــ شتيت اوف(٨)!

أمر كوزنيتسف بالألمانية فجأة، متذكرا بعسر الكلمات الألمانية التي عرفها في المدرسة، وتقدم من الألماني الذي همد في قاع الحفرة، آمرا من جديد:

ـــ شتيت أوف! انهض!

اكتست عينا الألماني في وجهه العظمي اللون صلابة الزجاج، وانخرطتا من اسفل إلى أعلى، وإلى جانب كوزنيتسوف، وتسمرتا على

(٧) أنا أموت (بالألمانية). المعرب.
(٨) انهض (بالالمانية). المعرب.

بندقيته. أطبق الألماني فكيه المصطكين من البرد، ورد مرسلا من خلال حنجرته صوتا مكظوما. لكز كوزنيتسوف كتفه بالبندقية، وكرر امره بالألمانية بحدة أشد:

ــ شتيت اوف، شنيل! بسرعة! شتيت أوف، قلت لك!

عندئذ جلس الألماني مصعوقا، وحاول النهوض في الحال، إلا أن قدميه لم تحملاه، وسقط على منحدر الحفرة على جنبه. وكأن أحداً قد دفعه. ومرة اخرى أرسل قرقرة ناشجة، واعتمد على يديه، ونهض على الأربع، وانتصب ببطء، وتريث. ولما انتصب وقف مخلخلا مترنحا، وكان أعلى قامة من كوزنيتسوف، ضخماً جداً، متين الجسم، ممتلئاً جداً في معطفه ذي الحاشية الفرائية، وهكذا كانت نظرة الألماني الأجنبية هذه مرئية عن قرب ـ نظرة تنتظر الضربة، متحفزة، وعازمة في الوقت ذاته وبالارغام، أن تظل محتفظة باستعلائها.

ــ سترافقه أنت، يا أوخانوف. الظاهر أن هذا الخنزير له اعتبار!

قال كوزنيتسوف ذلك بشعور قارص مدغدغ لأن أمامه، وبهذا القرب، يقف هتلري حي مقيت حتى ولو مر في المخيلة. نعم، إنه كان يتصورهم جميعاً على هذه الشاكلة، ولهذا لم يكن يشك الآن، ولو للحظة واحدة، في أن في نفس هذا الأسير لم يبق اي شيء طبيعي انساني يتصف به الناس الاعتياديون.

كانت تفصل بينهما هوة الآلام، والدم، وتصورات أحدهما للآخر القائمة على البغضاء، والاغتراب وعدم فهمم أحدهما لحياة الآخر، ومفاهيم متعادية غير قابلة للتوفيق. و لم يكن بينهما إلا الحرب، والسلاح المعد للاطلاق.

قال كوزنيتسوف في غيظ:

ـــ ستكون مسؤولا عنه!

ـــ سأوصله، يا ملازم. سيسير بنعومة الحرير.

أعلن أوخانوف ذلك، وتقدم، وتحسس جيوب الألماني بغلظة ودون كلفة، وأخرج قداحة، ومعها علبة سكائر مسحوقة، وفك المعطف دون استحياء، وأخرج محفظة من القميص الذي وسوست عليه النياشين، وبعد ذلك طوى حافة ردن معطفه المتصلب من الصقيع، وقال في شبه تساؤل:

ـــ انظر كيف اعتنى به رجال الاستطلاع.

أبقوا كل شيء معه... هل آخذ ساعته، يا ملازم؟

ـــ اتركها، عليها اللعنة! واترك القداحة والسكائر! وكل شيء! ـ قال كوزنيتسوف ذلك بسرعة وقرف ـ تأخذ من خنزير فاشي مقمل!..

أنزل أوخانوف ردن الألماني بابتسامة ساخرة قائلاً:

ـــ لا يبدو أنه مقمل ـ ثم فتح المحفظة وقال ـ انظر، يا ملازم أية صور هذه... ألم تلاحظ؟.. لدى جميع الألمان صور أطفال كالملائكة، لا سيما الفتيات. والجميع في جوارب بيضاء.

ـــ لم ألاحظ. أعد له كل شيء.

أمر كوزنيتسوف، دون أن يبدي أقل اهتمام بالصور، وكأن لم يكن من الممكن أن يكون في محفظة الألماني شيء اعتيادي، انساني.

ـــ أجبني، يا ملازم: لماذا علينا أن نعاملهم بمثل هذه الحسنى؟

والظاهر أن الألماني فهم شيئاً. فمع تكرار كلمة «ملازم» اختفى من عينيه في الحال الاستعلاء المتوتر، وحل محله رجاء غير واثق. فمال إلى

ناحية كوزنيتسوف، ذلك الفتى الروسي، المقطب، الآمر بغيظ، وقال بالألمانية:

ـــ سكائر.... سكائري، يا هر ملازم! تدخين، تدخين.. أريد أن أدخن، يا هر ملازم! أدخن!

ومرة أخرى لم يطق الوقوف على قدميه، فجلس على مؤخرته على الثلج، ناظراً من الأسفل إلى كوزنيتسوف، محركا رقبته، فعل من يجد عسرا في ابتلاع ريقه، إلا أنه ابتلع ريقه بتشنج.

قال كوزنيتسوف بازدراء:

ـــ أعطها له. إنه يريد أن يدخن، ألا ترى؟

وتقدم من رجل الاستطلاع مقطِّب الجبين. كان هذا الأخير ما يزال يرقد على ظهره، في وضعه، السابق، وقد انفرج ساقاه، وكانت نفثات من البخار تخرج مثل غمائم صغيرة واهية فوق القلنسوة المسحوبة على وجهه. كان ينبغي نقله من هذا المكان في الحال، وكان من المستحيل على المرء تصور القيام بذلك دون أن يوجع ويثير رجله الجريحة المشدودة بالجديلة.

«ولكن أين يمكن أن يكون المستطلع الثاني؟ ربما أخطأ ذلك الشاب، على اية حال! أين روبين؟»

كان أعلى الحفرة كله، من الحافة إلى الحافة، يرسل دخانا كثيفا مدوما في عصفات الريح الأرضية الكاسحة التي كانت تنار من الأعلى بالتوهجات المنتظمة للصواريخ التي لم تكن ترى من قاع الحفرة. الخفق الصارف لذرور الثلج المتطاير إلى الأسفل، على منحدرات الحفرة والطنين الطليق السهبي للريح الأرضية في الأعلى، فوق الحفرة،

فوق السهب الليلي، وعلى بعد مائتي خطوة يوجد الألمان بدباباتهم، ومواقعهم ومن فيها من مراقبين في طرف القرية. وروبين لا يزال غائباً.

وفكر كوزنيتسوف «آن لنا أن نذهب! من المستحيل الانتظار... يجب أن نعيد روبين، ونعود! لا تجوز المجازفة أكثر!» وفي نوبة خاطفة من القلق، والغم الخانق من جراء احساسه الطويل بالخطر على نفسه، وعلى الآخرين، هم أن يقول لاوخانوف يجب حمل رجل الاستطلاع في الحال، إلا أنه لم يلحق أن يقول ذلك.

إن صلية رشاشة مزكومة كأنما انطلقت قرب أذنه جعلته، بالغريزة، يندفع إلى فوق على منحدر الحفرة. لم يلحق إلا أن يلوح بيده لاوخانوف آمراً اياه بأن يبقى في مكانه الان. وعندما صعد إلى الأعلى، في غمامة الثلج المتلوية فوق الحفرة كان أول ما خطر له هو أن روبين اشتبك مع الألمان.

كانت الرشاشة ذات العيار الكبير تطلق نارا سريعة من طرف القرية بصوت مدو؛ وكان كل شيء مضاءً بعاصفة الصواريخ المثارة فوق طرف القرية. إلا أن أحداً لم يكن يشاهد إلى يسار الحفرة وهي الجهة التي كان الألمان يرمونها.

نادى كوزنيتسوف رافعا جسمه على كوعيه:

ـــ روبين! روبين، تعال إلي.

في تلك اللحظة ظهرت من وراء كثبان الثلج أشباح أناس غير واضحة، على بعد حوالي خمسين مترا إلى يسار الناقلتين المصفحتين، وركضت بضع خطوات نحو الحفرة، ووقعت في الريح الأرضية، وتغطت في الثلج، بينما كانت خطوط الطلقات من العيار الكبير تنطلق وتشتعل خاطفة كالبرق، في الموضع الذي كانت تركض فيه هذه الأشباح.

وفكر كوزنيتسوف أنه درزدوفسكي! ولكن لماذا لم يأت من ناحية الناقلتين المصفحتين! ألم يكن ذلك واضحاً؟

ـــ إلى اليمين، إلى اليمين! زحفا إلى هنا! ـ صاح كوزنيتسوف رافعا جسمه على كوعيه أعلى من ذوي قبل، ليراهم على نحو أحسن.

دبوا نحو الحفرة، بينما تحولت صليات الرشاشات خلفهم، وقد زادت من انخفاضها فوق السهب، في قطاع واحد ضيق بين الناقلتين والحفرة، غير تاركة اياهم يرفعون رؤوسهم. وعلى بعد نحو من عشرة أمتار من حافة الحفرة صاح من في المقدمة، قاذفا بنفسه:

ـــ ملازم! نحن هؤلاء...

ولمح كوزنيتسوف في الشجيرات الصغيرة إلى الأمام، روبين، بكتفيه الضخمتين الملطختين بالثلج، ثم لحظ إلى اليسار درزدوفسكي يزحف نحو الحفرة بخفة مثل عظاية دقيقة سريعة، ومعه جنديان للاتصال من فصيلة الإدارة، وإلى جانبهم لمع بغرابة تحت قبعة بيضاء وجه معروف بشكل يقطع كل احتمال، وغير معروف أيضاً، وجه لا يمكن أن يكون هنا، وجه زويا الذي كان متهللا على نحو خادع، لاجتيازها الخطر. كان وجهها الآن يبدو وكأنه يقول أنها لم تكن قلقة قط من أن في الإمكان أن تجرح أو تقتل هنا، بل بالعكس لم يكن في كل هذا أي خطر.

وفكر كوزنيتسوف مع نفسه «لماذا أخذوها معهم؟ من تسعف الآن؟ لماذا هي هنا؟» ولم يكن مندهشا بقدر ما هو مغتاظ من مجيئها إلى هنا بلا ضرورة، وعندما رآها تصاحب بعينيها مسار الطلقات فوق راسها دون أن يتغير التعبير المرتسم على وجهها، أوعز حانقا، ملوحا ببندقيته:

ـــ بسرعة، بسرعة! إلى الحفرة!

صاح روبين مكظوما:

ـــ بحثت، يا رفيق ملازم!.. بحثت فيما حولنا، زاحفا طوال الوقت على بطني... ولم أجد الثاني في أي مكان... زحفت في كل مترا... وتحين مني نظرة فأرى رجالنا قادمين، كانوا يسيرون إلى اليسار، لا نحونا. واندفعت إليهم. ولاحظ أولئك. وبدأوا يطلقون النار!

قاطعه كوزنيتسوف:

ـــ وماذا كنت تظن، يا روبين؟ هل كنت تظن أنك جئت إلى بيتك لتركض كما تريد؟ ـ ونطق الكلمتين الأخيرتين بصلابة عدائية ـ دققت لنا الطبول! إلى الحفرة، الجميع إلى الحفرة!

استدارت الأجسام الزاحفة نحو حافة الحفرة، عجالى متقطعة الأنفاس، مغطاة بالثلج، ثم أخذ الجميع ينزلون مرة واحدة متدحرجين راكضين، وسمع صوت درزدوفسكي المتهدج انفعالاً:

ـــ كوزنيتسوف، هل كل شيء على ما يرام؟ رجلا الاستطلاع هنا؟

لم يكن ثمة داع للجواب. فلم ينزل كوزنيتسوف إلى الحفرة، بل راح ينظر، وهو متضايق من نيران الألمان المثارة هذه، باتجاه الشاطىء إلى الرمي نصف الفطري للصليات المتلألئة إلى يسار الناقلتين. وكانت العودة إلى المدفع تقتضي المرور بهما. أحس كوزنيتسوف، وهو يحفظ في ذاكرته البصرية، ويحسب المنطقة الواقعة تحت الرمي، أن أحدا بقي على حافة الحفرة، وزحف نحوه، وشعر بأنفاس متلاحقة، وهمس قرب أذنه:

ـــ جندب، عزيزي!.. أنت حي؟ الحمد لله على أنك... مرحبا، انظر إلي، يا جندب!

أجاب في غير ترحاب تقريبا، ملتفتا إليها؟

ــ تشاوفنا من قبل. ما الخبر؟

جلست زويا على مقربة، منزلة ساقيها في الحفرة. كانت قبعتها مائلة إلى جانب، والثلج يعلق بشعرها وحاجبيها الطويلين. وكانت عيناها المحولتان قليلاً تبدوان بسبب الجمد المتصلب الخشن على أطراف رموشها متسائلين بشكل غير طبيعي، متسعتين انفعالا. وكان في انسراح قبعتها إلى جانب، وفي شفتيها المبتسمتين شيء صبوي ـ متحد.

ــ مرحبا، يا جندب!

كررت قولها بنفس الرقة السابقة، ناطقة في استمتاع فرح بهذه الكلمة الطفولية اللعوب الخفيفة التي ابتكرتها، ونظرت إلى وجهه المتعبس عن قصد، المتظاهر بعدم الفهم.

ــ اي «جندب» أنا؟ يبدو أنك جئت لنقلنا، نحن الجرحى؟ يا للسخافة! من طلب إليك أن تزحفي إلى هنا خمسمائة متر؟

ــ لا تصرخ علي، يا جندب ـ وانفرجت شفتاها المتورمتان، وابتسمتا من جديد ـ أنا ممرضة اسعاف، على اية حال، ولست زوجتك غير المحبوبة. لا، يا جندب، أنت لا تريد أن تصرخ علي، صحيح؟ ولكنك تصرخ لسبب ما! أصبحت تامر علي، يا جندب. وهل أنا مأمورة لك؟

امرها قائلاً:

ــ انزلي إلى الأسفل! يوجد هناك رجل استطلاع جريح. ولكن لا داعي لتغيير ضمادته الآن! يجب نقله أولاً! انزلي وسنغادر في الحال!

وانتظر بمظهر لا يلين نزول زويا إلى الحفرة ونادى:

ــ روبين، تعال!

ـــ هل سنغادر الآن، أيها الرفيق الملازم؟ - سأل روبين بتشكك، وهو يتقدم نحوه، وسعل نافثا بخارا كثيفا، وسال: ألا ننتظر قليلاً؟ ارتعبوا كثيرا...

ـــ سننتظر ريثما يهدأ الوضع. ولهذا راقب أنت هنا!

وبعد أن أصدر كوزنيتسوف هذا الأمر، زحف من حافة الحفرة، ووقف على منحدرها، ونقل البندقية إلى صدره، ونزل إلى الأسفل.

وكأنهم جميعاً كانوا في انتظاره هناك. كان جنديا الاتصال بقبعتيهما المربوطتين تحت ذقنيهما مستلقين على الثلج استلقاء، مهدئين أنفاسهما بعد زوال الخطر، وبين الحين والآخر كانا ينظران بقلق، وبمؤخر عينيهما إلى رجل الاستطلاع الجريح، وإلى زويا، وإلى الألماني الأسير، الذي كان يجلس بالقرب من أوخانوف، حانيا رأسه بقبعته العالية، على قدميه، مسبلا يديه المقفزتين على جانبي معطفه ذي الحاشية الفرائية. أدارت زويا ظهرها إليهما، وركعت على ركبتيها، وأخذت تتلمس رجلي المستطلع المنفرجتين السميكتين بشكل شائه، إلا أنها لم تفتح محفظتها، و لم ترفعها عن فخذها. والظاهر أنها لم تزمع تجديد الضمادة هنا. كانت فقط تحدث المستطلع همسا. بينما اعتصم الآخرون بالصمت، ملقين أسماعهم إلى لعلعة الرشاشة القريبة المتواصلة.

كان درزدوفسكي يقف بين رجل الاستطلاع الجريح والألماني، معدلا الحزام بقراب المسدس الذي انحرف إلى الخلف من الزحف الطويل على الثلج، وينظر في تردد إلى هذا تارة وإلى ذاك تارة أخرى وفي الضوء الباهت كان نفاد الصبر يبدو على وجهه الشاحب النحيل المنفعل.

عندما رأى كوزنيتسوف ينزل إلى قاع الحفرة تقدم منه، وسأل في شيء من التعنت:

ــ أين رجل الاستطلاع؟ كان يجب أن يكون هناك اثنان مع الألماني، كما فهمت! فأين الثاني؟

ــ ومن يستطيع أن يعرف أين؟! بحثنا حول الحفرة و لم نجده.

أجاب كوزنيتسوف وكأنه لا يخاطب درزدوفسكي بل أوخانوف الذي كان جالسا بالقرب من الألماني، يمسح بكم سترته الصقيع من على ترباس بندقيته باهتمام عميق. وأكمل كوزنيتسوف قوله:

ــ لا أظنه ذهب إلى الألمان! في الأرجح أنه زحف إلينا، ولكنه استنزف قواه. إما أنه انحصر في منتصف الطريق. وأما أنه وصل إلى خنادق الحراسة الأمامية. واحد من احتمالين.

قال درزدوفسكي بترخيم صوتي:

ــ يجب البحث! لا بد من البحث! والعثور عليه، يا كوزنيتسوف! اتصلت عن طريق اللاسلكي بنقطة قيادة الفرقة، وأخبرتهم بأننا ذاهبون إلى هنا لجلبهما. وهذا ما أمروني به: ارسالهما إلى نقطة القيادة حال الخروج بهما، ودون تضييع ثانية واحدة. أرسلهما مع الأسير إلى رئيس الاستطلاع! اجل، يجب البحث يا كوزنيتسوف... مهما كلف الأمر! لا يحق لنا الخروج من هنا قبل أن نجد الرجل الثاني!

قاطعه كوزنيتسوف:

ــ يجب ألا نبحث هنا بل ننقل الجميع من هنا! قبل أن تنور الدنيا! قبل أن نفقد الجميع في هذه المصيدة! أليس واضحا حقا أن الألمان يبعدون عن الحفرة مائتي مترا! إن كل شيء يرى من القرية دون حاجة

إلى منظار. حالما يهدأ الوضع، ليذهب الجميع إلى الناقلتين أولاً، ثم إلى المدفع بركضات متقطعة وراء الدبابات! كان يجب البحث هنا من قبل، لا الجري في السهب كالحمقى! أنتم لم تستطيعوا أن تجدوا مكان الناقلتين!

قال أوخانوف بهدوء، وهو ينظف ترباس البندقية بيديه:

ــ أنا متفق معك، يا ملازم.

كان كوزنيتسوف يلمّح إلى خطأ درزدوفسكي، وإلى تأخر وصوله إلى هنا مع جندي الاتصال، وانحرافه جانبا عن الناقلتين، وإثارته، على هذا النحو، نارا ألمانية كان يمكن تجنبها، وأثار هذا الضجيج الذي لا حاجة به، في اللحظة التي كان يجب فيها نقل رجل الاستطلاع.

وقف درزدوفسكي صامتا برهة عاضا على شفتيه، ثم تكلم باقتناع لا يدحض:

ــ ما دمت حيا فأنا المسؤول عن البطارية! مسؤول عن كل شيء، يا كوزنيتسوف، بما في ذلك حياتك...

ــ بهذا الشكل اذن! فقط ما عداي يا آمر البطارية! سأتحمل المسؤولية عن نفسي وعن رجالي، بطريقة من الطرق، إذا أسعد الحظ!.. رد بذلك كوزنيتسوف دون أن يتمالك نفسه، وقطع كلامه في الحال. لم يرد أن يواصل الكلام في حضور زويا وجندي الاتصال، و لم يرد أن يُظهر أمام الجميع عداءه المكشوف لدرزدوفسكي. وقال:

ــ لنقف عند هذا، يا آمر البطارية. تقول:

ــ يجب أن نبحث؟

كانت الرشاشة من العيار الكبير في طرف القرية تواصل اطلاق

النار بانتظام، شاقة السهب الأجرد إلى يسار الحفرة، والغريب أن أزيز الرصاص الكثيف لم يكن يبتعد ناحية، بل كان يبدو وكأنه يتجمد في مكان واحد. وكأن الرشقات كانت تتحسس شيئاً قد وجدته، دون أن تحرك في قطاعها.

كرر كوزنيتسوف، ونظر إلى كل من في الحفرة:

ـــ اذن، فأنت تريد أن تبحث هنا، يا آمر البطارية؟

أدار جنديا الاتصال إليه رأسيهما في هلع، وانتزع الأسير الألماني من ركبتيه وجهه العظمي اللون المبقع ببقع التجمد الزرقاء، وحاول بتقطيبة أن ينفذ إلى معنى كلماته، ونهضت زويا فجأة، ونظرت بتساؤل عاجز مقوسة حاجبيها، وكانت عيناها تبدوان أكثر اسودادا تحت قبعتها المبيضة بالثلج. وفكر كوزنيتسوف كازّاً على أسنانه «لماذا تتفحصني على هذا النحو؟»).

وقال كوزنيتسوف بهدوء غير طبيعي وغير مفهوم حتى لنفسه:

ـــ إذن، هكذا تقرر! سأبقى مع روبين هنا. وسنبحث في المكان مرة أخرى. أما أنتم فأقلعوا جميعاً من هنا، أقلعوا ما ان تهدأ الحال، إلى الشيطان! ارشدهم يا أوخانوف! والا فسيغرقون أيضاً في كوب ماء.

«هذا جنون، حماقة!» فكر مع نفسه شاعرا في دخيلته بعدم التماسك في قراراته، ولمعت في ذهنه فكرة: «ماذا يحدث لي؟ لم أعد أسيطر على نفسي. أنا أعرف أن البحث عن رجل الاستطلاع غير معقول، ولكنني أوافق، بل وأريد أن أفعل ذلك بنفسي...»).

ـــ نعم، يجب البحث. أصدر، يا كوزنيتسوف، أمراً لروبين بأن يعيد البحث مرة أخرى في المكان. وسننتظر!

وحرك درزدوفسكي الحزام على خصره النحيل مثل خصر الفتيات، وتنحى عن الجميع ووقف على المنحدر منتصب القامة، منيعا، وكأنما لا يخطئ في أوامره، وفي عناد صلب. قال:

ـــ لا يمكن أن يذهب المستطلع الثاني بعيداً. لا يحق لنا أن نقول لقيادة الفرقة أننا تركناه هنا، ولا يحق لنا أن نعود بدونه! خذ معك جنديي الاتصال أيضاً، يا كوزنيتسوف!

قال كوزنيتسوف:

ـــ هذا زائد... نكفي، نحن الاثنان! ما الذي يدعونا إلى أن نلفت أنظار الألمان إلى أربعتنا؟

ـــ يا آمر البطارية...

مرت زويا بخطوات حذرة على مقربة شديدة من كوزنيتسوف، حتى مست معطفه بطرف فروتها، وقفت أمام درزدوفسكي، وتحدثت مسترضية، بصوت راج هادىء:

ـــ يجب أن نحمل الآن رجل الاستطلاع هذا، على الأقل، فإن حالته سيئة. إنه متجمد، وقد فقد دما كثيراً. ونحن لا نعرف هل سنجد الثاني حيا أم لا، ولكن يجب أن نحمل هذا...

ـــ انهض، أيها الحذاء الفاشي! ـ أمر أوخانوف، ورفع الألماني عن الأرض بدفعة قوية من يده، ونهض هو كالدب، وألقى بندقيته على كتفه وقال: هيا، دس على رجليك، ارقص، يا وغد حرك رجليك، وإلا فستموت قبل الأوان! تحرك، تحرك، مثل شاب!

كان يدفع الألماني من جانب إلى آخر، ويحركه في قاع الحفرة، وفجأة أطلقه، وتقدم من درزدوفسكي شاحطاً بحذائه أهوج الحركة،

بكل جسمه الضخم، وأبعد زويا برفق، إلا أنه كان في الوقت ذاته يبتسم بتراخ ينم عن طيب قلب، مبديا سنه الأمامية الفولاذية.

ــ هل تعرف كل الحقيقة عن نفسك، يا آمر البطارية؟ ألم تفكر في ذلك قط؟ ابتعدي، يا زويا، أتوسل إليك، وإلا فسأستحي...

ــ أوخانوف... أوخانوف! ـ قالت، و لم تبتعد، بل بسطت صدرها قليلاً، ولسبب ما حجزت درزدوفسكي في ذعر بجسمها الرقيق المتوتر، مبعدة أوخانوف بعينيها مدافعة قائلة: ماذا تريد؟... لماذا؟

ــ ابتعدي، يا زويا. ماذا يمكنني أن افعل له؟ أي معنى لذلك؟ لا أجد أي معنى. أنا رقيب، وهو ملازم، وقد استظهر كلانا الأنظمة العسكرية عن ظهر قلب في المدرسة العسكرية، إذن... نحّاها أوخانوف برفق تام، وانحنى على كتف درزدوفسكي المستقيم، مثل كتف الرياضي، وأسر له شيئاً قصيراً غير مسموع ثم اضاف بوضوح:

ـ... إذا كنت لا تكترث بكل الذين بقوا من رجال بطاريتك، فإنك، على أية حال، يجب أن تفكر برأسك، لا بمؤخرتك. عندئذ أبلغ الفرقة بذكاء.

ــ ماذا قلت؟...

قال درزدوفسكي بعصبية مميلا بجسمه إلى الوراء، وقد تشوّه وجهه، وكاد يقع على منحدر الحفرة، كرر بصوت حاد إلى حد الجلجلة:

ــ ماذا قلت؟

قال أوخانوف مهدئا، مبتسما بعينيه فقط:

ــ اهدأ، اهدأ، يا آمر البطارية! الآن نستطيع أن نتحدث من القلب للقلب. ليس عندنا درس اصطفاف في المدرسة العسكرية. والله منا قريب جداً هنا. الله العلي القدير شاهد بيننا. وليس في الأمر أي خرق

للنظام. وأمرك ليس موضع نقاش. فقط يجب أن تعرف رأيي فيك، يا آمر البطارية. ليكن ذلك في علمك، فقد ينفعك ذات مرة!..

تدخل كوزنيتسوف بحزم قائلاً:

ــ كفَّ، يا أوخانوف! يكفي ـ وتقدم، وجذب أوخانوف وقال ـ يكفي ذلك، أمام الألماني هذا!... انظر إليه. ماذا به، هل جن؟

كان درزدوفسكي يقف متصلبا بكل جسمه، وقد ابيضَّ وجهه، وبدا وكأنه قد ضمر ضمورا شديدا. بينما كان الألماني، كالدمية المنصوبة، يهتزُّ ببطء وبلادة في موضع واحد، محركا حذاره الفرائي، وصارت عيناه المُنصِتتان، وكأنما تلتقطان أصوات الكلام الغريب، وحشيتين، زجاجيتين، تنتقلان من أوخانوف إلى كوزنيتسوف، وقد تبين، على ما يبدو، أن الكلام كان يدور عنه، وعن مصيره، فأخذ يتنفس تنفسا متلاحقاً فاغرا فمه، وكأنما أصيب بنوبة قلبية، إلا أنه ترنح جانباً فجأة، وسقط على الثلج منهارا، باحا كلمات مبهمة كان لا يمكن أن يفهم منها سوى «روس، شفاين(٩)، أموت. أتجمد».

قال أوخانوف:

ــ الوغد يتظاهر! لا يريد أن يؤسر. جن من البرد. كوزنيتسوف، ماذا قال: شفاين؟

أمر كوزنيتسوف، وأومأ للألماني بما سورة بندقية:

ــ انهض! تحرك! شتيت أوف! هيا، تململ! لم ينهض الألماني، بل ضغط ركبتيه نحو حنكه مرتعشاً، واكتفى بإرسال فحيح من فراء ياقته المنتصب، تقدم أوخانوف منه متظاهراً بالدهشة، وأمسكه من تلابيبه، ورفعه إلى فوق بحنق شديد، حتى أن الياقة قد فتقت. وعندما هزه قائلاً

---

(٩) بالألمانية: خنزير. المعرب.

«سأريك ما معنى «شفاين!» صرخ الألماني بصوت محتضر كامد. طوقه أوخانوف كالملزمة، وسد فمه بكل قفازه. تحول الألماني إلى خوار قبيح، ملويا في يديه.

ــ ايها البوز الهتلري! ستنتسى ما هو الـ «شفاين!» سأنسيك أمك وأباك!

ــ اتركه، يا أوخانوف! ستخنقه!.. ماذا تفعلون يا صغار؟ يا أعزاء! - قالت زويا في ذهول وهي تكاد تبكي، ملتفتة إلى هذا تارة، وإلى ذاك أخرى - لماذا أنتم خبثاء بهذا الشكل؟ لا أكاد أتعرف عليكم، يا صغار... ماذا حصل لكم؟ - ومالت بكل جسمها نحو درزدوفسكي، وتشبثت بردن معطفه متضرعة قائلة:

ــ فولوديا، على الأقل اشرح لهم أنك لست على هذه الصورة! انهم لا يعرفونك، يا فولوديا!

ــ ابتعدي، لماذا تتدخلين؟ - وانتزع ردنه من بين أصابعها، وتراجع خطوة، وكأنما يرتد عن حاجز والتمعت أسنانه عن تكشيرة احتقار - أنا أكره أن تتدخل نسوان الجبهة... خير لك أن تهدئي كوزنيتسوف! فهو طيب، وأنت طيبة!.. كلاكما عيسى المسيح! فقط ليكن معلوما لجميع صغارك، لا سيما كوزنيتسوف، أنك لن تنامي مع أحد منهم! لا تأملي، يا اخت الرحمة! بعد المعركة ستغادرين البطارية إلى كتيبة الاسعاف! لن تبقي يوما واحدا في البطارية! ستغادرين حالا!

وصار وجهه الذي غيَّرته جهامة خبيثة، متنافرا قبيحا، تراجع خطوة أخرى، وكأنما يريد أن يذلّها بذلك، وهز كتفيه بجموح حانق، وأخذ يرتقي منحدر الحفرة بسرعة، حتى تطايرت كتل التراب من تحت قدميه.

وتوقف على حافة الحفرة تماما، ووقف بضع ثوان، وصرخ بأمره بصوت ممزق منتزعا مسدسه من قرابه:

ـــ أيها الجنديان الاتصالان! خذا الأسير الألماني واركضا ورائي!

وصعد تليلات ترابية، دون أن ينتظر أحداً، وغاب خلفها.

صمت كل من كان في الأسفل. بينما أوقفت الرشاشة رشقاتها التي كانت تمشط السهب. وزحفت فوق الحفرة في الأعلى غمائم بيض من الريح الأرضية، وقد رن أمر درزدوفسكي الصارخ في الأعلى بوضوح صارخ، فنهض جنديا الاتصال دفعة واحدة، ودارا في حركة خرقاء، ومدا أيديهما، وكأنما اصطادا أرنبا من الجانبين.

اوقفهما كوزنيتسوف بحزم، حاجبا الألماني:

ـــ ارجعا! خذا رجل الاستطلاع، والحقا بدرزدوفسكي في الأعلى! سيأخذ أوخانوف الألماني! خذا رجل الاستطلاع الجريح! ـ وللاقناع دفعهما كليهما نحو رجل الاستطلاع ـ رأسيكما سيكون الجزاء إذا لم توصلاه! زويا!

كان يجب أن يقول لها أن تسير إلى جانب أوخانوف، فإن ذلك بالذات سيكون أكثر أمنا لها في طريقها إلى المدفع، إلا أن بصره وقع عليها، وصمت. كانت ساهية عنه غير مصغية إليه، في الغالب، رغم أنها كانت تنظر إليه جاذبة قفازها على أصابعها، وكانت عيناها جافتين، متسعتين بشكل لا يحتمل، وقد تقوس حاجباها الطويلان على نحو مذهل، وكأنما تتحسس ألما غامضا في داخلها، دون أن تعرف موضعه بعد.

ـ يا ألماني، هل تعرف سباق المائة متر؟ سأرى كيف...

أخرج أوخانوف الألماني إلى منحدر الحفرة، وخشخش بسير البندقية، وكأنما يعبث به، لكن دون أن يقول شيئاً لزويا، و لم يستعجلها. بل راح ينتظرها.

قال كوزنيتسوف بحشرجة:

ـ زويا، يجب أن تذهبي. الآن هدأت الحال.

يجب أن تذهبي. سيري مع أوخانوف! هل تسمعين؟

ـ نعم، أنا ذاهبة، الآن ذاهبة ـ قالت زويا بجفلة، وخفضت وجهها، مخفية اياه في ياقة معطفها، وتحدثت مع جندي الاتصال ببشاشة زائدة، وقد جلست إلى رجل الاستطلاع: أرجو أن تحملاه بحذر. رجله اليسرى مجروحة. لا تثقلا عليها. ارجوكما، ايها الصغيران...

رفع جنديا الاتصال رجل الاستطلاع وأمسكا جسمه على نحو أروح متلمسين اياه.

قال كوزنيتسوف:

ـ اذهبوا! سألحق بكم مع روبين، إذا تسنى لنا ذلك...

ـ ولكن تحاشَ الألمان... وابق حيا. لا تفقد صوابك، والحق بنا، يا جندب.

رجته زويا، مبتسمة له من وراء كتفها بضعف وبلا حماية، وكان بودِّه الآن أن يتخلى عن الكثير لقاء تفاديه رؤية ابتسامتها القسرية هذه.

قال أوخانوف، وهو يضغط الألماني إليه مهدداً:

ـ هيا، يا ألماني، أرني بطولتك. سنسير متلازمين بالأيدي. قلت: شفاين؟ إلى اللقاء، يا ملازم.

ـ سر، يا أوخانوف. التزم الحذر هناك.

أوصلهما كوزنيتسوف إلى حافة الحفرة، واستلقى إلى جانب روبين، مراقبا اياهم حتى اختفوا وراء شبحي الناقلتين المصفحتين.

الفصل العشرون

ــ هل فحصت كل شيء بإمعان، يا روبين؟

ــ لماذا لا تصدقني، يا رفيق ملازم؟ فحصت كل شيء حول الحفرة زاحفا على بطني. ولوثت معطفي كله. لعل الريح الأرضية قد طرحته إذا كان قد قتل... ولكن لا يوجد هنا حتى قتلى. فأين نبحث؟

ــ مفهوم، يا روبين. لنبحث مرة أخرة في ناحية الوهدة ما دامت الحالة هادئة. لعله أضاع اتجاهه حين كان يزحف فزحف في الاتجاه المعاكس...

رغم أن من الصعب تصور ذلك أيضاً. كان في امكانه أن يعرف باتجاه الصواريخ أين مواقعنا.

ــ لنكن حذرين جداً قرب الوهدة. ربما الألمان يتمشون هنا، إذا لم يكونوا نائمين. تفو! مصيبة! سأغفو وأنا في الطريق، يا رفيق ملازم. يسري فيّ شيء ما. والبرد في جسمي كله، وجفناي كأنما عليهما ثقل.

ــ ادلك وجهك بالثلج. ادلكه بقوة أشد.

ــ أنا أدلكه بلا حدود. وكأنني دلكته بورق الصنفرة، يا رفيق ملازم. لم أنم منذ أربع وعشرين ساعة. في الليل كله نمت ساعة أو ساعتين.

كانا راقدين على حافة الحفرة الخالية، وحولهما كان الهواء خفيفا

أبيض فوق السهب. وكان السكون الكثيف لتلك الليلة الديسمبرية الناصعة نحو الصباح يغشيهما بسنة باردة من نعاس لا يقاوم. وأحس كوزنيتسوف، وقد استولى عليه خداع هذا السكون المسيطر حوله، وصفاء ما قبل الفجر، والرهق العذب في دماغه المتعب، بأن وعيه يتخلى، رغم إرادته، عن مقاومة هذا التراخي المهدىء في جسده المتجمد، ففزع من هذا الغياب الخاطف المعتم.

ــ لنذهب إلى الوهدة يا روبين - ونهض، وأدرك بعد نهوضه أنه غير قادر على أن يخطو خطوات خمسا، فإن التوتر العصبي بعد ليلة مسهرة، وقد ارتخى فجأة، وأبعد عنه الشعور بالخطر، ولفه في ضباب دافىء. وقف برهة أخرى، في هذا الوسن القصير غير الحقيقي، وبعده كرر قوله «لنذهب!» أكثر عناداً وارفع صوتا، ولكي يعيد إليه الاحساس بالواقع الذي كان له قبل حين، حرك أصابعه التي أصابها التجمد وهي في القفاز، ونقر بها على عقب بندقيته، وقال للمرة الثالثة «لنذهب، لنذهب!» مقنعا بنبرة صوته نفسه وروبين بأنهما مضطران إلى أن يسيرا، سواء أهذا أو ذاك، وانه يجب عليهما أن يذهبا إلى حافة الوهدة تلك.

كان الثلج ينهار تحت أقدامهما وكان كوزنيتسوف، وهو يسير، يسمع وراء كتفه نخير روبين المستمر، وصوت انسحاق قشرة الثلج المتجمد تحت حذائه اللبادي. وعندما نظر في الخلاء الأبيض البارد لليل الذي آل إلى هدوء، وجد نفسه مرة أخرى يفكر في أن كل ما يفعله الآن لا يفعله هو بل شخص آخر، وأنه هو وروبين ينفذان أمر شخص آخر، لا أوامره هو، وكأنما ذاك تطمين ضروري. كما كان في خفقات الريح الأرضية الطويلة المتماوجة في السهب، وفي العراء الثلجي الهادىء المترنح أمام البصر، والذي لم تعد تضيئه الصواريخ، تطمين مبهم أيضاً،

وسكينة سعيدة قصيرة من الراحة، بعد الذي حصل قبل وقت طويل، وزال الآن، وقد سرى هذا الشيء الدافىء المعتم إلى الأعلى مثل غشاء لزج، ولفه كله.

مزقت سكون الليل صليات جافة صدرت من الخلف، فجعلت أصواتها كوزنيتسوف ينقذف إلى أمام. فكر كوزنيتسوف في الحال، وهو بين الصحو والنوم، بين الواقع والوهم أن الطلقات صدرت من الخلف، وأنهما قد مرا دون أن يلحظا الحراسة الأمامية الألمانية، فجعلته هذه الفكرة الأولى يسقط على الأرض بدافع من الغريزة، ويصرخ خالعا سر البندقية من رقبته:

ــ إلى الخلف، يا روبين!

إلا أنه في اللحظة التالية رأى روبين يركض إليه من حافة الوهدة.

ــ ملازم، ملازم، يبدو أن شيئاً قد حصل بجماعتنا! انظر! انظر إلى الخلف!..

ــ روبين، تعال إلى هناك... ورائي.

أمره كوزنيتسوف، وقد سمع لعلعة البنادق الأوتوماتيكية المتقطعة إلى الخلف منه، وانفجارات القنابل اليدوية المتتابعة واحدة بعد أخرى، ورجع مندفعاً إلى الحفرة، باتجاه الناقلتين المصفحتين، حيث سارت جماعة درزدوفسكي، مفكرا أثناء عدوه «ماذا حصل هناك؟ اصطدموا بالألمان؟ أمن المعقول أنهم لم يستطيعوا المرور؟»،

ثم لعلعت الرشاشة الكبيرة العيار إلى الخلف صادرة من طرف القرية بصوت مجلجل غليظ، هز السهب، وردت النيران الحياة للسهب كله، فراح يتسع سريعا، ويتقلص، وتراقصت الأنوار فوق رأسه، وهزت ظلام

السماء ودفعته. كان ظلا كوزنيتسوف وروبين ينطان أمامهما منحرفين، فكانا يركضان عليهما ويدوسانهما، وأحياناً كان هذان الظلان يبتعدان عنهما في انزلاق شبحي.

ـــ إلى الناقلتين، يا روبين، يميناً!

صاح كوزنيتسوف، وقد لاحظ الحفرة أمامهما، والناقلتين الداكنتين إلى اليمين، حيث كانت الطلقات تخرق الريح الأرضية مثل خطوط منقطة.

ومرة أخرى انفجرت بعض القنابل اليدوية إلى الأمام بدوي هش، وصدر أزيز نحيل لمزيج من الرشقات، واقترب كوزنيتسوف من الناقلتين لاهثا، ورأى من هناك كل شيء.

كان بعض الرجال يركضون واحدا وراء الآخر مبتعدين عن الدبابات الألمانية المحطمة إلى سيارتين مجنزرتين على المرتفع، وكانت أشباح أخرى لرجال في المنخفض تزحف وتلوح داكنة على الثلج في الخلاء وراء الناقلتين، وأمام مقبرة الدبابات الألمانية، ومن تلك الناحية كانت بنادقنا تقذف هاتين السيارتين، والألمان المتراكضين عنها، بنار سريعة مرسلة دمدمة عالية الرنين. شغلت إحدى السيارتين محركها، وكانت على جانبيها أجساد متدلية، واندفعت من مكانها، وبدأت تستدير، وتنحت جانبا، وبقيت الأخرى واقفة، كما كانت من قبل، والشرارات تتطاير منها على نحو محموم، فقد كان الألمان يغطون المنخفض أمام الدبابات بنيران بنادقهم الأوتوماتيكية.

ـــ روبين، صوب نحو السيارتين! ارم! ـ

صاح كوزنيتسوف وهو يضغط اصبعه المتخدرة على زناد الاطلاق بنوع من التشفي، وأخذ عقب البندقية يضرب كتفه مرتدا، وراح

السهب يهتز في هذه النار باهرا للبصر. أوقف كوزنيتسوف نفسه بجهد خارق لكيلا يفرغ قرصا كاملا دفعة واحدة.

وبح روبين على مقربة منه:

ــ اصلال! ثعابين! تستحقون الخنق. الخنق بالأيدي!

ــ القنابل اليدوية، يا روبين! اقذفها على السيارة!.. اسرع!

وفي ضوء الطلقات تراقص إلى جانب كوزنيتسوف لمعان قرمزي على أسنان روبين القوية، ووجهه الكبير المفزع المخمور، وقد ضغط خده على كرنافة البندقية.

إلا أن روبين لم يسمع أمر كوزنيتسوف في الوهلة الأولى، على ما يبدو، وعندئذ ضربه كوزنيتسوف على كتفه، وصاح بشراسة واحتدام: «القنابل! القنابل اليدوية!» وبعد ذلك فقط، انقطعت رشقة البندقية مبتورة، وأخذ روبين يفك ويقلب جيب معطفه بيده اليمنى. وبعد أن ابتعد خطوتين عن الناقلة، سحب الفتيلة ماثلا على جنبه، وقذف القنبلة في ناحية المرتفع مرسلا شهقة مبحوحة من حنجرته. وتناول قنبلة ثانية حالا، وقذف بها في أثر الأولى قذفة مجنونة. وأرسل الانفجاران المتعاقبان طرطشة حمراء على منحدر المرتفع. أن القنبلتين اليدويتين لم تبلغا السيارتين.

ــ أيها الأوغاد الزلاحف!

واختطف روبين البندقية، وهو يصرخ بذلك، واستلقى إلى جانب كوزنيتسوف تحت جنزير الناقلة، ورشق السيارتين رشقات طويلة. أدرك كوزنيتسوف أن كليهما بطلقات كل الرصاصات بسرعة لم يكن عندهما أي قرص احتياطي من الرصاص ـ ففكر حالا بوجوب التحرك

نحو المنخفض، حيث كانت جماعة درزدوفسكي مستلقية على الثلج تحت النيران، رغم أنه كان واضحا الآن أنه وروبين يجذبان انتباه الألمان إليهما. إلا أنه في الوقت الذي كان يعي فيه ذلك كانت تبلغ سمعه أصوات طلقات جوابية متناقصة من بنادقنا في المنخفض. انتزع اصبعه من المرونة الطيعة لزناد الاطلاق، ورفع جسمه على مرفقيه، ناظرا إلى حيث كانت الطلقات تتناقص قرب الناقلتين المصفحتين.

ـــ روبين، هنا! ابق هنا!.. حول انتباههم اليك! أنا ذاهب إليهم، إلى هناك! فهمتني؟ هل تسمعني؟ واحرص على الرصاص، اقتصد... أنا ذاهب إليهم...

ومن الخلف، من طرف القرية كانت الرشاشة ذات العيار الكبير تطلق النار على المنخفض، مغطية بصوتها الراعد الكثيف على نباح البنادق اللاهث، لقد أخذت ثلاث أو أربع رشاشات أخرى تطلق النار من نوافذ البيوت إلى اليسار اطلاقا سريعا، وراحت خطوط رصاصها تنطلق قريبة جداً من جنب الناقلتين المصفحتين، مختفية، في كثبان الثلج على المنحدرات.

ركض كوزنتسوف زهاء خمسين مترا باتجاه المنخفض، وهو يسقط وينهض، ويقع في حفر القنابل، وكان الألمان يطلقون النار من السيارتين بذلك الاتجاه تحت أضواء الصواريخ المنتشرة إلى الأعلى، وفجأة ثقل كل شيء فيه، صار كل شيء كالرصاص، وكأن ثقلا مفرطا جاثيا ضغط على أنفاسه. ركع على ركبتيه أثناء جريه عدة مرات، راشقا المرتقى رشقات قصيرة، بينما كان قلبه اللاهث يدق في أذنيه بمطارق صغيرة مرنة، كاتما أصوات الخارج، وكانت عيناه تبحثان عن مصادر التوهجات الوامضة حول السيارة على الربوة، ومع المطارق التي كانت ترن في أذنيه كانت

تقرع وعيه فكرة واحدة ملحة: «لماذا لا يخرجون إلى الدبابات؟ لماذا لا يتحركون؟ لماذا يستلقون على الثلج تحت النار؟ يجب التحرك إلى الأمام، وراء الدبابات!».

عندما بلغ المنحدر المتحدر ببطء، كان أوخانوف اول شخص رآه كوزنيتسوف في المنخفض أمام الدبابات الألمانية المحطمة. كان أوخانوف يرقد وراء كثيب ثلج على بعد حوالي مائة وخمسين خطوة من سفح الربوة، يضغط الأسير الألماني بكوعيه على الثلج، وقد ارتمى بصدره فوقه، وراح يطلق رشقات مقتصدة على السيارة الوحيدة الباقية على الربوة. وكان بعد كل رشقة يزحف يسرة نحو الدبابات، جارا الألماني وراءه بجرات قوية، شاتما، ضاغطا اياه في الثلج مرة أخرى، مرتميا عليه. كان قرص فارغ من الخراطيش مرميا على بعد بضعة أمتار من كثيب الثلج.

ــ أوخانوف! إلى الدبابات، عدوا! ـ استطاع كوزنيتسوف أن يصرخ بالكاد، وقد اختنقت أنفاسه تماما، واقعا قربه بهبدة قال:

ــ إلى الدبابات عدوا!.. لا تضيع هنا دقيقة واحدة! إلى الدبابات عدوا... أوخانوف، هل تسمع؟

أدار أوخانوف نحوه وجها مخبولا مهتاجا، غريبا عليه كليا، مأخوذا، والتمعت سنه الفولاذية الأمامية لمعانا أحمر..

ــ ملازم، اهرع إلى آمر البطارية... إلى زويا! أرسلت أحد جنود الاتصال، ولكن في قليل من الجدوى! هناك جريح على ما يبدو! سأبقى أنا هنا! أنت اليهم!..

ــ من جرح؟ ماذا؟

ـــ اذهب إليهم، يا ملازم! إلى زويا، اركض إليها!

بلغه صوت أوخانوف مرة أخرى، مقطعا إلى حد أنه لم يعرفه، والتصق أوخانوف بالبندقية، ضاغطا الألماني على الثلج بجسمه، وسدد على السيارة الواقفة على الربوة.

«زويا؟ جرحت؟ غير ممكن! هذا غير ممكن!»

ودون أن يدرك كوزنيتسوف تماما ما هو فاعل، والقشعريرة الجليدية تطوق ظهره انطلق بقدمين كأنهما من قطن، غير مطأطىء قامته، نحو الأجسام المتحركة المتناثرة في قاع المنخفض. لم يكن يعي إلا شيئاً واحداً، هو أنه قد حدث الشيء الذي ما كان يريده أن يحدث، والذي لم يحق له أن يحدث، ولا يجوز أن يحدث. وبهذا الارتياب ذاته، وبغيظ وحشي دفع بشدة، بعد أن نزل إلى قاع المنخفض، شخصاً منحنيا قرب كثيب ثلج، لا غط يشغل يديه قرب فمه.

وفهم بغير وضوح أن هذا هو أحد جندبي الاتصال، يقطع بأسنانه رزمة الاسعاف الأولى، وفي نفس اللحظة رأى على منحدر الكثيب الثلجي، المعطف الفرائي الأبيض الذي يعرفه، والحذاء اللبادي الأبيض، ومحفظة اسعاف معفَّرة بالثلج تماما، وكل ذلك رآه وكأنما من خلال غشاوة متماوجة.

ـــ ماذا تفعل هنا، اللعنة!

رد جندي الاتصال بصوت مذعور:

ـــ جرحت... ويجب أن نشد لها ضمادة!

ـــ انظر، كيف أصابوها.

كانت زويا راقدة على جنبها، وقد كورت جسمها، وقلَّصت

عينيها، وطوت رجليها، وكأنها تستشعر بردا، وضمت ذراعيها على بطنها وكان المسدس الصغير مطروحا قرب ركبتيها المستديرتين المطبقتين الساكنتين، وكان شيء داكن أفزع كوزنيتسوف، يسيل على الثلج تحتها.

إلا أنه ظن في البداية أن هذا الشيء المفزع الداكن المسفوح على الثلج ليس دما، و لم يكن في وسعه أن يتصور أن ذلك دم زويا، وأنه يرى دمها، وفي الحال جاهد حتى أن يوحي لنفسه، ويقول لنفسه لم يحدث شيء قاهر لا يرد، ولا يمكن أن تجرح جرحا «مميتا»، أو تقتل، ولا يمكن أن تضم ذراعيها على بطنها بهذا الشكل الرهيب المفزع.

ـــ زويا... ماذا بك، زويا؟

ـــ إنها لا تتكلم، يا ملازم... أصابتها صلية بندقية أوتوماتيكية... في بطنها على ما يبدو... في البداية كانت تقول: ابتعدوا، أنا بنفسي... و لم تتركنا نضمدها... أما الآن فلم تعد تتكلم ـ تمتم جندي الاتصال، وكانت تمتمته صادرة من بعد سحيق ـ كان كل شيء هادئاً، ولكن عندما وصلنا إلى المنخفض، أخذوا يطلقون من فوق وبدأت الحكاية...

سأل كوزنيتسوف بخفوت غير سامع صوته:

ـــ أين درزدوفسكي؟ أين هو؟

ـــ ألا تراه؟ جالس هناك على الثلج... يبدو أنه قد جرح أيضاً... قذفنا الألمان بالقنابل اليدوية.

ـــ أين درزدوفسكي؟

سأل كوزنيتسوف مرة أخرى، وعندما التفت فقط لمح درزدوفسكي على بعد خمسة أمتار من الكثيب الثلجي جالسا على الثلج حاسر الرأس.

كان درزدوفسكي ما يزال ممسكا بالمسدس في يده اليسري، بينما كان يضع اليمنى المقفزة على رقبته بين الحين والآخر، ويقربها من عينيه، ويتفوه بكلام متقطع مبهم. كان جندي الاتصال الثاني منحنيا يجاهد لانهاض درزدوفسكي، رافعاً اياه من تحت ابطيه من الخلف، وكانت بندقية حامية ملقاة في نفس المكان قرب مريول التمويه المتكور المكتسي لونا رماديا، وهو المريول الذي كان يرتديه رجل الاستطلاع المتجمد.

كان درزدوفسكي ينتزع نفسه، مقاوما جندي الاتصال، وراح يقول محموما، وبالعناد الجارف لمن أصيب بصدمة:

ــ ضمدني!.. أين زويا؟ ضمادة! أنا مجروح، لتضمدني هي! اذهب!..

زرر كوزنيتسوف معطفه على صدره آليا، ودون أن يعرف السبب، واتجه نحوه آليا أيضاً وانحنى عليه، فرأى الجلد في أسفل أذنه قد تمزق وتضرج بالدم. وتكلم بشفتين متجمدتين:

ــ درزدوفسكي! هل تسمعني؟ هل تستطيع أن تقف على قدميك؟ قدماك سليمتان؟ انهض، انهض، درزدوفسكي!

ــ اين زويا؟ اين زويا، يا كوزنيتسوف؟ أين؟ أنا بحاجة إلى تضميد!..

ــ انهض، درزدوفسكي، انهض!

بعدئذ خلع كوزنيتسوف معطفه، وفرشه على الثلج. وتعاون مع درزدوفسكي على وضع زويا المتكورة على هذه النقالة، وحملاها بهذا الشكل. إلا أنه لم يكن يستطيع النظر إليها، فقد كان يرتجف، وكأنما من نوبة ملاريا، سار درزدوفسكي في المقدمة، مهتزا بتهافت وكالمغشى

عليه. كانت كتفاه المستقيمتان ابداً قد تحدبتا، والتوت يداه إلى الخلف، وهما ممسكتان بحافتي المعطف. وكانت الضمادة على رقبته التي لاحت قصيرة تبدو بيضاء بياضا غريبا، وكانت تسترخي على الياقة، فكان درزدوفسكي لا يدير رقبته قط، ويتعذر عليه الالتفات. كان بين الحين والآخر يتمايل كالسكران، متعثرا كثيراً، و لم ينطق بكلمة واحدة. غير أن ظهره كان ينتصب أحياناً، ويخرج من حنجرته ما بين الأنين والسعال الشبيه بالجؤار، فكان هذا الصوت المكتوم يصم كوزنيتسوف بألم يمزق صدره.

وعندما دخلا الشريط الذي تكونه الدبابات الألمانية المحطمة، حيث لا تصل رشقات البنادق، سأل درزدوفسكي همسا:

ـــ لنسترح قليلاً... لا أقدر... أرجوك، كوزنيتسوف...

وضعا زويا على الثلج، ومرة أخرى لم يجد كوزنيتسوف العزيمة على أن ينظر إليها ـ كانت لذع التشنج الحادة لا تدعه يتنفس. وقف ضاغطا كتفه على درع مصهور لدبابة ألمانية، وقد ارتخت رجلاه، وكان يود لو يجلس على الثلج، ويغمض عينيه، ولا يتحرك، ولا يفكر بأي شيء. الآن أصبح كل شيء لديه سواء، فقد كل شيء قيمته، صار في لحظة واحدة بلا معنى ولا أهمية، رجل الاستطلاع المتجمد، والأسير الألماني، والليل بعد المعركة، والبرد، وحفرة القنبلة قرب الوهدة ـ كل شيء كان يبدو ظلما مريعاً لا انسانيا، ضروريا فقط لكي يحصل هذا...

«جرحت في البطن» كان يفسر لنفسه شديد الانفعال، متصوراً بطريقة منطقية لا نفع فيها كيف أمكن أن يحدث هذا: «في بادىء الأمر، عندما دخلوا إلى المنخفض، هل كانت ترد على النار باطلاق مسدسها؟ وبعد ذلك؟... ولكن لماذا هي بالذات؟ لماذا هي بالذات؟»

ـــ يا كوزنيتسوف...

وأمسك كوزنيتسوف بطرفي المعطف بشكل آلي، وكالغائم، وسار، دون أن تؤاتيه العزيمة على أن ينظر أمامه، إلى الأسفل، حيث كانت ترقد هي، وحيث كان يرف فراغ ساكن بارد مميت: لا صوت، ولا أنة، ولا نفس حياة. ولكن لا، ما زال هنا شيء حي على نحو خادع ـ احساس يديه بثقل جسدها على المعطف، وهذا كل ما كان يحسه في تلك الدقائق التي حملها فيها مع درزدوفسكي إلى المدفع.

عندما أوصلاها إلى المدفع، كان وجه نيتشايف يهتز إلى الأمام فوق المتراس يمنة ويسرة. قفز من ساحة المدفع للقائهم، وعلى وجهه تعبير مستفهم أبله، وسار إلى جانبهما ناظرا إلى زويا، ثم ألقى على درزدوفسكي وكوزنيتسوف نظرة مستغربة طويلة موقفة وكأنما كان يتوقع أن يشرحا له كيف حصل كل ذلك، وكيف وقع هذا لها. ولكن لم يشرح أي واحد منهما، لا درزدوفسكي، ولا كوزنيتسوف، اي شيء له.

ظل كوزنيتسوف يحاول تجنب النظر. لم ينظر إليها أيضاً حين وضعاها في المشكاة، لم يتذكر من أشار إليهما بأن يضعاها هناك، كيلا تكسو الريح الأرضية وجهها بالثلج. وقف، وقد أنزل البندقية على الأرض، وسمع، ولكن ليس في الحال، صوتا طيفيا شبيها بصوت نيتشايف يهمس له: «تثلجت كليا، يا رفيق ملازم، ستجمد تماما». وفي هذه اللحظة فقط، رأى فجأة، على متراس المشكاة، معطفه مبقعة أطرافه ببقع داكنة، وفكر مع نفسه لسبب ما، بأنه لن يستطيع بعد الآن أن يضع على جسمه هذا المعطف بآثار دمها عليه، بآثار موتها.

ندت من كوزنيتسوف همسة:

ـــ لماذا أخذت معطفي؟ اتركه في المشكاة...

فرد عليه نيتشايف من جنبه بهمس أيضاً:

ـــ أنت ترتجف بكل جسمك، وأنت في السترة المبطنة فقط، يا رفيق ملازم... كيف حدث هذا لزويا؟ كيف جرحت؟

كانت تجتاح كوزنيتسوف رجفة شديدة، وكانت أسنانه تصطك اصطكاكا، وقد تجمد كل جسمه، ولم تخل عنه الرغبة في أن يجلس، ويغمض عينيه، ولا يفكر بشيء. فإن ذلك هو السبيل الوحيد إلى التخفيف، كما كان يتصور.

ألقى البندقية عند قدميه، وجلس على المتراس عند المشكاة ـ لم يجد في نفسه القوة على أن يخطو إلى مسندي المدفع ـ وأخذ يمسح، مرتجفا وجهه بقفازه القذر، ويشد ويمسد على حنجرته.

وتراءى له أنه يسمع بوضوح وخفوت «جندب... ألحق بنا. ابق حيا، يا جندب! فقط تحاشى الوقوع في براثن الألمان».

وأخذ يئن في قفازه، ولأول مرة عزم على أن ينظر إليها، في المشكاة.

كانت زويا راقدة على المشمع الذي فرشه نيتشايف هناك، وغطيت بطرفه إلى صدرها. الآن لم يكن يرى ذلك الدم الذي أفزعه. كانت زويا راقدة على جنبها حاسرة الرأس ـ قبعتها في الغالب تركت في المنخفض ـ كانت تكور جسمها بشدة، مثل الأطفال، وكأنما كانت نائمة، مستكنة وكأنها مستغرقة في النوم. وكانت الريح تحرك شعرها الخفيف على وجهها الأبيض كالرخام، الفاقد رواء الحياة. وكان حاجباها واضحين بشكل خاص، جعلهما عذاب خاطف معكوفين قليلا. كان حاجباها، ورموشها المتصلبة تبدو وكأنها ترف، وتهتز اهتزازاً خفيفا. فقد كان

يمسها ويبيضها النديف الدقيق الجاف الذي كانت الريح الأرضية تسربه من المتراس. وقد انفعل كوزنيتسوف بسرعة، مغمضا عينيه، وضغط بأصابعه حنكه وشفتيه بقوة زرعت الألم في جلده تحت القفاز الخشن. كان يخاف أن يفقد قدرة التحمل الآن، ويفعل شيئاً جنونيا ضاريا وهو في يأسه واحساسه بذنبه البليغ، وكأن الحياة قد انتهت، ولم يبق شيء الآن.

إن شعرها الخفيف هذا كان يخفق على جبينه وعلى عينيه اثر ضربات الانفجارات الحارة، حين احتضنته، وانضغطت عليه، في البحث عن غوث، في موقع دافلانيان، وآنذاك ضغطها هو على عجلة المدفع، حامياً اياها غريزيا من شظية قد تصيب ظهرها، آنذاك مست برودة جبينها الحية، ودفء أنفاسها رقبته العرقة، وخديه... وهل كان في وسعه في تلك اللحظات، أن يعلم ما سيحصل لها فيما بعد، بعد عدة ساعات؟ وهل كان في وسعه أن يعلم أنها ستجرح في المنخفض، وأنها ستخرج مسدسها من محفظتها؟

ألقى شخص معطفا على كتفيه، وهو ما يزال واقفا على المتراس، لا يتحرك، ولا يجيب على صوت، يبدو أنه صوت نيتشايف مرة أخرى:

ـــ يا رفيق ملازم، أنت ترتجف جداً. يجب أن تذهب، من الأفضل أن تذهب إلى مخبأ الجرحى. فهناك موقد مشتعل... الجميع وصلوا، والحمد لله. انظر... هل تسمعني يا رفيق ملازم؟ أنت بحاجة إلى أن تتدفأ. أقول عاد الجميع...

ـــ الجميع؟... وصلوا؟

قال كوزنيتسوف من خلال الغصة الواقفة في حنجرته، وكأنما قد ضربته هذه الكلمات «الجميع وصلوا، والحمد لله». ورأى فجأة على

مقربة منه تعبير الحيرة الكلية مرتسما على وجه نيتشايف المزرق، وشاربيه الاكرتين، وهمس بشكل غير مفهوم تقريباً:

ـــ غطِّ وجه زويا... عن الريح الأرضية... غطِّه حالا...

نزل نيتشايف إلى المشكاة في رهبة، وسحب طرف المشمع، وغطى وجه زويا بحذر، وخرج إلى المتراس.

كان ذلك أروح للنفس، على ما يبدو، فحاول كوزنيتسوف أن ينهض، و لم تطعه قدماه، فانهار مرة اخرى على حافة المتراس عاجزا. فسقط المعطف الذي ألقاه نيتشايف من على كتفيه، وانسرح على ظهره.

إن كل ما جعله، في هذه الأيام، في توتر غير طبيعي، وحمله على أن يفعل ما لم يكن في الامكان فعله، قد ارتخى فيه فجأة. والآن لم يحاول حتى أن ينهض، بل كان يدلك ويتحسس حنجرته التي بدت وكأنها مشدودة في انشوطة. ولو بدأت الدبابات الألمانية هجوما الآن، أو زحف حملة البنادق الاوتوماتيكية على المدفع، لما سيطر على نفسه، في الأرجح، ولما تحرك من مكانه ليصدر أمره ويطلق النار...

«لماذا الجميع صامتون، ينظرون إلي؟ ماذا يفكرون جميعاً؟ وهل رأوا كيف حدث هذا؟ وأين كان درزدوفسكي؟ لقد كان بالقرب منها...»

سار جنديا الاتصال على الربوة مارين بالمشكاة، يحملان رجل الاستطلاع المتجمد، إلى مخبأ الجرحى، حسبما فهم كوزنيتسوف، سارا صامتين، وقد لويا رأسيهما بارتياب، إلى حيث كانت ترقد زويا مغطاة بالمشمع. ثم قال أحدهما:

«انتهى أمر الأخت»، وتوقفا مترددين، وكأنهما ما زالا يتوقعان أنها تستطيع أن تلقى المشمع عنها، وترد عليهما بابتسامة، وحركة، وصوت رنان حنون، تعرفه البطارية كلها: «يا صغار، يا أعزاء، لماذا تنظرون إلي

هكذا؟ أنا حية...» إلا أن المعجزة لم تحدث، وبقيا واقفين يتفرسان بالمشمع في المشكاة، باستفسار وتبلد، ورواوحا بقدميهما، حاملين بشكل غير مريح رجل الاستطلاع الذي كان يخور خواراً كامداً.

وارتفع إيعاز أوخانوف مغتاظاً:

ـــ اذهبا به! لماذا تراوحان في مكانكما؟

وبعد صمت قال بصوت خفيض:

ـــ وأنت، يا نيتشايف، لماذا أنت أيضاً واقف كالعمود؟ الق المعطف على الملازم. أو أنت، يا روبين، ساعد...

فتردد صوت نيتشايف مرة أخرى:

ـــ إلبس المعطف، أيها الرفيق الملازم.

وألقى المعطف على كتف كوزنيتسوف مرة أخرى، ورن صوت روبين من فوق كئيبا:

ـــ الأحرى بك أن تنهض، أيها الرفيق الملازم. ستتجمد وأنت على الأرض.

ـــ دع المعطف. قلت لك لا حاجة. دعه هنا... أُتركه...

إلا أنه نهض، رغم ذلك، وقد فهم بشكل مبهم من إلحاح نيتشايف وروبين أنهما كانا يلاحظان شيئاً عليه، من مكانهما، يلاحظان شيئاً جديداً، مرعبا، غير اعتيادي، لم يرياه من قبل. وشعر بقشعريرة، وكانت أسنانه ما تزال تصطك. وأتى بمحاولات لبلع ريقه، و لم يستطع أن يتغلب على الضيق الذي يطبق على أنفاسه.

وكان كل شيء من حوله قد برز بوضوح في ضوء الغبش الأزرق، وكان سكون قبيل الصبح المشدود قد خيم على موقع الرماية، والسهب، وعلى الدبابات المحروقة. وكان أوخانوف وروبين المبيضان من قدميهما

حتى الرأس بما علق في ثيابهما من ثلج، إلا أن وجهيهما كانا أسودين من سخام البارود، يجلسان على مسندي المدفع، واضعين على ركبتيهما البندقيتين اللتين ما تزالان حاميتين، وكأنما يدفئان أصابعهما عليها، دون أن يخلعا القفازات. وكان كلاهما يثبتان بصرهما في كوزنيتسوف.

وعلى بعد خطوتين منهما كان الألماني مستلقيا على جنبه في ساحة المدفع، وقد تسربل أيضاً في الثلج كلية، ويداه مربوطتان إلى ظهره بحزام. كان ينخر متوجعا، مطأطىء الرأس، وكأنما يرجو شيئاً، ولكن أحداً لم يطلق يديه. لم يكن يسمع، ولا يلاحظ، وكأنه غير موجود. فلم تكن لنشجاته الآن، ولا لخوفه، ولا لعذابه، أية أهمية، ولا أية قيمة. ودهش كوزنيتسوف دهشة خاطفة من بقاء هذا الألماني حيا، ومن نشيجه، وطأطأته لرأسه بهذا الشكل الحي، هنا، بالقرب من المشكاة، حيث كانت ترقد زويا مغطاة بمشمع، ولو كنت أعرف لما حدث ذاك! هل شاهد درزدوفسكي كيف جرحت؟..»

نادى كوزنيتسوف «يا آمر البطارية!» وتقدم نحو الخندق مترنح الخطو، مناديا «هل تسمعني، يا آمر البطارية؟»

كان درزدوفسكي واقفا في نهاية الخندق يدير له ظهره، ولم يرفع رأسه. وكانت الضمادة التي شدها جندي المخابرة على عجل في المنخفض تلمع بيضاء غريبة على رقبته، جاعلة اياها تبدو أكثر سمكا، مخفية كتفيه، وكانت دفتاه تلوحان من تحت معطفه محدودبتين ناتئتين، بينما كانت ذراعاه ترتخيان.

سأل بخفوت:

ــ ماذا تريد مني؟

ــ فقط أن أعرف... هل كنت تسير مع زويا؟

ـــ كنت أسير معها.

ـــ هل رأيت كيف جرحت؟

ـــ جرحنا سوية.

ـــ ومتى أخرجت المسدس؟ هل أطلقت النار، يا آمر البطارية؟

ـــ مسدس؟ أي مسدس؟ عم تسأل؟ ـ واستدار، ولاحت عيناه الزرقاوان النديتان مستديرتين في وجهه البيضوي ـ ماذا كان لك معها، يا كوزنيتسوف؟.. لقد حدست... عرفت ماذا كنت تبغي! ولكن عبثا كنت تأمل في شيء، عبثا!.

وكان فك درزدوفسكي يختلج وينط، فقد أصيب بصدمة، فكان ينطق بهذه الكلمات بهوس انسحاق وغيرة لا معنى لها الآن اطلاقا، حتى أن كوزنيتسوف اتكأ على حائط الخندق، وأغمض عينيه، فقد كان من المستحيل رؤية نظرة درزدوفسكي المريضة الشاخصة، وتلك الضمادة المنسرحة على رقبته، ولطخات الدم على ياقته. قبل ثانية من الزمن كان كوزنيتسوف مستعدا لأن يفهم، ويصفح، وينسى الكثير مما كان بينهما، إلا أنه أعاده إلى نفسه كون درزدوفسكي لم ير كيف قتلت زويا، وقد جرح معها، وغيرته هذه التي لا تحق لأحد الآن. بعد فترة قصيرة قال بصوت اجش:

ـــ الأفضل ألا تجيب، يا آمر البطارية! ـ وابتعد، لكيلا يسأل، ولكي يطفىء في داخله الاحتدام المضطرم ضده، ولكيلا يسمعه، ولا يراه، ولا يواصل الحديث معه.

ـــ كل ذلك بسبب هذا الوغد! كل ذلك بسببه!.. بسبب هذا الوضيع صرعت.

وفجأة دفعت كوزنيتسوف لكزة مرفق قوية، ووثب درزدوفسكي

من الخندق مندفعا، وكأنما انتابته نوبة، وقد تلوى فمه، وقفز إلى الألماني المستلقي قرب المتراس، المولول في ياقته ولولة ممطوطة ـ واندلعت صيحة في موقع الرماية:

ــ خنزيرا..

كانت كتفه تهتز بلهوجة، وظهره يرتج، وكانت يده تجاهد لتنتزع المسدس من غمده. فهم كوزنيتسوف ما تعنى هذه الحركة، فاندفع وراءه.

ــ قف! قف! إلى الوراء!

وبالكاد لحق أن يمسك بكف درزدوفسكي، واستطاع أن يدفعه، وكأنما صبت فيه كالرصاص قوة هوجاء، فارتطم خصر درزدوفسكي في حافة الخندق وانتصب دفعة واحدة، وقد ابيض وجهه الملتوي.

ــ ابتعد، يا كوزنيتسوف! ابتعد!..

وثب أوخانوف وروبين نحو درزدوفسكي، من الجانبين، وأمسكاه من مرفقيه، وضغطاه في ركن الخندق بجسميهما، فأخذ هذا يرنح رأسه يمنة ويسرة، هازا الضمادة المحلولة، وشرع يصرخ، وقد طفرت من عينيه دموع العجز:

ــ بسببه! بسببه زويا!..

ــ تهاجم رجلا أعزل، يا آمر البطارية؟ ـ قال أوخانوف هازا درزدوفسكي من كتفه وكأنما يهدىء سكران. ـ هذا ما يستطيع أن يفعله الأحمق أيضاً! هيا، اهدأ، يا آمر البطارية، اهدأ! هل أصبت بصدمة؟ وما شأن الألماني هنا؟ إصح! ما شأن الألماني؟

وخمد درزدوفسكي رأسا، وتكور على نفسه، فالتا من أيدي أوخانوف وروبين خائرا، وبعد زفرات ونشقات مرتعشة أنشأ يقول:

ـــ نعم، أنا مصاب بصدمة. رأسي يرن. وابتلاع الريق يؤلمني. شيء يطبق على حلقومي... ثم أضاف منهوكاً واهناً ـ سيزول الآن. أنا ذاهب إلى نقطة المراقبة...

قال أوخانوف:

ـــ ضمادتك قد حلت، يا آمر البطارية ـ يا روبين، اصحب آمر البطارية إلى نقطة المراقبة. وضمده، كما ينبغي.

ـــ تفضل، يا آمر البطارية.

دعا روبين درزدوفسكي، وتبعه مقطب الجبين في خندق الاتصال.

سأل كوزنيتسوف:

ـــ من نرسل مع الألماني، يا أوخانوف؟ روبين أم نيتشايف؟ أم جنديي الاتصال هذين؟

مصَّ أوخانوف من جديد نفساً عميقاً من سيكارته، بملء صدره، ونفث الدخان من منخريه.

ـــ لا حاجة إلى تفكير كثير، يا ملازم. يجب إرسال الألماني إلى الفرقة. لا مفر من ذلك. فلماذا نشغل أنفسنا به؟ إبق أنت عند المدفع مع نيتشايف وروبين فقد تضطر إلى اطلاق النار. سأوصله بطريقة من الطرق. فقط أرجو منك، يا ملازم ـ وسحق أوخانوف على الأرض عقب السيكارة التي استنفد نهايتها بعدة مصات، ونظر في ناحية المشكاة بتدقيق بطيء معذب، وقال:

ـــ حسنا، أنت تفهم بنفسك، يا ملازم. إنها الحرب اللعينة! اليوم تصرع هذا، وغدا ذاك، وبعد غد أنت.

ونصحه كوزنيتسوف بصوت كامد:

ـــ خذ روبين معك، واذهبا معا. شدد حذرك في الضفة الأخرى. لا تتحرش بالألمان. أنا ذاهب إلى مخبأ الجرحى.

ـــ حسناً. أنا لا أحب القبل الرجالية، دعنا لا نتوادع، يا ملازم. ـ وألقى أوخانوف البندقية على كتفه بشيء من الاهمال، ولاحت ابتسامة في عينيه فقط ـ مع السلامة، يا ملازم. سآخذ روبين معي.

إن ابتسامة أوخانوف المهدئة هذه بعد كلماته حول ضرورة نقل الألماني إلى نقطة قيادة الفرقة، على أية حال، واستعداده لأخذ الألماني، والعبور به، في مثل هذا الظرف إلى الضفة المقابلة، مجازفا بحياته مرة أخرى في يوم واحد، ونوبة الغيرة الانتقامية التي انتابت درزدوفسكي ـ كل ذلك بدا وكأنه في دنيا غريبة غير واقعية تفح ضراما، أما الحياة الفعلية، بشمسها الاعتيادية، وأصواتها المألوفة، ونورها الصافي الهادىء، فقد تغورت في ظلام الليلة التي لا تقاس بالساعات. وتملكت كوزنيتسوف الرغبة في أن يجلس على مسند المدفع، أو يستلقي على الثلج مستسلما، ويغمض عينيه ويصمت.

«ولكن، ينبغي أن أذهب إلى الجرحى. فإن دافلانيان هناك... أما زال على قيد الحياة؟ يجب أن أذهب إلى الجرحى، الآن يجب أن أذهب!». أخذ كوزنيتسوف يحثُّ نفسه، ورفع البندقية من الأرض، وكأنه يرفع ثقلا باهظاً، وأمسكها بيد مسترخية، وماسورتها إلى الأسفل، ونظر إلى المشكاة دون إرادته.

كانت الريح الأرضية تهب بدفقات، وتعبث بطرف المشمع الذي كان يغطى وجه زويا، وخشي كوزنيتسوف أن ترفع الريح الغطاء فجأة، وتكشف عنها مرة أخرى بوضوح لا رأفة فيه، ميتة، مستسلمة، متكورة في مشكاة القذائف الباردة. ذهب كوزنيتسوف نحو الدرجات المحفورة في الشاطىء، ماسا كثبان الثلج بماسورة بندقيته، مرتجفا من القشعريرة، محني القامة.

الفصل الحادي والعشرون

في وقت متأخر من المساء أمسى واضحا لبيسونوف أن قواتنا لم تستطع اخراج الألمان من رأس الجسر الذي احتلوه في الضفة الشمالية في نهاية النهار، وكسح دباباتهم من الجزء الشمالي من القرية، رغم نزول فوج الدبابات المستقل إلى المعركة، ونزول فرقة المشاة الـ «٣٠٥» الاحتياطية، ورغم السرعة والتفاني في عمليات اللواء المستقل المضاد للدبابات، ورغم النار المركزة التي صوبها فوجا الهاونات النفاثة اللذان استدعيا إلى الجبهة، ومع ذلك فقد تمكنت، ولو بصعوبة هائلة، من أن تفك الكماشة التي كانت تطبق على جناحي فرقة دييف بشكل مميت، وأن تشق ممرا ضيقا إلى فوج الميجور تشيريبانوف المحاصر، والذي كان يتكبد خسائر، وهو يقوم بالدفاع في جميع الاتجاهات.

وفي نحو منتصف الليل أخذت المعركة تهدأ بالتدريج في كل مكان في قطاع الجيش.

في تلك الساعة كان بيسونوف جالسا في مخبئه غير واثق بفترة الهدوء هذه، ولكنه راض، على أية حال، بعد الأخبار التي وردته عن عمليات الفرقة الـ «٣٠٥» التي شقت ممرا إلى فوج تشيريبانوف. كان يصغي بتعب إلى تقرير عن الوضع يقدمه نائب رئيس قسم العمليات الميجور غلاديلين. كان التقرير جافا روتينياً. ولم يقاطعه بيسونوف مرة

واحدة. كانت قدمُهُ تمرُّ بنوبات من الألم من جراء التوتر العصبي، وقد تكررت هذه النوبات خلال المساء كله، لا سيما بعد أن سقط في الخندق قبل بضع ساعات، وقد التوت قدمه بوضع غير مريح أثناء غارة بنيران قاذفات الألغام ذات المواسير الست. وصار وجه بيسونوف الجاف أكثر جفافا من جراء هذه النوبات، وضمر وأربد. وكان في بعض الأحيان يتصبب عرقا حارا، فيمسحه بمنديله عن رقبته وصدغيه، متحاشيا تحديقة الميجور بوجيتشكو الدائمة فيه، وقد لاحظ منذ وقت طويل أن حالة القائد ليست كما ينبغي.

قال بيسونوف بعد أن استمع إلى التقرير:

ـــ ليس واضحا، يا ميجور.

ومد رجله تحت المنضدة مهيئاً لها وضعاً أروح.

ولم تكن هذه الملاحظة «ليس واضحا» تخص التقرير، ولا الوضع الذي نشأ في الفيالق، ومع ذلك فإن غلاديلين الرجل الكهل الموزون، الذي تعود على أن يسرد المعلومات الموضوعية بدون انفعال جهد لامكان، أظهر بكل هيكله المعروق ارتباكا استمر ثانية واحدة، وكأنه نسي أن يبلغ القائد بشيء جوهري لم يكن له الحق في نسيانه وعدم معرفته.

ـــ أعذرني، أيها الرفيق القائد، أنا لم أفهم،

قال بيسونوف بصوته الصارف:

ـــ ليلة أمس لم يوقفوا العمليات ساعة واحدة، واليوم، وقد أدخلوا الاحتياط، حسب معلوماتنا، صمتوا بعد أن احتلوا رأس جسر مريحا. ألا يبدو ذلك منافيا للمنطق، يا ميجور؟ غير مترابط؟

ـــ أعتقد أن ذلك له علاقة بعمليات وحداتنا المجاورة في وسط الدون، أيها الرفيق القائد. بعمليات الجبهة الجنوبية ـ الغربية وجبهة فورونيج. حقا إن بداية هجومهم اليوم لم تكن موفقة جداً، ولكن على أية حال...

قال بيسونوف: محتمل.

بعد أربع وعشرين ساعة من الضغط الناجح من جانب الألمان وتقويتهم السريعة للضربة ـ وكان استعجالهم نحو الهدف محسوسا ـ أوقفوا، بالطبع، الهجمات في قطاع الجيش، لأسباب اخرى، بالتأكيد، جديدة أساسية جداً لا يمكن التنبؤ بها سلفا. لقد كان بيسونوف يميل إلى التفكير، مهما يكن في ذلك من مجازفة، بأن العدو، وقد أنزل إلى الميدان احتياطه الرئيسي في الجناح الأيمن لجيشه، وزحف في تلك المنطقة إلى بضعة كيلومترات، كان عند الليل قد استنزف امكانياته. وكان على هذا الواقع الجديد يتوقف وقت تسديد الهجوم المتفق عليه مع قائد الجبهة، والذي كان يجب أن يبدأ في اللحظة التي تصبح فيها دلائل استخدام العدو لكل احتياطاته، وأمارات التعب في هجومه واضحة، في تلك اللحظة بالذات لا قبلها ولا بعدها.

ولكن أشياء كثيرة كان يمكن أن تتوضَّح كليا خلال الساعات القريبة فقط، بل وحتى في أوائل الصباح: هل سيبدأ الألمان من جديد، أم لا يبدأون؟ وهل سيكون الضغط التالي، في الاستعجال اللامنطقي نحو الهدف، موجها إلى الجناح الأيسر للجيش، حيث استطاعت تشكيلة الدبابات الألمانية نهاراً أن تحطم الحراسة الأمامية، وأن تخرج في المساء إلى الضفة الجنوبية، وتتغلغل أيضاً في دفاعنا؟ إلا أن بيسونوف لم يكن يؤمن حدسا بهذا التغير في اتجاه الضربة الرئيسية، وفضلا عن ذلك، لم

ترد أية أخبار عن اعادة تشكيل قوات العدو ضد الجناح الأيسر للجيش. فأين الحقيقة في كل هذا؟ أين الحقيقة الصلدة؟

ــــ أيها الرفيق القائد، قد طلبت شايا. أرجو المعذرة، كم ملعقة سكر أضع لك؟

ــــ نعم... ملعقتين. شكراً.

صب الميجور بوجيتشكو قدحا مملوءاً بالشاي الساخن من إبريق الشاي المغلي على الموقد، حتى فاحت رائحة الشاي. وبعد أن فكر قليلاً وضع ثلاث ملاعق من السكر، ووضع القدح على الطاولة أمام بيسونوف.

وفكر بيسونوف مع نفسه «أتراهم استنفدوا قواهم، فهمدوا؟ أم ما لا تزال عندهم فضلة من قوة، وسيبدأون؟»

لم يكن هناك جواب دقيق على ذلك، وكان يعرف أن الألمان أن لم يستخدموا كل احتياطيهم، سيبدأوا في الغد، أي في الصباح، هجوماً جديداً ضد الجناح الأيمن للجيش، هنا على رأس الجسر، في قطاع فرقة دييف، فإنه سيضطر إلى اللجوء إلى الوسائل الأخيرة ـ وبدون ذلك سيكون الصمود مستحيلا ـ فيلقي الدبابات والآليات اللذين قدمتهما القيادة العليا من احتياطيها للهجوم، واللذين وصلا إلى نقاط تمركزهما على بعد ١٠ ـ ١٥ كيلومترا من الخط الأمامي.

وبالنتيجة ستتبدد القوى المتحركة المعدة لتوجيه الضربة المضادة، وحين تتبدد سيوجه ضربة جوابية لا بقبضة مشدودة، بل بأصابع منفرجة، وذلك ما لم يأت بأي نجاح حتى الآن، رغم أن ذلك حدث غير مرة.

ألقى بيسونوف الملعقة الحارة في قدح الشاي القوي، وسأل:

ـــ في آخر الأمر متى سيتم الاتصال بمقر قيادة الجبهة؟ أين رئيس قسم الاتصال؟

أجاب الميجور غلاديلين بدرجة معينة من الدقة:

ـــ الظاهر، أيها الرفيق القائد، أن فيلق الدبابات أثناء تحركه في الظلام على الخط أوقع بعض الركائز... ستصلَّح من دقيقة إلى أخرى. رئيس قسم الاتصال ذهب إلى الخط منذ وقت طويل.

ـــ لا يهمني سبب العطب أبداً. أنا بحاجة إلى الاتصال!

مس بيسونوف القدح ليعرف هل هو حار، وشرب بضع جرعات (إن هذا الشاي القوي كان له، على أية حال، مذاق القصدير، والبارود على ما يبدو) وضع القدح، ومسح بمنديل الجيب العرق الذي تصبب رأسا على صدغيه ورقبته. إن بيسونوف، وهو تحت ضغط هذه الأيام والليالي، والبلاغات بلا انقطاع من نقطة قيادة الجيش، والآتية من الفيالق، ومشاغل توسيع الممر الضيق الذي تشقه قوات الفرقة الـ «٣٠٥» إلى فوج تشيريبانوف المحاصر، لا يزال يشعر بالألم الحارق في قدمه. ثقلت قدمه، وورمت ورما معيقا، وعندئذ، ولكي يصرف باله عن الألم، وينسى نذره المخيفة، راح، لسبب ما، يتذكر كيف أعانه في المستشفى في مثل هذه الحالات، قبل بضعة أشهر، شيء واحد هو التدخين المستمر. وكانوا بعد العملية قد منعوه من التدخين منعا باتا. نعم، لقد حذروه في المستشفى أن العادة القديمة قد أصبحت الآن مهلكة له، وقد ضعف النبض في شرايين رجله اليمنى. ولكن بيسونوف، الآن، وقد تذكر النيكوتين المهدىء، الذي كان ينبهه دائماً في الماضي، نظر بطرف عينه إلى علبة السكائر المغرية الزرقاء زرقة التلج، المنسية على

الطاولة من قبل أحد الناس ـ رئيس الاستطلاع أو فيسنين ـ والتي لم يمسها أحد في حضوره.

مد يده إلى العلبة، وكان ذلك سهوا، وفتحها، وتناول السيكارة السميكة، وشم رائحة التبغ الجافة باستمتاع شهي عالق في النفس.

«واحدة فقط... في الماضي لم أستطع بدونها. لأجرب. سيكارة واحدة... لا سيما وفيسنين غائب ـ قال بيسونوف لنفسه، متصوراً كيف أن عضو المجلس العسكري ستذهله بلطافة هذه المفاجأة، وهو المدخن المدمن، وسيخلع نظارته، في الغالب، ويرفع حاجبيه، ويسأل «أحقاً أنك تدخن، يا بيتر ألكسندروفيتش؟»

ـــ أحقاً انك تدخن، أيها الرفيق القائد؟

سأل الميجور غلاديلين بذهول متوجس، واختطف علبة الكبريت من المنضدة، ليشعل له السيكارة، وحدق به بوجيتشكو، وجنود اللاسلكي، وجنود الاتصال الذين صمتوا لحظة واحدة، كلهم حدقوا به بانتباه.

لاحظ بيسونوف هذا الانتباه العام، فأخذ يضغط على السيكارة، وهو غير مرتاح من نفسه، متضايق من هذه النظرات. أغلب الظن أن ميوله وعاداته ونقاط الضعف فيه كانت معروفة في مقر قيادة الجيش، وهنا في فرقة دييف. كان أحدهم ينبه لكيلا يقع في حرج ولا يثير الملاحظة الزائدة، أو ابداء عدم الارتياح.

ـــ اذن... يهمني للغاية أن أعرف متى سيتم الاتصال مع مقر قيادة الجبهة؟

قال بيسونوف كابتاً الانفعال في صوته، فخرج على قدْر بالغ من

الأدب. وتأوه، ومدد تحت الطاولة ساقه التي بدت ثقيلة، وبدأ يتكلم موجهاً كلامه إلى غلاديلين وحده:

ــ كما يهمني للغاية لماذا لم يُعرف حتى الآن هل وصل عضو المجلس العسكري إلى منطقة تمركز احتياطات الجيش أم لا. أين هو؟ استفسروا مرة أخرى من فيلق الدبابات وفيلق الآليات. يجب أن يكون هناك الآن. لماذا يتأخر؟

أجاب الميجور غلاديلين بلهجة مهذبة:

ــ أنا أعرف، أيها الرفيق القائد، أن عضو المجلس العسكري لم يصل إلى مقر قيادة الجيش. من المحتمل أنه تأخر، وهو في الطريق إلى فيلق الدبابات، في مكان ما في قوات الخط الأول. من المحتمل تماماً...

ــ اسال الفيلقين، والفرقة الـ «٣٠٥»، وفوج خوخولوف. وأرجو أن تهيّئ لي الاتصال بالجبهة. أنا بالانتظار.

ووضع بيسونوف السيكارة المدعوكة في علبتها مغتاظاً، ونقر بأصابعه على الطاولة.

اندلعت في هواء الخندق الدافىء الرطب همهمات جهاز اللاسلكي الباعث دمدمة في الأثير. تحول جندي اللاسلكي إلى الاستقبال. وتداخل مع الدمدمة الكهربائية كلام روماني سريع، وانقطع، وانبعث مجعجعا أمر ألماني حاد نطق بتلحين، وكأنه إملاء لبرقية، وقد غطت عليه ذبذبات الجو، وإشارات مورس العجلى ـ كانت تجري محادثات عجماء، في تلك الساعة كان جنود الاتصال الألمان والرومانيون في مقرات الأركان ونقاط القيادة يعملون عملا مشددا للغاية، وهو ما لم يحدث عادة قبيل الاستعداد الجوي للهجوم. عندئذ تصمت جميع أجهزة اللاسلكي، ويسود الأثير سلام ظاهري وهدوء.

لقد كان الأثير الآن في حركة غير اعتيادية، وكان بيسونوف قد أسبل جفنيه نصف إسبالة من التعب، وفكّر مع نفسه، وهو يستمع إلى الشفرات غير المألوفة، ويخمن في محاولة غير نافعة سبب المحادثات اللاسلكية الغريبة.

«بأي مناسبة تدور هذه الأرجوحة الليلية بينهم؟ هل هم يستعدون للصباح؟ ولماذا أخذت اللاسلكيات الرومانية تعمل؟»

أصوات، وخطوات، وضجيج في قسم مجاور من المخبأ يحتله دييف مع جنود الاتصال للفرقة، وتبع ذلك طرق عال على الباب. وقد انتزعت هذه الأصوات بيسونوف من الاستغراق في التفكير.

ــ هل تأذن لي، أيها الرفيق القائد؟.... ودخل بوجيتشكو المخبأ دون أن ينتظر استئذانا، ومن الطريقة التي نطق بها «الرفيق القائد» بصوت مسحوق، وهو منتصب القامة، وبسبب امتقاع وجهه الذي كان دائماً دافق الحيوية بسّاما، أحس بيسونوف وقلبه غائص، بأن شيئاً بالغ الأهمية قد حدث.

وتردد بوجيتشكو، وسحق برجله وبعصبية كتلا من التراب غير مرئية. استعجله بيسونوف، وقد قوي إحساسه بالمصيبة الواقعة:

ــ لماذا أنت صامت، يا بوجيتشكو، أبلغني! ما الخبر؟

ــ فيسنين... أيها الرفيق القائد.

ــ أين؟ غير ممكن! اشرح لي كما يشرح الناس. أين هو؟

ــ أيها الرفيق القائد... قبل لحظة فقط جاء الميجور تيتكوف، جريحا... وأبلغ أن عضو المجلس العسكري...

ــ ماذا؟ جريح؟ مقتول؟

نكّس بوجيتشكو رأسه، وسحق بعقبه كتلة من التراب تحت قدميه، وإذا بيسونوف وقد تصبب عرقا حارا، وطغى عليه ألم حاد في قدمه، يرفع عليه صوته لأول مرة في هذه الفترة، وقد فقد السيطرة على نفسه:

ــ أنا أسألك: هل هو جريح أم قتيل؟ هل أصبت بالخرس؟ قتلوه؟

ــ نعم، أيها الرفيق القائد... اصطدموا بالألمان في الطريق. إن الميجور تيتكوف يريد أن يبلّغك بنفسه.

وجعله هذا النعي المفاجىء الذي لم يكن منتظراً له، وكأنه صاعقة، يفكر مع نفسه «فيسنين قتل؟ اصطدموا بالألمان في الطريق؟ أين؟ في القرية؟ ما هذا الذي يقوله بوجيتشكو؟ كيف حدث؟»

وتماوجت أضواء المصابيح، وأجهزة التلفونات وآلة اللاسلكي، والخارطة على المنضدة، والوجوه، وكأنما كانت تطوف في هواء المخبأ الساكن الدافىء. وصمت الجميع. وفي الحال انسلّ من جانبٍ ظلٌّ قصير مبتور لإنسان. أخرج بيسونوف منديله مغموراً برائحة الفاجعة النازلة، وبصوت طيفي يقول «أيها الرفيق الجنرال»، مسح حنكه ورقبته لتضييع الوقت، ولكيلا ينفجر رأسه، ويصب جام غيظه على هذا الصوت الخارج من الظل، والمسطح الخالي من الحياة، والرمادي الهالك، الذي كان يجب أن ينعي له فيسنين. وبعد صمت طويل التزمه، سأل وهو يمسح عرقه:

ــ أين اصطدمتم بالألمان، يا ميجور تيتكوف؟

ــ في الضاحية الشمالية ـ الغربية للقرية، أيها الرفيق القائد... وكانت سيارة الحرس في المقدمة...

واقتضاه جهدا أن يدير رأسه، وينظر صوب هذا الصوت المتوحد

القاضي، وكأنه في محكمة، المتردد في جنبات المخبأ، واستبدّت به فجأة رغبة في أن يرى تيتكوف كله ـ وجهه وعينيه ـ وينفذ خلال الكلمات إلى حقيقة ما حدث، ويتخيل الدقائق الأخيرة التي شهدها ورآها رأي العين.

كان الميجور تيتكوف، الذي كان يترنح كالظل إلى يمين باب المخبأ، بهيئة لا تعرف: كان رأسه المستدير مشدودا بضمادة حتى قصبة أنفه، وهيكله القصير العريض الصدر الشبيه بكتلة من الحديد، ملفوفا بفروة خروف شعثاء، أطرافها مقطعة، ومهلهلة، وكمها الأيسر ممزق بفعل رصاصة متفجرة، على ما يبدو، وقد برزت من هناك خصائل من الفرو شوهاء، واطلت من تحت الطاقية الرمادية التي تشكلها الضمادة القذرة عينان قانطتان محمرتان بالدم، وعاد ذلك الصوت المفعم باليأس:

ــ ذهبت دورية استطلاع ألمانية إلى السيارتين. ورفض عضو المجلس العسكري التراجع إلى البيوت. وكانت على مسافة مائتي متر تقريباً في أرض مكشوفة... وأمر بالاشتباك معهم...

قاطعه بيسونوف قائلاً:

ــ كيف قُتل؟ كيف صُرع فيسنين؟

ــ أطلقنا النار حوالي عشر دقائق. ثم التفت ورأيت الرفيق عضو المجلس العسكري منبطحا على ظهره قرب السيارة، وهو يضم المسدس إلى صدره والدم يتدفق من حنجرته...

ــ وبعد ذلك؟

استعجله بيسونوف رغم إرادته، وكأنما كان يريد أن يعرف لنفسه الشيء الرئيسي في هذا المصرع، غير أن الشيء كان يفلت، ولا يتبلور

بوضوح تام، ولا يستوعبه الوعي. لقد كان يُبلَّغ بأن فيسنين قد صرع، بينما كان لا يبصر مصرعه، ولا يتصوره ميتا، لأنه لم يكن ما هو أكثر امتناعا من هذه المفاجأة، ولا ما هو أكثر استعصاء على التفسير، على ما بدا، من العلائق التي تكونت بينهما، وهما رجلان في الجيش، متساويان في المسؤولية عن كل شيء، من تلك العلائق غير الطويلة التي كانت تبدو، من جرائه هو، بيسونوف، وبفعل نفوره المتشكك من السلطة الثانية إلى جانبه، ليست كما كان يريدها فيسنين، ولا كما كان يجب أن تكون. وربما كان عدم رغبة فيسنين في الجدال، ولينه، ونصائحه الحقيقية التي تبدو عابرة، وعدم ميله إلى التشديد على إظهار مكانه إلى جانبه، جانب قائد الجيش، هي الدرجة التي دسها فيسنين تحت قدميه حسب تجربته الخاصة، وبسعيه لعدم مس كبريائه، وذلك لتثبيته في الجيش الجديد، وسط رجال لم يتعرفوا بعد على الأمر، ولم يظهروا في التعارف الأول. أكان كل شيء بهذا الشكل؟ وإذا لم يكن كذلك، فإنه هو لا فيسنين، كان العائق لكل ما كان يمكن أن يكون بينهما، وهذا ما لم يستطع أن يغفره لنفسه الآن...

ومن مكان بعيد، من ضوء المصباح، من الهواء الدافىء، الشبيه بهواء الحمام، جاء صوت الميجور تيتكوف المتهدِّج:

ــ تناوبنا، العقيد أوسين وأنا، على حمل الرفيق عضو المجلس العسكري على ظهرينا. وقد جرح العقيد أوسين في كتفه في القرية. حطمت الطلقة العظم. وحالما وصلنا إلى دباباتنا، أخذنا سيارة من سيارات نقل الذخيرة، وذهبنا بعد ذلك إلى كتيبة اسعاف الفرقة الـ «٣٠٥». إن أوسمة ووثائق الرفيق عضو المجلس العسكري هي هنا معي. والعقيد أوسين أدخل نقطة الاسعاف. وقد قال أن أسلمك الوثائق

كاملة سليمة. ماذا ينبغي أن أعمل الآن، أيها الرفيق الجنرال؟ إلى أين أتوجه الآن؟...

ما كان ينبغي للميجور تيتكوف، في أغلب الظن، أن يعرض أوسمة فيسنين ووثائقه، وكانت كل كلمة تفوه بها تنبض بعذاب العجز أمام ما حدث. إن تلك اللفة المدماة التي وضعت على الطاولة، في منديل جيب لزق كانت واقعا لا يُنقض ولا يُدحض مثل ضربة على العينين تؤكد بقساوتها حقيقة مصرع فيسنين. كان بيسونوف بصورة لا شعورية يحتمي بيد واحدة من ضوء المصباح الساطع، ومن النظرات المصوبة إليه، فمدَّ اليد الأخرى، لسبب ما، إلى أرومة هوية فيسنين الشخصية، وكانت الأرومة رطبة، وظل وقتا طويلاً غير قادر على فتحها، فقد كانت وريقاتها ملتصقة، متشبعة بالدم، داكنة.

ومع ذلك فقد فتح بيسونوف الهوية، وكان أول ما وقع عليه بصره تصوير صغير مأخوذ بآلة تصوير للهواة وُضع بين ورقتين من أوراق الهوية، وكان أيضاً ملطخاً كله بلطخات بنية، إلا أنه كان في الامكان تدقيق النظر فيه. كانت الصورة مأخوذة لفيسنين مع ابنته، على ما يبدو. كان فيسنين يرتدي قميصا أبيض، وبنطلونا صيفيا أبيض، وكان فتي المظهر على عهد ما قبل الحرب، وهو يبتسم لشخص ما ابتسامته الصبيانية الحية، حتى أن أنفه قد تغضَّن مرحا، وكان يجلس وراء مجدافين في قارب باخرة، يسير على خليج مشمس بدت على ساحله بناية المصح بين أشجار السرو، وفي مقدمة القارب جلست صبية في نحو السابعة من عمرها نحيلة لوحتها الشمس إلى حد الاسوداد، وقد تهدل شعرها الأشقر الناصل من تحت طاقيتها على خديها، وبرز عظما الترقوتين الضعيفان من وراء فتحة السارافان وكانت تنحني على جانب القارب،

وقد طلب إليها أن تغمس يدها النحيلة في الماء. وفي ظل الطاقية كانت عيناها المتيقظتان محولتين إلى الجانب الذي ينظر إليه ويبتسم فيسنين البعيد وهو في شبابه بهيئة لا يعرف بها. وكان طرفا شفتى الصبية معوجين بشيء من الضيق، لا تريد أن تبتسم ولا أن ترفض الابتسام لشخص غريب، إلا أن ملتقط الصورة، كما يبدو، كان يأمرها بالحاح: «ابتسمي!»

وكتب في زاوية من الصورة بحروف بيضاء «سوتشي. ١٩٣٨».

«لماذا كان يحمل معه هذه الصورة بالذات؟ أهذه الصبية ابنته؟ وهل بين وثائقه صورة لزوجته؟ وماذا يضيف ذلك، وما يفسر؟ لا. أنا لا أستطيع أن أنظر، لا أستطيع أن أطلع على تفاصيل حياته بعد وفاته! لماذا نريد دائماً أن نعرف عن الشخص بعد وفاته أكثر مما كنا نعرفه في حياته؟»

ـــ ايها الرفيق القائد...

رفع يده عن جبينه. وارتفع في جو المخبأ أزيز جهاز التردد العالي، ورفع جندي الاتصال السماعة، ونظر إلى بيسونوف بعينين تدعوانه بتهيب، قائلاً بهمس:

ـــ يدعونك، أيها الرفيق القائد، من مقر قيادة الجبهة. ـ نعم، نعم... الآن، نعم، نعم...

وارتج مرفقه على المنضدة، وتلمس باحثا عن عصاه التي كانت مركونة على الحافة، وتوكأ عليها، ونهض تحت أنظار جميع الموجودين في المخبأ، وسط صمت متلزج كالوحل، وصرت عصاه اثناء سيره إلى جهاز الاتصال. كانت السماعة دافئة من حرارة كف جندي الاتصال، حية، إلا أنه كانت فيها ذبذبة واهتزاز أصوات المدى الخافتة، الفراغ

المنداح إلى ما لا نهاية، فتكلم بيسونوف تحدوه رغبة عارمة في تحطيم هذا الصمت في المخبأ وفي السماعة:

ــ الخامس يسمع.

ــ دقيقة واحدة، يا رفيق خامس. سأعطيك الرفيق أول.

وفي الطرف الثاني من هذا المدى المفصول بالليل نُقلت السماعة سريعا، وفي الحال نطق صوت آخر مفعم بقوة عصارات الحياة، صوت رجل معافى مشغول بأمور ملحة، وكانت في الصوت رنة انفعال:

ــ مرحبا، يا بيتر ألكسندروفيتش! هل هيأت الاخفاف؟ وأطلقت لحيتك؟ هل تمنطقت بالزنار؟ على القفطان؟

كان المتكلم قائد الجبهة: لكنة أوكرانية، ورنة جنوبية في النطق. لقد عرفه بيسونوف. لم تزل بينهما الكلفة بعد ليخاطبه بضمير المفرد، وقد أخجلت بيسونوف قليلاً هذه المخاطبة الجديدة غير الرسمية بضمير المفرد، كأنها قد نزعت عنه شيئاً، وجردته من استقلالية معينة، ولو كانت في المخالطة الأولية، أما قائد الجبهة، فبعد أن تحدث معه بيسر، كما يتحدث مع زميل له في المدرسة، لمح على شكل سؤال، وشبه مزاح إلى أن جيش بيسونوف اعتُبر بمثابة المحاصر».

إلا أن بيسونوف الذي كان في تلك اللحظة في وضع لا يتقبل فيه اطلاقا حتى شبه المزاح، ولم يستطع التحول إلى ضمير المفرد في المخاطبة، أجاب:

ــ أنا أحمل معي ماكنة الحلاقة، حسب عادتي القديمة، يا رفيق أول. أما الأخفاف والقفطان فلم يزودنا بها رئيس المؤخرة. قبل ساعتين كانت عندي فرصة لأعرّفكم بوضعنا، يا رفيق أول.

ـــ أعرف. درست، وأنا أوافق! ـ وضحك القائد ضحكة هادرة، ولم يتقبل لهجة بيسونوف الجافة الرسمية ـ هذه هي الأمور، يا بيتر الكسندروفيتش! الآن، أعتبر أن وضعك سيكون أسهل. إلى الشمال ـ الغربي منك أدخل الجيران في الثغرة أربعة فيالق من الدبابات، وهي تتحرك بنجاح للقضاء على الاحتياطات العاملة، وتخرج إلى جناح ومؤخرة جيوش «الدون»... هكذا تسير الأمور. أنا موافق على تقديراتك. لو انحصرتم كليا. فقد حان الوقت. ستبدأ بعد التدقيق. ستتلقى الأمر. أشدُّ على يدك ويد فيتالي اسايفيتش من كل قلبي على صمودكم! وبالمناسبة أريد أن افرحك أيضاً: في المساء جاءنا تلفون من القائد العام. كان مهتما بوضع جيشك، وراضيا، وكان يستحث...

كانوا في قيادة الجبهة لا يعرفون شيئاً بعد. كان فيسنين بالنسبة لهم ما يزال حيا، وكان ضروريا. كانت وحدات الجبهة الجنوبية ـ الغربية وجبهة فورونيج قد اخترقت أخيراً دفاع الألمان بعد محاولة فاشلة، وأدخلت في الثغرة فيالق من الدبابات. وكانت القيادة العليا مهتمة، وراضية، وكانت تستحث. وكان بيسونوف يخمن بأن وضع الجيش سيكون محل اهتمامها...

أبقى بيسونوف السماعة اللزجة في أصابعه الرطبة، وقد بدا له أنه ما يزال يشم رائحة الدم الحديدية المالحة، الفائحة من لفة الأوسمة والوثائق البنية المرطبة المصرورة في منديل جيب، ومن الصورة الفوتوغرافية، التي كانت فيها شفتا الفتاة النحيلة، ابنة فيسنين تعوجان اعوجاجا ينم عن ضيق، ومن اصابعه هو، التي كانت مطبقة على السماعة إلى حد الابيضاض.

ـــ لماذا سكتَّ يا بيتر ألكسندروفيتش؟ ما الذي يقلقك؟ إعترض إذا

كانت لديك تقديرات أخرى، أنا سامع. ماذا بعد؟ هل تريد أن تطلب شيئاً؟ صاحبك المدقق ياتسنكو حصل على كل طلباته. رجل طماع ياتسنكو هذا!

قال بيسونوف بصوت جاف:

ـــ اسمحوا لي أن أقاطعكم. ليس لي الحق في أن أخفيه عليكم... قُتل عضو المجلس العسكري فيتالي ايسايفتش فيسنين قبل ثلاث ساعات وهو في طريقه إلى فيلق الدبابات.

ـــ كيـ.....ف كيف قتل؟ ماذا تقول؟ ما هذا الحديث الذي أسمعه منك؟ ـ انسلت صيحة القائد من الطرف الآخر للخط، وفي الحال تحولت إلى همس ـ كيف هذا؟ أي نبأ تبلغني؟

كرر بيسونوف:

ـــ أبلغك، يا رفيق أول، أن فيتالي ايسايفيتش فيسنين قد قتل في القرية، وهو في الطريق إلى فيلق الدبابات. بلغوني بذلك قبل لحظات.

ـــ قتل؟ فيسنين؟ يعني أنكم لم تحرصوا على عضو المجلس العسكري! أمن المعقول أنك لم تكن تعرف أنه يدخل في كل مأزق حتما؟ لم تكن تعرف؟ كان عليك أن تكبحه، وتضع عليه عينيك الاثنتين! أي رجل ممتاز فقدنا! هذا ما لم أتوقعه، لم أتوقعه على الاطلاق! كالبرق في سماء صافية! ولكن اي حرس عندك؟ أين كانت عيونهم؟

ـــ أرجو عدم التقريع، يا رفيق أول. إن ذلك لا ينفع الآن، مع الأسف. لا ينفعكم ولا ينفعني ـ ثم سكت بيسونوف قليلاً ـ هل تسمحون لي بأن أبلغكم في ايجاز بآراء اضافية إلى تقريري؟

ـــ أي شيء جديد آخر عندك؟ على أية حال، كيف حدث ذلك، يا بيتر الكسندروفتيش؟ آه، كيف طعنتني! طعنتني حتى الموت!...

ـــ هل تسمحون، يا رفيق أول؟ أرجو أن تسمعوني.

ـــ نعم، تحدث، أبلغني. أنا مصغ لك.

وتحول بيسونوف بقسوة تاركاً الحديث عن فيسنين، لم تكن في نفسه القوة الروحية الكافية ليعيد تفاصيل مصرعه. فأخذ يبلغ، دون أن يرى من الضروري أن يبين أنه، في آخر النهار، وبالنظر للوضع في فرقة دييف التي شقتها الدبابات الألمانية، كان مستعداً لاتخاذ دفاع في جميع الاتجاهات هنا، وبالأحرى خشي ذلك (وكذلك فيسنين الذي كان، على خلافه، لا يخفي مخاوفه) ولكنه ما كان يجازف، حتى آنذاك، في أن يعزم على «تحريك» الفيلق الآلي وفيلق الدبابات، وتفريقهما على التشكيلات، وهما المخصصان للضربة المضادة. لم يقل سوى وقت التشكيلات المتحركة قد آن. وأن غوت استخدم بالأمس احتياطاته ـ وقد أكد ذلك الميجور الألماني الأسير، الضابط في وحدة الاتصال ـ وأن توجيه الضربة المضادة يجب أن يتم اليوم صباحا، قبل أن يجددوا نشاطهم في الضفة الشمالية. ينبغي أن لا يضيع الوقت، ولا تعطى لهم مهلة، وأن يخرج الألمان من رؤوس الجسور في البداية وقبل أن يتسنى لهم إعادة تشكيل قواتهم، وذلك بشن هجوم مضاد مفاجىء يقوم به فيلق الدبابات والفيلق الآلي دون التهيئة المعتادة بالمدفعية.

سأل القائد:

ـــ ولماذا بدون تهيئة المدفعية؟ ماذا تبغي بذلك؟

ـــ ألا تثق بالمدفعية؟

ـــ الألمان يعرفون جيداً أن التهيئة بالمدفعية هو تحذير خاص من الهجوم. ستقوم المدفعية بدورها حين تخرج الدبابات إلى مشارف الهجوم.

قال القائد:

ــ سنناقش الأمر. حسناً. سأتشاور مع ممثل القيادة العليا. وستتسلم الأمر... والآن كيف حصل ذلك لفيسنين؟ بأية صورة؟ آلمتني كلياً يا بيتر الكسندروفيتش. ينبئك. الآن أنت وحدك تتخذ القرار، بدون عضو المجلس العسكري. كان يثق بك كثيراً، أنا اعرف، رغم... لست أنت بالبسيط، بصراحة، يا بيتر الكسندروفيتش! أنت صعب!

وفكر بيسونوف غامضا قليلاً جفنيه المثقلين:

«نعم، فيسنين... والآن أنا وحدي. لا أحد الآن يملأ مكان فيسنين عندي، كان يثق بي؟ بينما كنت أخاف أن أنفتح أمامه، وانغلقت على نفسي. ايه، يا عزيزي فيتالي ايسايفتش، الانسان يتعلم طوال حياته، ونحن نبدأ بالتقدير الحقيقي في وقت متأخر! اعذرني، إذا تستطيع، على برودي، وجفائي. أنا نفسي أتعذب من ذلك، ولكن لا أستطيع أن أغيِّر طبعي».

لم يقل بيسونوف ذلك إلى قائد الجبهة، لقد كان ذلك خاصاً به، وما كان ليفضي به لأحد، ويدلي به لمحكمة الآخرين، شأنه شأن ذكرياته الموجعة المعذبة عن ابنه وزوجته، الذكريات الشبيهة بوخزات ضمير لا تطاق.

وقف بيسونوف طويلاً أمام الجهاز بعد أن أنهى المحادثة مع قائد الجبهة. وقف كسيرا وسط الأصوات الحذرة، والنداءات في خطوط المخابرة، وسط الوجوه التي تراقبه خلسة، وهو نفسه قد أحس بأن وجهه قد اربدَّ من الارهاق، وهرم خلال هذه الساعات الأربع والعشرين، ولم يعد ينفتح لأحد. وفي الوقت ذاته كان يدرك جيداً ما يفكر به الآن الميجور غلاديلين المتحفظ المثابر المنكب على الخارطة

باهتمام، والعاملون الآخرون، وجنود الاتصال، والمرافق بوجيتشكو، ورئيس الحرس تيتكوف، الذي كان ينتظر بتوتر بالغ قرار مصيره، ومعه كان الجميع ينتظرون ذلك. وكان يتراءى ظلا أسود إلى يسار الباب، ورأسه المضمد يهتز مثل كرة بيضاء. لم يصطبر تيتكوف فذكَّره بنفسه همساً:

ـــ ماذا علي أن أفعل... أيها الرفيق القائد؟

ـــ إلى أين أذهب؟

قال بيسونوف بحدة:

ـــ إلى المستشفى. توجه إلى المستشفى، يا ميجور تيتكوف.

وبعد وقت كان بيسونوف راقداً على منصة في مخبأ دييف المدفأ، وفي حالة من الوجوم العابس، ملتزماً وضعاً واحداً، ناظراً في ألواح السقف الرطبة من البخار. وبين الفينة والأخرى كان يسمع نحنحة بوجيتشكو الخافتة المختلسة، وانشغاله بابريق الشاي على الموقد الحديدي، وخشخشة معطفه الرطب، ولكنه لم يرد على ذلك بشيء. كانت الأصوات تتسرب من المخبأ المجاور صماء عبر الأرض، وكان يود أن يصمت ويفكر بالقرب من هسيس اللهب المتسق اللامبالي في الموقد، ويحافظ على توازنه الخارجي على الأقل، وعلى الهدوء الذي كان ضرورياً جداً قبيل الصباح، والذي بدأ يخونه بعد نعي فيسنين. وبمحاولة يائسة لنسيان الخبر الذي جلبه الميجور تيتكوف، ولو لدقيقة واحدة، حاول بيسونوف التفكير بالهجوم المضاد المزمع أن يقوم به الفيلقان، بتقريره لقائد الجبهة، إلا أنه عاد مرة أخرى إلى أفكاره عن فيسنين، وعن التكتم الذي كان بينهما وهو شيء لا يغتفر كسخافة خبيثة، وعن اللفة الداكنة المصرورة في منديل جيب والمحتوية على

أوسمة فيسنين ووثائقه؛ التي وضعها تيتكوف على الطاولة، وعن الابتسامة الواهنة الضيقة التي رآها على فم الفتاة في التصوير الشمسي الذي وجده في هوية فيسنين.

«لم يرد أن يتراجع» دارت في رأس بيسونوف مرة أخرى كلمات تيتكوف، مصعوقا بأن يصدر فيسنين مثل هذا الأمر، وهو لم يكن، وهو في وضعه ذاك، ملزما على قبول معركة محكوم عليها بالفشل مقدما، بل كان عليه ان يتراجع، ولا يعرِّض نفسه للخطر في تلك الظروف. ولكن فيسنين قبل المعركة على أية حال، وحدث الشيء الذي حدث قبل ثلاث ساعات.

ــ أيها الرفيق القائد، اشرب شايا...

رائحة شاي مخدر. وخطوات واطئة. وأزيز لا يكاد يسمع لابريق الشاي على صفيحة الموقد، ورنين الملعقة في القدح.

ــ لو غفوت نصف ساعة، أيها الرفيق القائد... لا أحد يضايقك هنا. إشرب الشاي، واغفُ. لن يحدث شيء في نصف ساعة. وأنا لا أدع أحداً يزعجك.

ــ شكراً، الآن.

فتح بيسونوف عينيه، إلا أنه لم ينهض. واثناء ذلك كان يقول لنفسه من الضروري أن ينهض، ويشرب قدحا من الشاي الذي أعد له، ويدخل بالشكل المعتاد المألوف للجميع إلى المخبأ المجاور، حيث كانوا ينتظرون الآن أوامره الأخيرة قبيل الصباح، وحيث كان ضوء مصباح المركمات المألوف له، والخرائط، والتلفونات، وجهاز اللاسلكي، والنداءات، لأنه كان يعرف منذ وقت بعيد أن ضربة الموت القاسية، المثقلة على النفس لا توقف الحرب ولا العذابات، ولا تصرف الأحياء عن ضرورة أن يحيوا.

وهذا ما حصل أيضاً بعد نعي ولده. انزل رجليه عن المنصبة مستجمعا عزيمته لينهض، وجلس، ثم راح يبحث عبثا عن شي عند موضع رأسه.

ـــ نعم، الآن. شكراً، يا ميجور ـ وابتسم ابتسامة مريرة بطرفي شفتيه المحفورتين عميقا بغضون الإعياء المميت لماذا تنظر إلي هكذا، يا بوجيتشكو؟

أنزل بوجيتشكو الابريق الحار عن الموقد بقبعته، وراح يصب في قدح قصديري شايا بني اللون وفاحت رائحته القوية، مخفيا برموشه المسبلة عينيه المكتئبتين ببريقهما الأصفر، وقال:

ـــ لا شيء، أيها الرفيق القائد... وثائق فيتالي ايسايفيتش... سأسلمها.

وما كان ليجرأ في حياته أبداً أن يقول لبيسونوف أنه وجد في وثائق فيسنين التي وضعها في الحقيبة لتسليمها إلى مقر القيادة ورقة مدعوكة لزجة، تحمل الشيء الرهيب للغاية، الذي لا يجوز أن يعرفه بيسونوف.

الفصل الثاني والعشرون

بعد أربعين دقيقة من إصدار بيسونوف لأمره بإرسال الاشارات لفيلق الدبابات والفيلق الآلي لبدء الهجوم، كانت المعركة في الجزء الواقع على الضفة الشمالية من القرية قد وصلت إلى نقطة التحول.

وكانت معركة الدبابات هذه المتّسعة في شوارع القرية وطرفها ترى من نقطة المراقبة، ومن علٍ تبدو في الظلمة مريعة على نحو صاعق بقربها، واختلاطها، وعنفوانها العنيد، ولربما، بوجه خاص، لأن أحداً من الناس لم يكن يُرى في أي مكان فيها. كانت قذائف المدفعية المباشرة تلمع في طرف القرية كله، ونوافير قذائف هاونات «الكاتيوشا» النفّاثة تتفجر كثيفة بين البيوت. وعلى الشاطىء كانت تدب وتنبسط وسط الحريق الناشب أجساد حديدية متوردة لامعة، وكأنها فرقة، تصوب النيران من مسافة قصيرة، تكاد تطعن بعضها بمواسير مدافعها، ساحقة بجنازيرها البيوت والزرائب، مستديرة في الأفنية، خارجة منها لتعيد الهجمات، مضيّقة مطوقة رأس الجسر أكثر فأكثر. وكان الألمان يقاومون متشبثين في الضفة الشمالية، غير أن المعركة كانت تنزلق نحو النهر، وقد حدث تغير ما في الدقيقة الأربعين، وملأ الهدير المكثف، وزئير المحركات مجرى النهر بأصداء مهمشة. وبدأ الألمان ينسحبون من الأماكن نحو المعابر. وفجأة نظر بيسونوف إلى الضفة الجنوبية، لا الشمالية، خائفاً أن يخطئ ويتسرَّع في الاستنتاج.

في ذلك الجانب من النهر، الجانب الذي كانت تنسحب إليه الدبابات الألمانية ببطء، والذي بدا كل شيء فيه، قد سُحق وهشِّم واستبيح خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية، هناك حيث كان السهب يبدو محروقا ميتا ومقفزاً تماما لا يتردد فيه أي نفس حي، بدأت تتولد في أرجائه المختلفة ـ أكواز الرصاص المنطلق من البنادق، وتتطاير أفقيا مزق اللهب قرمزية عريضة من بعض المدافع، وألسنة النيران ضيقة شعثاء من البنادق المضادة للدبابات، ثم لعلعت ثلاثة رشاشات دفعة واحدة في الأماكن التي كانت فيها خنادق المشاة في الأمس، وما كان يعتبر ميتا معدوما أخذت تدب فيه حركة ضعيفة، وتبدو فيه علائم الحياة، وكان من غير الممكن التصور كيف بقيت هذه الحياة كيف ظلّت تومض من بداية المعركة حتى نهايتها في تلك الخنادق، وفي مواقع المدفعية تلك التي مرت بها الدبابات أو طوقتها، بعد أن حاصرت الضفة الجنوبية بكماشة في أواخر يوم أمس.

كانت ريح الصباح الذي ما يزال معتما تضرب متراس نقطة المراقبة ضربات حادة، وتوخز عيني بيسونوف، وتعيقه عن الرؤية، معتصرة الدموع. أخرج منديله، ومسح وجهه، وعينيه، وبعد ذلك انكب على عدستي النظارة المزدوجة.

كان يريد ان يتأكد كليا من شيء كان من الصعب التصديق به، ولكنه ما عاد يثير شكا في نفس أحد. هناك، على الضفة الجنوبية، في الخنادق التي سحقتها الدبابات، ومواقع المدافع المجتاحة بدأ يطلق النار، ويدخل المعركة أولئك الذين بقوا في الحصار، المتطوعون عن الفرقة، أولئك الذين ما كان من الممكن، في كل التقديرات أن يبقوا سالمين، ويعدّوا من الأحياء.

ــ أوه، يا فتياني الشجعان! انظر، أيها الرفيق القائد! يبدو أنهم يتنفسون! رائعون فتياني هؤلاء! بواسل! بواسل جداً!

كان هذا صوت دييف الفتي القوي صدر على مقربة متهللا منفعلا وسط دوي الريح الذي كان يسوط متراس نقطة المراقبة، وسط صيحات جنود الاتصال، وسط الحركة الحية حوله.

رقّة دييف هذه التي تفجرت فجأة، ممزوجة بتبجّحه الغرّ بفتيانه من الخنادق الأمامية الذين، كان يبدو، أنهم قد هلكوا منذ وقت طويل، غير أنهم يواصلون القتال ـ وطراوته الصريحة هذه، ضعفه، لم تثر بيسونوف، بل بالعكس، أصغى إلى هتافات دييف، ودون أن يلتفت، عاد يفكر وغصة مرة في حلقه أن الحظ، على أية حال، كافأه بقائد الفرقة دييف شاكراً.

كان غبش الصباح التشريني ينفرج عن قذائف الدبابات. ويهدر برجيع الصدى، المندمج مع هزيم الرعد فوق السهب، وتثرثر فيه المحركات متكاثفة، وتخرقه أضواء الصواريخ الألمانية الخاطفة التي كانت تشق السماء على غير نظام، تارة هنا، وتارة هناك. كانت الدبابات الألمانية الهائجة كالوحوش التي أثارها الطراد من مكامنها تتراجع عن الشاطىء، نابحة بغيظ وحدانا وجماعات مشتتة. تحت ضغط دباباتنا من طراز «ت ـ ٣٤» التي قد احتلت، معبرين، حسب البلاغ الذي تلقّاه بيسونوف قبل خمس دقائق. كانت هذه الدبابات تسير بعد أن طلعت على الضفة الجنوبية، في خط منحرف، مزيدة من سرعتها، معترضة، وتطوق إلى اليسار واليمين جناحين مكشوفين من الدبابات الألمانية المتلاصقة تماما وكأن إحداها تحتك بالأخرى.

لم تتحمل بعض الدبابات الوقوف فأخذت تنسلخ، مشتتة في جهات

شتى، عن هذا الحشد من الدبابات العاوية عواء معدنيا، كقطيع مطارد، المتوقفة أمام الوهدة، التي هجمت منها في الصباح، وكانت تطلق النار إلى الخلف على الضفتين الشمالية والجنوبية. وارتفع على الفور صاروخ اشارة فوق الدبابات المتجمهرة في تلك الضفة، وحلق عاليا، واشتعل في السماء، وتناثر في السهب مثل مطر أخضر. وعلى الفور أخذ اللهب يتتابع ويتوامض إلى مسافة قليلة إلى جانب الدبابات الألمانية وأمامها على التليلة أمام الوهدة، لمعت خطوط طلقات رشاش منحرفة نحو السماء ـ خطوط من نقاط قرمزية في ظلام السهب، في مؤخرة الألمان. ولكن لم يكن من الممكن أن يكون رجالنا على التليلة. وتبين أن الطلقات صادرة من رشاشة ألمانية ذات عيار كبير، وكان واضحاً من خطوط طلقاتها أنه ينطلق من نقطة المراقبة.

ــــ ماذا دهاهم، أيها الرفيق القائد؟ فقدوا عقلهم؟ يضربون رجالهم؟ ـ قال بوجيتشكو، مراوحا بالقرب من بيسونوف في انفعال فرح عارم بسبب المعركة، وانسحاب الألمان، ولنجاح تقدم دباباتنا. بل وأغرق في الضحك قائلاً ـ تمثيلية، ايها الرفيق القائد!

ترك بيسونوف عدستي النظارة، محدِّقاً في طلقات الرشاشة المحافظة على اتجاهها الأفقي على التليلة أمام الوهدة، وكان في بادىء الأمر لا يقل دهشة عن بوجيتشكو. ولكنه أدرك، بعد أن لاحظ كتلة الدبابات الزاحفة على الشاطىء في اتجاه خطوط طلقات لا تنقطع ان الرشاشة الألمانية كانت تشير للدبابات باتجاه طلقاتها في الظلام إلى طريق الانسحاب على الطريق العام وراء الوهدة.

لم يشرح ذلك لبوجيتشكو، لأن أية تفسيرات كانت تشغل عن المهم، وكانت زائدة، وكان في وسعها أن تخرق شيئاً في نفسه، شيئاً

محتدا، مضغوطا، حاراً، مثل التحسس بنجاح صاعق، واكتشاف سر الآخرين، والرضى بمجرد التفكير بأنه قد حدث ما هو محتمل، وأن الفيلقين اللذين أدخلا المعركة مسندين بنيران المدفعية في بداية الهجوم قد أخرجا الألمان بضربة مباغتة من رؤوس الجسور، واحتلا المعابر، وخرجا إلى الضفة الجنوبية، وهما الآن يطوقان الألمان من الجناحين متقدمين في تلك الضفة، أما الألمان فقد انسحبوا إلى الجنوب باتجاه خطوط طلقات الرشاشة.

وكان بيسونوف يخاف دائماً التوفيق السهل في الحرب، ضربة الحظ العمياء، رعاية القدر المحتومة، مثلما كان ينكر المبالغة الفارغة لبعض زملائه، والتطلعات المسرفة الحلاوة في أروقة مقرات الأركان عن نصر كاسح في كل عملية مرسومة. لقد كان بيسونوف بعيداً عن الأوهام الفالتة، لأن كل ما في الحرب يجب أن يدفع بالدم ثمنا له، سواء للخسائر أو النجاحات، لأنه لا يوجد ثمن غير هذا الثمن، ولا يمكن أن يستعاض عنه بشيء.

وفكر مع نفسه «يجب الانتظار قليلاً. انتظار الأخبار التالية من الفيلقين! ولا حاجة للاستعجال في إرسال تقرير مفصل إلى قيادة الجبهة».

إلا أن كيانه كله قد انكمش ملتهبا حتى تصبب ظهره عرقا حين صار يرى، بعد الساعات الأربع والعشرين من الضغط الألماني الذي جعل الدفاع كله على بعد شعرة من الكارثة، وبعد اختراق الألمان للشاطىء الشمالي، وبعد الخسائر، والجهد، وقطع فرقة دييف، صار يرى الآن سيارات المشاة الألمانية المحروقة على الطريق في السهب، والدبابات الألمانية المتراجعة إلى الجنوب، ويرى على الضفة الجنوبية التي كانت قد

قطعت عن الفرقة قبل زمن قصير توهجاتٍ قذائف المدفعية تلاحق هذه الدبابات المتقهقرة إلى الوهدة، وأخذ يدكُّ عصاه في الأرض بأصابعه العرقة وهي في قفاز فرائي، مجاهداً أكثر لضبط نفسه مصغيا بوجه جامد إلى الأخبار الجديدة المرسلة باللاسلكي.

«انتظر، انتظر أكثر» وفي الوقت ذاته كان يكتم في نفسه دفقات متزايدة من الرغبة في أن يذهب في تلك الثانية إلى المخبأ، ومن دون أن يتمادى في الفرح، يبلغ قائد الجبهة الذي أبلغه قبل نصف ساعة عن بدء الهجوم المضاد. يبلغه بأن الألمان يتراجعون عن الشاطىء، وأن الفيلق الآلي وفيلق الدبابات يلقيان نجاحاً، وقد صدر لهما الأمر باحتلال الجزء الواقع على الضفة الجنوبية من القرية احتلالا تاما، وقطع الطريق العام إلى الجنوب من القرية.

كانت الحرائق تشبُّ في كل مكان من الضفة الجنوبية، وتتناثر مزق النار على سطوح بيوت القرية، وترتفع وتتصادم لوالب الانفجارات في الشوارع حيث كانت تجري معركة الدبابات الآن.

وبعد عشر دقائق حين فرغ بيسونوف من إبلاغ قائد الجبهة بالتفصيل عن تقدم الفيلقين، وتحدث مع رئيس الأركان ياتسنكو خرج مرة أخرى من المخبأ المضاء بالمصابيح إضاءة هادئة إلى الخندق ـ الرمادي المتثلج المتعرض للريح ـ وفجأة فطن إلى أن شيئاً ملحوظا قد تغير هذه الدقائق، وتحول إلى حالة جديدة، وتحرك في السماء وعلى الأرض.

صفا الهواء المهزوز بالقتال وهدير محركات الدبابات، وشفَّ، وسرت فيه، على نحو ما يحدث في الصباح، زرقة بنفسجية هلامية، شفافة باردة حول التليلة، تتخللها نيران ساطعة صادرة عن الدبابات المحترقة أمام الوهدة وراء النهر، جذلى لعوبة في ضوء النهار الطالع.

وبدا الجزء الواقع على الضفة الجنوبية من القرية قريباً، وكانت العين المجردة ترى الآن دبابات «ت ٣٤» تدب مترنحة، مصعِّدة خصائل شعثاء من اللهب، من ناحية السهب إلى طرف القرية. وفي أثرها سارت فصائل المشاة مشيا أو على لوريات لونت بلون الثلج. وبعيداً عن هذا كله كان شريط مشرق حذر في الأفق ينصدع برقة وهدوء، مشعلا أفق الثلج بلهب أبيض، مذكراً وفق قوانين سرمدية بمشاعر انسانية أخرى كان بيسونوف وجميع الذين كانوا معه في خندق نقطة المراقبة قد نسوها منذ زمن طويل.

«نعم، ها هو الصباح».

خرج بيسونوف إلى الريح المعربدة على قمة المرتفع، وأحس بقدوم الصباح القارس، الصافي على نحو ما هو في كانون الأول، الواعد بشمس، وسماء رائقة. وفكر بيسونوف في انكشاف الدبابات في السهب العاري، وفي الطيران الألماني وطيرانه. وفي الغالب فكر في هذا أيضاً مندوب الجيش الجوي الذي وصل في أواخر الليل إلى نقطة المراقبة. وهو رجل مستطيل الوجه برتبة عقيد محب للمعشر، يحمل حقيبة ضخمة، ويرتدي حذاء طويل العنق، ويضع بين شفتيه المبتسمتين سيكارة من البلاستيك الشفاف، رد على نظرة بيسونوف المتسائلة ـ أين طائرات الهجوم؟ ـ قائلاً في الحال أن كل شيء سيكون على ما يرام، فالضباب غير موجود، والحمد لله، وبعد عشرين دقيقة ستمر طائرات الهجوم فوق نقطة المراقبة، وبعد أن فرغ من جوابه أطبق أسنانه على المبسم، وابتسم ابتسامة مشجعة.

ــ حسناً، إذا كان الأمر كذلك.

قال بيسونوف ذلك، كابتا رغبة في أن يذكر أن الضباب غير موجود بالنسبة للطيران الألماني أيضاً.

قال بوجيتشكو بمرح حزين، غير مبتعد عن بيسونوف خطوة واحدة منذ بداية المعركة:

ـــ انظر، أيها الرفيق القائد، ماذا يفعل السلاف، انتعشوا!. أليس هذا مطبخ الميدان؟

وأشار بقفازه إلى جسر نصف محطم إلى يسار المرتفع.

ـــ ماذا؟

سأل بيسونوف، وكان يفكر في تلك اللحظة بالطيران، ورفع بذهول منظاره الزلق من الجمد، وضبط حدقة العدستين.

وراء المرتفع، وعلى الضفة الجنوبية من النهر، في العراء الموجود أمام الوهدة، والذي قطعه الألمان يوم أمس، إلى يسار القرية، حيث دبت الحياة، قبل وقت قصير، ببعض المدافع، وبعض البنادق المضادة للدبابات، وثلاث رشاشات كان مطبخ الميدان يسير مهتزا بحُفر القنابل، ويجري بمحاذاة خنادق الاتصال، نافثا الدخان في غبش الصباح، مبدداً وراءه على الثلج حبات الشرر الملتهب. كان ينطلق بجنون، متخذا طريقه بين الانفجارات التي أحدثتها قاذفات الألغام فوق المرتفع. اندفع واحد من رؤساء الرقباء الجريئين بمطبخه إلى الضفة الأخرى، وراء الدبابات، وأسرع نحو الخط الأمامي. وظهر خمسة أو ستة أشخاص من خنادق مشاة الجناح الأيسر، ولوّحوا ببنادقهم داعين اياه، إلا أن المطبخ مرَّ من أمامهم ينط، قافزا على حفر القنابل، وانطلق، لا يلوي على شيء، نحو مواقع المدفعية إلى يمين الجسر. وتوقف هناك، وكأنما قد اندك في الأرض. وخرج على الفور رجل من القمرة، وركض إلى مدفع كان قد أطلق قذيفة من توه، وكانت الريح تطاير أطراف المعطف الطويل الذي يرتديه، وهو من المعاطف التي يرتديها الضباط.

قال بوجيتشكو مؤكدا، مرتفعاً على حافة المتراس:

ــ على أية حال، هذه هي البطارية التي كنا فيها. هل تذكر أولئك الشبان، ايها الرفيق القائد؟ كان عندهم آمر بطارية هو ذلك الفتى... الملازم... درزدوف... كما يبدو.

تمتم بيسونوف:

ــ لا أتذكر. درزدوف؟ تذكر بشكل اضبط، يا بوجيتشكو.

قال بوجيتشكو يعينه على التذكر:

ــ في المكان الذي انتظرت فيه رجال الاستطلاع، نفس الأشخاص الذين جلبوا معهم ألمانياً أسيراً. شخصان منهما قادا الألماني إلى هنا. البطارية من عيار ٧٦ مليمترا.

ــ بطارية؟ تذكرت. فقط انه لم يكن يدعى درزدوف... اسم شبيه بهذا الاسم، ولكن ليس هو بالضبط. يبدو لي أنه درزدوفسكي. نعم، صحيح! درزدوفسكي...

خفض بيسونوف النظارة بحدة، بعد أن فكر بصمود هذه البطارية منذ بدء المعركة، هذه البطارية التي كان يقودها ذلك الفتى الأزرق العينين الذي أدهشه صباح أمس، المتربي تربية مدرسية، المتماسك القوام، وكأنه في استعراض، المستعد للموت دون تردد، المنتمي إلى عائلة جنرال معروفة بين العسكريين، وتصور للحظة واحدة ما تحمّله الرجال هناك عند المدافع، وهم في وجه الاتجاه الرئيسي لهجوم الدبابات. واخيراً قال بمجاهدة ماسحا ببطء مقصود وجهه الموخوز بذرات الثلج شاعراً بالانفعال والبرودة يشدان بشرته:

ــ بوجيتشكو، أريد الآن أن أمرَّ على تلك المواقع، الآن بالذات...

أريد أن أرى ماذا بقي هناك... خذ كل ما تبقى من النياشين هنا. وأكرر، كل ما تبقى من النياشين هنا. وأخبر دييف بأن يتبعني.

نظر بوجيتشكو باستغراب هادىء إلى يد بيسونوف الصغيرة، وهي تضغط على المنديل وتعصره، وتلويه دون أن تسقطه في جيب الفروة، وهز رأسه، واندفع ليدعو دييف.

لم يكن يرى من حقه أن يخضع للانطباعات الشخصية، وأن يرى في جميع الصغائر تفاصيل المعركة عن قرب شديد، أن يرى بعينيه عذابات، ودم، وموت وهلاك الناس الذين ينفذون أوامره في المواقع الأمامية. لقد كان واثقاً أن الانطباعات المباشرة الذاتية تنخر بالنفس على نحو يوهنها، وتولِّد الشفقة والشك فيه، وهو الذي يقتضيه واجبه أن ينشغل بالمجرى العام للعملية، وأن يكون مسؤولا عن مصيرها في نطاقات أخرى وعلى أتمِّ وجه. إن العذاب، والشجاعة، وموت بضعة أناس في خندق واحد، في بطارية واحدة كان من الممكن أن يصير أمراً فاجعاً على نحو لا يطاق بحيث لا يقوى الانسان بعده على أن يصدر أوامر جديدة بشكل حازم، ويقود الذين يتوجب عليهم أن ينفِّذوا أوامره وإرادته.

لم يكن اقتناعه هذا يعود إلى يوم أمس أو اليوم، بل يعود إلى عام ١٩٤١ المعقَّد المترسخ في الذاكرة، حين اضطر، وهو يقود على الجبهة الغربية، إلى أن يسير وسط الدم، والصيحات، ونداءات رجال الاسعاف، بين أنَّات الجرحى ليحث على الاندفاع من الخنادق أناسا كاتما في نفسه الشفقة على عجزهم إزاء حركات الالتفاف الكبيرة والصغيرة لدبابات لم توقف عند الحدود، وازاء الطيران الألماني المسلط على الرؤوس.

إلا أن بيسونوف قد خان نفسه في هذا الصباح القارس، صباح هجومه المضاد، وهو على مسافة خمسة وثلاثين كيلومترا جنوب ـ غربي ستالينغراد، في مستهل نجاح جيشه.

... عبروا النهر على الجليد، وصعدوا إلى الشاطىء، والريح تنفذ إلى عظامهم، ثم دخلوا عبر خندق الاتصال غير العميق إلى خندق نصف مهدم، وهنا تصور بيسونوف بمخيلته فقط أنه الآن أمام الخنادق الأولى للمشاة. فأبطأ خطوة لخفقان قلبه، وتقطع أنفاسه.

هنا، على الضفة الجنوبية، حيث ظلت الدبابات تهاجم لساعات عديدة دون انقطاع، وتسير باتجاهات شتى لعدة مرات، كانت الخنادق التي شوهتها حفر القنابل قبل هذا قد مزقتها جنازير الدبابات وشققتها وقلبتها حتى أن بيسونوف لم ير بوضوح ومن النظرة الأولى، الرشاشات المسحوقة بأعشاشها، ومزق الثياب وقطع الأحذية، ومزق القمصان البحرية، الممزوجة بالتراب، وحواضن البنادق المدقوقة، وأقراص القصعات وأجهزة الوقاية من الغازات. المطمورة بأكوام من الخراطيش الفارغة، المسودة، والأجساد المغطاة بالثلج. كانت هذه الأشياء، أشلاء الأسلحة والحياة الانسانية القريبة العهد قد حرثت حرثاً، وكأنما بمحراث جبار، وطمرت إلى النصف بالركام الذي خلفته في كل مكان حفر القنابل، والضغط الهائل لجنازير الدبابات.

سار بيسونوف متخذاً طريقه بحذر متزايد عبر أكوام التراب في الخندق، قافزا الحدبات المغطاة بالثلج البارزة تحت قدميه مستديرة أو مسطحة، مجاهداً أن يتفاداها، ولا يمسّها بعصاه، مخمنا أن تحت هذه الحدبات جثث من قتلوا في الصباح. وفكر بمرارة قاتلة، وقد فقد الأمل في العثور على أحياء هنا، بأنه قد أخطأ، فقد تراءى له فقط مِن على نقطة المراقبة نبض خافت للحياة في هذه الخنادق.

وحدث بيسونوف نفسه: «لا، لم يبق أحد هنا، على الاطلاق. الرشاشات والبنادق المضادة للدبابات انطلقت من الخنادق اليسرى. يسار البطارية. نعم، يجب الذهاب إلى هناك».

إلا أن رنينا معدنيا صدر في تلك اللحظة من وراء منعطف الخندق. وخيل لبيسونوف أنه يسمع أصواتاً، فخرج من منعطف الخندق واجف القلب، وتوقف.

نهض للقائه من وراء مكمن الرشاشة شخصان، مثل شبحين أبيضين، ملطخان بالثلج من رأسيهما إلى قدميهما. كان وجهاهما المتجمدان مغطيين بالطبقة الجليدية التي تكونها بطانتا القلنسوتين، ومن تحت هاتين البطانتين تطل عيون ألهبها الصقيع والريح، وأحاطت بها دوائر الجمد. تفرست ببيسونوف كاشفة عن ذهول متشابه ـ لم تتوقع، على ما يبدو، أن ترى جنرالا حياً بمرافقة ضباط أحياء هنا، في هذا الخندق الميت.

كانت أبازيم بحرية مستطيلة تلمع لمعانا كامدا. وعلى قطعة من المشمع ممزقة محترقة، مفروشة على حافة الخندق، كومة من أقراص الرصاص المستخدمة في الرشاشة اليدوية، والتي جمعت من الموقع كله، وعلى مقربة من الرشاشة بندقية مضادة للدبابات على ركيزة. وفي كل مكان، على المتراس، وفي قاع الخندق مظاريف رصاص حديث الاطلاق. والظاهر أن هذين الرجلين اللذين بقيا على قيد الحياة، وهما جندي رشاش وحامل بندقية مضادة للدبابات ظلا فترة من الوقت يطلقان النار من مكمن واحد، موحدين آخر ما لديهما من جهد، كتفا إلى كتف. والأبازيم البحرية تدل على أنهما كانا من بحارة الشرق الأقصى، الذين تحولوا إلى مشاة قبل شهرين، عند تشكيل الجيش، وقد احتفظا بقميصيهما البحريين وأبازيمهما البحرية كتذكار من الماضي فقط.

وقف كلاهما مصعوقا أمام بيسونوف لا تكاد تفرق بينهما العين،

في معطفين سميكين خشنين من الثلج والجمد. وقد رفعا إلى قبعتيهما قفازيهما المتصلبين متهيبين. كان كلاهما متقطع الأنفاس دون أن ينطق بكلمة واحدة، وكأنه لم يصدق بأن يظهر إلى جانبه بهذا الشكل المفاجىء جنرال، والضباط خلفه.

عند ذاك بادر دييف الجسيم إلى النزول إلى خندق الرشاشة، خارقاً قوانين الاحتشام غير المكتوبة، وهو في حضرة قائد، وعانق أحدهما بعد الآخر عناقا قوياً، وصدر صوته المتأثر المتلمس الصلابة متهدج النبرة:

ـــ صمدتما، يا أولاد؟ خرجتما أحياء؟ أيها الرفيق القائد، السرية الثانية...

وقبل أن يكمل جملته نظر في عيني بيسونوف نظرة توسل وتأثر شديد.

تسربت من وعي بيسونوف، كالظلال، كل الكلمات التي كان عليه أن يقولها في هذه اللحظة، غير متبلورة فيما كان يحسه، وبدت كلمات لا تعني احداً، صغيرة، فارغة، لا تنهض بالجوهر الخالد لما رآه الآن، فاكتفى بأن قال بصعوبة:

ـــ من بقي أيضاً؟ هل تبقّى حي من أمراء الوحدات؟ ـ لا أحد... لا أحد، أيها الرفيق الجنرال.

ـــ وأين الجرحى؟

ـــ عبرَ زهاء عشرين شخصاً إلى تلك الضفة، أيها الرفيق الجنرال. بقينا وحدنا من السرية.

ـــ شكراً... شكراً مني لكما. اسماكما؟ أريد أن أعرف.

وما كاد يسمع اسميهما حتى التفت إلى بوجيتشكو الذي كان

يحدق صامتا بالمحظوظين، وقد بدا عليه رضى غابط متألم لرجل يعرف ما يعني أن يبقى الانسان حيا هنا، في الحراسة الأمامية بعد معركة أمس. وعندما أجبر بيسونوف نفسه على أن يقول بصوت كامد: «أعطني نيشانين للراية الحمراء. سجل اليوم قائمة النياشين، يا عقيد دييف»، أخرج بوجيتشكو من حقيبته بفرح علبتين، وقدمهما لبيسونوف، فأسند هذا عصاه على جدار الخندق، وتقدم من الرجلين اللذين جمدا في مكانهما لا يفقهان، ووضع النياشين في قفازيهما المتصلبين، واستدار مخفياً بحاجبيه المقطبين الألم الحلو المر الذي كان يعصر صدره، وسار يعرج في الخندق دون أن يلتفت. بينما كانت الريح الهابّة من الشمال تنقل إلى ما وراء القرية المحترقة أصوات المعركة يمينا خلف الوهدة، وتحمل من الشاطىء دفقات من الرذاذ الثلجي الواخز، وتدر الدموع من زوايا عيني بيسونوف. فأسرع في خطاه لكيلا يرى الذين خلفه وجهه. وكان لا يحسن اظهار الرق، ولا يعرف البكاء، وكانت الريح تساعده، فقد درت دموع الغبطة والامتنان من عينيه، لأن الأحياء هنا، في الخنادق كانوا ينفّذون الأمر الذي أصدره لهم: القتال في كل الأوضاع لآخر رصاصة. وقد قاتلوا، واستشهدوا هنا في أمل، و لم يعيشوا بضع ساعات ليروا بدء الهجوم المضاد.

وكرر القول مع نفسه: «كل ما أستطيعه، كل ما أستطيعه. ولكن ماذا أستطيع أن أفعله لهم غير هذا الشكر؟»

ـــ المطبخ!.. مدفعيون، أيها الرفيق القائد، البطارية نفسها!

صاح بوجيتشكو، بعد أن لحق به، وتلعثم مندهشاً من شيء ما، وتحاشى النظر إلى وجه بيسونوف الندي المتغيّر جداً بشكل لم يره عليه من قبل، وتأخر على الفور، وسار إلى الخلف باتجاه هوة النهر، حيث كان مطبخ الميدان يقف وحيداً يخرج منه دخان خفيف.

كان هذا المطبخ الذي ظهر على الضفة الجنوبية في أثر دباباتنا مطبخ البطارية جاء به رئيس الرقباء سكوريك.

حين بلغت المعركة على رأس الجسر الذي احتله الألمان إلى الخلف أعلى نقطة لها، ثم أخذت الدبابات الألمانية تتراجع منه عبر المعابر إلى يسار البطارية ويمينها كف درزدوفسكي عن محاولته اليائسة للاتصال عن طريق اللاسلكي بنقطة قيادة فوج المدفعية، فقد صار واضحا ما حدث بدون الحاجة إلى اتصال. وخلال نصف ساعة أطلق كوزنيتسوف جميع القذائف السبع المتبقية، دون أن ينتظر أمراً، على الدبابات العابرة إلى الضفة الجنوبية، وبعد أن فرغ منها أصدر أمره للطقم بحمل البنادق الأوتوماتيكية، والنزول إلى الخندق، واطلاق النار على المشاة الذين بدأوا يتراجعون. وكان المشاة الألمان يتراجعون على الآليات الثقيلة المغطاة بالمشمعات وسيارات «الأوبل» على الطريق الريفية، بعيداً إلى اليسار، وهناك، في الجناح الأيسر، أطلقت النار عليهم بضعة مدافع متفرقة بقيت من البطاريات المجاورة ورشاشتان كبيرتان سلمتا بأعجوبة إلى الأمام.

احتلوا أماكنهم في الخنادق. وكانوا أربعة، أفراد طقم أوخانوف، بقايا الفصيلة، متجمدين، منهوكين، دمرتهم الليلة الماضية، ما زالوا غير مدركين كليا كيف بدأ الأمر على الضفة الشمالية، ولماذا يترك الألمان مواقعهم بهذه السرعة. كانوا، بين الحين والآخر، يدفئون بأنفاسهم، أكفهم، وترابيس البنادق لكيلا يتجمد الزيت فيها. كان كوزنيتسوف يحس بقشعريرة. وكان أوخانوف يضرب منكبيه بقفازيه. وكان نيتشايف وروبين ينظفان الحافة أمام المتراس برفشين. وكان الجميع يفعلون ذلك صامتين لا يقوون على التفكير ولا النطق. وقد مر على هذه الحال أكثر من ساعة. وعندما انطلق مطبخ الميدان عدْوا في غبش

الصباح البنفسجي، وراء دباباتنا على الربوة شمالا، وكأنه المستحيل بعينه، ناطا كالمجنون في حفر القنابل، مندفعا إلى البطارية، وحين أوقف رئيس الرقباء سكوريك المطبخ على بعد عشر خطوات من المدفع، بوجه متوحش، شاتما الحصان المنهوك واندفع نحوهم متعثرا بأذيال معطفه الطويل، كان وعيهم ما يزال غير مستوعب الفرحة الحقيقية لما حصل. وحتى حين غص رئيس الرقباء بصيحته: «يا أولاد، أنا إليكم... طعام!» لم يؤخذ وصوله وصيحته على أنه واقع فعلي، بل كانا ومضتين ضعيفتين لعالم آخر، معزول، غير محسوس تقريباً. و لم يرد على صيحته أحد.

ــ أين الناس؟... أمن المعقول أنتم أربعة؟ وطوف رئيس الرقباء بصره في المواقع الخالية من الناس، وفي الدبابات الألمانية المحطمة المحروقة، ووطأ موقع الرماية بحذائه الطويل الأنيق، وأصدر صوتا مبهما مجمجماً، واندفع عائداً إلى المطبخ. وهناك ألقى على ظهره تورمسا وحقيبتين ظهريتين مملوئتين، على ما يبدو، بأرغفة الخبز والبقسماط، وانطلق برجليه المعكوفتين قليلاً إلى المدفع، وألقى بحمولته كلها على كومة المظاريف الفارغة بين مسندي المدفع، متمتما بذهول تام:

ــ هذه حصص البطارية كاملة... من الخبز، والبقسماط، والفودكا. ولكن هل من المعقول أنكم أربعة فقط؟... كيف أتصرف بالطعام، أيها الرفيق الملازم؟ أين درزدوفسكي؟ آمر البطارية؟

ــ إنه في نقطة المراقبة، ومعه رجلان. ويوجد في المخبأ جرحى أيضاً. اذهب إليهم، يا رئيس الرقباء.

رد عليه كوزنيتسوف بلسان غير طيع، وجلس على مسند المدفع، وهو يرتجف من القشعريرة، غير مكترث بهذه الحصص الزائدة، وبصيحات رئيس الرقباء هذه. قال أوخانوف.

ـــ حبذا لو نشعل ناراً صغيرة، يا ملازم. سنتجمد حتى الموت، ونحن بلا نار. وأنت أيضاً ترتجف كالورقة. وعندنا صناديق القذائف. وعندنا فودكا بكمية محترمة والحمد لله. فلنفعلها، يا ملازم! يبدو أن رجالنا قد ضغطوا عليهم.

أجاب كوزنيتسوف في غير اكتراث:

ـــ فودكا؟ نعم، فودكا للجميع...

انطلق رئيس الرقباء بخفة إلى مخبأ الجرحى، بينما أخذ نيتشايف وروبين يكسران الصناديق، ويوقدان النار في ساحة المدفع. دفع أوخانوف كومة المظاريف، وفرش مشمعا تحت مؤخرة السبطانة، وانشغل بتورمس الفودكا، والطعام السخي، وصب الفودكا في القصعة الوحيدة التي عثر عليها في الخندق، وفك كيس البقسماط. ثم قعد بالقرب من كوزنيتسوف على مسند المدفع، وقرب القصعة منه.

ـــ دفّيء نفسك، يا ملازم، وإلا فسنلقى الويل. سنتحول إلى تماثيل. اشرب، وسيساعدك الشرب.

تناول كوزنيتسوف القصعة بكلتا يديه، وأحس برائحة الفودكا الواخزة غير النقية، وكتم أنفاسه وأسرع في جرع بضع جرعات بعطش، وأمل في أن تزيل الفودكا القشعريرة، وتدفئه، وترخي شيئاً يضغط عليه مثل نابض من فولاذ. لذعته الفودكا الباردة لذع النار، وفي الحال غامت عليه مثل ضباب حار. تذكر كوزنيتسوف، وهو يقضم البقسماط المتحجر، كيف أن أوخانوف قدم الفودكا لزويا، ذات يوم، منذ عهد بعيد، في ذلك السهب اللانهائي المتلالىء تحت الشمس، أثناء المسيرة، فاغمضت زويا عينيها، وشربت من الزمزمية مشمئزة، وضحكت وقالت إن في بطنها اشتعل مصباح صغير، لقد ضايقتها الفودكا... متى

كان ذلك. قبل مائة عام، في عهد بعيد جداً لا تقوى ذاكرة الانسان على تذكره. ولكنه كان يتذكره، وكأنما حدث قبل ساعة. كانت عيناها تلمعان في وجهه من الأسفل إلى الأعلى لمعانا نديّاً، وما تزال ضحكتها الهادئة ترن في أذنيه بوضوح، وكأن لا شيء حدث بعد ذلك... ثم حلم بعد ذلك بكل شيء، بحياة كاملة هائلة، بمائة عام كاملة؟ حلم بشيء لم يكن له وجود قط... ذلك لأن شيئاً ما لم يحصل. مجرد أنها رحلت إلى كتيبة الاسعاف لجلب الأدوية، وستعود الآن إلى البطارية في فروتها البيضاء الرشيقة المشدودة بحزام. كما كانت ذات مرة في القطار: «يا صغار، يا أعزاء. كيف عشتم بدوني؟»

ولكنه في الوقت ذاته كان يدرك بزاوية من وعيه المضبب أنه يخدع نفسه، وأنها لن تعود من اي مكان، من اية كتيبة للاسعاف، وأنها هنا، على مقربة منه، وراءه، هنا، عند المدفع، دفنها في المشكاة، في أواخر الليل، هو وأوخانوف، وروبين ونيتشايف، وهي ترقد هناك وحيدة إلى الأبد، مغطاة بقطعة من المشمع، مطمورة في التراب، وعلى التليلة نصف المستديرة محفظتها الصحية التي جعلها الثلج شبه ملحوظة، وكل ما تبقى منها بعد أن فرغوا من آخر شيء هو هذه الحقيبة التي وضعها روبين على الحدبة الطرية، وقد قال بجهامة ودراية: «وبعد ذلك يجب أن يكتب: زويا يلاغينا، ممرضة اسعاف».

والآن كان الثلاثة الذين تبقوا من فصيلته يجلسون على مسندي المدفع حول كوزنيتسوف، وقد ربطتهم هذه الليلة رابطة القرابة قرب النار المفرقعة. وكان يتصاعد من النار الضعيفة دخان خفيف دافىء مر الطعم. كانوا يقضمون البقسماط، وقد دب فيهم المرح من شرب الفودكا، ودفأتهم النار، وراحوا يتحدثون بانفعال أكثر وبصوت أعلى

عن هرب الألمان وينظرون إلى الحريق في القرية، ويسمعون دمدمة المعركة وراءها، وهي تتعمق أكثر فأكثر في السهب، إلى جنوب البطارية.

أخذ أوخانوف يطلي البقسماط بالزبدة المركبة متصرفا بمطلق الصلاحية والحزم، ناثراً فوقها سكرا ناعما، ويصب الفودكا في القصعة من الترمس، مغدقا على الجميع بسخاء لا حسب التقنين. وكان هو نفسه قد شحب، وان لم يثمل، ينظر إلى أفراد طقمه - روبين ونيتشايف، وقد بدا عليهما شيء من الحيوية. و لم تساعد الفودكا كوزنيتسوف، و لم ترخ النابض الفولاذي داخله، و لم تزايله القشعريرة، رغم أنه ظل يشرب وفق نصيحة أوخانوف، بجرعات كبيرة شهقاً بالرائحة غير الصافية ومن الاشمئزاز.

كان أوخانوف أول من لاحظ حركة جماعة من الناس إلى يمين مواقع البطارية. فقال:

ـــ يا ملازم، يبدو أن القيادة قادمة نحونا! انهم يسيرون بمحاذاة المتاريس... انظر، يا ملازم!

وأكد روبين، وقد ثمل، واحمر كالشمندر:

ـــ نعم، إنهم قادمون إلى هنا - نقل قصعة الفودكا خافياً إياها وراء عجلة المدفع بيد مضطربة، وقال - الرجل ذو العصا يبدو أنه جنرال...

قال كوزنيتسوف بهدوء غير طبيعي:

ـــ نعم، أنا أرى - لا حاجة إلى اخفاء القصعة، يا روبين.

كان بيسونوف يسير بمحاذاة مواقع الرماية متعثرا في كل خطوة بما كان بالأمس فقط بطارية كاملة العدد. ماراً بالمتاريس الساقطة، المهدمة تماما، وبالمدافع المحطمة، المقرحة بالشظايا، وأكوام التراب، وحفر

القنابل الفاغرة أشداقها السود، وبالدبابة الألمانية القابعة الجاثمة بثقلها الفولاذي على موقع تشوباريكوف المحطم. والآن عاد إلى ذاكرته بوضوح قدومه في الصباح إلى هنا، قبيل بدء القصف الجوي، وحديثه القصير مع آمر البطارية المنتصب القامة، وكأنه في تمرين القيافة في المدرسة العسكرية، الفتى الحازم.

«اذن، من هذه المواقع أطلقت البطارية النار على الدبابات، نفس البطارية التي كان يقودها ذلك الفتى؟».

وبرابط غير مفهوم فكر أيضاً بابنه، وبآخر لقاء معه في المستشفى، وبعتاب زوجته الذي لا يغفر بعد عودته من المستشفى، عتابها عليه في أنه، أي بيسونوف، لم يصرّ، و لم يتخذ شيئاً لجعله يخدم في جيشه، حيث كان من الممكن أن يكون أفضل وأسلم وأضمن. وللحظة تصور ابنه آمر سرية في خنادق المشاة تلك التي بقي فيها اثنان على قيد الحياة، أو هنا، في بطارية المدفعية حيث كان كل شيء في كل متر من الأرض قد حطم تحطيما لا يعرفه به، وكأنه بفعل عاصفة حديدية هوجاء. وابطأ بيسونوف خطوه ليلتقط أنفاسه قليلاً. و لم يزايله الضيق المرير في صدره، فأخذ يفكّ أبازيم ياقة فروته، وكانت تخنقه.

«الآن سيستريح نَفَسي... الآن سيزول كل شيء، فقط أن لا أفكر في ولدي»

كان بيسونوف يوحي لنفسه بذلك باصرار، واضعا ثقله على العصا أكثر فأكثر.

ـــ استعداد! الرفيق الجنرال...

توقف. ووقع بصره على أربعة من رجال المدفعية، في معاطف ملطخة للغاية، مسودة، مدعوكة ينتصبون أمامه بالقرب من مدفع

البطارية الأخير. وكانت نار صغيرة تدخن منطفئة في موقع المدفع ذاته، وعلى مشمع مفروش إلى جانبها ترموس، وحقيبتان. ورائحة الفودكا في الجو.

وعلى وجوه الأربعة بقع السخام المنتشر على البشرة المخشوشنة، وعرق داكن مبترد، وبريق سقيم في حدقات العيون، وحاشية من دقيق البارود على الأكمام، وعلى القبعات. إن الذي أعطى ايعاز «استعداد» لدى مرأى بيسونوف، وهو ملازم معتدل القامة هادىء عابس، عبر مسند المدفع، رفع يده إلى قبعته بالتحية مشدود الجسم قليلاً، مستعدا للتعريف. وما كاد يتذكر بيسونوف، وهو ينظر إليه باستغراب مستقص حتى عرفه. لم يكن هذا هو آمر البطارية الشاب الذي يتذكر اسم عائلته، بل ملازماً آخر رآه أيضاً من قبل، والتقى به، ربما هو آمر الفصيلة الذي كان يبحث عن آمر مدفعه عند المحطة بعد غارة الطائرات الألمانية، نفس الرجل الذي كان من شدة ذهوله لا يعرف أين يبحث عنه.

قطع بيسونوف التعريف بايماءة من يده، وقد عَرف بشخصه ذلك الملازم ذا العينين الرماديتين الكئيبتين، والشفتين المسفوعتين، والأنف المستدق في وجه ناحل، الملازم صاحب المعطف المقطوع الأزرار، المبقع الأذيال ببقع بنية من زيت القذائف صاحب الشارات المتسلخة المينا على ياقته التي طلاها الجمد. وقال بيسونوف:

ـ لا حاجة إلى تعريف... افهم كل شيء. لقد رأيتك في المحطة. أنا أتذكر اسم آمر البطارية، أما اسمك فقد نسيته...

ـــ آمر الفصيلة الأولى كوزنيتسوف...

ـــ يعني أن بطاريتكم حطمت هذه الدبابات؟

ـــ نعم، أيها الرفيق الجنرال. اليوم صوَّبنا على الدبابات. ولكن

لم يكن قد بقي لدينا غير سبع قذائف... هذه الدبابات حطمت يوم امس...

كان صوته ما يزال يجاهد، حسب الأصول العسكرية، ليكتسب قوة متساوقة خالية من العاطفة، وفي لهجته وفي نظراته جدية كئيبة غير صبوية، دون ظل للتهيب أمام الجنرال، وكأن هذا الفتى، آمر الفصيلة قد اجتاز بثمن حياته شيئاً ما، والآن كان هذا الشاهد، هذا الشيء الذي قد فهمه، يطل من عينيه جافا، وجمد فيها ولم يهرق. وأراد بيسونوف، وهو يحس بتقلّص ونخز في حنجرته بسبب صوت ونظرة الملازم، والتعبير المتشابه والمعاد تقريباً على الوجوه الخشنة الرمادية المحمرة لرجال المدفعية الثلاثة الذين كانوا واقفين بين مسندي المدفع وراء آمر فصيلتهم، أراد أن يسأل عما إذا كان آمر البطارية حي، وأين هو، ومن منهم جلب رجل الاستطلاع والألماني الأسير. إلا أنه لم يسأل. لم يستطع... كانت الريح اللاذعة تهب على موقع الرماية ضارية تطوي الياقة وأذيال فروته، وتعصر الدموع من جفنيه الملتهبين. ودون أن يمسح دموع الامتنان المريرة اللاذعة هذه، وقد زايله الخجل من انتباه امراء الوحدات الملتفين حوله وقد ران عليهم السكون، التفت إلى بوجيتشكو متكئا على عصاه ثقيلا. وبعد أن سلّم هؤلاء الأربعة أوسمة الراية الحمراء نيابة عن السلطة العليا التي منحته الحق العظيم الخطير في القيادة وتقرير مصير عشرات الآلاف من الناس، أجبر نفسه على أن يقول:

ــ كل ما أستطيع شخصياً... كل ما أستطيعه... شكراً!... شكرا على الدبابات التي أصبتموها. وأن تحطيم دباباتهم كان الشيء الأهم... الشيء الأهم....

وارتدى قفازة وسار مسرعا في خندق الاتصال باتجاه الجسر.

ولزم كوزنيتسوف الصمت، ضاغطا على علبة النيشان بأصابع متجمدة، وهو ما يزال على عبوسه واندهاشه من نداوة الدموع على جفني قائد الجيش، من الشيء الجديد الذي لم يكن يتوقعه من الجنرال يوم أمس في المحطة، وبعد ذلك صباحا في البطارية، وهو الذي علق بذاكرته لحدة انتباهه وصوته الصارف البارد.

وفي أثناء ذلك كان رئيس الرقباء سكوريك، والملازم درزدوفسكي قد ظهرا على مرتفع الشاطىء، وحين لاحظا القيادة من هناك على مقربة من المدفع جرياً إلى البطارية.

وقبل أن يصل رئيس الرقباء سكوريك إلى الموقع، استدار عن المدفع، لسبب ما، وأخذ يصعد المرتفع إلى المطبخ، بينما ركض درزدوفسكي إلى جماعة أمراء الوحدات التي كانت قد ابتعدت زهاء مائة متر على الشاطىء. وقف درزدوفسكي أمام بيسونوف بهيئة استعداد في معطفه المزرر تماما، المشدود بالحمالة، مقدودا كالوتر، مضمد الرقبة شاحبا مبيضا، ورفع يده إلى صدغه بالتحية بحركة استعراضية متقنة. و لم يكن مسموعا ما قاله في التبليغ. ولكن كان يرى من موقع الرماية الجنرال وهو يعانقه، ويقدم له علبة قدمها له المرافق مثل التي قدمت للأربعة عند المدفع، وللاثنين في الخندق.

قال أوخانوف، وهو يجلس على المسند مبتسما ابتسامة لا ضغن فيها:

ـــ قدموا للجميع بالتساوي.

إلا أن روبين نطق بلعنات كثيرة حاذقة لأن أوخانوف غمزه بطمع. فرد عليه أوخانوف:

ـــ لم أتوقع منك ذلك أيها السائق. ما هو السبب في ذلك؟

ــ نابع من القلب، يا رقيب! ضاق صدري... قال أوخانوف:

ــ اذن، يا اخوان. لنغسل النياشين بالفودكا، حسب الأصول. نخب انتصار جيشنا على الفاشيين! نخب الجزاء الذي يستحقونه! انتهى الآن! أليس كذلك يا ملازم؟ كيف حالك؟ اجلس معي. هات القصعة، يا روبين! حسنا، يا ملازم... كل شيء ينسى. أمرنا بأن نعيش.

سأل كوزنيتسوف بخفوت، وأربد وجهه:

ــ يُنسى؟

وقال نيتشايف، وهو يمسد شاربيه الصغيرين، ويديم النظر في الربوة.

ــ ليس الأمر على ما يرام مع آمر بطاريتنا. انه يسير كالأعمى...

ابتعد الجنرال والأمراء المرافقون له عن البطارية إلى الجسر، بينما سار درزدوفسكي عبر مرتفع الشاطىء إلى المنخفض، إلى الدرجات المؤدية إلى مخبأ الجرحى، وهو الآن لا يشبه درزدوفسكي المعهود المقدود، المنتصب كنصل من العشب، الذي تحمَّل، على ما يبدو، جهداً هائلاً ليركض نحو الجنرال، ويؤدي له التحية بخفته السابقة، ويقدم تبليغه. كان يمشي الآن مشية محطمة مفككة خائرة، مطرق الرأس، مطوي الكتفين، ولم يرفع بصره مرة باتجاه المدفع، وكأنما لم يكن حوله أحد من الناس.

قال أوخانوف:

ــ شيء ما حصل له بالفعل بعد وفاة زويا... حسنا. هذا يكفي، دعونا لا نتذكر. لنغسل النياشين، يا اخوان. هكذا، على الأغلب.

ووضع القصعة وسط المشمع، وصب الفودكا من الترمس إلى نصفها، وفتح علبة النيشان، وأمسك النيشان باصبعيه، كقطعة من السكر، وألقاه في قعر القصعة، ثم فعل الشيء ذاته بنياشين روبين، ونيتشايف، وكوزنيتسوف على التوالي.

وأخذ الجميع يحتسون الفودكا بالتتابع. وكان كوزنيتسوف آخر من تناول القصعة. وخلال ذلك كان درزدوفسكي ينزل الدرجات مترنحا بوهن كالسكران، و لم تكن قامته النحيلة المحنية على نحو غير معتاد ترى على الربوة. وكانت الريح تهب من مجرى النهر، فإذا بكوزنيتسوف يسمع هسهسة إلى الخلف شبيهة بهسهسة ذرات الثلج على المشمع في أعماق المشكاة، حين وضعوا جثمان زويا هناك. وارتجت القصعة في يدي كوزنيتسوف، ورنت النياشين في القعر مثل قطع من الثلج. نظر بعينين متسائلتين، وهو يواصل شربه، إلى الخلف، إلى محفظة الاسعاف المبيضة من تناثر الثلج عليها بفعل الريح الأرضية، وغص، وأحس باختناق أنفاسه. ألقى القصعة، ونهض، وسار في خندق الاتصال مبتعداً عن المدفع، ممسدا حنجرته.

هتف أوخانوف من الخلف:

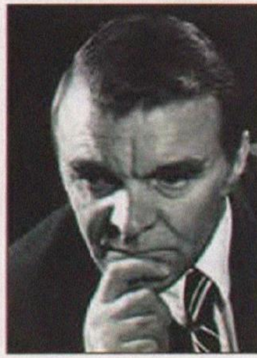
ــ ماذا بك، يا ملازم؟ إلى أين يا ملازم؟

أجابه همساً:

ــ لا شيء. سأعود حالاً... فقط أن أتجول في البطارية.

مرّت أسراب من طائرات الهجوم فوق رأسه، مرسلة هديراً واطئاً، منخفضة وراء القرية. ولمعت سطوحها لمعانا ورديا، وقد انعكس في أسفلها حريق الشروق البارد، واستدارت في الأفق، وانقضت على أهداف غير مرئية، ممزقة الهواء الصباحي بصليات جافة. وإلى الأمام، وراء سطوح القرية المشتعلة كانت السماء تمور بدخان أسود عريض فيه التماعات قرمزية، ممتد إلى الغرب، حيث كان يتلاشى هلال شفاف محاق في فراغ السماء.

الفهرس



Yuri Bondarev

يوري بونداريف

كاتب روسي ولد سنة ١٩٢٤. شارك في الحرب العالمية وكان ضابط مدفعية، انتسب للحزب الشيوعي سنة ١٩٤٤، تخرّج من معهد غورغي مكسيم للآداب عام ١٩٥١. نشرت له أول مجموعة قصص بعنوان على نهر كبير في عام ١٩٥٣.

من بين الجوائز والأوسمة العديدة التي نالها نذكر:

وسام لينين مرتين.

ووسام الشجاعة مرتين.

وسام ألكسندر ناديف للأدب العسكري.

جائزة الدولة الروسية عن سيناريو "الثلج الحار".

جائزة ليو تولستوي للآداب.

جائزة ميخائيل شولوخوف للآداب.

في عام ١٩٩٤ رفض وسام "الصداقة بين الشعوب" من بوريس يلتسين



الثلج الحار

الرواية التي وضعت مؤلفها في مرتبة قائد أدب الحرب دون منازع. وهي أفضل ما كتب عن أدب الحرب.

ISBN 284306225-X